مجموعة الدكتور أسد رستم
٢١

كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى

للدكتور اسد رستم
مؤرخ الكرسي الانطاكي



الجزء الثاني

٦٣٤ - ١٤٥٣م

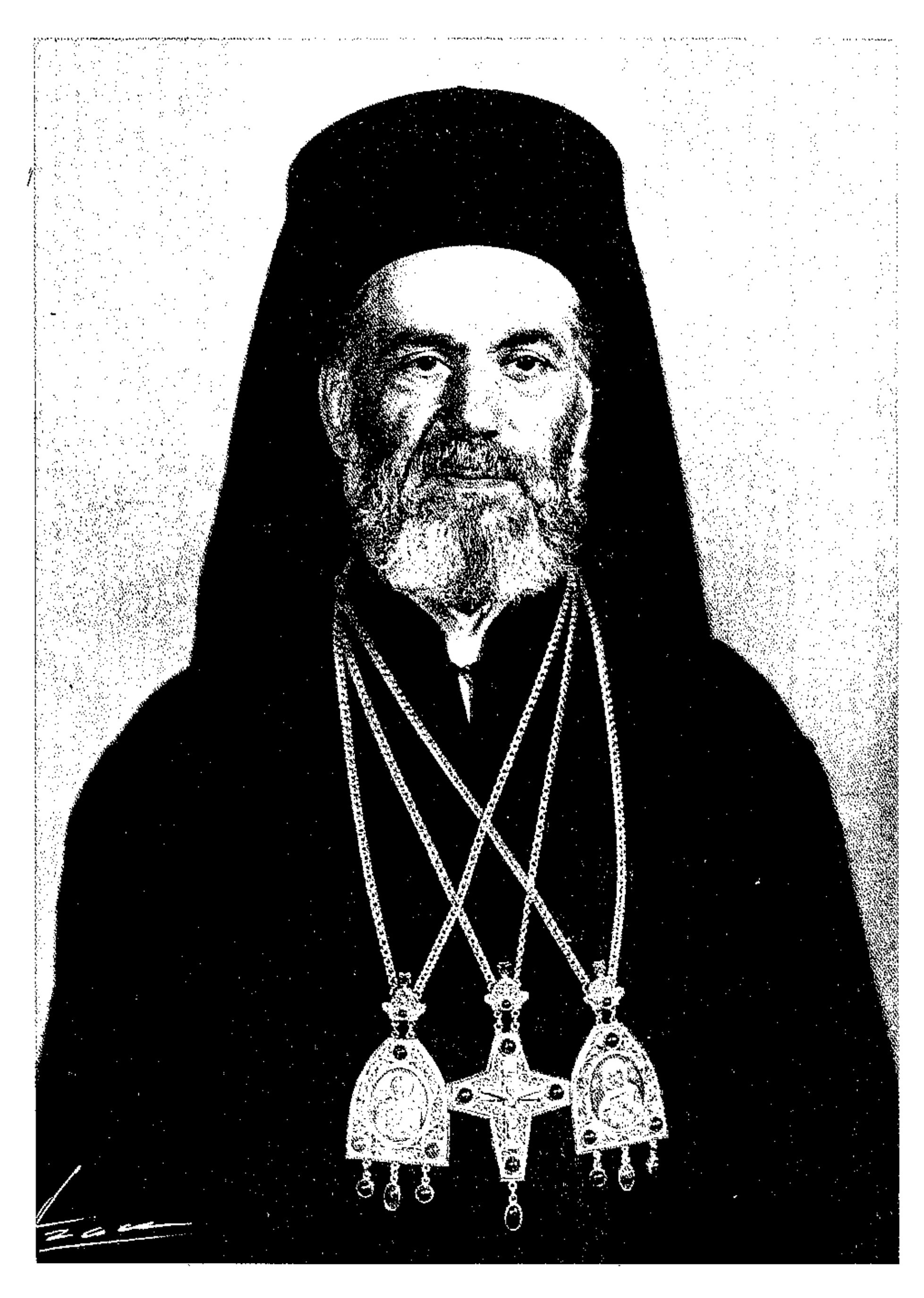
منشورات المكتبة البولسية

طبعة ١٩٨٨

*

*

منشورات المكتبة البولسية
شارع لبنان - بيروت - ص.ب: ٤٤٥٩-١١ لبنان
هاتف: ٤٤٤٩٧٣ - ٤٤٨٨٠٦ - ٤٤٩٨٠١
شارع القديس بولس - جونيه - ص.ب: ١٢٥ لبنان
هاتف: ٩١١٥٦١ - ٩٣٣٠٥٢



صاحب الغبطة البطريرك أغناطيوس الرابع بطريرك انطاكية وسائر المشرق

محتويات

الجزء الثاني

الباب الثالث:

النصرانيّة والإسلام

الباب الثالث

النصرانية والإسلام

٦٣٤ ـ ١٤٥٣

الفصل التاسع والعشرون

محمد والاسلام والنصارى

٦١٠ - ٦٣٢

انتشار النصرانية في قلب الجزيرة : بحثنا في الفصل السادس والعشرين في انتشار النصرانية في بادية الشام شرقاً وغرباً . وآثرنا ان نرجيء الكلام في انتشارها في قلب الجزيرة نفسها الى ان يتسنى لنا البحث في ظهور الاسلام في مكة والمدينة وذيوعه شمالا وشرقاً .

ويستدل من أقدم المراجع العربية الاسلامية ان افراداً وجماعات من قبائل هُذَيم وعُذْرَة وجُذام وجُهينة وبلي وبَهرا وطيّ وحنيفة دخلوا في النصرانية قبل الاسلام وان بعض هؤلاء لم يُسلم الا بعد وفاة النبي (١) . وأقرب هذه القبائل للمدينة بنو هُذيم وكانوا فقراء ضعفاء . اما بنو عُذرة فانهم نزلوا وادي إضم في شمالي الحجاز وعرفوا برقة عواطفهم وطهارة عشقهم . وقد جاء في كتاب الطبقات لابن سعد ان امهات بعض الانصار كنّ من بني عذرة (٢) . وكانت منازل جهينة بين المدينة والعقبة وفي سيناء حتى الفرما . وجاءت منازل بلي بين المدينة وتبوك (٣) . ومن نصارى قضاعة بهرا وكانت منازلهم بين بلي وبين مشارف الشام. وتاخمت لخم حدود الشام. اما منازل بني طي وبني حنيفة فانها كانت في قلب الجزيرة والى شرق المدينة (٤) .

والأنصار في القرآن هم نصراء النبي: « والسابقون الاولون من المهاجرين

١) عشية الاسلام للاب هنري لامنس ص ٢٥٧ و٢٦٤
٢) الطباقات ج ٣ ص ١١١ و ج ٨ ص ٢٧١
٣) الهمذاني ص ١٣٠
4) *Watt, W. M., Muhammad at Medina, (Oxford, 1956), 87 - 117.*

والانصار الذين اتبعوهم » (١) . والانصار في القرآن ايضاً هم الرسل أصحاب عيسى استنصر بهم من اليهود : « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله امنّا بالله وأشهد بأنا مسلمون » (٢) .

وقال ابن اسحق : « وكان من بعث عيسى بن مريم من الحواريين والاتباع الذين كانوا بعدهم في الارض بطرس الحواري ومعه بولس ، وكان بولس من الاتباع ولم يكن من الحواريين ، الى رومية ، واندرائس ومنتا الى الارض التي يأكل اهلها الناس ، وتوماس الى ارض بابـل من ارض الشرق وفيليس الى قرطاجة وهي افريقية ، ويُحنّس الى افسوس قرية الفتية أصحاب الكهف ، ويعقوبس الى اورشليم وهي ايلياء قرية بيت المقدس ، وابن ثلماء الى الاعرابية وهي أرض الحجاز ، وسيمُن الى أرض البربر ، ويهودا ولم يكن من الحواريين جعل مكان يودس » (٣) .

وهكذا فيكون النصارى عند العرب آنئـذ هم انصار عيسى وأنصار أنصاره ويكون احدهم نصراني . ومن هنا الاية : « ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انّا نصارى » وتكون النصرانية بالتـالي دين النصارى .

وتمر العصور ويبقى حسُّ هذا العهد مسموعاً في ما تبقى من أدب. فهذا حنظلة الطائي يفارق قومه وينسك ويبني ديراً بالقرب من ضفة الفرات . وفيـه يترهب حتى يموت . وذاك قُسُّ ابن ساعدة يتقفّر القفار ولا تكنّه دار يتحسّى بعض الطعام ويأنس بالوحوش والهوام . وينظم بعضهم الشعر فيزهّد في الدنيا ويدعو الى النظر في الكون والاعتبار بحوادثه (٤) .

وصول النصرانية الى مكة : وليس لنا ان نقول مع صديقنا المرحوم الاب لويس شيخو ان النصرانية توطدت في مكة وان الدليل على ذلك ان الكعبة

---

١) سورة التوبة ٩٩

٢) سورة آل عمران ٥١

٣) السيرة لابن هشام طبعة محيي الدين عبد الحميد ج ٤ ص ٢٨٠

٤) فجر الاسلام لاحمد امين ص ٢٧

خضعت لاسقف عليها . فالازرقي قال ان الكعبة كانت مكشوفة لا « سَقفَ » عليها ولم يقل انها كانت « لأسقف » عليها !

ولكن لا يختلف اثنان فيما نعلم في وصول النصارى من الاحباش الى مكة واقامتهم فيها لاغراض يقضونها . واذا كان هؤلاء من « طبقة العبيد » وكانت منازلهم بعيدة عن الكعبة متاخمة للصحراء وكان ما يتحدثون به من قصص دينية لا يتصل بسمع امجاد قريش واشراف أهل البلد الحرام فماذا نقول بأمية ابن ابي الصلت الذي كان ينظر في الكتب ويقرأها ويلبس المسوح تعبداً وبورقة ابن نوفل الذي عرف الانجيل ونقل بعضه الى العربية (١) ! وماذا نقول في القريشيين الاربعة ورقة ابن نوفل وعبيدالله ابن جحش وعثمان ابن الحويرث وزيد ابن نفيل الذين « خلصوا نجيّـا » (٢) فقال بعضهم لبعض تعلموا والله ما قومكم على شيء لقد اخطئوا دين ابيهم ابراهيم مـا حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع » ! فاما ورقة ابن نوفل فاستحكم في النصرانية واتبع الكتب من اهلها حتى علم علماً من اهل الكتاب . واما ابن جحش فانه هاجر مع المسلمين الى الحبشة ثم تنصر ومات نصرانياً . وكذلك ابن الحويرث فانه لجأ الى قيصر وتنصر . وابن نُفَيْل لم يدخل في يهودية ولا نصرانية ولكنه فارق دين قومه واعتزل الاوثان (٣) .

ومن اخبار النصرانية والنصارى في مكة قبل ظهور الاسلام فيهـا ان حليمة السعدية ام النبي بالرضاعـة عادت بالنبي الى مكة فرآه نفر من الحبشة نصارى فنظروا اليه وسألوهـا عنه وقلّبوه وارادوا ان يأخذوه الى ملكهم في الحبشة . وأضل محمد الولد امه في الرضاعة فوجده ورقة ابن نوفل وأتى به عبد المطلب وقال له هذا ابنك وجدته بأعلى مكة (٤) .

---

١) أسد الغابة لابن الاثير ج ٥ ص ٨٨ والاصابة لابن حجر ج ٦ ص ٣١٧ والاغاني للاصفهاني ج ٣ ص ١٤ — ١٥ .

٢) الجماعة يتحدثون سراً يتمون حديثهم عن غيرهم . وهو لفظ يستوي فيـه الواحد والاثنان والجماعة : « فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا » .

٣) السيرة لابن هشام طبعة محيي الدين عبد الحميد ج ١ ص ٢٤٢ — ٢٤٤ .

٤) السيرة لابن هشام ايضاً ج ١ ص ١٧٨ — ١٧٩ والطبعة نفسها .

الراهب بحيرة : وأحب ابو طالب محمداً حتى كان يقدمه على ابنائــه . وأراد أن يخرج يوماً في تجارة له الى الشام . وكان محمد لا يزال في الثانية عشرة. فأبدى رغبة في مصاحبة عمه . فصحب الغلام القافلة . ووصل الركب الى بصرى فنزل بالقرب من صومعة "بحيرة" الراهب . فرأى بحيرة محمداً « وغمامة تظله » . فأرسل الى الركب يقول : اني قد صنعت لكم طعامــاً فاحضروا كلكم كبيركم وصغيركم . فاجتمعوا اليه وتخلف محمد لحداثة سنه . فأصر الراهب على حضوره فحضر : فجعل بحيرة يلحظه لحظاً شديداً وينظر الى اشياء من جسده حتى اذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام اليه بحيرة وسأله عن أشياء من حاله . فأخبره الرسول فوافق كلامه ما كان عند الراهب من صفاته . ثم نظر الراهب الى ظهر الرسول فرأى خاتم النبوة بين كتفيه : وكان مثل أثر المحجم . فلما فرغ أقبل على عمه ابي طالب وقال : « ارجع بابن اخيك الى بلدك واحذر عليــه من اليهود . فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغُنَّه شراً » (١) .

خطباء النصارى : ولم يفد ابو طالب مالا كثيراً من رحلتــه الى الشام فأقام في مكة . وأقام محمد معه قانعاً بنصيبــه . فاذا جاءت الاشهر الحرم ظل بمكة مع اهله او خرج واياهم الى الاسواق المجــاورة بعكاظ ومجنة وذي المجاز يستمع لانشاد اصحاب المذهبات والمعلقات ويصغي الى خطب الخطباء ومن بينهم اليهود والنصارى الذين كانوا يأخذون على اخوانهم العرب وثنيتهم ويحدثونهم عن الانجيل والتوراة ويدعونهم الى الحق . وكان محمد يزن ذلك بميزان قلبه فيراه خيراً من هذه الوثنية التي غرق فيها أهله (٢) .

الراهب نسطور : ورعى الغنم غنم اهله وغنم أهل مكة . وذكر ذلك مغتبطاً. وأحب عمه ابوطالب ان يجد له سبباً للرزق أوسع. فبلغه ان خديجة المثرية تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم . واذ علم أنها تجهز لخروج تجارتها الى الشام نادى اليه ابن اخيه محمداً ، وكان يومئذ في الخامسة والعشرين من

١) المصدر نفسه ايضاً جـ ١ ص ١٩٤ ــ ١٩٧

٢) حياة محمد لمحمد حسين هيكل ص ٧٧

سنه ، وأخبره بما كان من أمر خديجة ، وسأله ما اذا كان يكلمها فقال محمد « ما أحببت » . ووافقت خديجة على استخدام محمد . فخرج مع ميسرة غلامها. وانطلقت القافلــة في طريق الصحراء الى الشام مارة بوادي القرى ومدين وديار ثمود . فلما بلغت بصرى اتصل محمد بنصارى الشام وتحدث الى رهبانها . وتحدث اليه الراهب نسطور وسمع منه . ولعله جادله (١) .

محمد وأول الوحي : وتزوج محمد من خديجة ابنة عم ورقــة ابن نوفل وتيسر له التفكير والتأمل . وكان يلجأ في شهر رمضان الى غار حراء للتأمــل والعبادة . وفيما هو نائم في الغار جاء ملاك وفي يــده صحيفة وقال اقرأ . فقال محمد ماذا أقرأ . فقال الملاك : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم ، علّم الانسان ما لم يعلم » .

وتنبّه محمد فزعاً ودخل على خديجه وقال زمّلوني . فزملته وهو يرتعد كأن به الحمى . فلما ذهب عنه الروع نظر الى خديجة وحدثها بالذي رأى . فانطلقت الى ابن عمهــا ورقة ابن نوفل وأخبرته بما رأى محمد . فأطرق ورقة ، وكان نصرانياً كما أوضحنا، ثم قال : « قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى . وانه لنبي هذه الأمة . فقولي له فليثبت » (٢) .

وخرج محمد للطواف بالكعبة . فلقيه ورقة . فلما أخبره محمد بما رأى قال ورقة : « والذي نفسي بيده انك لنبي هذه الامة . ولقــد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى . ولتكذَّبنّ ولتؤذَيَنّ ولتخرجَنّ ولتقاتلَنّ . ولئن أنا أدركت ذلك اليــوم لانصرنّ الله نصراً يعلمه . ثم أدنى رأسه منه فقبّل يافوخه » (٣) .

١) المصدر نفسه ص ٨٣

راجع في موقف المستشرقين من بحيرة ونسطور: *Andrae, T., Mahomet: sa Vie et sa Doctrine, Trad., Gaudefroy - Demombynes, (Paris, 1945), 35 - 39; Blachère, R., Le Problème de Mahomet, (Paris, 1952), 30 - 31.*

٢) السيرة لابن هشام الطبعة نفسها جـ ١ ص ٢٥٦

٣) المصدر نفسه .

النجاشي مسيحي لا يُظلم عنده أحد : ونزلت سورة الضحى . وعلّم الله محمداً الصلاة وصلت خديجة معه وأسلم علي ابن ابي طالب وابو بكر وعثمان ابن عفان وعبد الرحمن ابن عوف وطلحة وسعد والزبير . وتحدث الناس عن محمد وظنوا ان حديثه لن يزيد على حديث الرهبان والحكماء أمثال قُس وأمية وورقة وان الناس عائدون لا محالة الى دين آبائهم . وبعد ثلاث سنين أنذر النبي عشيرته وقال انه النذير المبين فأعرضوا عنه وانصرفوا مستهزئين . ثم انتقل محمد الى اهل مكة جميعاً وصعد على الصفا ونادى . فنهض ابو لهب وقال : تباً لك . فجاءت الآية تبّت يدا ابي لهب ! فحارب أشراف قريش محمداً بالحط من شأنه وبتكذيبه فيما جاء به . فبادأهم محمد بذكر الهتهم وعابهــا فعظم ذلك عليهم وحزّ في صدورهم . ومضى محمد في دعوته ومضت قريش في ائتمارها . فاعتصم محمد بقومه . ووثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين الوضعاء يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم . ثم حاول عُتبة ابن ربيعة ان يفاوض محمداً وان يعرض عليه اموراً لعله يكف . وعرض عليه مالا وزعامة فتلا محمد سورة السجدة ! فزاد ما كان ينزل بالمسلمين من الأذى وبلغ منهم القتل .

فأشار محمد على جمهور المسلمين أن يتفرقوا في الأرض . فسألوه أين نذهب فنصح اليهم أن يذهبوا الى بلاد الحبشة المسيحية لأن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد وهي أرض صدق ! وخرج المسلمون الى الحبشة المسيحية في هجرتين. ونقل جعفر ابن ابي طالب الى النجاشي بعض ما جاء في سورة مريم : « فأشارت اليه قال كيف نكلم من كان في المهد صبياً . قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً . وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً . والسلام عليّ يوم وُلدتُ ويوم أموتُ ويوم أبعث حياً » (١) .

جبر النصراني : وفي اثناء الهجرة الى الحبشة أسلم عمر ابن الخطاب فظن المسلمون في الحبشة ان قريشاً رجعت عن أذاها فعادوا الى مكة . فعادت قريش

١) السيرة لابن هشام جـ ١ ص ٣٤٣ ــ ٣٦٤

الى الأذى فعاد المهاجرون مرة ثانية الى الحبشة . وهددت قريش محمداً وهددت أهله وتهكمت به وسخرت منه .

وكان محمد يكثر من الجلوس عند المروّة الى مبيعة غلام نصراني يقال له جبر عبد لابن الحضرمي . وكانوا يقولون : والله ما يُعلّم محمداً كثيراً مما يأتي به الا جبر النصراني غلام ابن الحضرمي . فجاءت الآية : « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر . لسان الذين يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » (١) .

عدّاس النصراني : وفرّ المسلمون من مكة الى شعاب الجبل وحصروا فيها . ثم مات ابو طالب وماتت خديجة . وازداد اذى قريش فخرج محمد الى الطائف وحيداً منفرداً واحتمى الى حائط لعُتبة وشيبة ابني ربيعة . وجلس الى ظل شجرة من عنب وابنا ربيعة ينظران اليه . فلما اطمأن رفــع رأسه الى السماء ضارعاً وقال : « اللهم اليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس . يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي الى متى تكلني » .

فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمتها فدعوا غلاماً لها نصرانياً يقال له عدّاس وقالا له : خذ قطفاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به الى ذلك الرجل. ففعل عداس وقال كلْ. فلما وضع الرسول يده فيه قال باسم الله ثم أكل . فقال عداس : والله ان هذا الكلام ما يقوله اهل هذه البلاد . فقال محمد: ومن أهل اي البلاد أنت وما دينك . قال نصراني وأنا رجل من أهل نينوي . فقال له محمد : من قرية الرجل الصالح يونس ابن متى . فقال عداس وما يدريك ما يونس ابن متى. فقال محمد : ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي . فقبّل عداس رأسه ويديه وقدميه . فقال ابنا ربيعة ويلك يا عداس ما لك تقبل . فقال لقد اخبرني بأمر ما يعلمه الا نبي . فقالا ويحك ! لا يصرفنك عن دينك فان دينك خير من دينه (٢) .

ابراهيم وموسى وعيسى : ثم عرض محمد نفسه على القبائل في اثناء المواسم

١) المصدر نفسه جـ ١ ص ٤٢٠ . سورة النحل ١٠٣
٢) السيرة لابن هشام جـ ٢ ص ٢٨ ــ ٣١

ولكن عمه عبد العزى ابن عبد المطلب كان يتبعه ويحرّض الناس على الا يستمعوا له . وقصد كندة في منازلها وذهب الى بني كلب في منازلهم وأتى بني جنيفة وبني عامر فردوه جميعاً رداً غير جميل .

وفي هذه الفترة اي حوالي السنة ٦٢١ بعد الميلاد كان الاسراء والمعراج . وأطل جبريل وفي يده دابة عجيبة هي البُراق لها اجنحة كأجنحة النسر انحنت امام الرسول فاعتلاها وانطلقت به انطلاق السهم فوق جبال مكة ورمال الصحراء متجهة الى الشمال . فوقف الملاك به عند جبل سينـاء حيث كلّم الله موسى . ثم وقف به في بيت لحم حيث ولد عيسى . ثم انطلق بعـد ذلك في الهواء فبلغ بيت المقدس . فقيّد محمد دابته وصلى على اطلال هيكل سليمان ومعـه « ابراهيم وموسى وعيسى » . ثم أتيَ بالمعراج فارتكز على صخرة يعقوب وعليه صعد محمد سراعاً الى السموات (١) .

ونقل الزهري عن سعيد ابن المسيّب ان محمداً وصف لاصحابه ابراهيم وموسى وعيسى حين رآهم في تلك الليـلة فقال : «اما ابراهيم فلم أر رجلا أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم اشبه به منه . واما موسى فرجل ادم طويل ضرب جعد أقنى كأنه من رجـال شنوءة . واما عيسى ابن مريم فرجل أحمر بين القصير والطويل سبط الشعر كثير خيلان الوجه كـأنه خرج من ديماس تخال رأسه يقطر ماء وليس به ماء أشبه رجالكم به عروة ابن مسعود الثقفي » (٢) .

الهجرة الى المدينة : (٦٢٢) وقبل الدعوة عدد من أهل يثرب وازدادوا ولم يجدوا فيها من اذى اليهود والمشركين عبدة الاوثان ما وجده اخوانهم في مكة من اذى قريش . والعيش في يثرب آنئذ أرخى منه في مكة . وما أحب محمد ان يرد على قريش اساءتها لانه كان لا يزال أضعف منها وقد لا ينصره أهله عليها . وكانت دعوته لا تزال ترتكز الى الرفق والاقناع والجدل بالتي هي أحسن . فأمر

١) حياة محمد لمحمد حسين هيكل ص ١٥٣ — ١٦١

٢) السيرة لابن هشام ج ٢ ص ٧ . والخيلان بكسر الخاء جمع خال وهو هنا شامة سوداء . والديماس هو الحمام .

اصحابه ان يلحقوا بالانصار في يثرب . وبدأوا يهـاجرون ففطنت قريش للامر فاعترضت السبيل ومانعت وعذّبت ونكّلت . وحسبت لهجرة النبي نفسه الف حساب وخشيت أن تؤدي الهجرة الى قطع طريق الشام او الى الاجاعـة . واجتمعت قريش في دار الندوة وتشاورت على قتل محمد . وعلم محمد بما بيتت قريش فظل في مكة حتى لم يبق من المسلمين بها الا القليل . وفي ليلة الهجرة أسرّ الى علي ابن ابي طالب ان يتسجى بُرده الاخضر وان ينام في فراشه وان يبقى بعده في مكة حتى يوزع الودائع التي كانت عنده للناس .

وأخبر محمد أبا بكر بأن الله اذن لـه في الهجرة . فطلب الصديق ان يصحبه فأجابه الى ذلك . فانطلقا الى غار ثور أولا واقاما به . وفي اليوم الثالث امتطى كل منهما بعيره وأخذا طريقاً غير الذي ألِف الناس .

وترامت أخبار هـذه الهجرة الى يثرب . وبينما كان مسلموها ينتظرون يوماً كعادتهم صاح بهم يهودي : « هذا صاحبكم قـد جاء » ! وخرجت يثرب لاستقباله رجالا ونساء مؤمنين ويهوداً ومشركين .

اليهود أمة مع المؤمنين : ودخل محمد في دور جديـد من رسالته . واضطر ان يعالج مشا كل جديدة لم تظهر من قبل . نراه في اوائل عهده في المدينة منهمكاً في تنظيم العلاقات بين المهاجرين والانصار وفي علاقة هؤلاء جميعاً باليهود والمشركين . ويتضح من نص « الصحيفة » الواردة في تاريخ ابن هشام عن ابن اسحق التي اعتاد المستشرقون المستعربون أن يسموها « دستور المدينة » ان النبي اعتبر المؤمنين « امة واحدة » وانه اعتبر اليهود ايضاً « امة مع المؤمنين » . وان « للمسلمين دينهم ولليهود دينهم » وان يثرب حرام جوفها لاهل هذه الصحيفة وان الجار كالنفس وان قريشاً لا تُجار ُولا تناصر (١) .

مخاوف يهود المدينة : وأقبل اليثربيون على الاسلام وازداد المسلمون شوكة وقوة . فخشي اليهود ان تمتد الدعوة الى صفوفهم وان تفشو في عامتهم .

١) السيرة لابن هشام ج ٢ ص ١١٩ — ١٢٣ . وقد بحث هذه الوثيقة عدد من المستشرقين اهمهم :
Wellhausen, J., Skizzen, IV, 65 - 83 ; Wensinck, A. J., Mohammed en de Joden, 74 - 81 ; Caetani, L., Annali dell Islam, I, 391 - 408.

وأسلم عبدالله ابن سلاّم أحد كبار أحبارهم فازدادوا خوفاً وغيظاً واجمعوا على ان يكيدوا لمحمد .

محمد ويهود المدينة : وبدأ اليهود بالجدل واستعانوا بالدسيسة والنفاق فنزل صدر سورة البقرة وما يزيد على ثلثها ونزل قسم كبير من سورة النساء وفيها تأنيب لليهود على ما أنكروا من كتابهم : « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفّينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون . وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون . ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدقاً لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به . فلعنة الله على الكافرين » (١) .

ثم حاول اليهود فتنة محمد نفسه فذهبوا اليه وقالوا : « انك قد عرفت أمرنا ومنزلتنا وإنا وان اتبعناك أتبعك اليهود ولم يخالفونا وان بيننا وبين بعض قومنا خصومة فنحتكم اليك فتقضي لنا فنتبعك ونؤمن بك» (٢). فجاءت الآية : « وان أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك » (٣). ثم حاولوا اقناعه بالجلاء عن المدينة فذكروا له ان الرسل اتخذوا من بيت المقدس مقاماً لهم وانه يجدر به ان يعتبر المدينة وسطاً في هجرته بين مكة ومدينة المسجد الاقصى . فرد محمد على هذا بأن جعل قبلتـه الى المسجد الحرام « بيت ابراهيم واسماعيل » . فأنكر اليهود عليه هذا التغيير وقالوا انهم يتبعونه اذا هو رجع الى ما كان عليه من قبل الى جعل قبلته الى المسجد الاقصى . وجاءت الآية: «قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم» (٤).

وجاء سلاّم ابن مُشكِم ونُعمان ابن أوفى ومحمود ابن دحية وشاس ابن قيس ومالك ابن الضيف فقالوا للنبي : كيف نتبعك وقـد تركت قبلتنا وأنت لا

١) سورة البقرة ٨٦ – ٩٠
٢) السيرة لابن هشام جـ ٢ ص ١٩٦ – ١٩٧
٣) سورة المائدة ٤٨
٤) سورة البقرة ١٤١

تزعم ان عُزيراً ابن الله . فانزل الله في ذلك من قولهم : « وقالت اليهود عُزيرٌ ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بافواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنّى يؤفكون » (١) .

محمد ونصارى نجران: ووفد على محمد في إبان هذا الجدل العنيف ستون راكباً من نصارى نجران بينهم العاقب وهو اميرهم واسمه عبد المسيح والسيد وهو ثمالهم واسمه الأيهم وابو حارثة بن علقمة احد بني بكر ابن وائل وهو اسقفهم وحبرهم وامامهم وصاحب مدراسهم . وكان قـد شرُف فيهم ودرس كتبهم فشرفه ملوك الروم وموّلوه وبنوا له الكنائس . فلما وصلوا المدينة دخلوا على النبي في مسجده حين صلى صلاة العصر . وحانت صلاتهم فقاموا في هذا المسجد نفسه يصلون . فقال الرسول « دعوهم » . فصلوا الى المشرق . ثم كلموا الرسول . فلما كلمه الحبران قال لهما أسلما قالا قد أسلمنا قال انكما لم تسلما قالا بل قد اسلمنا قبلك قال كذبتما يمنعكما من الاسلام دعاؤكما لله ولداً وعبادتكما الصليب وأ كلكما الخنزير . قالا فمن أبوه يا محمد . فصمت عنهما ولم يجبهما . فنزل صدر سورة آل عمران الى بضع وثمانين آية (٢) :

« الله لا اله الا هو الحي القيّوم.... اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين . قالت ربي أنّى يكون لي ولدٌ ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون . ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل.... ان مَثَلَ عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فـلا تكن من الممترين . فمن حاجّك فيـه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله عـلى الكاذبين ... ما كان لبشر أن يؤتيـه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس

١) السيرة لابن هشام جـ ٢ ص ٢٠٠ وسورة التوبة ٢٩
٢) السيرة لابن هشام جـ ٢ ص ٢٠٤ – ٢١٢

كونوا عباداً لي من دون الله ... ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً. أيأمركم بالكفر بعد اذ انتم مسلمون » .

سلمان الفارسي : وكان محمد قد وجد في يثرب بين أرقاء اليهود رجلا فارسياً نصرانياً ذكي الفؤاد كثير الخبرة واسع الاطلاع دقيق التصرف فأحبه وعاونه على عتق نفسه ثم جعله من صحبه وأخصائه . وهو سلمان الفارسي ذاك الذي قال عنه النبي فيما بعد : « سلمان منا أهل البيت » (١) .

وقال ابن اسحق ان سلمان الفارسي قال : « كنت رجلا فارسياً من أهل أصبهان وكان ابي دهقان قريته . وأمرني يوماً بالذهاب الى ضيعته لقضاء بعض ما أراد . فخرجت اريد ضيعته . فمررت بكنيسة من كنائس النصارى . فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون . فدخلت فأعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم وقلت هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه . ثم قلت لهم أين اصل هذا الدين قالوا بالشام . فرجعت الى ابي فقال ليس في ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه . فقلت له كلا انه لخير من ديننا . فجعل في رجلي قيداً ثم حبسني في بيته . وبعثت الى النصارى فقلت لهم : اذا قدم عليكم ركب من الشام فاخبروني بهم . فقدم عليهم ركب من تجار النصارى فخرجت معهم حتى قدمت الشام . فلما قدمتها قلت : من أفضل أهل هذا الدين علماً . قالوا الاسقف في الكنيسة . فجئته وقلت له اني قد رغبت في هذا الدين فأحببت ان أكون معك . وأخدمك فأتعلم منك واصلي معك . قال ادخل فدخلت معه . وكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها فاذا جمعوا اليه شيئاً منها اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق . فأبغضته بغضاً شديداً . ثم مات فاجتمعت اليه النصارى ليدفنوه فأريتهم موضع الكنز . وجاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه . وما رأيت رجلا لا يصلي الخمس أفضل منه وأزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة

١) الطبقات لابن سعد ج ٤ ص ٥٣ ـ ٥٧ ومسند ابن حنبل ج ٥ ص ٤٤١ ـ ٤٤٤ وأسد الغابة لابن الأثير ج ٢ ص ٣٢٨ ـ ٣٣٢ *Caetani, L., Annali, V, 399 - 419 ; Huart, C., Selman du Fars, Mélanges Derenbourg, 297 - 310 ; Massignon, L., Salman Pak, (Tours, 1934).*

ولا أدأب ليلا ولا نهاراً منه . فأحببته حباً لم احبه شيئاً قبله مثله . فأقمت معه زماناً ثم حضرته الوفاة فقلت له اني قد كنت معك وأحببتك حباً لم احبه شيئاً قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى فالى من توصي بي وبما تأمرني . فقال والله ما أعلم اليوم احداً على ما كنت عليه . فقد هلك الناس وبدّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه الا رجلا بالموصل وهو فلان وهو على ما كنت عليه فالحق به .

فلما مات وغيّب لحقت بصاحب الموصل . فاقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه . فلم يلبث ان مات فألحقني برجل بنصيبين . فالتحقت به واخبرته خبري فقال اقم عندي . فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه . فأقمت مع خير رجل . فوالله ما لبث ان نزل به الموت فأوصى بي الى رجل في عمورية . فأقمت عند خير رجل على هدي اصحابه وامرهم . واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة . ثم نزل به أمر الله . فسألته الى من توصي بي قال والله ما أعلمه اصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه . ولكنه قد أظل زمان نبي وهو مبعوث بدين ابراهيم يخرج بأرض العرب مهاجره الى ارض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى : يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة . وبين كتفيه خاتم النبوة . فان استطعت فافعل » (١) .

محمد والقتال : وهكذا فان محمداً لم يفكر في ملك ولا في مال ولا في تجارة وانما كان كل همه توفير الطمأنينة لمن يتبع رسالته وكفالة الحرية لهم في عقيدتهم ككفالتها لغيرهم في عقيدتهم . وهذه الوجهة في التفكير هي التي نزل بها الوحي على محمد منذ الهجرة وهي التي جعلته جنوحاً للسلم راغباً عن القتال مقتصداً طول حياته اشد القصد فيه غير لاجيء اليه الا لضرورة تقتضيه دفاعاً عن الحرية والدين والعقيدة . ألم يقل له اهل يثرب ممن بايعوه في العقبة الثانية حين سمعوا المتجسس عليهم يصيح بقريش ينبهها لأمرهم : « والله الذي بعثك بالحق ان شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا » فكان جوابه « لم نؤمر بذلك » .

١) السيرة لابن هشام طبعة محيي الدين عبد الحميد ج ١ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٧

ثم ألم تكن أول آية في القتـــال : « أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » والآية بعدها: « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله »! فتفكير محمد اذاً انما كان متجهاً لغاية واحدة عليا هي كفالة حرية العقيدة والرأي كفالة في سبيلها وحدها أحل القتال ودفاعاً عنها أبيح دفع المعتدي حتى لا يفتن أحد عن دينه ولا يظلم احد بسبب عقيدته او رأيه ! (١) .

ولم تكن السرايا الاولى التي أنفذت لقتـــال قريش الا محاولة لافهام قريش ان مصلحتهم تقضي بالتفاهم مع المسلمين تفاهماً يكفل حرية الدعوة الى الدين وحرية التجارة للمشركين . ولعل محمداً رمى من وراء هذه السرايا الى غرض آخر هو تخويف اليهود الذين بدأوا يقلبون له ظهر المجن وعملوا لاثارة البغضاء وايقاظ الاحقاد في المدينة .

ولم ينكر محمد الدفاع عن النفس ولكنه أنكر حرب الاعتداء . ومن هنا الآية : « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » . ومن هنا القول في الآية : « الفتنة أشد من القتل » . والجهاد في سبيل الله معناه قتال الذين يفتنون المسلم عن دينه ويصدونه عن سبيل الله .

اجلاء اليهود : وحاولت قريش اثارة شبه الجزيرة كلهـــا على محمد واصحابه فأيقن محمد انه لم يبق في الاتفاق معهم اي رجاء . وخرج ابو سفيان في خريف السنة ٦٢٣ في تجارة الى الشام . فتحين محمد موعد عودته منها وأرسل الى طريق الشام من ينتظر خبر هذه العودة . وخشي ان تفوته العير في عودتها الى مكة فندب المسلمين قائلا : « هذه قريش فاخرجوا اليها لعل الله يكفيكموها » . وأراد بعض من لم يسلم ان ينضم طمعـــاً بالغنيمة فأبى محمد « او يؤمنوا بالله ورسوله » . واستنفر ضمضم قريشاً الى اموالهم فخرجت مكة كلها للدفاع عن تجارتها . وعدل ابو سفيان بالسير مساحلا وفات المسلمين خبره فنجا . وكانت موقعة بدر في آذار السنة ٦٢٤ وانتصر المؤمنون على المشركين .

ووصل رسول محمد الى المدينة يبشر بالفوز . وسُر المسلمون . أما

١) حياة محمد لمحمد حسين هيكل ص ١٨٦ — ١٨٧

الذين بقوا على الشرك واليهود فقد كبتوا لهذا النبـــأ فقالوا ان محمداً قتل وان اصحابه هزموا . ثم دخل محمد المدينة منتصراً . وازداد قوة ونفوذاً . ولكنـــه ما كاد يعود من بدر حتى بدأت طوائف المدينة الاخرى تتغامز وتأتمر وتُغري بالمسلمين وتحرض عليهم .

وقدمت امرأة من العرب الى سوق اليهود من بني قينقاع ومعهـــا حلية جلست الى صائغ فهم بها . فجعلوا يريدونها على كشف وجهها وهي تأبى . فجاء يهودي من خلفهـــا فأثبت طرف ثوبها بشوكة الى ظهرها . فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها . فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ وكان يهودياً فقتله . وشدّت اليهود على المسلم فقتلوه . فوقـــع الشر بين المسلمين وبين بني قينقاع . وطلب محمد الى هؤلاء ان يكفوا وان يحفظوا العهد . فاستخفوا بـــه . فحاصرهم المسلمون في دورهم خمسة عشر يوماً . فلما سلّموا اخرجوا من المدينة . فساروا حتى بلغوا وادي القرى فأقاموا فيها زمناً ثم ساروا صوب الشمال حتى بلغوا اذرعات على حدود الشام (١) .

وعاهد محمد قبائل الشاطىء عبر طريق الشام فنصح الاسود ابن المطلب قريشاً بأخـــذ طريق العراق ودلهم على فرات ابن حيان من بني بكر بن وائل يدلهُم على الطريق . وقال فرات : طريق العراق ليس يطؤها أحد من اصحاب محمد فانما هي ارض نجد وفياف . فعلم محمد بذلك فأنفذ مئة راكب اعترضوا تجارة قريش فغنموا وعادوا الى المدينة . فثار ثأر قريش وجهزوا للثأر فكانت موقعة أحُد في ربيـــع السنة ٦٢٥ . وظفر المسلمون ثم دارت الدائرة عليهم فاستماتوا في الدفاع عن الرسول . وتحرّج موقف محمد في المدينة وبين القبائل المحيطة بهـــا . وقام بنو أسد يدعون الى مهاجمة المدينة والسير الى محمد فيها . فسيّر النبي مئة وخمسين راكباً فاجأوا بني أسد وعادوا غانمين . وتكررت هذه الحوادث بين

١) السيرة لابن هشام جـ ٢ ص ٤٢٧ والمغازي للواقدي طبعة اوروبة ٩٢ — ٩٤ والرسل والملوك للطبري جـ ١ ص ١٣٦٠ — ١٣٦٢

المسلمين وبين القبائل المجاورة فجاءت سجالا (١) .

ووجد اليهود وغيرهم من أهل المدينة في ما أصاب المسلمين ما ذكرهم بأحُد . فخشي النبي أمرهم وشاء ان يستدرجهم ليستوضح نياتهم . فذهب الى اليهود من بني النضير في محلتهم في ضواحي المدينة في عشرة من كبار المسلمين بينهم ابو بكر وعمر وعلي . فرابه أمرهم وانسحب تاركاً اصحابه عندهم . وقام هؤلاء في طلبه فوجدوه في المسجد فذكر لهم ما رابه . ثم بعث الى بني النضير من قال : « ان رسول الله أرسلني اليكم ان اخرجوا من بلادي . لقد نقضتم العهد بما هممتم به من الغدر بي . لقـد أجَّلتكم عشراً . فمن رئي بعد ذلك ضربت عنقه » . وحاصر المسلمون بني النضير عشرين ليلة . فاستأمنوا فصالحهم فخرجوا ونزلوا خيبراً وسار بعضهم الى اذرعات في الشام (٢) .

وخرج نفر من بني النضير وقدم مكة . فسألهم أهلها عن قومهم فقالوا تركناهم بين خيبر والمدينة ينتظرونكم لتسيروا معهم الى محمد وأصحابه . وسألوهم عن بني قريظة فقالوا هم في يثرب متى أتيتم مالوا معكم . وقالت قريش لليهود : انكم أهل الكتاب الاول وتعرفون ما نختلف فيه ومحمد فهل ديننا خير ام دينه . فقالت اليهود بل دينكم خير من دينه . وخرج اليهود الى عرب غطفان وبني مرّة وبني فزارة وأشجع وسُليم وسعد وأسد فحرضوهم على الاخذ بالثأر . وخرجت هذه الاحزاب كلها متجهة نحو يثرب فبلغوها في اواخر اذار السنة ٦٢٧ . واتصل خبر هـذا السير بمحمد وجماعته فحفروا الخندق امام المدينة بارشاد سلمان الفارسي فعرفت هـذه الحرب بحرب الخندق . وأقبلت قريش وأحزابها ففاجأها الخندق فحاصرت المدينة واكتفت بتبادل الترامي بالنبال . وتحركت في بني قريظة يهوديتهم فنقضوا عهدهم مع محمد ! وتراجعت قريش وتراجع احزابها فأمر محمد مؤذّناً

١) المغازي للواقدي ص ١٠١ ــ ١٤٨ والطبري جـ ١ ص ١٣٨٣ ــ ١٤٢٧
Caetani, L., Annali, I, 540 - 566 ; Hamidullah, Battlefieds of Mohammad 18 - 24; Watt, W. M., Mohammed at Medina, 21 - 39.

٢) السيرة لابن هشام جـ ٣ ص ١٩١ ــ ١٩٤ والمغازي للواقدي ص ١٦٠ ــ ١٦٧ والرسل والملوك للطبري جـ ١ ص ١٤٤٨ ــ ١٤٥٣ .

فأذّن في الناس : «من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلينّ العصر الا ببني قريظة » ! فقتلت المقاتلة وقسمت الاموال وسُبيت الذرية والنساء (١) .

وقلّ متجر قريش وخف دخلهـا ولم تأت الحرب بفائدة وجعل محمد قبلته الى المسجد الحرام فسئمت قريش الحرب وباتت اكثر استعداداً للتفاهم والمسالمة . وكان محمد على صلـة مستمرة بعمه العباس وغيره فعلم بهذا التطور النفساني فأذّن في النـاس بالحج في شهر ذي القعدة الحرام من السنة السادسة للهجرة اي في اذار السنة ٦٢٨ . وخرج الى مكـة بمن معه من المهاجرين والانصار وأحرم بالعمرة ليعلم النـاس انه لا يريد قتالا . وفاوض محمد قريشاً فتهادنا فعرفت المهادنة بعهد الحديبية . وعاد المسلمون الى المدينـة وفي نفوسهم من أمر هـذا الصلح شيء فنزلت سورة الفتح وهم في الطريق وتلاها محمد عليهم (٢) .

وفكّر محمد في هذا الأمر ملياً فانتهى به تفكيره الى ضرورة القضاء على شوكة اليهود والى ارسال رسله الى هرقل وكسرى وغيرهما . ولم يُقم في المدينـة الا شهراً واحداً ثم جهز لغزو خيبر . وانطلق المسلمون في الف وست مئـة وفاجأوا خيبراً وحاصروها . فاستقتل اليهود ثم دب اليأس الى قلوبهم فصالحوا على نصف انتاجهم وذلك في حزيران السنة ٦٢٨ (٣) . وجرى كل هـذا مع يهود فدك ووادي القرى، وكانت جزية خيبر للمسلمين لأنهم قاتلوا لاستخلاصها وكانت جزية فدك للنبي لان المسلمين لم يجلبوا عليها . وقبل يهود تيماء الجزيـة بدون حرب . واوصى النبي بالا يفتن اليهود عن يهوديتهم ولم يكلف يهود البحرين دفع الجزية وان ظلوا على دينهم . وصالح بني غازية وبني عريض بالذمـة والجزية .

١) المغازي للواقدي : ١٩٠ ــ ٢١٠ والرسل والملوك للطبري جـ ١ ص ١٤٦٣ ــ ١٤٨٥

٢) السيرة لابن هشام جـ ٣ ص ٣٥٥ ــ ٣٧٧ والمغازي للواقدي ص ٢٤١ ــ ٢٦٤ والطبقات لابن سعد جـ ٢ ص ٦٩ ــ ٧٢ والرسل والملوك للطبري جـ ١ ص ١٥٢٨ ــ ١٥٥١ .

٣) السيرة لابن هشام جـ ٣ ص ٣٧٨ ــ ٣٨٩ والمغازي للواقدي ٢٦٤ ــ ٢٩٦ والرسل والملوك للطبري جـ ١ ص ١٥٧٥ ــ ١٥٩٠ .

الرسائل الى الملوك والامراء : وجاءت رسالة محمد سمحاء فلم يُكره أهل الكتاب من اليهود والنصارى على قبولها ولكنه اعتبرها عالميـة فرغب في تعميمها قدر المستطاع . وخرج يوماً على أصحابه فقال : « أيها الناس ان الله قد بعثني رحمة وكافة» . ثم ذكر لهم انه مرسل الى هرقل وكسرى والمقوقس والحارث الغساني والحارث الحميري والنجاشي يدعوهم الى الاسلام . فصنع له خاتماً من فضة نقش عليه « محمد رسول الله » وبعث بكتبه الى هؤلاء الملوك والامراء في ايار السنة ٦٢٨ . وجاء في كتابه الى هرقل : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد ابن عبدالله الى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فان توليت فانما عليك اثم الاريسيين » . وكتب مثل هذا الى كسرى والنجاشي والمقوقس والحارث الغساني والحارث الحميري . وحمل رسالته الى هرقل دحية ابن خليفة الكلبي والى كسرى عبدالله ابن حُذاقة السهمي والى النجاشي عمرو ابن امية الضمري والى المقوقس حاطب ابن ابي بلتعة والى الحارث الغساني شجاع ابن وهب الاسدي والى الحارث الحميري المهاجر ابن امية المخزومي (١) . ويشك بعض علماء الفرنجة في صحة هذه الرسائل ولكنهم يتطرفون (٢) .

وتتمة ما جاء في المصادر العربية ان دحية التقى بهرقل في حمص وان هرقل لم يغضب ولم تثر ثائرته وانه رد على الرسالة رداً حسناً . وجاء ايضاً ان الحارث الغساني بعث الى هرقل يخبره ان رسولا جاءه من محمد بكتاب يدعوه فيـه الى الاسلام وان الحارث استأذن بأن يقوم على رأس جيش لمحاربة صاحب هـذه الدعوة وان هرقل أجاب الحارث بأن يوافيه الى المدينة المقدسة . ومما جاء في المصادر العربية ايضاً ان شرحبيل ابن عمرو الغساني صاحب بصرى في حوران قتل الحارث ابن عمير الازدي رسول النبي الى صاحب بصرى في حوران . ومما

١) الطبقات لابن سعد ج ١ ص ١٥ — ٨٦

2) *Noldeke, Th., Wiener Zeit fur de Kunde des Morgenlandes, XXI, 307 ; Goldziher, I., Vorlesungen uber den Islam, 25 ; Lammens, H., Etudes sur le Règne du Calife Moawia, I, 422 ; Caetani, L., Annali, I, 725 - 739, Studi, III, 236, 257 ; Grimme, H., Mohammed, I. 123.*

تشتمل عليه المصادر ايضاً ان المقوقس حاكم مصر بعث الى النبي في الرد على رسالته يقول : انه يعتقد ان نبياً سيظهر ولكنه في الشام . وتضيف هـذه المصادر ان المقوقس بعث الى محمد جاريتين وبغلا وحماراً وكمية من المال وبعض خيرات مصر وان النبي قبل هذه الهدية وتزوج من احدى الجاريتين ماريا فولدت له ابراهيم وأهدى شيرين الجارية الثانيـة الى شاعره حسان ابن ثابت وانه اسمى البغلة الفريدة في بياضها دلدل والحمار عُفيراً او يعفوراً .

قتال النصارى في مؤتة : (٦٢٩) ومضى عام بعد الحديبية وخرج النبي الى عُمرة القضاء وجلت قريش عن مكة وصعدت في التلال المجاورة وأمّ المسلمون البيت الحرام وطافوا بالكعبة. ثم نحر النبي الهَدْيَ عند المروة وحلق رأسه وأقام ثلاثة أيام ثم خرج الى المدينة .

وأقام محمد بضعة أشهر في المدينة لم تقع في خلالها سوى بعض المناوشات والمناورات الصغيرة . وكان بين هذه ارسال خمسة عشر رجلا الى ذات الطلح على حدود الشام يدعون الى الاسلام . فقُتلوا كما قتل الحارث ابن عمير الازدي ولم ينجُ منهم الا زعيمهم . فجهز محمد ثلاثة الاف من خيرة رجاله وأمر عليهم زيد ابن حارثة وأنفذهم الى حدود الروم في خريف السنة ٦٢٩ . وسار المسلمون حتى بلغوا معان . وسبقهم نبأهم فجمع شرحبيل عامل هرقل جموعاً من قبائل الحدود من نصارى لخم وجذام والقين وبهراء وبلي . وبلغ المسلمين وهم في معان خبر هذه الجموع فترددوا اولا ثم قالوا مع عبدالله ابن رواحة : « انما هي احدى الحسنيين فأما ظهور وأما شهادة » ، ومضوا فالتقوا بأعدائهم في مشارف عند تخوم البلقاء . فلما اقترب حلفاء الروم انحاز المسلمون الى قرية مؤتة ليتحصنوا بها . فدارت معركة أسفرت عن مقتل عدد من المسلمين بينهم زيد ابن حارثة ربيب النبي نفسه وجعفر ابن ابي طالب . فدافع خالد ابن الوليد بالقوم وحاشى ثم انحاز وتحيز حتى انصرف بالناس . وعاد المسلمون الى المدينـة فاذا بذويهم يصيحون في وجوهم : «يا فُرّار فررتم في سبيل الله» ! واذا بقريش تعتبر تراجع المسلمين هزيمة قاضية (١) .

١) الطبقات لابن سعد ج ٢ ص ٩٢ والرسل والملوك للطبري ج ١ ص ١٦١٠

سقوط مكة : (٦٣٠) وقضى صلح الحديبية بحرية التحالف اي ان يدخل في عهد محمد من شاء وان يدخل في عقد قريش من شاء . ودخلت خزاعة في عهد محمد ودخل بنو بكر في عهد قريش . وكانت بين هاتين القبيلتين ثارات قديمة . فلما انكسر المسلمون في مؤتة ظن بنو بكر انه قضي عليهم وخُيل الى بعضهم أن يأخذوا بثأر قديم . ففاجأوا خزاعة وقتلوا منهم . فلجأ هؤلاء الى حليفهم محمد . وكان البعض من قريش وفي طليعتهم عكرمة قد حرضوا بني بكر فرأى محمد ان لا مفر من فتح مكة فتحاً .

وبعث القبائل من سُليم ومزينة وغطفان وغيرها من انضم الى المسلمين من المهاجرين والأنصار . وسار النبي بهؤلاء جميعاً فلقيه بالجحفة العباس عمه وجماعة من اهله فأسلموا. وتابع محمد السير حتى ذي طوى ورأى ان مكة لا تقاوم فاستوقف الناس وانحنى يشكر الله . وعلى الرغم من هذا فانه ظل متحذراً ففرق جيشه أربع فرق ودخل مكة في الحادي عشر من كانون الثاني سنة ٦٣٠ فلم يلق منها مقاومة الا جيش خالد ابن الوليد (١) .

الاسقف ضُغاطِر : وعاد النبي الى المدينة بعد فتح مكة وبعد انتصاره في حنين وبعد حصار الطائف والقضاء على مقاومة المشركين فيها فعظم شأنه في الجزيرة وقبل دعوته عدد كبير من ابنائها . وظل النصارى في شمال الجزيرة على دينهم ولا سيما وان هرقل كان قد استعاد هيبة الروم وكرامتهم بعد انتصاره على الفرس .

فكتب النبي في هذه الاونة الى اسقف من اساقفة البادية اسمه ضغاطر يقول : « الى ضغاطر الاسقف . سلام على من آمن . اما على اثر ذلك فان عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم الزكية . واني اؤمن بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرّق بين احد منهم ونحن له مسلمون .

١) المغازي للواقدي ص ٣١٩ ــ ٣٥٥

والسلام على من اتبع الهدى » (١) . لا ندري بالضبط ماذا كان اثر هذه الرسالة في نفس ضغاطر وبين قومه ورعيته . وليس لدينا ما ينبىء بقبولها وبدخول هؤلاء في الاسلام .

تبوك : وراقب الغساسنة محمداً ولعلهم دسوا في صفوفه فخشي أمرهم (٢) وذكر يوم مؤتة وما جره من هزء واستخفاف فأمر بالتهيوء لغزو الروم وذلك في اواخر صيف السنة ٦٣٠ « في زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم . وكان قلما يخرج في غزوة الا كنى عنها وأخبر انه يريد غير الوجه الذي يصمد له » . اما غزو تبوك فانه بيّنه للناس لبعد المسير وليتأهبوا . فأمرهم بالجهاز وأخبرهم انه يريد الروم . فقال للجد ابن قيس: « هل لك العام في جلاد بني الاصفر اي الروم ؟ فقال جدّ : ما من رجل اشد عجباً بالنساء مني واني اخشى ان رأيت نساء بني الاصفر ان لا أصبر . فأعرض عنه رسول الله وقال قد اذنت لك . وحضّ محمد اهل الغنى على النفقة فاحتسبوا وانفق عثمان بن عفان وحده الف دينار . وبلغ محمداً ان ناساً من « المنافقين » يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس عن غزوة تبوك فأمر باحراق البيت (٣) . وسار الجيش حتى بلغ الحجر وبها اطلال ثمود . ثم انطلق قاصداً تبوك . فبلغ الروم أمر هذا الجيش وقوته فآثرت الانسحاب بجيشها .

فأقام محمد عند الحدود . ووجّه رسالة الى يوحنا ابن رؤبة صاحب أيلة عند خليج العقبة ان يذعن او يغزوه . فأقبل يوحنا وعلى صدره صليب من ذهب وقدم الهدايا وصالح محمداً على جزية يدفعها في كل عام . فأمنه محمد بكتاب وجهه اليه (٤) . وخشي محمد انتقاض أكيدر ابن عبد الملك الكندي النصراني امير دومة الجندل (الجوف) فأنفذ خالداً ابن الوليد اليه على رأس قوة . ففاجأه

١) الطبقات لابن سعد ج ١ ص ٢٨
٢) السيرة لابن هشام ج ٤ ص ١٩١
٣) السيرة لابن هشام ج ٤ ص ١٧٠ ــ ١٧١
٤) السيرة لابن هشام ايضاً ج ٤ ص ١٨٠ ــ ١٨١

خالد وهو يطارد بقر الوحش وأخذه اسيراً وقدم بـه على محمد فحقن له دمه وصالحه على الجزية (١) .

الجزية على يد : وتبرم بعض من اشترك في الحملة على تبوك وتأففوا من أنهم تحملوا وعادوا ما تحملوه ولم يغنموا(٢). وكان بعض المسلمين قد تخلفوا عن مؤازرة النبي في الحملة على تبوك فعاد النبي وتلا من سورة التوبة : «لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعـد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم » .

ثم خرج ابو بكر حاجاً في ثلاث مئة مسلم . ولحق به علي ابن ابي طالب فوقف في الناس وهم يؤدون مناسك الحج في منى فتلا عليهم آيات من سورة التوبة : « برآءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين » . ولما أتم تلاوتها صاح : « ايها الناس انه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك . ومن كان له عنـد رسول الله عهد فهو الى مدته » ثم أجّل الناس أربعة أشهر ليرجع كل الى مأمنه وبلاده (٣) .

ثم أمر الرسول بجهاد أهل الشرك بعد الاربعة الاشهر فجاءت الآيات : « ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا باخراج الرسول » . ثم ذكر قول قريش لتنقطعن عنا الاسواق فتهلكن التجارة وليذهبن ما كنا نصيب فيها من المرافق فجاءت الآية : « وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » اي عوض ما تخوفتم من قطع الاسواق . ودلت الآيات التالية على ان الاشارة بالعبارة «الذين اوتوا الكتاب» هي الى اليهود والى النصارى (٤) . ومن هنا خروج القبائل العربية المسلمة الى الشام والعراق .

١) المرجع نفسه ص ١٨٢
٢) حياة محمد لمحمد حسين هيكل ص ٤٣٠
٣) السيرة لابن هشام ج ٤ ص ٢٠٣ – ٢٠٤
٤) المصدر نفسه ص ٢٠٥ – ٢٠٦

الفصل الثلاثون

وصول الاسلام الى أبرشيات أنطاكية

٦٣٢ – ٦٥٦

تعاليم الاسلام : هو الله لا إله الا هو رب العـالمين خالق السموات والارض وما بينهما . وقد اختار افراداً من خلقـه واتصل بهم بالوحي . ومن هؤلاء ابراهيم وموسى وعيسى . ومحمد رسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . وعلى المسلم ان يقيم الصلاة ويأتي الزكاة وعليـه ان يبتعد عن الفحشاء والمنكر . وعليه ان يعدل ويعفو عند المقدرة وان يفي بالوعد ويصبر عند الشدائد كما عليه ان يرد التحية بأحسن منها وان يستأنس قبل الدخول الى بيوت الغير وان يسلّم على اهلها . والمؤمنون اخوة اكرمهم عند الله اتقاهم . وعليهم طاعة الله وطاعة الرسول واولى الامر منهم . ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

الاسلام والانجيل : والانجيـل بموجب القرآن منزل تنزيلا . وعلى المؤمنين ان يؤمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله « والكتاب الذي أنزل من قبل » (١) . وعليهم ايضاً ان يروا في الانجيل والتوراة تصديقاً لما جاء في القرآن نفسه : « يا ايها الذين اوتو الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم » (٢) . وعلى النصارى ان يحكموا بما جاء في الانجيل : « وليحكم اهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما انزل الله فيه فأولئك هم الفاسقون » (٣) .

توجيه الجيوش الى الشام : (٦٣٣ – ٦٣٤) وجاء الاسلام يدعو الى محو التعصب للقبيلة ومنع الثأر وفرض الدية. وأوجب دفع الزكاة في اوانها. فتأثر

١) سورة النساء ١٣٥
٢) سورة النساء ٤٧
٣) سورة المائدة ٤٧

به البعض وهم السابقون الاولون من المهاجرين والانصار . واستثقله آخرون وهم الاعراب. وعدّ هؤلاء دفع الزكاة ضريبة ومذلة واعتبروها اتاوة تدفع من قبيلة الى اخرى تتسلط عليها . ومن هنا قول قرة ابن هبيرة لعمرو ابن العاص : « يا هـذا ان العرب لا تطيب لكم نفساً بالاتاوة . فان اعفيتموها من أخذ اموالها فتسمع لكم وتطيع وان ابيتم فلا تجتمع عليكم » (١) . والواقع ان عدداً من القبائل رفض دفع الزكاة بعد محمد . وكانت قريش لا تزال تتأفف من تكسير الاصنام وتخشى ان تخسر مغانم الحج . وكان المهاجرون من اليهود اليثربيين لا يزالون على حدود الروم يدسون ويفسدون . وكان الروم انفسهم قد دخلوا في حرب مع النبي لم تأت نتائجها في صالح المسلمين (٢) .

فلما فرغ ابو بكر من أمر أهل الردة رأى توجيه الجيوش الى الشام . فكتب الى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يدعوهم للجهاد ويرغبهم فيه « فسارع الناس اليه بين محتسب وطامع » واتوا المدينة من كل أوب . فعقد ثلاثة الوية لثلاثة رجال خالد ابن العاص ابن سعيد ابن امية وشرحبيل ابن حسنة وعمرو ابن العاص ابن وائل السهمي . واعترض عمر ابن الخطاب على تعيين خالد ابن سعيد لانه كان رجلا فخوراً متعصباً فعزله ابو بكر ودفع لواءه الى يزيد ابن ابي سفيان فسار به ومعاوية اخوه يحمله بين يديه. وكان العقد لكل من هؤلاء في بادىء الامر على ثلاثة الاف مقاتل . فما زال ابو بكر يمدهم بالرجال حتى صار مع كل امير سبعة الاف وخمس مئة . وأمر الامراء ان يعقدوا لكل قبيلة لواء وان يسلك عمرو ابن العاص طريق أيلة (العقبة) عامداً لفلسطين وأمر يزيد وشرحبيل ان يسلكا طريق تبوك (٣) .

وادي عربة : وفي أوائل السنة ٦٣٤ وصلت جموع المسلمين العرب الى شرق بحر الميت وغربه فظن سرجيوس بطريق قيصرية فلسطين انه أمام غزوة عادية من غزوات البدو فقام بنفسه على رأس ما تيسر لديه من الرجال واتجه نحو

١) فجر الاسلام لاحمد امين ص ٧٤ ـ ٨٣ ; *Watt, W. M., op. cit., 142 - 150;*
٢) فتوح البلدان للبلاذري طبعة اوروبة ص ١٠٧
٣) فتوح البلدان ص ١٠٨ ـ ١٠٩

الجنوب فاشتد القتال في وادي عربة وتكاثر المسلمون فمني سرجيوس بالفشل . ثم كان قتال في قرية داثن بالقرب من غزة وكان انتصار للمسلمين. ولقي سرجيوس حتفه . فانفتحت أبواب فلسطين على مصراعيها أمام المسلمين . «وحدّث شيوخ الشام فيما بعد ان الفاتحين لم يقاتلوا قبل عربة ولم يمروا بشيء من الأرض مذ فصلوا من الحجاز الا غلبوا عليه بغير حرب وصار في أيديهم » (١) .

خالد ابن الوليد : ولما صار عمرو ابن العاص الى اول فلسطين كتب الى ابي بكر يعلمه بكثرة العدو وسعة أرضه . فكتب ابو بكر الى خالد ابن الوليد وهو بالعراق يأمره بالمسير الى الشام. فأتى خالد عين التمر ففتحها عنوة ثم صندوداء فقاتله أهلها فظفر بهم . ثم قاتل جمعاً لبني تغلب ابن وائل في المُضيّح والحصيد فهزمهم وسبى . ثم أغار على قراقر وهو ماء لكلب . ثم فوّز منه الى سوى وهو ماء لكلب ومعهم فيه قوم من بهرا فقاتلوه . ثم أتى أركة ففتحها صلحاً ثم دومة الجندل ففتحها ايضاً . ثم أتى تدمر فامتنع أهلها وتحصنوا ثم طلبوا الأمان فأمنهم « على ان يرضخوا للمسلمين ويكونوا ذمة » (٢) ثم صمد أهل القريتين في وجهه وأهل حوارين فظفر وغنم وسبى . ثم وصل الى مرج راهط فأغار على غسّان في يوم فصحهم فسبى وقتل. وقدم خالد على المسلمين في حوران فحاصروا بصرى عاصمتها وحاربوا بطريقها فصالحهم أهلها اما على طعام وزبيب وخل او على جزية يؤدونها . ثم دخل خالد موآب صلحاً (٣) .

اجنادين وفحل : ونشط هرقل وجيّش «فسرّب بعضاً من جماعته وتجمع الباقي من النواحي » وعقد اللواء لاخيه ثيودوروس القبقلار (٤) . وصعب على ثيودوروس ان يستجلي خطة خصمه في الحرب . ولعل سبب ذلك ان هـذه القبائل المغيرة لم تكن لها خطة عسكرية واضحـة . وتقدم ثيودوروس ببطء

١) المصدر نفسه ص ١٠٩
٢) المصدر نفسه ص ١١١ ـ ١١٢
٣) فتوح البلدان للبلاذري ص ١١٢ ـ ١١٣ و١٥٢
٤) فتوح البلدان للبلاذري ص ١١٣ والطبري ج ١ ص ٢٣٤٧ ولعـل الاشارة الى اللقب *Curopalates* ومعناه قائد القوات جميعها .

فرابط في جلّق (١) اولا ليحمي دمشق ويهدد القبائل الغازية . ثم اتجـه جنوباً للدفاع عن المدينة المقدسة فصمد في اجنادين بين القدس وغزة . فترفع خالد ولم يحفل بامكانات السلب والنهب بل أسرع الى الجنوب عبر شرق الاردن وجمع الجموع في وادي عربة . ثم دفع بها الى أجنادين . فنشبت معركة حاميـة في الثلاثين من تموز سنة ٦٣٤ كتب النصر فيها للعرب فجلا الروم عن الارياف في جنوب فلسطين وهمدوا وراء مستنقعات بيسان *Scythopolis* فغلبوا فيهـا فقاموا الى فحل *Pella* فقوتلوا اشد قتال وأبرحـه . وقتل بطريقهم وتفرق الباقون في مدن الشام وذلك في الخامس والعشرين من كانون الثاني سنة ٦٣٥ . وتحصّن اهل فحل فحصرهم المسلمون حتى سألوا الامان على اداء الجزيـة عن رؤوسهم والخراج عن ارضهم . فأمنوا على انفسهم واموالهم ولم تهدم اسوارهم . ولم يبق للروم في فلسطين سوى مدنها المحصنة المنيعة (٢) .

تطور في الهدف والخطة : وحدّث ابو حفص الدمشقي عن سعيـد ابن عبد العزيز التنوخي عن «عدة» منهم ابو بشر مؤذن مسجد دمشق ان «المسلمين» لما قدموا الشام كان كل امير منهم يقصد الى ناحية ليغزوها ويبث غاراته فيها . فكان عمرو ابن العاص يقصد لفلسطين وكان شرحبيل يقصد للأردن وكان يزيد ابن ابي سفيان يقصد «لأرض» دمشق (٣) . وتوفي ابو بكر في الثالث والعشرين من آب سنة ٦٣٤ وتولى الخلافة بعـده عمر ابن الخطاب . وبان عيب الروم وضعفهم وعيب الفرس وانتهاء أمرهم . فتحول الغزو والسلب والسبي الى فتح وأصبح رائد المسلمين السيطرة على الشام والبقاء فيها (٤) . واتخذوا من السامريين واليهود « عيوناً وأدلاء لهم » (٥) . وكان امير الغزاة في عهـد ابي بكر عمرو بن العاص يقودهم عند الاقتضاء . ثم تزعم غاراتهم خالد ابن الوليد . فلما تطور

١) في جنوب حوران الشرقي

٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ١١٥

Becker, K., Expansion of Saracens Cam. Med. Hist., II, 341 - 342.

٣) فتوح البلدان للبلاذري ص ١١٦

4) *Lammens, H., La Syrie, I, 55.*

٥) البلاذري ايضاً ص١٥٨

الهدف وجاء عمر « ولّى ابا عبيدة ابن الجرّاح امر الشام كله وأمرّه الامراء في الحرب والسلم . ففتح شرحبيل ابن حسنة طبرية صلحاً على ان يؤمن اهلها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ومنازلهم الا ما جلوا عنه وخلوه . وفتح جميع مدن الاردن على هذا الصلح فتحاً يسيراً ففتح بيسان وسوسية وأفيق وجرش وبيت راسن وقدس والجولان وعكة وصور وصفورية » (١) .

دمشق : (٦٣٥) وتوجه المسلمون الى دمشق فالتقوا بالروم في مرج الصفّر فاقتتل الطرفان قتالا شديداً «جرت في اثنائه الدماء في الماء وطحنت بها الطاحونة» وجرح من المسلمين اربعة الاف . ثم ولّى الكفرة منهزمين مغلولين لا يلوون على شيء حتى اتوا دمشق وبيت المقدس . وأقام المسلمون خمس عشرة ليلة ثم زحفوا على دمشق فأخذوا الغوطة وكنائسها عنوة . وتحصن أهل المدينة وأغلقوا أبوابها في أوائل اذار السنة ٦٣٥ (٢) . وحاصر المسلمون دمشق ستة أشهر وأهمل أمرها هرقل ولم يرسل النجدات . فوقف اسقفها على السور في ايلول . فدعي له خالد . فاذا أتى سلم عليه وحادثه فقال له : يا ابا سليمان ان أمركم مقبل ولي عليك عدة فصالحني عن هذه المدينة . فدعا خالد بدواة وقرطاس فكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى خالد ابن الوليد أهل دمشق اذا دخلها أعطاهم اماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم . وسور مدينتهم لا يهدم . ولا يسكن شيء من دورهم . لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلعم والخلفاء والمؤمنين . لا يعرض لهم الا بخير اذا اعطوا الجزية » . ولما رأى الاسقف ان ابا عبيدة قـد قارب دخول المدينة من باب الجابية بدر الى خالد فصالحه وفتح له الباب الشرقي فدخل والاسقف معه ناشراً كتابه الذي كتبه له . فقال بعض المسلمين والله ما خالد بأمير فكيف يجوز صلحه فقال ابو عبيدة انه يجيز على المسلمين ادناهم وأجاز صلحه وامضاه ولم يلتفت الى ما فتح عنوة . فصارت دمشق صلحاً كلها (٣) .

« وزعم الهيثم بن عدي ان اهل دمشق صولحوا على انصاف منازلهم

١) فتوح البلدان للبلاذري ص ١١٦ ايضاً

٢) المصدر نفسه ص ١١٨ — ١٢٠

٣) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٢٠ — ١٢٢

وكنائسهم . وقال محمد ابن سعد : قال عبدالله الواقدي قرأت كتاب خالد ابن الوليد لاهل دمشق فلم أرَ فيه انصاف المنازل والكنائس . ولا أدري من اين جاء به من رواه . ولكن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من اهلها بهرقل وهو في انطاكية فكثرت فضول منازلها فنزلها المسلمون » (١) .

وروي عن الاوزاعي انه قال: كانت الجزية في الشام في بدء الامر جريباً وديناراً على كل جمجمة . ثم وضعها عمر ابن الخطاب على أهل الذهب اربعة دنانير وعلى أهل الورق اربعين درهماً وجعلهم طبقات . وروي ان اليهود كانوا كالذمة للنصارى يؤدون اليهم الخراج فدخلوا معهم في الصلح (٢) .

بعلبك وحمص: ولما فرغ ابو عبيدة من أمر مدينة دمشق سار الى حمص فمر ببعلبك . فطلب اهلها الامان والصلح فصالحهم وأمنهم على انفسهم واموالهم وكنائسهم وكتب لهم : « بسم الله الرحمن الرحيم هـذا كتاب امان لاهل بعلبك رومها وفرسها « وعربها » على انفسهم واموالهم وكنائسهم ودورهم داخل المدينة وخارجها وعلى ارحائهم . وللروم ان يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلا . ولا ينزلوا قرية عامرة . فاذا مضى شهر ربيع وجمادي الاولى ساروا الى حيث شاؤوا . ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا . ولتجارهم ان يسافروا الى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها . وعلى من أقام منهم الجزية والخراج . شهد الله وكفى بالله شهيداً » (٣) .

ثم نهض ابو عبيدة الى حمص فنزل في باب الرستن فصالحه اهل حمص على تأمين أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم . واستثنى عليهم من هذه ربع كنيسة يوحنا للمسجد . واشترط الخراج على من أقام منهم (٤) .

بيروت: (٦٣٦) وأتى يزيد ابن ابي سفيان بعد فتح مدينة دمشق صيدا وعرقة وجبيل وبيروت « وعلى مقدمته اخوه معاوية » ففتحها فتحاً يسيراً وجلا

١) المصدر نفسه ص ١٢٣
٢) البلاذري ايضاً ص ١٢٤
٣) البلاذري ص ١٢٩ — ١٣٠
٤) المصدر نفسه ص١٣٠ — ١٣١

كثيراً من أهلها . وتولى فتح عرقة معاوية نفسه (١) . أما طرابلس فانها ظلت صامدة حتى أوائل ولاية معاوية (٦٣٩) .

حماة والمعرة واللاذقية: (٦٣٦) ومضى ابو عبيدة بعد حمص الى حماة فتلقاه أهلها مذعنين فصالحهم على « الجزية في رؤوسهم والخراج في ارضهم » . فمضى نحو شيزر « فخرجوا يكفرون ومعهم المقلسون » ورضوا بمثل ما رضي به أهل حماة . وبلغت خيل ابي عبيدة الزراعة والقسطل . ومر بمعرة حمص فخرجوا يقلّسون بين يديه . ثم أتى فامية ففعل أهلها مثل ذلك وأذعنوا بالجزية والخراج . ووصل الى اللاذقية فقاتله أهلها ودخل عبادة الحصن وعلا حائطه «فكبّر عليه» . وهرب قوم من نصارى اللاذقية الى اليسيّد ثم طلبوا الامان . فقوطعوا على خراج يؤدونه قلوا او كثروا وتركت لهم كنيستهم . وبنى المسلمون مسجداً جامعاً . ثم فتحوا بلدة على فرسخين من جبلة . ثم فتح عبادة أنطرطوس ومرقيــة وبُلنياس (٢) .

يوم اليرموك: (٦٣٦) وكان هرقل في اثناء هذا كله يسعى بنشاط بين انطاكية والرها لتجييش قوة كبيرة يتمكن بها من صد المسلمين وانقاذ سورية الجنوبية وفلسطين والساحل . وبرغم خسارته الكبيرة في الرجال أبان الحرب الفارسية وبرغم قلة المال في الخزينة فانه حشد في خريف السنة ٦٣٥ من الروم والارمن والعرب بين الثلاثين والخمسين الفاً . وأمّر عليهـم ثيودوروس تريثوريوس وأنفذهم في ربيع السنة ٦٣٦ الى الجنوب . وكان خالد انئذ في حمص . فلما علم بقدوم هـذا الجيش الكبير جلا عن حمص ودمشق وسائر المدن المجاورة وجمع ما لديه من الرجال خمسة وعشرين الفاً وانتقى الجابية فصمد فيها فادركه الروم وضربوه فـدافع وانسحب الى اليرموك احد روافد الاردن الشرقية .

ووصل الروم الى اليرموك في تموز السنة ٦٣٦ وتناوش الفريقان وتناول

١) المصدر نفسه ايضاً ص ١٢٦ — ١٢٧
٢) البلاذري ص ١٣٢ — ١٣٣

بعضهم بعضاً في معارك صغيرة ردحاً من الزمن . وفيما خالد ينتظر وصول المدد كان الروم يتخاصمون فيما بينهم بدافع الحسد وقلة الانضباط . فانهزم ثيودوروس في عدد من تلك المناوشات فنادى الجند بيانس فسيلفساً فأدى هـذا الفساد الى انسحاب القبائل العربية المسيحية من معسكر الروم وامتناعهم عن القتال. فجاءت هذه الفوضى وجاء هذا الانسحاب في صالح المسلمين . واغتنم خالد هذه الفرصة السانحة فقام بحركة التفاف حول الروم من الشرق . ثم احتل الجسر فوق وادي الرقاد فحرم خصمه امكان التراجع غرباً .وفي الثاني والعشرين من آب سنة ٦٣٦ انقضّ عليهم بفرسانه المجربين فقتل من قتل وشرّد من شرّد (١) .

انطاكية وحلب : (٦٣٨) وسار ابو عبيدة الى حمص . ثم أتى قنّسرين وعلى مقدمته خالد ابن الوليد فقاتله أهلها ثم لجأوا الى حصنهم وطلبوا الصلح فصالحهم ابو عبيدة على مثل صلح حمص . وكان حاضر قنّسرين لتنوخ « منذ اول ما تنخوا بالشام » فدعاهم ابو عبيدة الى الاسلام فأسلم بعضهم وصالح كثير منهم على الجزية وبقي بنو سليح على النصرانية . وكان بالقرب من حلب حاضر يجمع أصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم فصالحهم ابو عبيدة على الجزية . ورحل الى حلب وعلى مقدمته عياض الفهري . فوجد أهلها قد تحصنوا . فنزل عليها فـلم يلبثوا ان طلبوا الصلح والامان على انفسهم واموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذي بها . ثم سار الى انطاكية وقد تحصن بها خلق من جند قنسرين . فلما وصل الى مهروبة لقيه جمـع للعدو ففضهم والجأهم الى المدينة وحاصر أهلها من جميع ابوابها . وكان معظم الجيش على باب فارس وباب البحر . ثم صالحوه على الجزية والجلاء . فجلا بعضهم وأقام بعضهم . وكانت انطاكية عظيمة الذكر والامر عند عمر وعثمان. فلما فتحت كتب عمر الى ابي عبيدة ان رتّب بانطاكية جماعة من المسلمين «أهل نيات وحسبة » واجعلهم بها مرابطة « ولا تحبس عنهم العطاء » ! (٢) .

١) الرسل والملوك للطبري ج ١ ص ٢٣٤٧ وما يليها وفتوح البلدان للبلاذري ص ١٣٥
٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٤٤ — ١٤٨

وبلغ ابا عبيدة ان جمعاً للروم بين معرة مصرين وحلب فلقيهم وقتل عدة بطارقة وفتح معرة مصرين على مثل صلح حلب . وجالت خيوله فبلغت بوقا وفتحت قرى الجومة . وفتح ابو عبيدة جميع ارض قنّسرين وانطاكية . ثم سار يريد قروش فتلقاه راهب من رهبانها فصالحه فعقد لاهلها عهداً مثل الذي أعطى أهل انطاكية . واتى ابو عبيدة حلب المأجور ودلوك ومنبج فصالحهم مثل صلح انطاكية . وبعث جيشاً عليه حبيب ابن مسلمة الى بالس وقاصرين فصالحهم على الجزية والجلاء فجلا اكثرهم الى ارض الروم وارض الجزيرة . وبلغ ابو عبيدة الفرات ثم رجع الى فلسطين (١) .

الجراجمة : (٦٣٨) وغزا حبيب ابن مسلمة الجرجومة في جبل اللكام بين حلب والاسكندرونة « عند معدن الزاج » فلم يقاتله أهلهـا ولكنهم بدروا بطلب الامان والصلح. فصالحوه « على ان لا يؤخذوا بالجزية وان ينفلوا اسلاب من يقتلون من اعداء المسلمين » . ودخل من كان في مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الانباط وغيرهم في هذا الصلح (٢) .

المدينة المقدسة : (٦٣٨) وكان لايزال يعلـو السدة البطريركية في اوروشليم الشيخ الورع التقي الامين صفرونيوس . وقد سبق الكلام عنه في الفصل الاخير من المجلد الاول . فلما شعر بالخطر المداهم أبعد الصليب المقدس واثمن ما لديه من الاواني الكنسية الى ساحل البحر فالقسطنطينية (٣) .

وعاد ابو عبيدة الى فلسطين بعد فتح الشمال فأمر بتشديد الحصـار على المدينة المقدسة فطلب أهلها الامان « على ان يكون المتولي للعقد لهم عمر نفسه » . فكتب ابو عبيدة الى عمر فقدم فنزل الجابية ثم سار الى « ايلياء » . فاستقبلـه صفرونيوس على جبل الزيتون وفاوضه في صلح « على مثل ما صولح عليه اهل مدن الشام » فقبل عمر وكتب بذلك . ثم نزل الكبيران الى المدينة لزيارتها فصلى

١) المصدر نفسه ١٤٩ — ١٥٠
٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٥٩

3) *Sebeos*, 98.

الخليفة عند اطلال هيكل سليمان عند الصخرة التي قام فوقها فيما بعد مسجد عبد الملك ابن مروان . وجاء في رواية عربية ثانية ان الخليفـــة اعطى سكان بيت المقدس على ما أحاط به حصنهم « « شيئاً » يؤدونه ويكون للمسلمين ما كان خارجاً . (١)

قيصرية وطرابلس: (٦٤٠-٦٤٤) وتوفي ابو عبيدة فولى الخليفة عمر ابن الخطاب يزيد ابن ابي سفيان الاردن وفلسطين وأمره ان يغزو قيصرية فلسطين . فنهض اليها في سبعة عشر الفاً . فقاتله اهلها فحاصرهم . « وكان سبب فتحها ان يهودياً يقال له يوسف أتى المسلمين ليلا فدلهم على طريق في سرب لقاء تأمينه على اهله . فدخلها المسلمون في الليل وكبّروا فيها . فأراد الروم ان يهربوا من السرب فوجدوا المسلمين عليه . وفتح المسلمون الباب فدخل معاوية . وكان قد تسلم القيادة بعد وفاة اخيه ، فسبى اربعة الاف وارسلهم الى عمر . وحوصرت قيصرية سبع سنين وكان بها خلق من العرب (٢) .

ولما استخلف عثمان وولى معاوية الشام وجّـه معاوية سفيان ابن مجيب الازدي الى «أطرابُلس» وهي ثلاث مدن مجتمعة فبنى في مرج على اميال منهـا حصن سفيان وقطع المادة عن أهلها من البحر وغيره وحاصرهم . فلما اشتد عليهم الحصار اجتمعوا في احد الحصون الثلاثة وكتبوا الى ملك الروم يسألونه أن يمدهم او يبعث اليهم بمراكب يهربون فيها . فوجه اليهم مراكب كثيرة فركبوها ليلا وهربوا . فأسكنها معاوية جماعة كبيرة من اليهود (٣).

يوم الجابية : وغزا المسلمون وغنموا . ثم غلبوا الروم في الميادين الطلقة فحاصروا المدن المحصنة فصالحت . واتسعت رقة الدولة ودخل فيها الوف مؤلفة من النصارى والمشركين واليهود . وتدفقت الاموال على بيت المال وكثر طلابها

١) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٣٨ — ١٣٩

Theophanes, Chron., a 6129; Michel le Syrien, II, 425-426 ; Eutichius, Annales, P.G., Vol.111, Col. 1099; Vincent et Abel, Jerusalem Nouvelle, II, 930 - 932.

٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٤٠ — ١٤٢

٣) المصدر نفسه ص ١٢٧

واختلفوا في ما أصابهم منها . وكان لا بد من الدفاع عن هـذه الدولة والنظر في امور اهلها وسكانها . فقام عمر الى الجابية عاصمة الغساسنة في الجولان يصحبه عدد من الصحابة . فاستدعى كبار القادة والوجهاء وشاور فقرر اتخـاذ بعض الاجراءات الحربية والمالية والادارية . وكان ذلك في اثناء السنة ٦٣٨ .

قضية الجزية : وذكر المسلمون الآية : « وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء إن الله عليم حكيم قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » ففرضوا جزية على رؤوس النصارى وخراجاً على املاكهم .

وقُدّر للمسلمين النصر على الروم في اليرموق . فأتى جبلـة ابن الايهم ملك غسان عمر ابن الخطاب وهو على نصرانيته . فعرض عمر عليـه الاسلام واداء الصدقة فأبى ذلك وقال أقيم على ديني واؤدي الصدقة . فقال عمر ان اقمت على دينك فأدِّ الجزية . فأنف منها . فقال عمر ما عندنا لك الا واحـدة من ثلاث : اما الاسلام واما اداء الجزيـة واما الذهاب الى حيث شئت . فدخل جبلة بلاد الروم في ثلاثين الفاً . فلما بلغ ذلك عمر نـدم . وعاتبه عبادة ابن الصامت فقال لو قبلت منه الصدقة ثم تألفتـه لأسلم . فوجّه عمر عمير ابن سعد الانصاري الى بلاد الروم وأمره ان يتلطف لجبلـة ويدعوه الى الرجوع الى بلاد الاسلام على ان يؤدي ما كان بذل من الصدقة ويقيم على دينه . فسار عمير حتى دخل بلاد الروم وعرض على جبلة ما أمره عمر بعرضه فأبى الا المقام في بلاد الروم (١) .

وكتب عمير ابن سعد الى عمر انه أتى شق الفرات الشامي وأراد مَنْ هناك من بني تغلب على الاسلام فأبوا وهموا باللحاق بأرض الروم. فكتب اليه عمر يأمره ان يضعف عليهم « الصدقة » التي تؤخذ من المسلمين في كل سائمة وارض (٢) .

١) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٣٦ .

٢) المصدر نفسه ص ١٨١ — ١٨٢

وتقدم ابو عبيدة في شمال سورية ووصل الى جبال اللكام . وغزا حبيب ابن مسلمة الجرجومة فبدر أهلهـا في طلب الأمان « على ان لا يؤخذوا بالجزية وان ينفّلوا اسلاب من يقتلون من عدو المسلمين ». فوافق حبيب ودخل الجراجمة في دولة الاسلام ولم يدفعوا الجزية (١) .

وصالحت حلب على جزية تؤديها كسائر مدن الشام ولكنها احتفظت بحصنها . وقد مرّ بنا كيف تنص رواية من الروايات على ان المسلمين صالحوا سكان بيت المقدس على « شيء » يؤدونه وأعطوهم ما أحاط به حصنهم على ان يكون للمسلمين ما كان خارجاً . وقوطع اهل اللاذقية على « خراج » يؤدونه قلوا او كثروا ! .

ولما فتح عياض ابن غنم الرها أعطاهم أماناً لانفسهم واموالهم وكنائسهم «على انلا يحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا يظهروا ناقوساً ولا باعوثاً ولا صليباً» (٢).

عهدة عمر : ونظر عمر ابن الخطاب نظرة فاتح مؤسس فأمّن وعدل وأنصف واعتبر الدولة الفتية دولة اسلامية تحمي الإسلام والمسلمين اولا كما كانت دولة الروم دولة مسيحية تحمي المسيحية والمسيحيين اولا. ومن هنا قوله الى عمرو ابن العاص عندما حل القحط في المدينة : « أخرب الله مصر في عمران المدينة وصلاحها » (٣) .

وروى عبد الرحمن ابن غنم الاشعري الذي توفي سنة ٧٨ للهجرة : «كتبنا لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام : هذا كتاب لعبدالله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا انكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لانفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا ان لا نحدث

١) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٥٩

٢) المصدر نفسه ص ١٧٣

٣) الرسل والملوك للطبري ج ١ ص ٢٥٧٧

في مدائننا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطاً منها في خطط المسلمين في ليل ولا نهار . وان نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وان ننزل من مرّ بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم. ولانؤوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً ولا نكتم غشاً للمسلمين ولا نعلّم اولادنا القرآن ولا نظهر شرعنا ولا ندعو اليه احداً ولا نمنع احداً من ذوي قرابتنا الدخول في الاسلام ان أراد . وان نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا اذا ارادوا الجلوس . ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتني بكناهم ولا نركب بالسروج ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمور. وان نجزّ مقادم رؤوسنا ونلزم زيّنا حيثما كنا . وان نشد الزنانير على اوساطنا ولا نظهر صلباننا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا اسواقهم . ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا الا ضرباً خفيفاً . ولا نرفع اصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين . ولا نخرج شعانيننا ولا باعوثنا ولا نرفع اصواتنا مع موتانا . ولا نظهر النيران في شيء من طرق المسلمين ولا اسواقهم . ولا نجاورهم بموتانا . ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ولا نتطلع الى منازلهم».

وأتى الاشعري خليفة الخليفة وأطلعه على هذا النص فزاد فيه : « ولا نضرب احداً من المسلمين . شرطنا ذلك على انفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الامان. فان نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وضمنا على انفسنا فلا ذمة لنا وقد حل منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق » (١) .

الكنائس والاديار : واحترم المسلمون حق النصارى في استعمال الكنائس القائمة في اكثر المدن والقرى . وأخذوا بعضها عنوة ككنائس الغوطة

١) سراج الملوك للطرطوشي ص ٢٨٣

وطبرية (١) . اما كتدرائية دمشق فان نصفها أصبح مسجداً منذ اللحظة الاولى. وأراد معاوية ان يزيد النصف الاخر في المسجد « فأبى النصارى ذلك فأمسك» . وما فتيء بيدهم حتى عهد الوليد ابن عبد الملك (٢) . وأمن ابو عبيدة نصارى حمص على كنائسهم ولكنه استثنى ربع كنيسة يوحنا للمسجد (٣) .

خروج النصارى : وجاء في المراجع العربية في كتاب فتوح البلدان للبلاذري انه لما فتحت دمشق « لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو في انطاكية فكثرت فضول منازلها » . وجاء أيضاً ان يزيد ابن ابي سفيان وأخاه معاوية « أجليا كثيراً من أهالي صيدا وبيروت وجبيل وعرقة » لدى فتحها وأن اهالي طرابلس « هربوا » بمراكب قبيل سقوط بلدتهم . وجاء ايضاً ان جبلة ابن الأيهم الغساني دخل بلاد الروم بعد اليرموك « في ثلاثين الفاً » وان أهل انطاكية صالحوا على الجزية والجلاء «فجلا بعضهم وأقام بعضهم » وان أكثر اهالي بالس وقاصرين جلوا الى بلاد الروم وكذلك سكان الثغور الشامية بين الاسكندرونة وطرطوس فانهم « هربوا الى بلاد الروم خوفاً » وقيل ان هرقل أدخلهم معه عند انتقاله من انطاكية . ووجّه ابو عبيدة ميسرة ابن مسروق الى درب بغراس ليقطعها « فلقي جمعاً للروم معهم مستعربة من غسان وتنوخ واياد يريدون اللحاق بهرقل » (٤) .

ولم يرض هرقل عن هذا النزوح الكبير فانه أعلم المخلصين من النصارى في جميع أنحاء سورية وفلسطين انه عائد لا محالة وأوجب عليهم البقاء في أماكنهم استعداداً لجولة ثانية في ميدان القتال (٥).

١) فتوح البلدان للبلاذري ص ١١٦ و١٢٥

٢) المصدر نفسه ص ١٢٥

Jalabert, L., Damas, Dict. Arch. Chrét., IV, Col. 125 - 126.

٣) المصدر نفسه ايضاً ص ١٣١

٤) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٢٣ و١٣٢ و١٣٦ و١٤٧ و١٥٠ و١٦٤

5) *Dolger, Reg., 210; Agapius de Mabong, Patr. Or., VIII, Fasc. 3, 471.*

اليعاقبة والمسلمون : ويرى عدد من المستشرقين المستعربين ومن رجال الاختصاص في تاريخ الروم ان اختلاف النصارى في كنيسة انطاكية حول الطبيعة الواحدة وضغط الروم على من لم يشاركهم قولهم في الطبيعتين حمل اليعاقبة على الترحيب بالدولة الاسلامية الجديدة . ويغيب عن بال هؤلاء ان معظم من وقف الى جانب هرقل من قبائل النصارى العرب كان ممن قال بالطبيعة الواحدة وان من نزح من هؤلاء الى بلاد الروم كان من المونوفيسيين ايضاً وأن هرقل كان قد ثبّت (٦٣١) في رئاسة الكنيسة الانطاكية بطريرك اليعاقبة انفسهم اثناسيوس الجمال وان بابا رومة كان قد سكت عن القول بالمشيئة الواحدة او قاله وان بطاركة القسطنطينية والاسكندرية وأرمينية كانوا قد اتفقوا على هذه العقيدة الجديدة وحدها . فلا يجوز بازاء هذه الحقائق الناصعة وازاء الاعمال الحربية التي قام بها اليعاقبة انفسهم ضد المسلمين ان نقول مع افتيخيوس ان ابناء حمص رأوا في هرقل امبراطوراً مارونياً عدواً للدين القويم لانه قال بالمشيئة الواحدة(١). واما قول المستشرق المستعرب ده غويه ان حروب الفتح استهدفت تحرير العرب في سورية من نير الروم فانه مجرد خيال لا تؤيده النصوص .

البطريرك مقدونيوس : (٦٢٨ ـ ٦٤٠) وكاد اليهود لانسطاسيوس الثاني خليفة الرسولين وأمسكوه وعذّبوه وجرّوه في شوارع انطاكية جراً فقضى نحبه شهيداً في السنة ٦٠٩ . ثم كان ما كان من امر الفرس وزحفهم فتولى السدة الرسولية الانطاكية غريغوريوس الثاني . وكان آنئذ في القسطنطينية فبات ينتظر نهاية الحرب الفارسية لينهض الى انطاكية ويدير دفة الرئاسة بنفسه . وطالت الحرب فطال انتظاره وتوفي في القسطنطينية بعيداً عن انطاكية في السنة ٦٢٠ . وخلفه في الرئاسة انسطاسيوس الثالث وبقي في القسطنطينية حتى وفاته في السنة ٦٢٨ (٢) .

وكان سرجيوس البطريرك المسكوني قد بدأ يقول بالمشيئة الواحدة . ورغب في تعميم رأيه وتدعيمه فسعى لمقدونيوس احد اصدقائه برئاسة كنيسة

1) *Patr. Graeca, Vol. 111, Col. 1088.*

2) *Constantius, Patriarchs of Antioch, Neale, J.M., op. cit., 167.*

انطاكية . وتسلّم مقدونيوس عكاز الرعايـــة في القسطنطينية وبقي فيها (١) . وقضت ظروف التقارب وتوحيد الصفوف بالاعتراف ببطريرك اليعاقبـة اثناسيوس الجمال بطريركاً على انطاكية مقابل اعترافه بالطبيعتين والمشيئة الواحدة فأصبح هو رئيس كنيسة انطاكية المسؤول . ثم توفي اثناسيوس بعد هـذا بقليل (٦٣١) فعادت السلطة الى يد مقدونيوس . ووافق مقدونيوس صديقه سرجيوس فأعلن قوله بالمشيئة الواحدة وسعى لتعميمه في ابرشيات انطاكيـة . فقال هذا القول عدد كبير من الاساقفة والرهبان وبين هؤلاء رهبـان القديس مارون كما سبق وأشرنا (٢) . وظهر الاكثيسيس وقد سبق الكلام عنه ، فأيده مقدونيوس وحث المؤمنين على قبوله .

البطريرك جاورجيوس الاول : (٦٤٠ ـ ٦٥٥) واستمر العداء بين الروم والمسلمين . وأنفذ الروم حملة على مصر وحملة غيرها على انطاكية (٦٤٦) وركب المسلمون البحر وهجموا على قبرص (٦٤٩) واحتلوا جزيرة ارواد (٦٥٠) وانتصروا على اسطول الروم في « ذات الصواري » (٦٥٥) فلم يتمكن جاورجيوس الاول خلف مقدونيوس من الوصول الى انطاكية والاقامة فيها. فبقي في القسطنطينية حتى وفاته في السنة ٦٥٥ .

مجمع اللاتران : (٦٤٩) وتوفي هرقل في السنة ٦٤١ وتولى العرش بعده في آن واحد كل من ولديه قسطنطين الثـاني وهرقلون على ان يحكما باشراف الفسيلسة مرتينة زوجة هرقل الثانيـة ووالدة هرقلون . وتوفي قسطنطين الثاني في السنة ٦٤١ مسموماً فاتهمت مرتينة بقتل ابن ضرتها وتمرد الجند وا كرهوا مرتينة على اشراك قسطنطين الثالث ابن قسطنطين الثاني في الحكم . ثم قطع لسان مرتينة وجدع انف ابنها ونفيـا الى رودوس . وتولى الحكم قسطنطين الثـالث (٦٤١ ـ ٦٦٨) .

وكان هرقل قد اصدر في سنة ٦٣٨ الاكثيسيس الذي اوجب به القول بالمشيئة الواحدة . وكان بيروس قد خلف سرجيوس على السدة المسكونيـة

1) *Hefelé - Leclercq, op. cit., III, 390 - 391.*
2) *Bréhier, L., Schisme Monothélite, Fliche et Martin, op. cit., V, 169.*

(٦٣٨) واضطر ان يتنازل على اثر هياج الشعب في العاصمة ضد مرتينة ربيبـته فهاجر الى افريقيـة . وكان قد قام بينه وبين مكسيموس المعترف جدال علني (٦٤٥) انتهى باقتناع بيروس ورجوعه عن بدعة القول بالمشيئة الواحدة .

فكتب بيروس الى بولس الثـاني خليفته على عرش كنيسة القسطنطينية يهدده بالقطع ان لم يرجع عن الهرطقة ويرفع الاكثيسيس عن ابواب الكنائس . ورحل بيروس ومكسيموس معاً الى رومـة فأيدهما البابا ثيودوروس الاول (٦٤٢ ـ ٦٤٩) فألغى قسطنطين الثـالث الاكثيسيس وأصدر التيبوس *Typos* القانون (٦٤٨) محظراً به كل تعليم بالمشيئة الواحدة او المشيئتين (١) .

وتوفي غريغوريوس برايفيكتوس افريقيـة وصديق بيروس وحاميه فخشي بيروس الا يتمكن من العودة الى عرش القسطنطينية فالتجأ الى افلاطون اكسرخوس رابينه وعاد الى القول بالمشيئة الواحدة . فغضب البابا ثيودوروس ودعا مجمعاً محلياً ثم زار قبر الرسول مستجيراً وغمس «قلامسه *Calamus*» قلمه في الدم المقدس ووقع حارماً بيروس (٢) .

وانقضى أجـل ثيودوروس الاول في الثالث عشر من ايار سنة ٦٤٩ فخلفه على السدة الرومانية مرتينوس الاول (٦٤٩ ـ ٦٥٣) . وكان مرتينوس قد مثّل السدة الرومانية في القسطنطينية مدة من الزمن وخبر رجالهـا . فلم يرَ فائدة في المفاوضة . فلما تسلم عكاز الرعاية دعا الى اللاتران عدداً كبيراً من الاساقفة للنظر في أمر البدعة الجديدة . ولبّى هذه الدعوة مئة وخمسة اساقفة معظمهم من ايطالية وبعضهم من افريقـية . ووصل اسطفانوس اسقف دورة في فلسطين فاشترك في أعمال هذا المجمع . وحضر الجلسات عـدد من القساوسة والرهبان اليونانيين المقيمين في رومة آنئذ . وكان بين هؤلاء يوحنا رئيس دير القديس سابا الفلسطيني وجاورجيوس رئيس دير قيليقي في رومة .

وأجمع الاعضاء على شجب التعاليم الجديدة واعتبارها خروجاً وهرطقـة

1) *Mansi, X, 1029 - 1032 ; Hefelé - Leclercq, III, 432 - 434.*
2) *Theophanes, Chron., a. 6121; Hefelé-Leclercq, III, 430; Liber Pontificalis, (Duchesne), I, 332.*

فكانت جلسات خمس استمع فيها الآباء الى قراءة جميــع ما صنف في المشيئة الواحدة والى الاوامر الامبراطورية الصادرة في صددها فاعتبروها جميعها من صنع سرجيوس وبيروس وبولس بطاركة القسطنطينيــة وكيروس بطريرك الاسكندرية وثيودوروس اسقف فارانة . ثم نبذوها وقطعوا هؤلاء البطاركة . وكرروا الاعتراف بالايمان النيقاوي واقترحوا اضافــة بند ينص على القول بالمشيئتين (١) .

مرتينوس وانطاكية واوروشليم : وساء الاباء المجتمعين انتشار القول بالمشيئة الواحدة في ابرشيات انطاكية واوروشليم وعلموا بشغور الكرسي الاوروشليمي وبابتعاد بطاركة انطاكية عن حقل عملهم وقولهم بالمشيئة الواحدة فأقام مرتينوس اسقف فيلادلفية (عمان) وكيلا بطريركياً على ابرشيات الكنيستين الانطاكية والاوروشليمية وحضه على خلع كل اسقف يصر على القول بالمشيئة الواحدة (٢) . ووجه مرتينوس رسالة رعائية الى المؤمنين في انطاكية واوروشليم كما كتب الى بعض الشخصيات الكبــيرة من الشعب والاكليروس . ومما جاء في هذه الرسائل : ان مقدونيوس انتحل الاسقفية لنفسه وان الكنيسة الجامعة لا تعرفه اسقفاً لانه يوافق الهراطقة (٣) .

ويلاحظ هنا ان هــذه الرسائل التي صدرت في السنة ٦٤٩ اعتبرت مقدونيوس مستمراً في رئاسة الكنيسة الانطاكية . وهو أمر ذو بال يوجب بحثاً دقيقاً في تعيين السنوات التي ترأس فيهــا كل من مقدونيوس وجاورجيوس ومكاريوس كنيسة انطاكية .

استشهاد مرتينوس ومكسيموس : واستعظم قسطنطين الثالث موقف مرتينوس ومكسيموس فأمر بالقاء القبض عليهما ومحاكمتهما امام المجلس الاكليريكي الاعلى في القسطنطينية . فجاء القديسان الى العاصمة واتهما بالمؤامرة على سلامة الدولة وعذبا تعذيباً . ثم نفي مرتينوس الى الخرسونة في ربيع السنة ٦٥٥

1) *Mansi, X, Col. 863 - 1170 ; Hefelé - Leclercq, III, 434 - 451 ; Theophanes, Chron., a. 6121, 6141.*
2) *Mansi, X, Col. 806 - 822.*
3) *Hefelé - Leclercq, III, 452-453 ; Duchesne, L., L'Eglise au VI Siècle, 443.*

فتوفي فيها . ثم نقل جثمانه الى رومة في الثاني عشر من تشرين الثاني فأحيت الكنيسة الجامعة بفرعيها اليوناني واللاتيني ذكر هذا الشهيد البار (١) .

وما كاد المركب الذي أقل مكسيموس وتلميذيه انسطاسيوس وانسطاسيوس يرسو في ميناء العاصمة حتى هجم الجند على مكسيموس وعرّوه من ثيابه الرهبانية وجروه جراً في شوارع القسطنطينية . ثم ساقوه أمام ديوان الامبراطور وحققوا معه في تهمة الخيانة والتآمر على سلامة الدولة . فلم يثبت عليه شيء منها فأعادوه الى السجن وأرسلوا من يقنعه بالخضوع للأمبراطور والقول بالتيبوس . فقال كيف أطيع الملك وأغضب الله . فنفوه مع تلميذيه . ثم حاولوا اقناعه مرة ثانية فلم يفلحوا . فلما أعيتهم الحيل رشقه المجلس الاكليريكي بالحرم . ثم صدرت الأوامر بقطع لسانه ويده اليمنى ليمتنع عن الكلام والكتابة . وحل بتلميذيه مثلما حلّ به . ونفي مكسيموس ورفيقاه الى لازقة . وتوفي القديس فيها في الرابعــة والثمانين من عمره وفي الثالث عشر من آب سنة ٦٦٢ (٢) .

« لنكرمن ايها المؤمنون بالتسابيح الواجبة محب الثالوث مكسيموس العظيم الذي علم بالايمان علانية بأن يمجد المسيح بطبيعتين ومشيئتين وفعلين هاتفين السلام عليك يا كاروز الايمان » . اورولوغيون ــ ٢١ كانون الثاني .

تقارب ومهادنة : وسئم الطرفان الروماني والقسطنطيني هذا التنافر وهذه القساوة . وتزايد الضغط الاسلامي وتعاظم الخطر . وتوفي البابا اوجانيوس الأول (٦٥٤ ــ ٦٥٧) وخلفه فيتاليانوس (٦٥٧ ــ ٦٧٢) فأعلم هذا قسطنطين الثالث بارتقائه السدة الرومانية وكتب الى زميله في القسطنطينية الرسالة السلامية . فاعترف الامبراطور بقانونية الانتخاب البابوي وقدم الهدايا الملكية وبينها انجيل مذهب مرصع (٣) . ويستدل من أعمال المجمع السادس ان فيتاليانوس امتنع عن نبذ التيبوس وان الامبراطور أكد تعلقه بالتعاليم الارثوذكسية فتمت مهادنة عاد على أثرها اسم البابا الى ذيبتيخة الكنيسة القسطنطينية (٤) .

1) *Diehl, C., L'Exarcat de Ravenne, 406 - 408 ; Leclercq, H., Les Martyrs, IV, 234 - 246.*
2) *Acta Sancti Maximi, Pat. Gr., Vol. 90, Col. 109-170 ; Bréhier, L., Schisme Monothélite, V, 173 - 175 ; Assaf, M., Synxarion, I, 91 - 98.*
3) *Liber Pontificalis, (Duchesne) I, 343.*
4) *Mansi, IX, Col 199.*

الفصل الحادي والثلاثون

المجمع المسكوني السادس

٦٦٨ - ٧١٥

قسطنطين الرابع : (٦٦٨ ـ ٦٨٥) وأساء قسطنطين الثالث الظن بأخيه ثيودوسيوس فألبسه ثوب الرهبنة ثم أمر به فقتل . فثار به ضميره وأصبح اخوه يتراءى له حاملا كأساً من دمه ويقول له : اشرب يا أخي ! فكره قسطنطين الاقامة في المدينة التي ارتكب فيها اثمه ونزح عنها. وفي السنة ٦٦٢ ذهب الى رومة فاستقبله فيها البابا فيتاليانوس بالحفاوة والاكرام . اما الشعب في القسطنطينية فانه لم يرض عن تغيب قسطنطين ومنع التحاق زوجته واولاده به . ثم بعد ست سنوات دخل قسطنطين حماماً في سرقوسة فضربه خادم الحمام بصندوق من الصابون على رأسه فتوفي في السنة ٦٦٨ .

وفي اثناء غياب هذا الامبراطور كان ابنه قسطنطين الرابع يسوس الملك وهو بعد فتى . فلما علم بقتل والده ونشوب الثورة في صقلية نهض اليها فاخذ بالثأر ثم عاد والشعر قد نبت في وجهه فلقب بالألحى *Pogonatos* .

التوسع الاسلامي : وكانت الاضطرابات الداخلية التي نجمت في الدولة الاسلامية عن مقتل عثمان ابن عفان قد انتهت . فاستتب الامر لمعاوية ابن ابي سفيان (٦٦١ ـ ٦٨٠) . ومعنى هذا في رأينا ان الأمر استتب لتجار قريش اولئك الذين قدروا عظمة التجارة التي كانت تربط حوض المتوسط بالشرق الاقصى . فكان بالتالي طبيعياً ان يدركوا مبلغ الخسارة التي حلت بأبناء الساحل اللبناني السوري المصري من جراء ما سبب لهم الفتح الاسلامي من انقطاع عن أسواقهم في آسية الصغرى والبلقان وايطالية واوروبة الغربية . وهكذا فانهم لم يروا بدأً من متابعة الحرب ضد الروم ودفعها الى نتيجة حاسمة (١) .

1) *Lewis, A. R., Naval Power and Trade in the Mediterranean*, 54 - 55.

وكان معاوية ومن حوله يعلمون علم يقين ان رغبة الروم في العودة الى القتال لم تنته . وقد اغتنم قسطنطين الثالث فرصة انشغال معاوية بالمشاكل الداخلية فدس الى جبال العلويين فلبنان بضعة الاف من المردة يغيرون منها على الحواضر والارياف فيهددون سيادة المسلمين في الشام ويعيثون في البلاد فساداً . وكان معاوية قد صالح قسطنطين هذا على مال يؤديه له كل سنة شرط ان يقطع قسطنطين الاعانة عن المردة (١) .

واغتيل قسطنطين الثالث في السنة ٦٦٨ واعتلى اريكة الملك بعده فتى يافع هو قسطنطين الرابع . وتمرد الجند مطالبين بحق اخوي هذا الملك الفتى . وثار مزيزيوس في صقلية وسابوريوس في ارمينية . واستنجد سابوريوس بالعرب . فرأى معاوية ان الفرصة سانحة . وكان قد احتاط لأمر المردة فاستقدم عدداً من الفرس وأسكنهم مدن الساحل اللبناني واتبعهم في السنة ٦٦٩ غيرهم من اهل العراق (٢) . ثم عني بترميم الحصون الساحلية . وفي السنة ٦٦٩ قام بمناورة عسكرية بحرية وبرية في الغرب ليضلل خصمه . ولكنه في الوقت نفسه سير غزو الدفاع البيزنطي في آسية الصغرى فاذا بطلائع جيشه تصل الى القسطنطينية . وكان زعيم هذه الحملة ابا ايوب الانصاري وقد توفي في اثنائها فدفن خارج اسوار عاصمة الروم !

وفي ربيع السنة ٦٧٣ وصلت عمارة اسلامية كبيرة الى مياه القسطنطينية تحاصر عاصمة الروم وتحاول انزال الجنود . فصدتها مراكب الروم . وفي الخريف عادت هذه العمارة الى شبه جزيرة كيزيكوس لتمضي فصل الشتاء وتتلقى المؤن والذخائر من قواعدها في الساحل اللبناني السوري . وفي الربيع التالي استأنف المسلمون الحصار فارتدوا ثانية . فعادوا يصرفون الشتاء في كيزيكوس . وظلوا كذلك حتى المرة الرابعة . واستعمل الروم في هذا الحصار النار الاغريقية فنشروا الذعر في صفوف المسلمين . وجاءت السنة ٦٧٧ فاذا بالمسلمين يعودون

١) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٥٩
٢) الاعلاق النفيسة لابن رستة ص ٣٢٧ والبلاذري ايضاً

الى الحصار . فانطلقت لصدهم مراكب النار البحرية فأحرقت عدداً كبيراً من مراكب المسلمين فاضطر ما بقي الى العودة الى قواعده في الشام . وهبت عاصفة هوجاء حطمت قسماً آخر وطارد الروم البقية الباقية فغنموا معظمها (١) . وفي السنة ٦٧٨ فاوض معاوية الروم في الصلح فأقروه عليه لثلاثين سنة شرط ان يدفع في كل سنة ثلاثة الاف قطعة من الذهب وخمسين جواداً عربياً وخمسين عبداً (٢) .

وتوفي يزيد ابن معاوية في السنة ٦٨٣ فتولى الخلافة بعده معاوية الثاني. ورأى هذا انه ليس بأهل للخلافة فخلع منها نفسه ولم يعين له خليفة . فعادت الامور الى ما كانت عليه قبل ثلاث سنوات عندما توفي معاوية الاول . وتبوأ العرش مروان ابن الحكم وكان رجلا طاعناً في السن . فاستغل قسطنطين الرابع مشاكل يزيد فاكرهه على الخروج من قبرص . وجاءت مشاكل معاوية الثاني ومروان فزحفت جيوش قسطنطين عبر الحدود الجنوبية فدكت حصون ملاطية وأجلت المسلمين عن مرعش . وتوفي مروان فاضطر ابنه وخليفته عبد الملك ان يفاوض الروم وان يدفع مالا سنوياً أكثر مما كان غيره يدفع من قبل . وتم الصلح على هذا الشرط في السابع من تموز سنة ٦٨٥ (٣) .

المجمع المسكوني السادس : (٦٨٠ — ٦٨١) ولم يقوَ زوان سرجيوس وكيروس واونوريوس على حنطة صفرونيوس ومكسيموس . وأثمر التقارب الذي تم بين الامبراطور قسطنطين الرابع وبين البابا فيتاليانوس فرقي السدة القسطنطينية بطاركة ثلاثة عرفوا بالمحبة والمسالمة وهم توما (٦٦٧ — ٦٦٩) ويوحنا (٦٦٩ — ٦٧٥) وقسطنطين (٦٧٥ — ٦٧٧) . ثم جاء ثيودوروس في صيف السنة ٦٧٧ ، وكان ضعيف الرأي شديد الاصغاء الى زميله مكاريوس بطريرك انطاكية ، فالتبس عليه وجه الصواب وطالب بحذف اسم فيتاليانوس بابا رومة من الذيبتيخة . وكان قسطنطين الرابع قد نجح في صد المسلمين ورغب

1) *Canard, M., Expéditions des Arabes contre Constantinople, Journ. Asiat., 1925 - 1926, 77 - 80.*
2) *Theophanes, Chron., a. 6169 ; Nicephore, 32 - 33, 42 ; Dolger., Reg., 239.*
3) *Brooks, E. W., Successors of Heraclius, Cam. Med. Hist., II, 400 - 406.*

في اخماد الفتن الداخلية وتوحيد الصفوف فلم يكتف برد طلب ثيودوروس بل انه عمد الى عقد مؤتمر شرقي غربي تبحث فيه أهم نقاط الخلاف الديني (١) . فكتب في صيف هذه السنة نفسها الى دونوس بابا رومة وطلب اليه ان يوفد اثني عشر اسقفاً ايطالياً الى مؤتمر ينظر في الخلاف القائم في العقيدة . وكتب الامبراطور الى اكسرخوس رابينة يأمر بتسهيل سفر هؤلاء الاساقفة وابحارهم الى القسطنطينية (٢) . وكان دونوس قد توفي في نيسان السنة ٦٧٩ فخلفه اغاثون . فاتصل البابا الجديد بأساقفة الغرب مستمزجاً . فتأخر جوابه فانتهز ثيودوروس القسطنطيني هذه الفرصة فحذف اسم فيتاليانوس من الذيبتيخة . فرد عليه الامبراطور بأن أمر به فخلع واستعيض عنه بجاورجيوس . وكان هذا أقل تمسكاً بالمونوثيلية من سلفه (٣) .

وفي اوائل ايلول السنة ٦٨٠ وصل الوفد الروماني الى القسطنطينية . وكان مؤلفاً من اساقفة ثلاثة وقسيسين وشماس وايبوذياكون . وحمل هذا الوفد رسالة من اغاثون الى قسطنطين تنبىء بتأليف الوفد وباستعداد اعضائه لتأييد قرارات المجامع المسكونية السابقة (٤) . وحمل الوفد ايضاً بياناً بالايمان موقعاً من البابا ومئة وخمسة وعشرين اسقفاً غربياً يؤكدون فيه نبذ التعليم بالمشيئة الواحدة (٥) . ولدى وصول هذا الوفد طلب الامبراطور الى كل من جاورجيوس بطريرك القسطنطينية ومكاريوس بطريرك انطاكية ان يدعوا الاساقفة الخاضعين لسلطتهما الى القسطنطينية للاجتماع بزملائهم الغربيين (٦) . فلبى الدعوة بادىء ذي بدء ثلاثة واربعون اسقفاً ثم تكاثروا حتى أصبح مجموع الموقعين مئة واربعة وسبعين . ومثل كنيسة الاسكندرية القس بطرس وكنيسة اوروشليم القس جاورجيوس . وبدأت أعمال المجمع في السابع من تشرين الثاني سنة ٦٨٠ وانتهت في السادس عشر من ايلول سنة ٦٨١ . وبلغ عدد الجلسات الرسمية ثماني عشرة جلسة .

1) *Mansi, XI, Col. 617 - 620.*
2) *Dolger, Reg., 242 ; Liber Pontificalis, I, 350.*
3) *Theophanes, Chron., a. 6168, 6169, 6170.*
4) *Mansi, XI, Col. 234 - 286.*
5) *Mansi, XI, Col. 286 - 315 ; Hefelé - Leclercq, III, 477 - 483.*
6) *Dolger, Reg., 244 ; Mansi XI, 201 - 204 ; Hefelé - Leclercq, III, 483 - 484.*

وعقد المجمع جلساته في قاعة القبة « الاطرولّوس » *In Trullo* . وجلس قسطنطين الرابع في حفلة الافتتاح في صدر المجلس وعن جانبيه قضاة الدولة . ثم جلس عن يساره نواب البابا ونائب بطريرك اوروشليم . وجلس عن يمين الامبراطور جاورجيوس بطريرك القسطنطينية ثم مكاريوس بطريرك انطاكية ثم نائب بطريرك الاسكندرية فسائر الاساقفة بعضهم عن اليمين والبعض عن اليسار. وجعل الانجيل المقدس في الوسط .

وطلب نواب البابا في الجلسة الاولى الى اكليروس القسطنطينية ان يشرحوا القول بالفعل الواحد والمشيئة الواحدة . فطلب الامبراطور الى البطريركين جاورجيوس ومكاريوس ان يجيبا . فقال بطريرك انطاكية : انه موجود في مجامع اشهر الآباء وبطاركة القسطنطينية ومعتقدات كيروس الاسكندري واونوريوس بابا رومة . فطلب القصر البينة على ذلك . فاحضرت اعمال المجامع وقرئت في الجلسات الاربع التالية . وتبين ان الرسالة التي نسبها سرجيوس بطريرك القسطنطينية الى سلفه في الكرسي ميناس لم تتفق في الخط والترقيم وما قبلها وما بعدها من اعمال المجمع الخامس . ولدى التفتيش في محفوظات بطريركية القسطنطينية وجدت نسخة اخرى من اعمال هذا المجمع نفسه وتبين انها خالية من نص الرسالة موضوع البحث (١) .

وفي الجلستين الخامسة والسادسة في السابع من كانون الاول سنة ٦٨٠ والثاني عشر من شباط سنة ٦٨١ قدّم مكاريوس البطريرك الانطاكي ثلاثة مجلدات ضمنها نصوصاً ادعى انها تؤيد القول بالمشيئة الواحدة . وفي الجلسة السابعة في الثالث عشر من شباط قدّم الوفد الروماني مقتطفات من اقوال الآباء في تأييد القول بالمشيئتين .

وفي الجلسة الثامنة في السابع من آذار سنة ٦٨١ طلب الامبراطور الى البطريركين جاورجيوس ومكاريوس ان يبديا رأيهما في بيان البابا اغاثون . فعاد جاورجيوس الى نصوص الآباء ودرسها على ضوء ما جاء في بيان زميله الروماني

1) *Hefelé - Leclercq, III, 487 - 490, 504 - 506.*

فتبين له وجه الصواب وقال بالمشيئتين ووافقه في ذلك جميع الاساقفة الخاضعين لسلطته . وطلب هذا البطريرك اعادة اسم البابا فيتاليانوس الى الذبتيخة فأعيد . ثم سئل مكاريوس والاساقفة الانطاكيون عن رأيهم . فوافق هؤلاء الاساقفة على القول بالمشيئتين ولكن مكاريوس أبى مدعيـاً ان القول بالمشيئتين يعرضها الى الاختلاف والتناقض . فأعـاد الامبراطور الطلب فأنكر البطريرك مفضلا الموت مقطعاً على القول بالفعلين والمشيئتين .

وانصرف الآباء في الجلسة التاسعة الى التدقيق في المجلدات الثلاثة التي وضعها مكاريوس لتأييد القول بالفعل الواحد والمشيئة الواحدة . وقابلوا بعض ما أخذه عن الآباء بالاصول فظهر التبديل والتحريف . فاقترح الاباء قطع مكاريوس وتلميذه اسطفانوس . وخصصت الجلسـة العاشرة للتدقيق في ما قدمه الوفد الروماني ومقابلته بالاصول.

واجتمع الآباء للمرة الحادية عشرة والثانيـة عشرة في العشرين والثاني والعشرين من اذار لدرس جميع ما صنف مكاريوس . فتليت جميعهـا وسئل مكاريوس عنها فاعترف بصحة نسبتها اليه. فسأل القضاة المجمع ماذا يكون مصير مكاريوس بعد الندامة والتوبة وهل يظل بطريركاً على انطاكية : فلم يرض الآباء الاعضاء . فخلع مكاريوس ونوّه بثيوفانس خلفاً له (١) .

وفي الجلسة الثالثة عشرة حكم بالحرم على سرجيوس وبيروس وبطرس بطاركة القسطنطينية وعلى كيروس بطريرك الاسكندريـة وعلى اونوريوس بابا رومة وثيوذوروس اسقف فارانة سيناء .

ودخل على الآباء في الجلسة الخامسـة عشرة في السادس والعشرين من نيسان قس متوحد من اتباع مكاريوس اسمه بوليخرونيوس . وادعى هذا القس انه رأى في حلم ملائكة سماويين وفيهم رجل عظيم الجلال أوصاه ان يذهب الى الامبراطور وينذره الا يقول الا بمشيئة واحـدة. وأدعى القس ايضاً انه يستطيع اقامـة الاموات تصديقاً لرسالته . فخرج الاساقفة والرؤساء الى ساحة الحمام

1) *Hefelé - Leclercq, III, 499 - 504.*

ووضعوا أمام القس ميتاً على نعش وطلبوا اليـه ان يقيمه . فوضع القس على صدر الميت اعترافه بالمشيئة الواحدة وانحنى عليه يتبتب فلم يستطع ان يفعل شيئاً فقطعه المجمع وحرمه (١) .

وفي الجلسة السابعة عشرة صدق المجمع جميـع أعماله السابقة وحرم المعتقدين بالمشيئة الواحدة والفعل الواحـد . وفي الثامنة عشرة في السادس عشر من ايلول سنة ٦٨١ تلي اعتراف المجمع هكذا : « بمسيح وابن ورب وحيـد هو نفسه بطبيعتين واقنوم وشخص واحـد وبمشيئتين طبيعيتين وفعلين طبيعيين بلا انقسام ولا تغير ولا تجزؤ ولا اختلاط ... وليست المشيئتان متضادتين . حاشى ! بل المشيئة البشرية تتبع بلا مقاومة ولا مناكفة وتخضع لمشيئته الالهية القادرة على كل شيء » (٢) .

وجاء حرم البابا اونوريوس هكذا : « واننا نحرم اونوريوس الذي قام بابا على رومة القديمة لاننا وجدناه في تحاريره الى سرجيوس تابعاً في كل شيء لرأيه وموافقاً على عقائده الفكرية » . ووافق نواب البابا على هـذا الحرم وأيده البـابا لاوون الثـاني لان اغاثون توفي في مطلـع السنة ٦٨١ .

واعتبر المجمع رسالة صفرونيوس الى سرجيوس من اعمال المجمع . ودعا آباء المجمع للرؤساء فقالوا : « اننا ندعو بالسنين الكثيرة لاغاثون بابا رومة وجاورجيوس وثيوفانس بطريركي القسطنطينية وانطاكية وللمجمع والسينودوس . » ودعوا ايضاً لقسطنطين الرابع « نصير الارثوذكسية وعمود الكنيسة وحارس الايمان » . ووافق الامبراطور على جميع اعمال هذا المجمع وأوجب القول والعمل بها بارادتين امبراطوريتين الاولى بتاريخ السادس عشر من ايلول والثانية بتاريخ الثالث والعشرين من كانون الاول سنة ٦٨١ (٣) .

1) Mansi, XI, Col. 602 - 611.
2) Mansi, XI, Col. 611 - 622. Hefele - Leclercq, III, 515 - 538 : Duchesne, L., L'Eglise au VI Siècle,472 - 473 ; Bréhier, L., La Paix Religieuse, Fliche et Martin, op. cit., V, 189 - 190.
3) Dolger, Reg., 248 ; Mansi, XI, Col. 727 - 729.

يوستنيانوس الثـاني : (٦٨٥ ــ ٦٩٥) وتوفي قسطنطين الرابع في اول ايلول سنة ٦٨٥ فتولى العرش بعده ابنه يوستنيانوس الاشرم *Rhinometos* وكان لا يزال في السادسة عشرة من عمره . وكان طموحاً مشبعاً بحب العظمـة والمجد فأراد ان يحتذي مثال سميـه يوستنيانوس الاول . ولكنه كان يشكو شيئاً من قلة الاتزان فتطور سوء ظنه بالناس وحبه للعنف الى شراسة في الخلق ورغبة في سفك الدماء . اما في امور العقيدة فانه كان ارثوذكسياً مخلصاً متمسكاً بقرارات المجامع المسكونية (١) .

المجمع الخامس السادس : (٦٩٢) وأدت حروب القرن السابع وفتنه الى اهمال القوانين الكنسية وقلـة الاكتراث بها (٢) . وحصر آباء المجمعين الخامس والسادس أبحاثهم في امور العقيدة ولم يعالجوا مشاكل الكنيسة الاداريـة فدعا يوستنيانوس الثاني الى مجمع يكمل اعمال هذين المجمعين فيعنى بالادارة والضبط . ومن هنا تسميته بالمجمع البنثيكتي *Penthektos* اي الخامس والسادس . واسمه في الآداب الكنسية الغربية *Quinesextum* .

واشترك في اعمال هذا المجمع مئتـان وسبعة وعشرون اسقفاً او مئتان واربعون . وأبرزهم بولس بطريرك القسطنطينية وبطرس بطريرك الاسكندرية وجاورجيوس بطريرك انطاكيـة وانسطاسيوس بطريرك اوروشليم واسقف غورتيني واسقف رابينة نائبـا بابا رومة . واجتمع الاعضاء وعقدوا جلساتهم في القسطنطينية وفي قاعة القبة ايضاً .

وسن المجمع البنثيكتي مئة قانون وقانونين . واثبت الابـاء في اول هذه القوانين تمسكهم بالعقيدة الارثوذكسية كما جاءت في اعمال المجامع الستة وكرروا شجب الهرطقة وحرم القائلين بها بما فيهم البابا اونوريوس (٣) . واكد الاباء في القانون الثاني تأييدهم للقوانين التي سنها سلفاؤهم اعضاء المجامع السابقة . وبحثوا في المئة الباقية علاقات الشمامسة بالقساوسة وزواج هؤلاء واولئك . وعينوا السن

1) Bréhier, L., La Paix Relig., op. cit., V, 191 - 192 ; Diehl, C., L'Empereur au Nez Coupé, Choses et Gens de Byzance, 174 - 177.
2) Diehl, C., Le Monde Oriental, 211 - 235.
3) Bréhier, L., op. cit., V, 195.

التي يجب ان يبلغها الاكليريكي قبل سيامته . وحرّموا الدين بالربا على رجال الدين والرشوة للوصول الى المناصب الكنائسية . وبحثوا الكتب المقدسة وكيفية استعمالها والمحافظة عليها والتعليم بها كما بحثوا في امور الرهبانية والاديار والجمعيات السرية وعتق الرقيق والتصاوير البذيئة والسحر والكهانة وأمر اليهود (١) .

رومة تحتج : ودونت اعمال هذا المجمع في نسخ ست واحدة لكل من الامبراطور والبطاركة الخمسة وارسلت جميعها الى رومة ليوقعها البابـا . وكان البابا كونون قد توفي في السنة ٦٨٧ فخلفـه سرجيوس الانطاكي (٦٨٧ ـ ٧٠١) فأبى سرجيوس ان يوقع محتجاً ببعض محتوياتهـا كتحريم الصوم ايام السبت والاذن للكهنة بالزواج . فأراد يوستنيانوس ان يكرهـه على ذلك ولكن جيشه في ايطالية وقف الى جانب البابا (٢) .

خلع يوستنيانوس وعودته : واستنزفت حروب يوستنيانوس كل ما في الخزينة فجمع وزيراه الاموال عن طريق الاغتصاب فجرا عليـه كراهية الشعب . واراد هو في السنة ٦٩٤ ان تهدم كنيسة في القسطنطينية ليقيم في مكانها بناء له . وكلف البطريرك المسكوني ان يصلي على الكنيسة قبل هدمها . فأجابه البطريرك : اما لاجل بناء كنيسة فعندنا افشين ولكن لاجل هدم كنيسة فليس لنا ما نقول ! فأجبره يوستنيانوس ان يصلي للهدم . فوقف البطريرك ودموعه تسيل وصلى قائلا : المجد لله الطويل الاناة كل حين وكل اوان والى دهر الداهرين .

وطغى يوستنيانوس وتجبر فسار القائد لاونديوس الى القصر وقبض على يوستنيانوس وجدع انفه ونفاه الى الخرسون . ثم اخفق لاونديوس في افريقية فنادى الجند بطيباريوس امبراطوراً . ووفق طيباريوس هـذا الثالث في حروبه ضد المسلمين ولكن الشعب والجيش كانوا قد أصبحوا لا يخضعون لسيطرة احد فبات عرش طيباريوس متداعياً . وفرّ يوستنيانوس الثاني من منفاه ونزل في بلغاريا واستنصر تربيل ملك البلغار فزحفا معاً على القسطنطينية وعاد يوستنيانوس

1) *Mansi, XI, Col. 921 - 936 ; Liber Pontificalis (Duchesne), I, 372 - 373 ; Hefelé - Leclercq, III, 560 - 561, 575 - 576.*
2) *Gorres, F., Justinian II und das Romische Papsttum, Byz. Zeit., 1908, 440 - 450.*

الى العرش (٧٠٥) . وفي السنة ٧١١ ثار فيليبيكوس البرداني فدخل العاصمة ثم قتل يوستنيانوس وابنه طيباريوس فانتهى امر الهرقليين بعد مئة سنة وسنة .

يوستنيانوس والبابا قسطنطين : (٧١١) ورغب يوستنيانوس بعـد عودته الى الحكم في موافقة رومة على اعمال المجمع البنثيكتي فدعا البابا قسطنطين الى زيارة القسطنطينية . فأمها في السنة ٧١١ واستقبل فيها بحفاوة واكرام واختلى يوستنيانوس بقسطنطين في نيقوميذية فخرجا متفقين . وأقام البابا قداساً حافلا في القسطنطينية وتناول يوستنيانوس من يد البابا . وعاد البابا الى رومة مكرماً وبقي أمر هذا الاتفاق غامضاً تنقصه التفاصيل (١) .

ظهور الكنيسة المارونية : واستولى الفرس على ابرشيات انطاكية فرحب اليعاقبة بقدومهم وتعاونوا معهم . وطالت الحرب الفارسية (٦٠٩ـ٦٢٨) فلمس هرقل أهمية ولاء اليعاقبة والارمن لقربهم من حدود فارس ولكثرة عددهم فرغب في تسوية الخلاف القائم بين هؤلاء وبين الكنيسة الجامعة. فأعد سرجيوس البطريرك المسكوني حلا للمشكلة فقال بطبيعتين مـع الكنيسة الجامعة بفعل واحد لاسترضاء اليعاقبة والارمن والاقباط . ووضعت الحرب أوزارها فأخذ هرقل يطوف في الولايات الاسيوية ويحض النصارى على التفاهم وتوحيد الصفوف بالشكل الذي اقترحه سرجيوس بطريرك القسطنطينية . ووصل هرقل الى الجزيرة في صيف السنة ٦٣١ وزاره فيها ازر كاثوليكوس الارمن فقبل الحل الجديد . ثم اتصل هرقل بأحبار اليعاقبة في منبج فقالوا بالمشيئة الواحدة والطبيعتين واعترف هرقل ببطريركهم اثناسيوس الجمال بطريركاً قانونياً على كنيسة انطاكية . ثم اتجه الامبراطور شطر سورية الشمالية مقرّبا موحداً فلقي ترحيباً كبيراً .

ووصل هرقل الى حمص في هذه السنة عينها (٦٣١) فخف رهبان بيت مارون الى استقباله فيها ورحبوا به ترحيباً « فأقطعهم اراضي واسعـة » (٢) وأبقى في أيديهم ما كانوا قـد أخذوه من الكنائس والأديار التي كانت

1) *Bréhier, L., La Paix Relig., op. cit., V, 199 - 200.*
2) *Eutychius, Annales, P. G., Vol 111, Col. 1039, Ed. Cheikho, II, 26.*

لليعاقبة (١) . فازدادوا عزة ومناعة ونفوذاً وتعاونوا معه (٢) .

وأطل المسلمون على سورية وانتشروا في سهولها واستولوا على مغانمها وتراجع هرقل وأوصى أعوانه وانصاره ، وبين هؤلاء رهبـان بيت مارون واتباعهم ، بالتيقظ والتربص مؤكداً عودته بعد حين. فاشتد ضغط المسلمين على هؤلاء الاعوان والانصار . وأكد اليعاقبة للمسلمين انهم ليسوا من أنصار الملك فأطلق المسلمون يدهم فاضطهدوا رهبان بيت مارون واتباعهم محاولين استرجاع ما خسروا من اديار وكنائس (٣) . وكان اليعاقبة لايزالون كثراً في أباميــة ونواحيها ولهم دير عظيم بالقرب منها على اسم مار باسوس بلغ عدد رهبانــه ستة الآف وثلاث مئة (٤). فطلب الموارنة لهم ملاجيء حصينة يعيشون فيها أحراراً طلقاء ويمتنعون بها الى ان يعيد الروم الكرة ويجولوا جولة ثانية في الحرب القائمة بين النصارى والمسلمين . واغتنم معاوية نشوب الثورات في أوائل عهد قسطنطين الرابع فأنفذ حملاته الشهيرة ووصل الى اسوار القسطنطينية (٦٧٣ — ٦٧٧) فانفذ الروم المردة والجراجمة الى جبال لبنان للقيام بغارات جريئة في بلاد الشام تعرقل اعمال تموين العدو وتهـدد عاصمته . فاحتمي بهؤلاء كثيرون من أهل البلاد (٥) وضوى اليهم « جماعة كثيرة من الجراجمة والانباط» (٦) . وهؤلاء الانباط هم في عرف رجال البحث والاختصاص العناصر الآراميــة المعاصرة (٧) ومنها الموارنة . ولم تأت هذه الهجرة دفعة واحدة وانما حدثت في أزمنة متتالية فجاء الموارنة الى لبنان على موجات صغيرة واستقروا بطبيعة الحال في اعاليه الشمالية في منطقة الجبة القريبة من وادي العاصي وفي بلاد العاقورة التي كانت لا تزال قليلة السكان كثيرة الغابات (٨) .

1) *Barhebraeus, Chronicon Eccl., I, 270 - 274.*
2) *Michel le Syrien, II, 412 ; Bréhier, L., Crise Relig., op. cit., V, 116 ; La Vie de l'Eglise Byz., op. cit., V, 481.*
3) *Barhebraeus, op. cit., 270 - 274.*
4) *Chabot, La Légende de Mar Bassus, 55, 60, 63.*
5) *Theophanes, Chron., a., 6169.*

٦) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٦٠

7) *ZDMG, 1871, 124 - 125.*

٨) تسريح الأبصار للاب لامنس ج ٢ ص ٥٢

وسار موكب المشيئة الواحدة في البلدان التي لم تكن قد فتحها المسلمون سيراً موفقاً فقال بها بطاركة القسطنطينية وأرمينية ومصر وأيدهم اونوريوس بابا رومة فصدر الاكثيسيس بالمشيئة الواحـدة في السنة ٦٣٨ . وتولى السدة القسطنطينية بعد سرجيوس من قال بالمشيئة الواحدة وبث الدعاية لها وناصر من ناصرها . وتعاقب على الكرسي الانطاكي من قال هذا القول منذ السنة ٦٣١ حتى السنة ٦٨١ . وأشهر هؤلاء مقدونيوس صديق سرجيوس ومكاريوس صاحب المصنفات في المشيئة الواحدة. وكان القول بالمشيئة الواحدة على ما دعا اليه هرقل قد شاع في أبرشيات انطاكية واوروشليم وتفشى بين طبقات الشعب والاكليروس من الملكيين الموارنة منهم وسواهم . ومن هنا اهتمام البابا مرتينوس وتفويضه الى يوحنا اسقف عمان امر رعاية من تبقى من المؤمنــين الارثوذكسيين وتخويــله خلع الاساقفــة في أبرشيــات انطاكية واوروشليم الذين ضلوا فضــللوا (١) . وقــد نغالي كثيراً اذا اعتــبرنا البطاركة الانطاكيين المونوثيليين المقيمين في القسطنطينية آنئــذ شرفيين *In Partibus Infidelium* بكل ما في هذا الاصطلاح من سلطة وهمية وفقر في النفوذ. فوقف الامبراطور من مكاريوس قبيل انعقــاد المجمع المسكوني السادس يدل على صلة بين البطريرك الانطاكي وبين الاساقفة الخاضعين لسلطته (٢) .

وكان ما كان من أمر المجمع المسكوني السادس (٦٨١) . وحرّم القول بالمشيئة الواحدة . وأصر بطريرك انطاكية مكاريوس على غيــه وأمعن في تيهه فوسم بطابع الهرطقة وحرم هو واتباعه . وآثر مكاريوس الاتصال ببابا رومــة على البقاء في القسطنطينية فاذن له بذلك . فأقلع الى ايطاليــة مع اعضاء الوفد الروماني ووصل الى رومة والتبست عليه وجوه الرشد فغلا في هرطقته فدخل ديراً وأقام فيه . واعتبر اليعاقبــة عمل المجمع المسكوني السادس غلواً في ما ذهب اليه المجمع الخلقيدوني فاشمأزوا واتهموا قسطنطين الرابع بالخيانــة وادعوا انه باع

1) *Mansi, X, Col. 806 - 822 ; Duchesne, L., L'Eglise au VI Siècle, 443.*
2) *Dolger, Reg., 244 ; Mansi, XI, Col. 201 - 204 ; Hefelé - Leclercq, III, 483 - 484 ; Bréhier, L., La Paix Relig., op. cit., V, 186.*

ضميره لقاء مئة وسبعين قنطاراً من الذهب دفعها اليه البابا اغاثون !! (١) وأصبح من نكّب من الملكيين عن طاعة المجمع السادس بلا رأس فاجتمع رهبان بيت مارون ورسموا على قول المؤرخ اليعقوبي ، بطريركاً واساقفة من ديرهم . وهكذا تأسست كنيسة مارونية مستقلة بين اواخر القرن السابع واوائل الثامن .

يوحنا مارون : (٦٢٧ ــ ٧٠٧) واثبت ما يستنتج من تقاليد الموارنة ان رهبان دير مارون واتباعهم اثناء شغور الكرسي الانطاكي نادوا بيوحنا احد رهبانهم الأفاضل بطريركاً على انطاكية وانه هو اول بطاركتهم . ومما جاء في التقليد انه رقد في جبل لبنان وتوالى بعده بطاركة الموارنة (٢) .

الموارنة والمشيئة الواحدة : ويذكر القديس جرمانوس البطريرك المسكوني (٧١٥ ــ ٧٢٩) الموارنة في كتابه المجامع والهرطقات فيقول انهم لم يعترفوا بالمجمعين الخامس والسادس (٣) . ويعد القديس يوحنا الدمشقي رسالة في العقيدة الارثوذكسية قبل السنة ٧٢٦ ليتبناها الياس اسقف يبرود امام رئيسه بطرس متروبوليت دمشق فيجيء في القسم في آخرها ان الاسقف لا يقول الا بها وانه لا علاقة له بأي دستور ايمان آخر ولا سيما دستور ايمان الموارنة (٤) . ويوجه ثيودوروس ابو قرة اسقف حران (٧٤٠ ــ ٨٢٠) رسالة الى صديق له كان يعقوبياً فاهتدى (٥) فيقول بالعربية : « ولا نرى ان القوى التي كانت في التركيب الانسي بطلت لان الكلمة هو كان المدبر والمحرك لها وان كان قد يرى ذلك جند الموارنة » . ولعله ينسب للموارنة رأي غلاة المونوثيلية المتأخرين .

1) *Michel le Syrien, II, 447 - 448, 457.*

٢) لباب البراهين عن حقيقة الطائفة المارونية للمطران يوسف دريان ص ١٢١ . راجع أيضاً الجامع المفصل في تاريخ الموارنة للمطران يوسف الدبس ٦٣ ــ ٦٩ و
Chabot, J.B., Les Origines de la Légende de Saint Jean Maron, Mem. Acad. Insc. Bel. Let., 1935, 1 - 9.

3) *Patr. Gr., Vol. 98, Col. 82.*

4) *Patr. Gr. Vol. 94, Col. 1432.*

5) *Die Arabischen Schriften des Theodor Abu Qurra von Harran, Forschungen zur Christlichen Literatur, X ; Cheikho - Malouf - Bacha, Vingt Traités Théol. d'Auteurs Arabes Chrétiens, 75 - 107.*

وقام سعيد ابن البطريق بطريرك الاسكندرية (٩٣٣ ــ ٩٤٠) يؤرخ منذ الخليقة حتى ايامه فقال ان مارون علّم بالطبيعتين والمشيئة الواحدة والفعل الواحد والاقنوم الواحد . واضافة انه علم في عصر موريقيوس وان اكثر من تبعه تلاميذه اهل مدينة حماة وقنسرين والعواصم فسميوا المارونية (١) . وسعيد ابن البطريق هو افتيخيوس المشار اليه آنفاً وهو يخلط بين القديس مارون ويوحنا مارون البطريرك الماروني الاول فيضعف روايته (٢) .

ويتصدى للبحث في هذا الموضوع في القرن العاشر مؤرخ مسلم هو ابو الحسن علي المسعودي المتوفي في السنة ٩٥٧ للميلاد . وقد اشتهر بحب الاستطلاع والبحث في المواضيع الاسلامية وغيرها . وصنف كتباً عديدة اشهرها مروج الذهب . وبحث في كتاب التنبيه والاشراف في الموارنة فقال :

« وظهر في ايام موريق رجل من أهل مدينة حماة من أعمال حمص يعرف بمارون واليه تنسب المارونية الى هذا الوقت المؤرخ به كتابنا . وأمرهم مشهور في الشام وغيرها وأكثرهم بجبل لبنان وسنير وحمص وأعمالها كحماة وشيزر ومعرة النعمان . وكان لهم دير عظيم يعرف شرقي حماة وشيزر ذو بنيان عظيم حوله أكثر من ثلاث مئة صومعة فيها الرهبان . وكان فيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم . فخرب هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن من الاعراب وجور السلطان . وهو يقرب من نهر الارنط نهر حمص وانطاكية . وكان مارون قد أحدث آراء أبان بها عمن تقدمه من النصارى في المشيئة وغيرها . وكثر متبعوه . وقد أتينا على شرح مذهبه وموافقته الملكية والنسطورية واليعاقبة في الثالوث ومخالفته أياهم في ما يذهب اليه من ان المسيح جوهران اقنوم واحد مشيئة واحدة . وهذا القول متوسط بين قول النسطورية والملكية »(٣) .

كتاب الهدى : وقد سطت محن الدهر وعوادي الزمن على آثار الموارنة الاولين فلم يبق منها شيء يذكر . وأقدم ما عند الموارنة كتاب الهدى والمقالات العشر (٤) .

1) *Edit. Cheikho, Corpus Script. Christ. Orient., I, 210.*

2) *Vailhé, P., Origine Relig. des Maronites, Echos d'Orient, 1906, 266.*

٣) التنبيه والاشراف للمسعودي طبعة باريز ص ١٥٤

٤) « كتاب الهدى وهو دستور الطائفة المارونية في الاجيال الوسطى عني بنشره الاخ بطرس تامر العشقوتي ــ حلب ١٩٣٥ ــ » .

وكتاب الهدى او كتاب النـاموس او كتاب الكمال الذي ينسب الى المطران داود الماروني هو في الحقيقة مجهول المؤلف لان المطران داود لم يؤلفـه وانما نقله من السريانية الى العربية في نحو السنة ١٠٥٨ وذلك اجابة لطلب راهب فاضل اسمه يوسف . والمطران داود مجهول ايضاً وكذلك صديقـه الراهب يوسف . وليس في متن كتاب الهدى ما يدل على واضعه سوى العبارة « وقال الاب القديس » او ما يشابهها . ولا تعلم من هو هذا الاب القديس . ولعله مار يوحنا مارون او احد خلفائه البطاركة الاولين او غيرهم وقد يكون هذا الكتاب من كتب الطائفة المارونية بدليل ما جاء في الباب الثالث عشر منه عند ذكر آراء النصارى في اخذ القربان . فقد جاء ما نصه بالحرف : « فرأت الروم ان تقريبه في كل يوم واجب ولكنها قالت ان ترك اخذه في اكثر الاوقات اولى من اخذه دائماً . ام الارمن فانهم لا يرون تقريبه بالجملـة الا في اوقات مخصوصة مثل الخميس الكبير والفصح وما اشبه ذلك من الاعياد الكبـار . فأما اكثر السريان وهم اهل مذهبنا واكثر اليعاقبة وسريان المشرق والنساطرة فرأيهم في المواظبة على اخذه في اكثر الاوقات اولى من تركه » . ويتضح من هـذا ان السريان اهل مذهبه هم غير الروم والارمن واليعاقبة والنساطرة وسريان الشرق (١) . نقول قد يكون هذا الكتاب من كتب الموارنـة بدليل ما اقتبسنا وقد لا يكون . وقد يكون لبعض الموارنة لا لجميعهم .

والذي يهمنا من كتاب الهدى جاء في القانون الاول منه وفيـه كلام صريح في أمر المشيئة الواحدة . واليك نصه :

« فنقول انه هكذا نعتقد وهكذا نؤمن ان أحد الاقانيم الثلاثة الشريفة وهو الابن الكلمة المولود من الآب ليس في الزمان والابتداء وليس كتوالد الاجسام بعضها من بعض بل هو نور من نور اله حق من اله حق في آخر الزمان من أجل كثرة رحمته قد صنع خلاص الجنس الآدمي بمشيئة الآب وروح القدس هبط من السماء من غير أن يفارق ذات الاب ومن غير تغير ولا فساد تجسد من روح القدس والطاهرة ابنة يواقيم وحنة وأخذ منها جسداً موازياً لنا في طبيعتنا وموازياً لنـا في

١) لباب البراهين للمطران يوسف دريان ص ٢١٤ — ٢٣٦ .
Dib, Mgr. Pierre, L'Eglise Maronite, 131 - 134.

جوهرنا الانساني جسماً ذا نفس ناطقة عاملة وشابهنا في كل شيء سوى الخطيئة وولد منها ابناً واحداً ورباً واحداً يسوع المسيح اقنوماً واحداً وشخصاً واحداً ذا جوهرين معقولين من جوهر الآب الازلي بلاهوته ومن جوهرنا بناسوته محسوس بالجسم الانساني وغير محسوس باللاهوت محدود بالجسم الزماني الانساني وغير محدود باللاهوت الازلي الأبدي .

« واذ قد اعتقدنا فيه هـذا الاعتقاد الذي ذكرناه فاننا لا نعتقد فيه ايضاً اثنين ولا مسيحين ولا فعلين حاشا من ذلك بل هو واحد يسوع المسيح ابن الله الذي من أجلنا تأنس اقنوم واحد وشخص واحد وهو يعقل بجوهرين ومشيئة واحدة وفعل واحد إله ازلي ليس له ابتداء وانسان آدمي زماني ذو جسم نفساني حساس زماني . وهو اله تام باللاهوت وانسان تام بالجسم الانساني .

« وبهذه الأوصاف قد آمنت البيعة المقدسة وبها أقرت واعترفت هي وجميع اولادها . وعلى ذلك اتفق رأي النصارى المؤمنين وآمنوا بالرب يسوع المسيح ابن الله الحي الازلي الذي هذه اوصافه . وكانت أرواحهم متفقة في جميع ما قدمنا ذكره الى هذا الذي انتهينا اليه من أوصاف الابن الازلي يسوع المسيح . ثم اختلفوا فيه كيف كان بعد الاتحاد وافترقوا فرقاً كثيرة .

« فأول فرقة ظهرت من الفرق المشهورة الفرقـة المنسوبة الى آريوس وهي التي تدعى الآريوسية ثم النسطورية وهي المنسوبة الى نسطور ثم اليعقوبية وهي المنسوبة الى يعقوب الذي كان من مدينة تدعى بردعاء ولذلك يقال له البرادعي ثم الملكية وهي المنسوبة الى قسطنطين ابن قسطنطين ابن هرقل الملك ثم المارونية وهي المنسوبة الى مارون يوحنا بطريرك انطاكية العظمى (١) .

«وثبتت هذه الفرق الاربع على ان الفرقتين الملكية والمارونية اللتين ذكرناهما انما هما فرقة واحدة ورأيهما في الاتحاد والجوهر والاقنومية رأي واحد وانما اختلفتا في المشيئة فقالت الملكية بمشيئتين وقالت المارونية بمشيئة واحدة . واحتجت كل واحدة منها بحجج . فقالت الملكية في المسيح انه ذو مشيئتين لجوهرين مشيئة الهية لجوهر الالهي ومشيئة انسانية لجوهر الانساني . وقالت المارونية بل هو ذو مشيئة واحدة لجوهرين الالهي والانساني . ومن بعض ما احتجت به الملكية انه لما كان المسيح ذا جوهرين جوهر الهي وجوهر انساني وجب ان يكون ذا مشيئتين مشيئة الهية لجوهر الالهي ومشيئة انسانية لجوهر الانساني الا ان الجوهر الالهي تختص به مشيئة التفضل والأنعام واظهار المعجزات مثل شفاء المرضى وفتح اعين العمي وانهاض الزمنى واحياء الموتى وما أشبه ذلك . والجوهر الانساني يختص به العالميات مثل الأكل والشرب . ولو كان المسيح ذا مشيئة واحـدة لوجب ان يكون جوهراً واحداً وعاد الأمر الى ما قالت اليعقوبية . واستدلت على ذلك بقوله في

١) ويعلق هنا المطران دريان فيقول : « وفي النسخة الكريمية يوجد بعض التشويش في هذه العبارة خاصة فقد وردت فيها كما يلي : ثم المارونية المنسوبة الى مارون والى قسطنطين ابن قسطاس ابن قسطنطين ابن هرقل » . لباب البراهين ص ٢٣٩ .

الانجيل : أما النفس فختارة مستعدة وأما الجسم فوجوع ضعيف . وبقوله : ما أتيت لاصنع مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني . وقالت طائفة المارونية هاتان المشيئتان اللتان ادعيتموهما لا تخلوان من ان تكونا اما متساويتين او متضادتين . فان كانتا متساويتين في جميع حالهما عاد الأمر الى مشيئة واحدة . وان كانتا متضادتين جاء من ذلك ان يكون الجوهر الالهي يشاء ما لا يشاء الجوهر الإنساني . وكذلك الجوهر الانساني يشاء ما لا يشاء الجوهر الالهي . واذا حصل ذلك وقع التباين والقضاء وحصلا اثنين وبطل حكم الاتحاد وصار الثالوث رابعاً وآل الأمر الى رأي نسطور وما ادعاه في المسيح (١) » .

المقالات العشر : وكتاب المقالات العشر في المشيئة الواحدة للاسقف توما الكفرطابي يقول مع كتاب الهدى بالطبيعتين والمشيئة الواحدة ويستدل من مقدمة هذا الكتاب ان صاحبه توما كان اسقفاً على موارنة كفرطاب وكورة حلب (٢) في النصف الثاني من القرن الحادي عشر وانه كتب في المشيئة الواحدة ليرد على يوحنا السابع بطريرك انطاكية الارثوذكسي وذلك في السنة ١٠٨٩ . ومن أهم ما جاء في هذه المقالات قوله :

« ونحن وانتم دمنا ثابتين على ذلك زمان كثير الى زمان مكسيماس خاصتكم الذي من تحقيق ولد زنا لان امه كانت مرأة عجمية زنت مع رجل يهودي من ملة السامرة . فلما ولد منها هذا المذكور ونشأ ثم انه تدرب بكل اموراً منشقة عن العدل بكل مكر وافعال ردية لأنه تربى في طبرية وانتقل من هناك الى مدينة قسطنطينية . وعند ذلك الحين كان في مدينة قسطنطينية ملكين اخوة مرقيان واخيه تسلما مقاليد سياسة مملكة الروم . حينئذ تقدم اليهم مكسيما المذكور وطفق يشير عليهما بأن يوجب اننا نزيد مشية اخرى ويكونا مشيتين لذو الطبعين . وهذا الاعتقاد يلزم افتراق الطبيعتين من الاتحاد الشريف . ثم ان الملكين امتثلا قوله لأن قال كما انتما ملكين يصير لكما شعب يسمى ملكيين باعتقاد مشيتين وطبعين وفعلين ومذبحين ويُصلّب باصبعين . فلما حسن ذلك عند الملكين كي يظهر لهم سمعة جديدة في العالم أمرهم مكسيماس يكتبوا مناشير الى بلد الشام كي انهم يعتقدوا مقالة المشيتين التي قالها مكسيماس . فلما انتهت كتبهم الى بلاد سورية الشام وبلد حلب ودمشق وجبل لبنان . حينئذ قالوا أهـل الشام اننا نحن راجعين الى حكم دير ماران سرياني تفسيرها عربي دير ربنا . لأن صفة هذا الدير كان على شط العاصي خارج مدينة حماة . وكانت جملة رهبانه ثمانماية راهب كلهم قديسين . ثم وصلت لهم كتب الملكين مرقيان واخيه الى دير ماران . فلما وقفوا على قرائتها وتأملوا مضمون اشارتها للحين نفروا منها غاية الانفار . ثم ان الرهبان ردوا جواب كتب

١) لباب البراهين للمطران دريان ص ٢٣٧ ـ ٢٤٢ .

٢) المرجع نفسه ص ٢٥٣ هامش رقم ٢ . وفيه بحث دقيق في انتساب هذا الاسقف الى الموارنة ورد على ابن القلاعي والدويهي وغيرهما من أنكر على توما مارونيته .

الملكين قائلين لهم هكذا : انتم تعلمون لأن نحن بايدينا امانة الثلاثماية وثمانية عشر اباً بمدينة نقيه وقامت عليها خمس مجامع وثبتتها لنا واحرموا لكل من يغيرها او يميل عنها . وتأمرونا نقيم مذهب مكسيماس بيد غالبة وسيف . ومذهب حق لم يكون بقوة حرب . وهذا الشقاق اخترعه مكسيماس من تلقين قلبه بأغراض مفسدة مايلة عن عدل المجامع . فان كان مكسيماس قوله حق يجي ويجتمع نحن وأياه بمدينة الله انطاكية . فان رأينا نعمة روح القدس حل عليه علمنا ان قوله عدل . واذا لم يكون كذلك والا لم يكرهنا أحد على اتباع مقالته غصباً بغير شهادة برهان من كتب الكنيسة المقدسة الرسولية وتثبيت قوانين المجامع المقدسة المهذبة بنعمة الروح القدس .

« ثم ان اولئك الرهبان القديسين كتبوا جواب مراسلة الملكين وتسلم رسل الملوك وانصرفوا من عندهم . فلم يشعروا الا وقد ظهرت جيوش الاسلام وقطعت البلد وتغلبوا على دمشق ومصر وايضاً بيت المقدس وجميع الشام فلم عادوا الملكين كاتبوا دير مارون . عند ذلك ثبتوا اهل الشام وجبل لبنان على تلك المقالة المقدسة المفوضة من الرسل والمجامع المقدم ذكرها . فلما عاد توفوا الملكين مرقيان واخيه .

« حينئذ تقلد سياسة مملكة الروم بعد هولاي هرقل الملك المنصور الذي رفع مجد دين النصرانية وأباد أعاديها واهلك اضدادها من الفرس وغيرهم . واهلك بلدانهم واخرب حضرانهم وأمحى ذكرهم ورفع منارة الصليب الكريم على جميع الاعالي وكسر معبودات المجوس عباد الأوثان وأقام بحق الملك نظير قسطنطين الكبير الملك القديس الذي ثبت مقالة الثلاثماية والثمانيـة عشر في مدينة نيقية .

« وان الملك هرقل القديس نكر على مقالة مكسيماس ثم كتب عرف الپان لاوون بطريرك رومية بفساد تلك المقالة الذي زادها مكسيماس بغير شهادة حق . فلما بلغ كتاب الملك هرقل الى لاوون حينئذ تأمله وفهم مضمون صحة ايمانه عند ذلك أرسل جوابه رسالة يبارك له بملكه ويدعي له بالنصر قائلا له ان الذي ابتدع هذا الشقاق مستحق تأديب قطع لسانه ويده . فلما وصل كتاب البطريرك قبله هرقل قبل الوقوف عليه . حينئذ اشخص بين يديه مكسيما وأمر بعض غلمانه احد اسمه قسطا قطع لسان مكسيما ويده وانفاه الى جزيرة تسمى الريكية . وهذا المقال مؤرخ عندنا وعندكم بكتاب سعيد ابن بطريق . وهناك مات مكسيما منفياً وبطلت مقالة المشيتين ومحا ذكرها في ملك هرقل وابنه قسطنطين وابن قسطنطين كان اسمه قسطاس مقدار سبعين سنة .

« وبعد هولاي تقدموا تلاميذ مكسيماس الى أهل المراتب وقدموا لهم البرطيل والرشوات الجزيلة وردوا المقالة المنشقة كما كانت من مكسيما . وانشقوا اولئك الى تلك المقالة . وثبتنا نحن أهل حلب وحماة وحمص في الشرق وجبل لبنان بمقالة الخمس مجامع . وثبتوا تلاميذ مكسيماس منشقين وحودهم لا يخالطهم احداً . وأكثروا المقال والعيب واللعنات بغضة منهم ورقاعة الى جميع صفوف النصارى المؤمنين اخوتنا المسيحيين .

« وانتم تلاميذ مكسيماس أخذتم لكم لعنة تلعنوا بها جميع المسيحيين ظلماً وبغضة بغير شهادة عدل وما سمعتم ما قال الانجيل المقدس صلوا على من يلعنوكم ظلماً افرحوا وابتهجوا لأن اجركم كثير في السماء وباركوا على من لعنوكم ومن صخرك ميل مر معه ميلين . وانتم أخذتم لكم لعنة تلعنوا بها النساطرة والافرنج والارمن والقبط والحبش واليعاقبة والموارنة .

« ولا تعتبوا علينا ولا تلوموننا لأننا أوريناكم الصواب ولكم بروسكم ولربنا المجد . ونحن سمينا موارنة من دير ماران تفسيره دير ربنا . وانتم انشقيتم وحودكم وسميتم ملكيين على اسم الملكين عابدين مشيتين وارادتين وفعلين وغرضين ومذبحين وتصلبوا باصبعين وافرقتم السيد المسيح مسيحين . عرفتك ذلك بعد اكرامك يا ابي القديس وصلي علي منشان الله له السبح آمين آمين » (١).

موقف علماء الموارنة : وأحكم ما صنف في هذا الموضوع على يد الموارنة كتاب لباب البراهين عن حقيقة أمر الطائفة المارونية للمطران يوسف دريان . فانه جاء والحق يقال غزير المادة جزيل المباحث واضح التعبير . وظهر بعده بثمانية عشر عاماً كتاب آخر بالافرنسية لصديقنا سيادة الحبر العلامة المطران بطرس ديب وقد أسماه « الكنيسة المارونية حتى نهاية العصور الوسطى » (٢) . وقد استوعب سيادته اصول هذا الموضوع وأحاط به بالطريقة العلمية الحديثة فجاء كتابه مرجعاً لا يستغنى عنه وتتلخص نظرية المطران يوسف دريان والمطران بطرس ديب بما يلي :

اولاً : ان القول بالمشيئة الواحدة لم يصل الى ابرشيات انطاكية في عهد سرجيوس واونوريوس وهرقل وان القول بالمشيئتين تسرب الى هذه الابرشيات بواسطة بعض الاسرى في أوائل القرن الثامن .

ثانياً : ان الموارنة ولو قالوا بالمشيئة الواحدة لا يصح ان يقال بصواب انهم مونوثيليون بحصر المعنى لأن المشيئة الواحدة في عرفهم «واحدة معنوياً أي في مفعولها ونتيجتها لا في قوتها ومبدئها » (٣) .

ثالثاً : انه لا يجوز عد الموارنة الاولين هراطقة لانه لا يصح فيهم تحديد الهرطقة وشروطها ولا سيا وانه لم يكن في عملهم اي عناد او جسارة او مكابرة او عصيان على سلطة الكنيسة كما برهنوا على ذلك عند اول اتصالهم بالكرسي الرسولي الروماني بعد تحديد المجمع المسكوني السادس.

ويرى صديقنا العلامة سيادة المطران مخائيل ضومط ان التعبير « مشيئتان طبيعيتان وفعلان طبيعيان » الذي أقرّه المجمع المسكوني لم يظهر في المناقشات الاولى التي رافقت قضية المشيئة الواحدة . وقد أخذها بعضهم بمعنى ادبي يقصد به « الامر المراد » وبالفعل « الأمر المفعول » . وفي عدم التمييز التباس ادى الى جدال هو أشبه شيء بما قام حول تعبير الطبيعة الواحدة الموروس عن كيرلس الاسكندري.

١) لباب البراهين للمطران دريان ص ٢٦٣ ـ ٢٦٧ .

2) *Dib, Mgr. Pierre, L'Eglise Maronite jusqu à la Fin du Moyen Age, Paris, 1930.*

٣) لباب البراهين ص ٢٤٧

الفصل الثاني والثلاثون

يوحنا الدمشقي وفاق الذهب

٦٥٥ ـ ٧٤٩

شقاء « الملكيين » : واستغل اليعاقبة الحروب بين الروم والامويين واكدوا لهؤلاء ولاء ابناء الكنيسة الجامعة لدين ملك الروم ودعوهم « ملكيين » واتهموهم بالتجسس للروم فضيق الامويون على هؤلاء « الملكيين » ومنعوا قيام بطاركة لهم في انطاكية واوروشليم والاسكندرية . وقد مرّ بنا ان البطاركة الانطاكيين مقدونيوس وجاورجيوس الاول ومكاريوس ظلوا بعيدين عن انطاكية مقيمين في القسطنطينية . وشمل هذا المنع ثيوفانس الاول (٦٨١ ـ ٦٨٧) واسطفانوس الثالث (٦٨٧ ـ ٦٩٠) ولعل جاورجيوس الثاني (٦٩٠ ـ ٦٩٥) وخلفه الكسندروس الثاني (٦٩٥ ـ ٧٠٢) عادا الى انطاكية وأقاما فيها (١) . ولكن بطاركة اليعاقبة ظلوا هم ايضاً بعيدين عن انطاكية مقيمين في جهات دياربكر وملاطية . وعلى الرغم من ان أحدهم الياس نال حظوة لدى الأمويين فمنح حق انشاء كنيسة في انطاكية فانه لم يسمح له بالاقامة في هذه المدينة (٢) .

الامويون والنصارى : ورغب الأمويون في المال لاصطناع الأحزاب وللتمتع بأسباب الدنيا ولمتابعة الحرب فزادوا الجزية والخراج وشددوا في تحصيلها وضيقوا على الناس حتى أخذوا الجزية في بعض الأحيان ممن دخل في الاسلام . ورأى بعض النصارى ان الاسلام لا ينجيهم من الجزية والعنف فعمدوا الى لبس الاسكيم فأدرك عمال بني امية غرضهم فوضعوا الجزية على الرهبان وأراد بعضهم اقتضاءها من الأموات فجعلوا جزية الموتى على الأحياء (٣) .

1) *Mansi, XI, Col. 988.*
2) *Barhebraeus, Chron., I, 298.*

٣) المقريزي ج ١ ص ٥٠ و٢٩٥

ولا يجوز التعميم في شيء من هذا فان الامويين عاطفوا ايضاً على بعض المسيحيين من ابناء الكنيسة الجامعة نفسها وأشهر هؤلاء منصور ابن سرجون والد دفاق الذهب . وعطف الامويون على بعض الاطباء وعلى الاخطل ايضاً . وكان هــذا يدخل على عبد الملك ابن مروان بغير اذن وهو سكران وفي صدره صليب ولا يعترضه احد ولا يستنكفون من ذلك لانهم كانوا يستعينون بــه في هجو الانصار (١) . وأجاد في مديح بني امية في مناظرة جرت بينه وبين جرير فقال قوله المشهور :

شمسُ العداوة حتى يستقاد لهم   وأعظم الناس احلاماً اذا قدروا

فصاح عبد الملك الخليفــة الذي جرت المناظر في حضوره : « لا فض فوك انت محامينا وشاعرنا . اصعد على ظهر مناظرك » . فخلع الاخطل برده وشمر رداءه وقبض بيده على عنق جرير . فصرخ هذا يستنجد : « يا أمير المؤمنين ان مسيحياً لا يحق له ان يسوم مسلماً هذه الاهانة » . فأيــده الحاضرون وقالوا : الحق في جانبه يا أمير المؤمنين ! ولكن عبد الملك لم يبــد أي اهتمام لهذا الكلام حتى اذ وطيء النصراني بقدمه عنق غريمه قال عبد الملك : هذا حسبك » (٢) .

ومما يروى عن عبد الملك ان طبيبه كان مسيحياً نسطورياً اسمه سرجون وانه عيّن اثناسيوس الرهاوي مربياً لاخيه عبد العزيز .

ويروى عن عبد الملك نفسه ايضاً انه كان يدعو المسيحيين للدخول في الاسلام ولكن بدون ضغط او اجبار (٣) . ويروى عنه ايضاً انه نشأ في اوساط المدينة ورغب في الدين فلما بلغه ان أباه أضحى اميراً للمؤمنين أغلق القرآن وهو يقول : « ليس بعد بيننا من جامع » (٤) . وينقل البلاذري بالاسناد ان عبد الملك طلب كتدرائية دمشق « للزيادة في المسجد » وبذل للنصارى مالا لهــذه الغاية فأبوا ان يسلموها اليه فامتنع (٥) .

١) الأغاني للاصبهاني ج ٧ ص ٧٤ و١٧٨
٢) ديوان جرير ص ٢٤ — ٢٥
3) *Lammens, H., Les Chantres des Omiades, 116.*
4) *Ibid., 230.*
٥) فتوح البلدان الطبعة الاوروبية ص ١٢٥

واحتاج عبد الملك الى مقاومة جماعة من مناظريه على الخلافــة وفيهم عبدالله ابن الزبير في مكة والمختار ابن ابي العبيد في العراق وغيرهما فوكل ذلك الى الحجاج وامثاله فاستخدموا العنف وحصلوا الاموال بحق وبغير حــق . ومما يحكى ان الحجاج كتب الى عبد الملك يستأذنه في أخذ بقية من الاموال من أهل الذمة فأجابه : « لا تكن على درهمك المأخوذ احرص منك على درهمك المتروك وابق لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً» (١) .

ونقض يوستنيانوس الثاني معاهدة السنة ٦٨٥ . وكان عبد الملك مشغولا في توطيــد دعائم ملكه فاشترى الصلح مع الروم وزاد المال السنوي الذي كان يدفعه معاوية (٦٨٩). ثم استتب له الأمر في الداخل فنشأت مشادة بين عبدالملك ويوستنيانوس حول ما كتب او نقش على القراطيس والدنانير . فان الروم كانوا لا يزالون يستوردون الورق من مصر . وكانت قد جرت عادة الأقباط على كتابة اسم المسيح وعبارة التثليث على أعلى الطوامير . فأمر عبدالملك باستبدال هــذه العبارة « قل هو الله أحد » . وكتب في صدور كتبــه الى الروم : « قل هو الله أحد » . وذكر النبي مع التاريخ . فكتب اليــه يوستنيانوس : انكم قد أحدثتم كذا وكذا فاتركوه والا أتاكم في دنانيرنا من ذكر نبيــكم ما تكرهون . وكانت العملة الرائجة في البلدان الاسلامية لا تزال دنانير روميــة ودراهم فارسية . فغضب عبد الملك وخشي ما قد يحدثه هــذا التهديد من أثر سيء في نفوس المسلمين . فأشار خالد ابن يزيد على عبد الملك بالتمسك بما أحدثه في القراطيس وقال : يا امير المؤمنين حرّم دنانيرهم فلا يتعامل بها واضرب للناس سككاً ولا تعف هؤلاء الكفرة مما كرهوا في الطوامير » (٢) فسك عبد الملك دنانيره الاولى في السنة ٦٩٢ وارسل المبلغ السنوي المفروض عليه لملك الروم من هذه الدنانير الجديدة. فغضب يوستنيانوس لخلو هذه الدنانير من صور اباطرة الروم ولحملها عبارات لم تخلُ من التحدي: « أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » فرفض

١) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٣
٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٤٩ والكامل لابن الاثير ج ٤ ص ٣

يوستنيانوس قبول هذه الدنانير وتحرك بجيوشه الى الحدود الاسلامية ٦٩٣ (١) . وأنزل عبد الملك الصلبان (٢) واستشهد البطريرك الانطاكي الكسندروس الثاني وجماعة من المؤمنين . وترمل الكرسي الانطاكي اربعين سنة (٣) .

وتوفي عبد الملك في خريف السنة ٧٠٥ وتولى بعده ابنه الوليد (٧٠٥ — ٧١٥) . « وكان جباراً عنيداً » (٤) فأمر بجميع اسرى الروم فقتلوا. ثم ضغط على النصارى ولاسيا التغالبة للدخول في الاسلام (٥) .

طمع الوليد في كتدرائية دمشق « فجمع النصارى وبذل لهم مالا عظيماً على ان يعطوه اياها فأبوا وأدخلها في المسجد» . (٦) وسار سليمان (٧١٥ — ٧١٧) اخو الوليد على هذه الخطة عينها .

اما عمر ابن عبد العزيز (٧١٧ — ٧٢٠) فانه أوجب البر بالعهود واعطاء كل ذي حق حقه فأمر عامله في دمشق ان يرد الى النصارى كنيستهم . فكره ذلك أهل دمشق وقالوا نهدم مسجدنا بعد ان أذنا وصلينا ! ثم أقبلوا على النصارى فسألوهم ان يعطوا جميع كنائس الغوطة التي اخذت عنوة على ان يصفحوا عن كنيسة يوحنا فرضوا بذلك (٧) . ثم شدد عمر في تنفيذ عهدة عمر ابن الخطاب جد امه .

اسرة يوحنا الدمشقي : ولا نعلم شيئاً عن اصل الاسرة التي تحدر منها دفاق الذهب . ولا نجد شيئاً في المراجع الاولية يؤيد قول فون كريمر العلامة

1) *Cedrenus, Historiarum Compendium, I, 772 ; Zonaras, XIV, 229-231 ; Theophanes, Chron. a., 6186.*
2) *Theophanes, Chron., a. 6186.*
3) *Canstantius, Patriarachs of Antioch, Neale, J.M., op. cit., 168.*
٤) مروج الذهب للمسعودي الطبعة الاوروبية ج ٥ ص ٣٦١ والفصول المختارة للجاحظ ص ١٩٢
5) *Barhebraeus, Chron. Syr., 121 ; Michel le Syrien, II, 481 - 482 ; Zayat, H., Les Martyrs Chrétiens dans l'Islam, Machriq, 1938, 463-465*
٦) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٢٥

Lammens, H., Le Calife Walid et le Partage de la Mosquée des Omiades à Damas, Bull. Inst. Fr. Arch. Or., 1925 ; Etudes sur le Siècle des Omiades, 269 - 304.

٧) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٢٥

الالماني ان هذه الاسرة بزنطية الاصل (١) وليس لنا ان نقول مع الاب اسحق الارملي ان هذه الاسرة كانت عربية اوآرامية جارت اليعاقبة وقالت قولهم . فالقديس الدمشقي ابتعد عن اديار اليعاقبة ونسك هو واقاربه في دير ارثوذكسي في فلسطين هو دير القديس سابا . وشهادة ابن البطريق افتيخيوس ان أبا يوحنا طلب الى خالد ان يعطي الامان « له ولاهله ولمن معه ولاهل دمشق سوى الروم » لا تعني ان منصوراً كان سريانياً يعقوبياً (٢) . فاللفظ « الروم » الوارد في هذه الشهادة قد يشير الى العنصر لا المذهب (٣) . والتلمحري المتوفي في السنة ٨٤٥ يرى في سرجيوس ابن منصور الكاتب الدمشقي رجلا خلقيدونياً لا يعقوبياً (٤).

وتوطنت اسرة منصور دمشق ونعمت في ايام موريقيوس (٥٨٢ — ٦٠٢) بالنفوذ والاحترام . فنصور في عرف افتيخيوس شغل منصباً مالياً هاماً وكاد يكون عامل موريقيوس في ولاية فينيقية اللبنانية . ودمشق آنئذ كانت من أهم مدن هذه الولاية . وأبقى هرقل منصوراً في منصبه بعد دخول الفرس الى سورية (٥) . ومنصور هذا هو الذي فاوض المسلمين باسم سكان دمشق بعد تخلي الروم عنها وهو الذي حظي بعطف اولئك بعد دخولهم اليها وتسلمهم ازمة الحكم فيها فبقي في المنصب الذي شغله في ايام الروم ولم يدخل سرجيوس ابن المنصور في الاسلام كما زعم ابن عساكر وابن شاكر فكلامهما في هذا الموضوع مصنوع وحديثهما مُحسن مُزلف (٦) . وثيوفانس الراهب الذي دوّن بين السنة ٨١٠ والسنة ٨١٤ يؤكد تعلق سرجيوس بالدين المسيحي وينعته بما تعريبه . « كان مسيحياً كاملا » (٧) .

وتقوى معاوية بعد ان نودي بعثمان خليفة سنة ٦٤٤ . ونوى الاستئثار

1) *Kremer, A. Von, Culturgeschichte des Orients, II, 408.*
٢) الملكيون لاسحق الأرملي ص ٣٢
٣) اسرة يوحنا الدمشقي للاب يوسف نصرالله ص ٣٨ — ٣٩ (الذكرى المئوية الثانية عشرة لوفاة القديس يوحنا الدمشقي) .
٤) آداب اللغة اليونانية للاب ارملي نفسه في المسرة ١٩٢١ ص ٤٠٩
5) *Eutychius, Annales, 26.*
٦) تاريخ دمشق لابن عساكر ج ٦ ص ٧١ وعيون التواريخ لابن شاكر ص ٣٧٦ — ٣٧٧
7) *Theophanes Chron. a. 6182.*

بالسلطة في سورية . ثم صار خليفة اموياً في دمشق فاستعان بالنصارى في الحرب والسلم وكلف ابن آثال بخراج حمص وأبقى أفراد اسرة المنصور في مراكزهم في دمشق (١) . ولعل السبب في ذلك خدمات منصور ايام الفتح واحتياج الفاتحين الى موظفين اداريين من ذوي الخبرة والامانة وان معاوية كان يخشى طمع اشراف الفاتحين ولجوءهم الى المساومة عند دفع الاموال (٢) .

وأخلص سرجيوس لمعاوية النصح واجتهد له في المشورة فاتسعت صلاحياته وشملت ديوان المقاتلة بالاضافة الى المالية فكلفه معاوية وهو على سرير الموت ان يسير الامور بعد موته حتى يعود ابنه يزيد من الحملة التي كان يقودها في آسية الصغرى (٣) . وأبقى يزيد سرجيوس على ما كان عليه . وهكذا فعل معاوية الثاني (٤) .

وأحب عبد الملك ان يستبدل اليونانية بالعربية في الدواوين المالية وما تبعها وان يغير بعض النظم في هذه الدواوين فلم يرض سرجيوس عن ذلك فولى عبدالملك سليمان ابن سعد وهو «اول مسلم ولي الدواوين» (٥) . وتوفي سرجيوس بين السنة ٧٠٣ والسنة ٧٠٥ .

وخلف سرجيوس ابنين أحدهما يوحنا دفاق الذهب ، وهو منصور المؤرخين المسلمين ، والآخر والد اسطفانوس السبئيتي ولا نعرف اسمه . وترهب اسطفانوس في دير القديس سابا ايضاً . وتبعه ابن عم له اسمه غريغوريوس وقد اشتهر بنظم الترانيم . وفي القرن التاسع اعتلى السدة البطريركية الاوروشليمية بطريركان من أفراد هذه الاسرة نفسها هما سرجيوس (٨٤٢ ـ ٨٥٨) وايليا الثالث ٨٧٩ ـ ٩٠٧) (٦).

مولد القديس ونشأته : ولد قديسنا في دمشق واليها نُسب . ومن هنا

١) كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ص ٢٤ واسرة يوحنا الدمشقي للاب نصر الله ص ٤٧
2) *Lammens, H., Etudes Sur le Règne de Moawia, 11 - 12.*
3) *Lammens, H., Le Califat de Yazid, 108.*
٤) التنبيه والاشراف للمسعودي ص ٣٩٧
٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (الظاهرية) رقم ٢١ ص٢٤٦
٦) اسرة يوحنا الدمشقي للاب يوسف نصرالله ص ٦٢

القول انه يوحنا الدمشقي . ومن هنا ايضاً لقبه الآخر دفاق الذهب . فالتعبير اليوناني *Chrysorroas* « دفاق الذهب » أطلق اولاً على نهر دمشق ومنعش غوطتها وأول من اطلقه على يوحنا الدمشقي هو المؤرخ ثيوفانس الذي دوّن بين السنة ٨١٠ والسنة ٨١٤ . (١) وهو يوحنا في المراجع اليونانية ويوحنا ابن منصور في المراجع القبطية وقوربني ابن منصور في تاريخ ابن العبري وابن سرجون في كتاب الاغاني.
(٢) اما سنة ولادته فانها مجهولة . وقد حصرها اصحاب سير القديسين بين السنتين ٦٧٠ و٦٨٠ . ويرى الاب نصرالله ان قديسنا ولد حوالي السنة ٦٥٥ . وقد جاء اجتهاده في محله (٣) .

ونشأ يوحنا في بيت غنى ووجاهة وعلم . ولا بد ان تكون دمشق قد نعمت بمدرسة عالية كغيرها من مدن ذلك العصر . فماري ابن سليمان يقول ان الاساقفة حذوا حذو فوطيون كاثوليكوس النساطرة فأنشأوا المدارس في مراكز ابرشياتهم (٤) . ولكن سرجيوس آثر التهذيب الخصوصي ففتش عن مُهذب لائق يعنى بتعليم ولده يوحنا وولده بالتبني قوزما وتهذيبهما . ووافق هذا وقوع راهب صقلي في يد القرصان المسلمين اسمه قوزما ايضاً . فلما جاء القرصان بهذا الراهب وبغيره من ركاب السفينة المأسورة الى دمشق رأى سرجيوس هذا الراهب ورأى البعض من رفاقه يجثون أمامه طالبين البركة . فرثى لحاله واقترب وتحدث اليه فلمس فيه ضالته المنشودة . فمثل أمام الخليفة واستوهبه الراهب فأعطاه اياه . فأخذه سرجيوس وأقامه على تربية ابنه يوحنا وابنه بالتبني قوزما . وكان هذا الراهب يدعى قوزما ايضاً وكان ماهراً في العلوم والآداب والفنون فأخذ يلقن الولدين اللغة اليونانية وآدابها والعلوم والفلسفة والموسيقى . ثم لمس في الولدين ميلا الى الالهيات فلقنهما مبادىء علم اللاهوت . ولما أتم الولدان علومهما استأذن الراهب ولجأ الى دير القديس سابا فدعي الى الدرجة الاسقفية وسيم اسقفاً على ميّومة ميناء غزة (٥) .

1) *Theophanes, Chron., a. 6221.*
2) *Graf, G., Gesch, der Christ. Arab. Lit., I 377, 378.*
3) *Nasrallah, J., Saint Jean de Damas, 58 - 59.*
٤) اخبار بطاركة المشرق ص ٦٦
٥) سيرة يوحنا الدمشقي للراهب ميخائيل (طبعة الخوري قسطنطين الباشا) ص ١٢ ـ ١٥

وقد اعترض الاب جوجي الافرنسي (١) على صحة هـذه الرواية فجاء اعتراضه ضرباً من الحذلقة الفارغة . ونحن نرى مع الاب نصرالله انه ليس في هذه الروايات القديمة ما لا ينسجم وظروف القرن السابع والثامن واخباره المدونة (٢) .

يوحنا والدولة الاموية : وعوّلت السلطات الاسلاميـة على تعريب الدواوين في دمشق العاصمة وفي الولايات كمـا سبق وأشرنا ولكن الولاة ألحوا بوجوب الاحتفاظ بالكتبة والموظفين النصارى (٣) ومن هنا قول سليمان ابن عبد الملك : «لم نستغن عنهم ساعة ولم يحتاجوا الينا ساعة واحدة في سياستهم» (٤) . فخلف يوحنا آباءه في الادارة « وصار كاتباً لامير البلد متقدماً عنده صاحب سرّه وجهره وأمره ونهيه» (٥) . امـا قول البطريرك يوحنا ان قديسنا أصبح « مستشار الخليفة الاول » فانه لا شك مبالغ فيه (٦) .

وقام يوحنا باعباء منصبه احسن قيام مسخراً لذلك مواهبه وعلمه ومبادئه المسيحية السامية . ثم خير هو بين البقاء في مركزه وبين المحافظة على ايمانه فهجر العالم غير آسف (٧) .

ويقول الراهب ميخائيل في سيرة يوحنا الدمشقي انه لما رأى يوحنا ما صارت اليه الكنيسة من الاضطهاد والاضطراب في اثناء حرب الايقونات هب يدافع عن الايمان القويم فألف في ذلك ودعم رأيه بالبراهين اللاهوتية والمنطقية وذلك بلغة يونانية فصحى . فراع الامبراطور ما رآه من هذا الخصم العنيد ففكر في اهلاكه بالحيلة . فأمر بتزوير رسالة تنسب الى يوحنا وتوجه الى الامبراطور ويجيء فيها وصف ما يلاقيه النصارى على يد المسلمين من الذل والهوان ويبين فيها مواقع الضعف في الدولة الاموية . ثم تظاهر الامبراطور لاوون بصداقـة

1) *Echos d'orient*, 1925, 140.
2) *Nasrallah, J., op. cit.*, 61.

٣) مناقب عمر ابن عبد العزيز طبعة بكر الالمانية ص ٦٤
٤) الموفقيات — زبير ابن بكار رقم ٢٧ وتاريخ ابن عساكر جـ ٣ ص ٢٧
٥) سيرته للراهب ميخائيل ص ١٥

6) *Patr. Gr., XCIV, Col. 449 ; Lammens, H., Califat de Yazid, 106, n 1.*
7) *Mansi, XIII, Col. 356.*

الخليفة عمر ابن عبد العزيز وكتب اليه يطلعه على خيانة يوحنا . فانخدع الخليفة واستشاط غضباً فأمر بيوحنا فقطعت يده وطُرد من الخدمة . ويضيف الراهب ميخائيل ان يوحنا عاد الى بيته يجر اذيال العار والدم يقطر من يده البريئة الطاهرة. فانطرح أمام أيقونة العذراء وبكى كثيراً وصلى وتضرع ونام . فتراءت له البتول واقتربت اليه وأعادت له يده المقطوعة . وكان هو قد تسلم يده المقطوعة ليدفنها. فلما أفاق وشاهد يديه كاملتين ذهب الى عمر وأراه يده كاملة . فدهش الخليفة وطلب اليه ان يعود الى وظيفته . لكن يوحنا باع ما عنده ووزع ثمنه على الفقراء والاديار والكنائس وقصد دير القديس سابا وتضرع الى الآباء ان يقبلوه في عداد صغار المبتدئين (١). ويلاحظ هنا ان اعمال المجمع السابع خالية من اية اشارة الى قطع اليـد والاعجوبة وان المؤرخين قدرينوس وافراميوس وزوناراس ونيقيفورس ساكتون عن هذا الخبر بكامله (٢) .

يوحنا الراهب : واعتزل يوحنا قومه وابتعد عن ضوضاء العالم وأكاذيبه فانتقل من القصور والرياض الى الصوامع والقفار . وكان اسمه قد ملأ الدنيـا رغم حداثته فخشي رهبان القديس سابا ان يكون شوقه للحياة الرهبانيـة ريحاً عاصفة فيعود بعد مدة الى بيته وسابق عهده . فامتحنوه فأقاموا عليه مرشداً طاعناً في السن شديداً على نفسه وعلى غيره . فأمره الا يسير بموجب ارادته في امر من الامور والا يفتر في البكاء عن ذنوبه الماضيـة والا يستعلي بسبب ما عنده من العلوم. «والا يعمل عملا دون رأيه ومشورته . ولا يكتب رسالة الى أحد» (٣). فلبّى يوحنا وخضع ولم يخالف لمرشده امراً فكان كبيراً في نسكه وتواضعه بقدر ما كان في مكانته الاجتماعيـة ومنصبه الحكومي . وعلم يوحنا ان أحد رفقائه الرهبان فقـد والده فرثى لحاله وحادثه معزياً وذكر قول شاعر من شعراء اليونان فنقله اليه :

وهذه الارض لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شان

١) سيرة القديس يوحنا الدمشقي للراهب ميخائيل ص ١٥ — ٢٠
Jean, Patr., Vita, P. G., XCIV, Col. 457 - 461.
2) *Cedrenus, G., Synopsis Historion, I, 799 ; Ephraemus, Corp. Script. Hist. Byz., XII, 82 ; Zonaras, C. S. H. B., XXXI, 270 ; Nicéphore, Breviarum, 74 ; Nasrallah, Jean de Damas, 75 - 81.*
٣) سيرة يوحنا الدمشقي للراهب ميخائيل ص ٢٠

فوبخه مرشده على اظهار معارفه الادبية وعاقبه بالسجن في غرفته فأصغى للقول وقبله وأذعن (١) .

ثم رغب الرؤساء في ترقية يوحنا فلم يرض المرشد واستمهلهم الى ان تثبت فضيلته . فأمر يوحنا ان يحمل كمية من السلال التي كان يحوكها الرهبان ويذهب بها الى دمشق بلد يوحنا ليبيعها في أسواقها ! وزاد المرشد ثمن السلال واوصاه الا يعود حتى يبيعها جميعاً . فشد يوحنا على حمار الدير وحمّله جبلا من السلال وساقه في طريق دمشق . ووصل الى مسقط رأسه وتجوّل في عاصمة الامويين عارضاً سلاله فلم يجد من يشتريها لارتفاع سعرها . وما لبث ان عرفه الناس .

فتألبوا حوله لينظروا ذلك الوجه الكبير الذي امسى راهباً حقيراً بائع سلال . وامطروه الاسئلة وتغامزوا واستنكروا أسعاره فسخروا منه . اما هو فحافظ على هدوئه ولم يقابل ما سمع الا بالصمت والاطراق . ثم أطل عليه احد خدمه القدماء فابتاع السلال كلها وأنهى عذابه ومحنته . وعاد يوحنا الى الدير منتصراً على شيطان الكبرياء والظهور (٢) .

لقد وقفت امام ابواب هيكلك ولم أقص الافكار المنكرة . لكن انت ايها
المسيح الاله يا من برر العشار ورحم الكنعانية وفتح للص ابواب الفردوس
افتح لي احشاء محبتك للبشر واقبلني وانا ادنو اليك والمسك كما قبلت
الزانية ونازفة الدم . « متالويسي ليوحنا الدمشقي » .

يوحنا الكاهن والواعظ: وانقطع قديسنا الى الدرس وتعمق في اللاهوت على يد يوحنا الرابع البطريرك الاوروشليمي (٧٠٦ ـ ٧٣٤) وسيم كاهناً واعظاً فكان يصعد من الدير الى المدينة المقدسة ليعلم ويعظ في كنيسة القيامة وغيرها (٣). وتجلت مواهبه في هذه الفترة من حياته فجاءت عظاته ومصنفاته بليغة العبارة لطيفة الكناية قوية الحجة .

وأمر يزيد الثاني الخليفة الاموي بتحطيم جميع الايقونات في كنائس النصارى في السنة ٧٢٣ (٤) وتبعه في ذلك زميله ومعاصره لاوون الثالث

١) السنكسار للمطران ميخائيل عساف : ٤ كانون الاول
٢) السنكسار نفسه والسيرة نفسها ص ٢٠ — ٢١
٣) السيرة للراهب ميخائيل ص ٢٤ *Nasrallah, J., Jean de Damas, 100 - 103.*
4) *Denis de Tell - Mahré (Chabot), II.*

امبراطور الروم كما سنرى في حينه ، فانبرى قديسنا للدفاع عن الدين القويم فوعظ وصنف وهدد باللعنة والقطع (٧٢٦ ـ ٧٣٠). ولدى تنازل جرمانوس عن الكرسي القسطنطيني (٧٣٠) اشترك يوحنا في اعمال المجمع الاوروشليمي وحضّ الاساقفة على المناداة بهرطقة الامبراطور وقطعه (١) . وجاء في بعض المراجع ان يوحنا طاف في مدن فلسطين وسوريه وبلغ القسطنطينية نفسها مناقشاً مدافعاً (٢) . ولكنه قول ضعيف لا يقبله رجال الاختصاص . والراجح عند هؤلاء ان يوحنا قضى هذا الدور من حياته بين دير القديس سابا والمدينة المقدسة (٣) وانه لم يبرح هذه المنطقة الا مرة واحدة في السنة ٧٣٤ عندما زار دمشق ليعالج الضربة التي وجهها الخليفة هشام الاموي الى اخيه والد اسطفانوس السبئيتي (٤) .

يوحنا دفاق الذهب : وتآليف يوحنا الدمشقي عديدة بعضها لاهوتي فلسفي وبعضها جدلي وبعضها زهدي رهباني وبعضها تفسيري والبعض الآخر تسبيحي طقسي . ولكن الدمشقي لاهوتي في الدرجة الاولى « فما نثر ولا نظم ولا ناظر ولا علم الا اثباتاً للحقيقة المنزلة او تمهيداً لها او دفاعاً عنها او تبياناً لاسرارها » (٥) . وأشهر ما صنف في اللاهوت ينبوع المعرفة (٦) والمقدمة في العقائد (٧) والايمان الحق (٨) والثالوث الاقدس (٩) وايضاح الايمان (١٠) . وأشهر هذه المصنفات وأكملها كتاب ينبوع المعرفة وقد جاء في اجزاء ثلاثة الفصول الفلسفية وكتاب الهراطقة وتفصيل الايمان الارثوذكسي . وقال الدمشقي في الطريقة التي اتبعها في عرض ينبوع المعرفة : سأبين اولا أحسن ما عند الحكماء لأنه هبة من الله للبشر وسأورد هذيان الهراطقة لنعرف ضلالهم فنزداد تعلقاً بالحقيقة ثم أشرح بعون الله الحقيقة التي تقوض الضلال وتطرد البهتان» وأضاف محدداً علاقة الفلسفة بالايمان

1) *Theophan, Chron., a. 6221.*
2) *Gordillo, M., Damacenica, Orient. Christ. Analecta, 1926, 64 ; Monologio di Basilio II, 213 ; Graf, G., Gesch. der Christ. Lit., I, 379.*
3) *Nasrallah, J., op. cit. 115 - 116.*
4) *Léonce de Damas, Acta SS., III, 184.*
٥) الدمشقي اللاهوتي للاب خريسوستموس حلاق (الذكرى المئوية) ص ٩٤
6) *Patr. Gr., XCIV. Col. 525 - 1228.*
7) *P. G., XCIV, Col. 99 - 112.*
8) *P. G., XCIV, Col. 1421 - 1432.*
9) *P. G., XCV, 8 - 18*
10) *P. G., XCV, Col. 417 - 436.*

فقال : « وبما ان الرسول يقول امتحنوا كل شيء وتمسكوا بما هو حسن فسندرس تعاليم الحكماء الوثنيين لعلنا نجد عندهم ما يحسن اتخاذه ونجني للنفس ثمرة تفيدنا . هذا وكل صانع يحتاج الى ادوات لصناعته ولا بد للملكة من خادمات . فلنجمع التعاليم التي تخدم الحقيقة بعد ان ننتزعها من طغيان الكفر ولا نسيء استخدام الخير ولا نستخدم فن الجدل لاغواء البسطاء . ولو كانت الحقيقة لا تحتاج الى براهين مختلفة فلنستخدم المنطق ايضاً لدحض البهتان وتحطيم أعداء الايمان . أجل يجب ان نكتفي بما أوحى الله الينا بواسطة ابنه وأنبيائه ورسله ويجب ان نثبت فيه غير ناقلين حدوده الابدية ولا خارجين عنها (١) .

وأساس الايمان عند دفاق الذهب هو الوحي الالهي لا براعة العقل البشري فالنفس بحاجة دائمة الى معلم والمعلم المنزه عن الضلال هو المسيح . ولنسمع صوته في الكتاب المقدس فان النفس التي تقرع بنشاط وثبات باب روضة الكتاب المقدس الغناء لكالشجر المغروس عند مجاري المياه (٢) . والدمشقي شديد التمسك بالتقليد الرسولي لأن الكتاب المقدس نفسه يوجب هذا التمسك (٣) .

وحاول الهراطقة الدفاع عن أضاليلهم بفلسفة ارسطو . فصرخ الدمشقي بهم : « اتجعلون ارسطو قديساً وثالث عشر الرسل ! ام تعتبرون الوثني أكثر من الكتبة الملهمين ! » (٤) ثم انبرى يحارب هؤلاء بسلاحهم بفلسفة ارسطو . ولم يكن عمله هذا امراً يسيراً فموقف ارسطو من القوى فوق الطبيعة مناقض لعقائدنا المنزلة ولا سيما سر الثالوث الاقدس والتجسد الالهي . ولكن الدمشقي وفق الى اصلاح بعض نظريات ارسطو ولا سيما فيما يتعلق باللاهوت الطبيعي وعلم الاخلاق وخلود النفس . وأخذ عن ارسطو كثيراً من التحديدات ولكنه أضاف اليها أشياء وأشياء كالفرق بين الطبيعة والجوهر والاقنوم واستعان بها على انشاء تعابير خاصة بعلم اللاهوت مستقلة عن المذاهب الفلسفية العديدة دقيقة خالية من الالتباس الذي أدى فيما مضى الى الجدل والخصام والشقاق . وهكذا فان قديسنا أدرك قوة

1) *P. G., XCIV, Col. 532. Trad. P. Chrysostomos Hallac.*
2) *P. G., XCIV, Col. 529.*
3) *P. G., XCIV, Col. 1173, 1256, 1301.*
4) *P. G., XCIV, Col. 1441.*

فلسفة ارسطو فانتزعها من أيدي أعداء الايمان وسخرها فنصرها ووضعها في خدمة رجال اللاهوت الذين أتوا بعده كبطرس اللومباردي وتوما الاكويني فأصبح بحق مؤسس اللاهوت السكولاستيكي (١) .

ويعتبر الدمشقي في تاريخ الفكر المسيحي لاهوتي سر التجسد الالهي . فقد عالج هذا السر العجيب في أكثر مؤلفاته اللاهوتية فوفق كل التوفيق الى الاستخراج من عقيدة الاتحاد الاقنومي جميع ما نقول به في الايمان واللاهوت . ودعم استنتاجاته المنطقية بنصوص الكتاب المقدس وشهادات الاباء فلم يترك مجالا للشك في صحة ما ذهب اليه .

وصنّف الدمشقي في الجدل فجاءت رسائله متينة الحجة صحيحة الاستدلال فردت أهل البدع صاغرين قميئين . وأشهر ما كتب في الجدل رسائله الثلاث في الدفاع عن الايقونات (٢) . وقد سطرها فيما يظهر بين السنة ٧٢٦ والسنة ٧٣٠ فحوت وجه الصواب في اكرام القديسين وحددت المسائل المتعلقة بهذا الموضوع ولا نزال حتى يومنا هذا نعتمد كلام هذا القديس العظيم في موقفنا من الايقونات .

ولم تبكم قرارات المجمع الخامس من قال بالطبيعة الواحدة فجاء الدمشقي يكمل عمل افلوغيوس الانطاكي وتيموثاوس القسطنطيني وانسطاسيوس الانطاكي وانسطاسيوس السينائي فكتب رسالته الشهيرة في التريصاغيون ووجهها الى الارشمندريت جوردانس فأيد فيها الموقف التقليدي من ان آغيوس المثلثة موجهة الى الاقانيم الثلاثة لا الى الابن فقط وانه بالتالي لا يجوز ان يضاف اليها قول بطرس القصار « انت الذي صُلبت من أجلنا » (٣) . وكتب الدمشقي رسالة ثانية باسم بطرس متروبوليت دمشق الى اسقف دارا اليعقوبي مفنداً موقف اليعاقبة مثبتاً رأيه بالمنطق وبأقوال الآباء (٤) . وعاصر الدمشقي ايليا الاول بطريرك اليعاقبة (+ ٧٢٣) . وكان هذا ارثوذكسياً فلما طالع مؤلفات سويروس الانطاكي

١) الدمشقي اللاهوتي للاب خريسوستموس حلاق ص ٩٥ – ١٠٥
2) *P. G., XCIV, 1231 - 1420.*
3) *P. G., XCV, Col. 21 - 62.*
4) *P. G., XCV, Col. 111 - 126.*

جنح الى القول بالطبيعة الواحدة فسقّفه اليعاقبة على كرسي اوفيميـــة ثم رقوه بطريركاً عليهم . فوجه اليـــه لاوون اسقف حرّان الارثوذكسي رسالة في موضوع جنوحه عن العقيدة الارثوذكسية فأجابه البطريرك الجانح برسالة يحتج فيها عن نفسه وأشار فيهـــا الى رسالتين وضعهما الدمشقي في موضوع الجدل لا نعرف لها نصاً (١) .

ومن آثار قديسنا رسالتان في الرد على النساطرة يثبت فيهما الوهية السيد المخلص ووحدة شخصيته (٢) وردّ ايضاً على من قال بالمشيئة الواحدة ناسجاً على منوال القديسين صفرونيوس ومكسيموس (٣) .

وكانت المانوية قـــد عادت الى الظهور في منتصف القرن السابع متخذة ثوباً جديداً فعرفت بالبولسية . واضطربت بهـــا الالسنة وتفشت في أرمينية والجزيرة وسورية . وتدرّع اصحابها بالآية : « حيث العابدون الحقيقيون يعبدون الآب بالروح والحق » فرفعوا الايقونات ومنعوا السجود للصليب المقدس واستغنوا عن اكرام العذراء والقديسين (٤) . فأمسك قديسنا يراعه وجال جولة موفقة في ميدان العقيدة ولا سيا الخريستولوجية منها وصنف رسالتين في الرد على المانويين البولسيين (٥) .

ثم أطلّ المسلمون حاملين القرآن حافظين الحديث فاضطر الدمشقي ان يدافع عن الاسرار واحداً واحداً . فجاء الفصل المئـــة والواحد رداً صريحاً على العقيدة الاسلامية (٦) . وثبت تلاميذه في الايمان بطريقة السؤال والجواب فظهر حواره الاول والثاني مع المسلمين (٧) . ولم يخل كتابه ينبوع المعرفة من الرد على المسلمين ففصوله في الواحد الاحد والثالوث الاقدس والتجسد الالهي جميعها ردود على اهل الجدل من المسلمين (٨) .

١) اللؤلؤ المنثور للبطريرك اغناطيوس برصوم ص ٣٠٧ ـــ ٣٥٨
2) *P. G., XCV, Col. 187 - 224.*
3) *P. G., XCV, Col. 127 - 186.*
4) *Pargoire, L., L'Eglise Byzantine, 181*
5) *P. G., XCVI, Col. 1319 - 1336, XCIV, Col. 1505 - 1584.*
6) *P. G., XCIV, Col., 763 - 773.*
7) *P. G., XCIV, Col. 1585 - 1595 XCIV, Col. 1335 - 1348.*
8) *Becker, K., Islamstudien, 432 - 449.*

وعني الدمشقي ايضاً بالزهد والترهب . وأشهر ما صنف في هذا الموضوع كتاب التوازي *Parallyla* . وقد جاء هذا الكتاب في ابواب ثلاثة فبحث الاول منها في الثالوث والتوحيد وضم الثاني رأي الدمشقي في الانسان ومشاغله وجاء الثالث بحثاً مستفيضاً في الفضائل والرذائل . فقابل المؤلف كل رذيلـــة بفضيلة معينة . ومن هنا اللفظ التوازي في عنوان الكتاب كله .

وجاء في التقليد ان قديسنا وضع كتاب المعزي الاوكطوئخوس اليوناني *Octoichos* ولعله نسقه ونظمه وأضاف اليه . وجاء ايضاً انه نظم عدداً كبيراً من قوانين الخدمة وانه لعب دوراً هاماً في تنظيم تيبيكون القديس سابا وانه لحن معظم الاكطوئخوس كما لحن عدداً كبيراً من القوانين والطروباريات وانه أدخل تحسيناً ملموساً في الموسيقى البيزنطية الكنسية (١) . وجاء ايضاً انه هو اول من نظم السنكسار الرومي .

الدمشقي والآداب العربية : ولا نعلم ما اذا كان قديسنا كتب شيئاً في لغتنا العربية . ولكنه خلّف أثراً ملموساً في علم الكلام وفن الجدل الاسلاميين العربيين . فالخطة التي رسمها لتأليف كتابه ينبوع المعرفة هي الخطة عينهـــا التي اتبعها علماء الكلام فيما بعد . فهم يبدأون مثله بمقدمة فلسفية ثم ينتقلون مثله ايضاً الى بحث في الملل والنحل قبل الخوض في صلب الموضوع ؛ ولا يقف الكلاميون عند هذا الحد في الاخذ عن يوحنا الدمشقي فانهم ينسجون على منواله في تنسيق الكلام عن العقيدة فيعالجون موضوع الله وصفاته اولا ثم ينتقلون مثل الدمشقي الى الكلام في الله وأعماله ثم يحلون البحث في النبوة محل البحث في المسيح (٢) .

الوفاة والتكريم : وتختلف المراجع في تعيين السنة التي توفي فيها يوحنا الدمشقي اختلافاً كبيراً . فقد تكون السنة ٧٥٠ وقـــد تكون السنة ٧٨٠ . ولكن الاب فايهي يرى العبارة الواردة في اعمال مجمع هييرية *Hieria* سنة ٧٥٤ دليلاً قاطعاً على ان يوحنا الدمشقي توفي قبل هـــذا التاريخ . وهذه العبارة تنص على

1) *Laily, A., L'Influence Liturgique et Musicale de Saint Jean de Damas (Centenaire, Harissa, 1950), 84 - 93 ; Nasrallah, J., op. cit., 150 - 157 ; Emereau, Hymnographi Byzantini, Echos d'Orient, 1923.*
2) *Anawati, M. M., Theologie Musulmane, 200 - 207.*

ان الثالوث الاقدس كان قد «أمات» الثلاثة جرمانوس القسطنطيني وجاورجيوس القبرصي ويوحنا الدمشقي . ثم يرى هذا الاب العالم في كلام لاونديوس الدمشقي عن استفانوس السبئيتي ما يعين على تعيين سنة وفاة يوحنا الدمشقي وجعلها السنة ٧٤٩ . فاسطفانوس التحق بعمه يوحنا في دير القديس سابا وهو في التاسعة من عمره . وبقي معه في الدير خمسة عشر عاماً وتوفي في التاسعة والستين من العمر في السنة ٧٩٤ . فلو طرحنا ٦٩ من ٧٩٤ عرفنا سنة ولادة اسطفانوس وجعلناهـا السنة ٧٢٥ . ثم لو اضفنا تسع سنوات الى هذه السنة عرفنا السنة التي دخل فيها اسطفانوس الدير ٧٣٤) ولو اضفنا الى هذه السنة (٧٣٤ الخمسة عشرة عاماً التي قضاها اسطفانوس في جوار عمه يوحنا بلغنا السنة ٧٤٩ سنة وفاة قديسنا (١) .

وفاضت روح قديسنا في السنة ٧٤٩ في دير القديس سابا ودفن فيه . ثم نقلت عظامـه في اواخر القرن الثاني عشر او أوائل القرن الثالث عشر الى القسطنطينية الى كنيسة جميع القديسين في جوار كنيسة الرسل . ثم نهب الصليبيون هذين المقامين . وجاء الاتراك بعدهم فهدموهما لانشاء جامـع السلطان محمد الثاني (٢) .

وملأ يوحنا الدمشقي الكنيسة بعبـير فضائله وعلمه فأكرمه المؤمنون في حياته وبعد وفاته . وردد المجمع المسكوني السابع (٧٨٧) صدى هـذا الاكرام فأعلن قداسة يوحنا الدمشقي في جلسته السابعـة وهتف : « ليكن ذكره خالداً » . ثم نظم اسطفانوس المرتل مديحاً ليوحنا في اواخر القرن الثامن فأتحفنا بما لا نزال نردد ونرتل في الرابع من كانون الاول من كل عام :

ماذا ندعوك ايهـا القديس . أيوحنا المتكلم باللاهوت ام داود المترنم .
أكنارة ملهمة من الله . ام نايأ رعائياً . فانك تحلي السمع والعقـل وتبهج
محافل الكنيسة . وباقوالك المفضية عسلا تزين الاقطار . فابتهل في خلاص
نفوسنا .

---

1) *Vailhé, S., Date de la Mort de Saint Jean de Damas, Echos d'Orient, 1906, 28 - 30; Nasrallah, J., op. cit., 127 - 128.*
2) *Nasrallah, J., op. cit., 128 - 129; Ebersolt, J., Sanctuaires de Byzance, 31 - 43.*

الفصل الثالث والثلاثون

الأيقونات

٧١٧ - ٧٨٧

لاوون الثالث الاسوري : (٧١٧ ــ ٧٤٠) وأنجب الروم في إبان محنتهم لاوون الاسوري فانزل بالمسلمين هزيمة بالغة وردهم عن القسطنطينية . فكانت محاولتهم هذه الاخيرة من نوعها في تاريخ الخلفاء الامويين .

وعني لاوون بالتشريع فرأى ان القوانين والانظمة التي ترجع الى عهـد يوستنيانوس الكبير قـد أصبحت تفتقر الى اعادة نظر وتعديل . ورأى الناس يؤثرون العرف حتى عـلى بعض شرائع يوستنيانوس كما رأى ، بعـد تقلص الامبراطورية من جراء الحروب الاسلامية وتغلب الصقالبة والبلغار على جزء كبير من البلقان، ان اليونانية قد أصبحت اللغة الوحيدة التي يفهمها السكان وبالتالي لا بد من تشريع باليونانيـة خلاف تشريع يوستنيانوس الموضوع باللاتينية . فانتقى في السنة ٧٢٦ لجنة من كبار رجال القانون اسند اليها اعادة النظر فظهرت الاكلوغة *Ecloga* ومعنى هذا اللفظ المنتخبات . وتضمنت الاكلوغة في اقسامها الثمانية عشرة الحقوق المدنية والاحوال الشخصية . ولم تبحث في الجزاء الا قليلا . وجاءت الاكلوغة مسيحية اكثر من الديجستا .

وثمة ثلاثة قوانين اخرى تعود الى عهد الاسوريين ايضاً واشهرها قانون المزارعين . ويرى العالم الروسي بنشنكو ان هذا القانون مستمد من العرف الذي ساد الأوساط الريفية والذي لم تشمله الاكلوغة . ونجد في بعض نسخ الاكلوغة الخطية ملاحق تتضمن قانونين آخرين احدهما بحري والآخر عسكري .

الايقونات : والايقونـة لفظ يوناني معناه الصورة او الرسم . وهو يستعمل في المصطلحات الدينية للاشارة الى صور القديسين . والايقونات في عرف

الكنيسة نوعان : منها العادي ومنهــا العجائبي . وحرب الايقونات تنقسم الى مدتين : الاولى من السنة ٧٢٦ حتى السنة ٧٨٠ وهي سنة انعقـاد المجمع المسكوني السابع والثانية تمتد من السنة ٨١٣ حتى السنة ٨٤٣ وتنتهي بارجاع الارثوذكسية الى حالتها الاولى .

واسباب حرب الايقونات لا تزال غير واضحة ولا ثابتة لان ما نعلمه عنها ماخوذ في معظمه من اقوال احد الخصمين . فقد ضاعت مصنفات الذين حاربوا الايقونات. وما بقي منها جاء في معرض الردود التي كتبها الخصوم . وهو والحالة هذه غير صالح للاخذ به لما ينقصه من العدالة . وما يصح من هـذا القول على المصنفات العامـة يصح كذلك على قرارات المجمعين اللذين بحثـا امر اكرام الايقونات فمقررات مجمـع السنة ٧٥٤ قد وردت في قرارات المجمع المسكوني السابع .

والباحثـون في أسباب هـذا النزاع يختلفون في الرأي . فبعضهم يرى اسبابها دينية وغيرهم يراهـا سياسية . فالمؤرخ اليوناني الحديث بابا ريغوبولو يرى في كتابه تاريخ الحضارة اليونانية ان حرب الايقونات كانت في اساسها حرب اصلاح سياسي اجتماعي وان لاوون الثالث ومن خلفه من اسرته اراد ان يحرر التعليم والتربية من سيطرة الاكليروس وان العنـاصر المستنيرة المتحررة في الدولة وبعض كبار رجال الدين والجيش قد أيدوا هذه الحركة الاصلاحية وان اخفاق هؤلاء اجمعين انما نتج عن تمسك العناصر الجاهلة من النساء والرهبان بكل قديم (١) . ويرى المؤرخ الافرنسي لومبار في كتابه قسطنطين الخامس (٢) ان حرب الايقونات كانت حركة اصلاحية دينيـة ترمي الى تطهير النصرانية من ادران الوثنية وانهـا جاءت في الوقت نفسه الذي جرت فيـه محاولات اخرى للاصلاح . ويرى لويس براهيه الافرنسي ايضـاً ان محاربة الايقونات ذات وجهين فثمـة مشادة حول اكرام الايقونات وثمة بحث دقيق اذا كان يصح

1) *Paparigopoulo, K., Hist. de la Civ. Hellenique, 188 — 191.*
2) *Lombard, A., Constintin V, 105, 124 — 128.*

الرمز الى ما فوق الطبيعـة بالرسم والتصوير (١) . ويرى اوسبنكي الروسي ان السبب الحقيقي الذي دفع بلاوون وخلفائه الى خوض غمار هذه الحرب انما كان خوفهم من ازدياد ثروة الرهبان وتزايد نفوذهم . فالمشادة كانت زمنية سياسية في مستهل أمرها فجعلها الرهبان دينيـة ليوغروا صدور المؤمنين ويحضوهم على مقاومة سياسة الحكومة (٢) .

والواقع ان الاعتراض على الايقونات لم يكن ابن ساعتـه ففي بدء القرن الرابع حرّم مجمع ألفيرة *Elvira* المحلي في اسبانية اقامة الصور في الكنائس . (٣) ورأى افسابيوس مؤرخ الكنيسة ان اكرام صور السيد وبطرس وبولس كان من « عادات الامم » (٤) وفي القرن الرابع نفسه ايضـاً مزّق ابيفانيوس القبرصي ستاراً في احدى كنائس فلسطين لأنه كان يحمل صورة السيد وأحد القديسين (٥) وفي القرن الخامس اعترض خينائياس اسقف منبج (٤٨٨) على الايقونات قبل سيامته . (٦) وفي القرن السادس جاهـد اغاثياس (+ ٥٨٢) في حماية ايقونة مار ميخائيل ضد المعترضين(٧)وقبيل نهاية هذا القرن نفسه في السنة ٥٩٩ حرم سيرينوس اسقف مرسيلية اقامة الايقونات في الكنائس فكتب اليه القديس غريغوريوس بابا رومة يثني على عدم التعبد لما هو من صنع البشر ويذكّر في الوقت نفسه بالمؤمنين الاميين الـذي لا يقرأون ولا يكتبون وبضرووة اعانتهم على النظر الى ما لا يمكنهم ان يقرأوه في الكتب . (٨) ويجب ألا يغيب عن البال ان اليهود لم يرضوا قط عن شيء من هذا وأن القرآن علّم بان الانصباب رجس من عمـل الشيطان (سورة المائدة) وان المانويـة بثويها البولسي استنكرت اكرام الايقونات كما سبق وأشرنا .

1) *Brehier, L., La Querelle des Images, 3 - 4.*
2) *Uspensky, Th. J., Byz. Emp., II, 22 - 53, 89 - 109, 157 - 174.*
3) *Mansi, Sac. Conc. Nov., Constitum Liberitanum, Par. XXXVI.*
4) *Eusèbe, Hist. Ecc., VII, 18.*
5) *Patr. Gr. XLIII, Col. 390., Acad. Inscr. Belles Lettres, 1904, 361 - 363, Baynes, N. H., Idolatry and the Early Church, Byz. Studies, 127 - 128.*
6) *Theophanes, Chron., a. 5982.*
7) *Anthologie Grecque, Epigrammes Chrétiennes, I, 34, Trad. Waltz, I, 34 - 36.*
8) *Reg. IX, 208, XI, 10.*

لاوون والايقونات : وأخلص لاوون للدين والدولـــة وتوخى مناهج الرشد فأصلح القضاء والادارة والمال . ولم يُغفل حدوده الجنوبية طرفـــة عين فراقب المسلمين واستقرى احوالهم . وترصد البولسيين المنتشرين في ولاياته الجنوبية وفي الجزيرة وسورية الشمالية وقيليقية وذكر موقفهم من الصليب المقدس والسجود له (١) . ولم ينس اليهود وأحقادهم وما قالوه في الايقونات فرأى ان مصلحة الدولة تقضي بمعالجة هذه القضية معالجة جدية .

ويرى شارل ديل ان لاوون نشأ في جو عائلي آسيوي يمقت الايقونات ويرى في اكرامها خروجاً على العقيدة القويمة وانه رغب في الاصلاح السياسي الاجتماعي الاقتصادي فرأى انه اذا حارب الايقونات يضرب الرهبان ضربة مكينة فيصيب عصفورين بحجر واحد (٢) . ويلمس كارل شينك في شخص لاوون الثالث ورعاً وتصوفاً شديدين جعلاه يعتبر بما حلّ بالدولة من ويلات فيعزي ذلك الى اكرام الايقونات (٣) . ويقول كارل شفارتز لوزي بشيء من هذا ويضيف ان لاوون كان جندياً خشناً لا يتذوق الفن وان تربيته العائليـــة واحتكاكه باليهود والمسلمين دفعاه الى تحطيم الايقونات ولا سيا وانـــه كان يعتبر نفسه رئيساً زمنياً وروحياً في آن واحد (٤) .

يزيد والايقونات : (٧٢٣) ويرى بعض رجـــال الاختصاص ان القرآن حرم الاصنام والانصاب ولكنه سكت عن الصور والرسوم وان تحريم هذه جاء في الحديث فقط . ويرون ايضاً ان الامويين زينوا بعض قصورهم بمـــا مثل الكائنات الحية (٥) وانهم لم يتورعوا عن التداول بالعملة البزنطيـــة التي كانت تحمل رسوم الاباطرة وان محاربـــة رسوم الكائنات الحيـــة بدأت في عهد عبد

1) *Grégoire, H., Les Pauliciens et l'Iconoclasme, Congrès des Etudes Byzantines, 1936.*
2) *Diehl, C., Leo III and the Isaurian Dynasty, Cam. Med. Hist., IV, 1 - 26.*
3) *Schenk, K., Leos III Walten im Innern, Byz. Zeit. 1896, 257 - 301.*
4) *Schwazlose, K., Der Bilderstreit, ein Kampf der Grichischeu Kirche um ihre Eigenart und ihre Freiheit, Gotha, 1890. Improtant.*
5) *Marcais, G., La Question des Images dans l'Art Musulman, Byzantion, 1932, 161 - 183 ; Lammens, H., l'Attitude de l'Islam Primitif en face des Arts Figurés, Journ. Asiat, 1915, 239 ff.*

الملك ابن مروان . وهم يرون ايضـــاً في خلو فسيفساء الجامع الاموي من رسوم الاحياء دليلا على بدء محاربة الرسوم في اوائل القرن الثامن (١) .

وشملت محاربة الايقونات الكنائس والمعابد والبيوت فأمر عبد الملك ابن مروان بتحطيم جميع الصلبان . ثم جاء يزيد الثاني (٧٢٠ ــ ٧٢٤) فقرّب يهودياً من طبرية وأصغى اليه. فأشار عليه هذا بتحطيم جميع الصور والصلبان حيثما وجدت وذلـــك ليطول عمر الخليفة وعهده . فأمر يزيد بذلك فتوفي في السنة التالية (٢) . وجاء في كتاب الخطط للمقريزي (جـ ٢ ص ٤٩٢ ــ ٤٩٣) انه لما تولى يزيد كان اسامة ابن زيد التنوخي متولي الخراج على النصارى في مصر . فاشتد عليهم وأوقع بهم . « ثم هدمت الكنائس وكسرت الصلبان ومحيت التماثيل وكُسّرت الاصنام جميعها » . وجاء ايضاً في تاريخ ابي فرج الملطي ان يزيداً « أمر ان تنزع صورة كل حي من الهياكل والجدران والاخشاب والحجارة والكتب » وأن لاوون ماثله في ذلك (٣) .

اساقفة آسية الصغرى : وخاض الناس في خبر يزيـــد وانتشر بريده في آسية الصغرى فتلقاه قسطنطين اسقف نقولية *Nocolia* برُحب صدره فأطلق لسانه في هذا الموضوع (٤) : فاعترضه في ذلك رئيسه متروبوليت سينادة *Synnada* فقام قسطنطين الى القسطنطينية يبحث موضوع الخلاف مع جرمانوس البطريرك المسكوني مستنداً في اعتراضه على الايقونات بمـا جاء في الفصل العشرين من سفر الخروج : «لا يكن لك آلهة اخرى تجاهي . لا تصنع لك منحوتاً ولا صورة شيء مما في السماء من فوق ولا مما في الارض من أسفل ولا مما في المياه من تحت الارض لا تسجد لهن ولا تعبدهن لاني انا الرب الهك اله غيور» . وكان المتروبوليت قد كتب الى البطريرك في ذلك ايضاً . فأسكت البطريرك الاسقف وكتب الى المتروبوليت

1) *Eustache de Lorey, Les Mosaïques de la Mosquée des Omeyades à Damas, Cahiers d'Art, 1929, 206 ff.*
2) *Theophanes, Chron. a. 6125 ; Nicephore, Antirrheticus, III, Mansi, XII, Col. 197 ; Denis de Tell - Mahré, (Chabot), 17.*
٣) تاريخ ابي الفرج الملطي ــ المشرق ١٩٤٩ ص ٤٨٤
4) *Nicephore, Antirrheticus, III ; Germain, De Haeresibus et Synodis, P.G., XCVIII, Col. 77.*

ودفع برده هذا الى الاسقف طالباً اليه ان يوصله الى رئيسه . فعاد ألاسقف الى نقولية واحتفظ برسالة البطريرك . فاغتاظ المتروبوليت . وعلم البطريرك بذلك فكتب الى الاسقف يهـــدده بالقطع (١) . وجارى قسطنطين كل من توما اسقف كلوديابوليس وثيودوسيوس رئيس اساقفـــة افسس . فكانت مشادة وكان انطلاق في سبيل تحطيم الايقونات (٢) .

بسر السوري ولاوون : (٧٢٣) . وجـــاء في حوليات ثيوفانس ان لاوون أحب مارقاً سورياً اسمه بسر وان بسراً هذا كان بطلا مغواراً فأحبه لاوون وعطف عليه . ووقع بسر اسيراً في يد العرب فدخل في الاسلام ونال حظوة عند يهودي طبري كان يزيـــد الخليفة الاموي قد قربه من شخصه . وجاء ايضاً ان بسراً عاد الى القسطنطينية في السنة ٧٢٣ واتصل بلاوون فجعله بطريقاً فقتل في ثورة الارتفزدة في السنة ٧٤٠ (٣) .

ويعلق بعض رجال البحث اهمية على اتصال بسر بلاوون فيشيرون الى ان لاوون أعلن موقفه من الايقونات في السنة نفسها التي اتصل بها ببسر . وهو في نظرنا استنتاج ضعيف لا يركن اليه. فمجرد وقوع الحادثين في سنة واحـــدة لا يبرر الاستنتاج بأن احد الحادثين سبب الاخر . ويعلق هؤلاء اهمية ايضاً على اللقب « الشرقي » الذي ألصق بلاوون فيما بعد فيربطون بين هذا اللقب وبين اثر المسلمين في سياسته الدينية (٤) . ويسهو عن بال هؤلاء ان عدالة الرواة الذين الصقوا هذا اللقب غير ثابتة ! .

بركان سنتورينة : (٧٢٦) وثار بركـــان جزيرة سنتورينة في السنة ٧٢٦ وغارت جزيرة صغيرة بالقرب منهـــا وظهرت جزيرة جديدة فوق سطح المياه فرأى لاوون في هذا كله غضباً ربانياً فدعا الناس في العاصمة وخطب فيهم منذراً

1) P. G., XCVIII, Col. 156 - 164.
2) P. G. XCVIII, Col. 164 - 188 ; Ostrogorsky, G., Les Débuts de la Querelle des Images, 238, Hist. of the Byz. State, (1956), 143 - 144.
3) Theophanes, Chron., a. 6215 ; Brehier, L., Beser, Dict. Hist. Géog. Ecc., VIII, Col. 1171 - 1172.
4) Ostrogorsky, G., Byz. State, op. Cit., 142 - 143.

موجباً التعبد لله وحده والتندم على ما فرط منهم في اكرام الايقونات . (١) فدمدم الحضور وهمهموا فأكد الامبراطور انـــه لا يقصد التهـــاون بالايقونات ولا الاستهانة بها وانما يرغب في رفعهـــا الى محلات عالية في الكنائس كي لا يؤدي لمسها وتقبيلها الى اتلافها . (٢) .

ايقونة خالكة : (٧٢٧) ثم أطلق لاوون لنفسه عنان هواه فأمر في مطلع السنة ٧٢٧ بانزال ايقونة السيد المخلص من مكانها فوق احد مداخل قصر خالكة . فاضطرب سكان العاصمـــة وهجم بعضهم يمنع انزال الايقونة . فصدّهم رجال الامن فاصطدم الفريقان ووقعت بعض الضحايـــا . فألقي القبض على المتظاهرين وجُلد بعضهم وشّوه البعض الاخر ونفي غيرهم (٣) .

ولم تلق دعاية لاوون آذاناً صاغية بين اساتذة جامعة القسطنطينية فغضب لكرامته وتشوش عليهم . ولعله أقفل هذه المؤسسة . ولا صحـــة فيما يظهر لما جاء في بعض المراجع المتأخرة من ان لاوون أمر باحراق مكتبة الجامعة (٤) .

واستوقدت دعاية لاوون في هذه السنة نفسها غضب الجندفي ثيمة هيلاذيكي في بلاد اليونان نفسها فركبوا البحر واقلعوا الى القسطنطينية فوصلوا الى مياهها في الثامن عشر من نيسان السنة ٧٢٧ . ولكنهم لم يقووا على النار الاغريقية فأخفقوا فأمر الامبراطور برؤسائهم فذبحوا ذبحاً (٥) .

البطريرك والبابا : وكان لاوون يقظ الفواد لايغفل عن النظر فيما أهمه . فظل حتى السنة ٧٣٠ يتحين الفرص ويفاوض . ففي السنة ٧٢٨ فاوض جرمانس البطريرك المسكوني في أمر الايقونات وزعم ان جميع البطاركـــة والاباطرة ضلوا سواء السبيل بما قاموا به من اكرام واحترام للايقونات . ثم هول وأفزع فصفحه جرمانوس وخيب أمله (٦) .

1) Baronius, Annales Ecclesiastici, IX, 55 - 56.
2) Brehier, L., Querelle des Images, Fliche et Martin, op. Cit. V. 449 - 450.
3) Theophanes, Chron. a. 6218 ; Vita Stephani Junioris P. G., C., Col. 1085.
4) Theophanes, Chron., a. 6221 ; Georges le Moine, II, 742 ; Fuchs, F., Die Hohern Schulen von Konstantinopel, 9 - 13.
5) Theophanes, Chron., 6218 ; Nicephore, Breviarum, 57 - 58.
6) Theophanes, Chron., a. 6218.

وكتب لاوون في هذه الاثناء الى بابا رومـــة غريغوريوس الثاني واعداً وعداً كريماً في حال الموافقـــة على تحريم الايقونات متوعداً بالخلع ان هو خالف الرغبة الملكية . فأنذر غريغوريوس المؤمنين بطغيان الامبراطور وتيهه وحرزهم منه (١) .

ويستدل مما تبقى من نصوص هـــذه الرسائل ان لاوون تذرع بالتوارة لتحريم الايقونات فاستشهد الفصل الثـــامن عشر من سفر الملوك الرابع فذكر « كيف ازال حزقيا المشارف وحطم الانصاب وسحق حية النحاس التي كان موسى صنعها لان بني اسرائيل كانوا الى تلك الايام يقترون لهـــا وسموها نحوشتان » وادعى انه انما يقتفي اثر هذا الملك الصالح . ومما احتج به لاوون في هذه الرسالة انه اعتبر نفسه كاهناً وامبراطوراً . اما غريغوريوس فانه عاب على لاوون اقدامه على ما فعل بدون مشاورة السلطات المختصـــة وأكد له ان ما ورد في التوراة انما جاء ليردع اليهود عن التعبد للاوثان .

ويلاحظ هنا ان اعتراض الثقاة على صحة هذه الرسائل واصالتها (٢) قد تلاشى بعد ظهور البحث الدقيق الذي قام به العلامـــة جورج اوستروغورسكي استاذ تاريخ الروم في جامعة بلغراد (٣) .

وفي اواخر السنـــة ٧٢٩ اعاد لاوون الكرة فبحث موضوع الايقونات مرة ثانية مع جرمانوس وتصنع له في المودة وتملقـــه ولكن جرمانوس أصر على الاباء . فأصغى اليه الامبراطور ولكنه حال عن مودته وسئم ألفته (٤) .

تحريم الايقونات : (٧٣٠) وتوثّق لاوون من أمره فدعـــا السيلنتيون *Silention* الى جلسة قانونيةفي قصر دفنة في البهو ذي التسعة عشر سريراً في السابع عشر من كانون الثاني سنة ٧٣٠ . والسيلنتيون مجلس أعلى كان يضم اعضاء مجلس

1) *Liber Pontificalis, (Duchesne), I, 404 ; Theophanes, Chron. a. 6221.*
2) *Guérard, L., Lettres de Grégoire II, à Léon l'Isaurien ; Schwarzlose, K., op. cit., 113 ff.*
3) *Ostrogorsky, G., Debuts de la Querelle des Images, Mélanges Charles Diehl, (1930), I, 244 - 254.*
4) *Theophanes, Chron. a. 6221 ; Vita Stephani, P. G., C. Col. 1084 - 1085.*

الشيوخ وكبار رجال الدولة والكنيسة (١) . وكان لاوون قـــد أمر باعداد بيان رسمي بتحريم الايقونات (٢) . فلما اكتمل الحضور طلب الامبراطور الى البطريرك جرمانوس ان يوقع هذا البيان . فرفض البطريرك ورفع الاوموفوريون وقال الى الامبراطور : « انا يونان اطرحوني في البحر . لايمكنني ان اعترف الا بالدستور الذي أقره المجمع المسكوني » وخرج الى بيت ابيه وأكمل ايامه فيه (٣) . وجاء انه طرد من البطريركية طرداً وأجبر على الاقامـــة في احد الاديار ولكنه قول ضعيف (٤) .

واعتبر لاوون الكرسي القسطنطيني شاغراً فأوعز بارتقاء انسطاسيوس السنكلوس . فانتُخب هـذا بطريركاً مسكونياً في الثاني والعشرين من الشهر نفسه ودعا المجمع القسطنطيني الى الانعقاد وحرّم استعمال الايقونات . وأرسل الرسائل السلامية ووجه احداها الى غريغوريوس الثاني بابا رومة وأعلمه بما فعل . فاعترض اسقف رومة وألح عليه بوجوب العودة الى الارثوذكسية (٥) .

وضيّق الامبراطور والبطريرك الجديد على من أيد الايقونات وعذبا عدداً كبيراً من المؤمنين وشوّهاً وأعدما. ولكن المراجع الاولية لا تمكننا من تعيين شهداء هذه الفترة . وجاء في سيرة اسطفانوس الاصغر ان سكان العاصمة فروا زرافات زرافات وان والدي اسطفانوس الاصغر أودعا ابنهما هذا ناسكاً فنشأ راهباً (٦).

موقف كنيسة انطاكية : وكانت كنيسة انطاكية لا تزال ميتمة لا راعي لها كما سبق وأشرنا . ولكن ابنها البار يوحنا الدمشقي هب للدفاع عن الدين القويم فصنف رسائل ثلاثاً رد بها على لاوون واتباعه فاتحف الكنيسة الجامعة بحجج لاهوتية منطقية دامغة أصبحت فيما بعد حجة الكنيسة الرئيسية (٧) . ويعتبر بعض

1) *Theophanes, Chron., a. 6221 ; Ebersolt, Le Grand Palais de Constantinople, 58 f.*
2) *Bréhier. L., Querelle des Images, op. cit., V, 454, n. 2.*
3) *Nicephore, Breviarum.*
4) *Theophanes, Chron., a. 6177 ; Bréhier, L., op. cit., 454, n. 3.*
5) *Liber Pantificalis, (Duchesne). I, 408 - 409.*
6) *Vita Stephani, P. G., C. Col. 1088.*
7) *Menges, H., Die Bilderlehre des Johannes von Damaskus, Munster, 1938.*

الثقات رسائله هذه أفضل ما صنف لانه اثبت فيها مقدرة في الاجتهاد فاق بها جميع اقرانه من علماء القرن الثامن (١) . ولم يكتف قديسنا بقول بولس الرسول : « تمسكوا بالتقاليد التي تعلمتموها اما بكلامنا واما برسالتنا » بل ذهب الى ابعد من هذا فاعتبر الايقونة رمزاً ووسيطاً بالمعنى الافلاطوني الجديد ثم ربط تكريمها بسر التجسد الالهي وسر الخلاص مؤكداً ان من يحارب الايقوناف ينكر حرمة شكل الاله المنظور ويهدد سرّ التجسد بالانهيار (٢) .

ويرى بعض رجال الاختصاص ان يوحنا الدمشقي تكلم في هذا الموضوع باسم يوحنا الخامس بطريرك اوروشليم وزعيم كنيستي اوروشليم وانطاكية آنئذ وان هذا ما جعله يهدد لاوون باللعنة والقطع . ومما يذكر لهذه المناسبة ان قديسنا اعترض على تدخل لاوون في امور العقيدة واعتبر البحث فيها من خصائص الكنيسة الجامعة وحدها (٣) .

وادى اهتمام لاوون بالدين الى سلخ ابرشيات اسورية عن كنيسة انطاكية وضمها الى كنيسة القسطنطينية . فخسرت كنيستنا اربعة وعشرين اسقفاً ومتروبوليتاً . ولعل الظرف السياسي الحربي قضى بهذه التجزئة . فان اسورية أصبحت بعد الفتح الاسلامي بعيدة عن انطاكية خاضعة لامبراطور الروم (٤) .

البابا غريغوريوس الثالث: (٧٣١ ـ ٧٤١) ودعا غريغوريوس الثالث الى مجمع محلي في رومة في اول تشرين الثاني من السنة ٧٣١ . فحرم هذا المجمع كل من قاوم احترام الايقونات واكرامها . (٥) فحرم لاوون بدوره اسقف رومة من دخل اوقافه في كلابرية وصقلية ورفع سلطته الروحية عن كنائس البرية وكلابرية وسردينية وألحقها كلها بالبطريركية المسكونية (٦) . فبذر بعمله هذا

1) *Ostrogorsky, G., Byz. State, 145.*
2) *Schwarzlose, K., Bilderstreit, 187 ff. Ostrogorsky, G., The Holy Icons and Their Connection, with Christological Doctrine, 35 ff.*
3) *Nasrallah, J., Jean de Damas, 110 - 112.*
4) *Parthey, G., Hieroclis Synecdemus, 74.*
5) *Liber Pontificalis, (Duchesne), I, 416.*
6) *Mansi, XIII, Col. 808, XV, Col. 167 ; Hefelé - Lectercq. III, 680 - 681 ; Bury, J. B., Hist. of the Eastern Roman Empire, 194 ; Duchesne, L., Eglises Separées, 214 - 215.*

شقاقاً في الكنيسة أدى فيما بعد الى عواقب وخيمة .

قسطنطين الزبلي : (٧٤٠ ـ ٧٧٥) وتوفي لاوون في السنة ٧٤٠ فتسلم قسطنطين الخامس أزمة الحكم في القسطنطينية . وهو الذي أطلق عليه لقب الزبلي *Kopronymos* لانه افرز في جرن العماد حين المعمودية (١) . ويروى ايضاً انه لقب بالزبلي لانه كان يحب الخيل (٢) . وما كاد يستوي على عرشه حتى انتزع الملك منه صهره آرنافزدوس زوج اخته حنة . فاضطر قسطنطين ان يحاصر العاصمة واستولى عليها عنوة وقلع عيني صهره واعين ابنيه ونفى الثلاثة معاً .

وتبنى قسطنطين مقاومة الايقونات وقال قول رجال هذه المقاومة فأكد استحالة تمثيل الله بواسطة المادة لان المادة زائلة والله دائم . وقال ان ما يصح عن الله ينطبق على العذراء والقديسين لانهم اصبحوا عند الله . فاذا ما مثلوا بالمادة نزع عنهم شرف وجودهم امام الله . وأضاف ان المسيح هو صورة الآب فاذا ما مثلناه بالمادة نزعنا عنه طبيعته الالهية واصبحنا من النساطرة . ويقول البطريرك نيقوفوروس ان قسطنطين صنف رسالة في هذا الموضوع أكد فيها استحالة تمثيل طبيعتي المسيح الاله وأوجب اعتبار الافخاريستية صورة السيد الوحيدة . وهام قسطنطين في ضلاله فاستبدل اللفظ « ايبوستاسيس » الذي أقره الآباء في المجامع باللفظ « بروسيتون » فجارى بذلك من قال بالطبيعة الواحدة (٣) . ومن هنا قول ميخائيل السرياني اليعقوبي ان الخلقيدونيين نبذوا قسطنطين واقواله لانه استصوب بملء ارادته التحديدات التي اقرها الارثوذكسيون اي اليعاقبة (٤) .

قسطنطين والصليب : ثم شرع الزبلي في اضطهاد الكنيسة فسخر بكل قديس وبالاحتفال به . ومنع الاعياد والاصوام . وحطم الايقونات وطلى جدران الكنائس بما يطمس الصور والرسوم . ولكنه احترم الصليب فزين به كل جنية

1) *Theophanes, Chron., a. 6211.*
2) *Lombard, A., Etudes, Constantin V, 10 - 21.*
3) *Ostrogorsky, G., Studien zur Gesch. des Byz. Bilderstreites, 19, 25 - 26.*
4) *Michel le Syrien, II, 523.*

ورسمه مكبراً على سقوف الكنائس وحفره في المسكوكات والاختام (١) .

وجاء صليب هؤلاء المحطمين عريض الاطراف شبيهاً الى حد معين بصليب فرسان مالطة . وظهر في بعض الاحيان في المسكوكات والاختام قائماً فوق مدرج صغير . وبدا احياناً اخرى في مجموع من الاغصان المورقة متأثراً بشكل صليب النصر القسطنطيني . ولعل علاقة الصليب بالنصر كانت هي الدافع لاستمساك المحطمين بالصليب وابقائهم عليه (٢) .

هيراوخية انطاكية : وأنكر الارثوذكسيون الانطاكيون على لاوون وابنه بدعتهما وقبّحوا عملهما وكتب يوحنا الدمشقي رسائله في نقض هذه البدعة وتحريمها وأيده في ذلك البطريرك الاوروشليمي يوحنا الخامس كما سبق وأشرنا فكان خلاف ظاهر ملموس بين امبراطور الروم وبين كبار رجال الكنيسة الجامعة الارثوذكسية في بطريركيات انطاكية واوروشليم والاسكندرية . فشفع هذا كله عند هشام ابن عبد الملك وضعفت ريبته في رعيته من الارثوذكسيين فرخص لهم بالرجوع الى حقوقهم القديمة بأقامة بطاركة لهم من احبارهم البلديين . فانتخبوا راهباً أعزه هشام وأجلّه فرقي السدة الانطاكية في السنة ٧٤٢ باسم اسطفانوس الرابع (٣) .

واشتد الجدل في هذه الآونة بين علماء المسلمين وبين الآباء المسيحيين فتخاصموا وتغالبوا في المناظرة يريد كل واحد اقحام خصمه . وتدخل بطرس متروبوليت دمشق في هذا الجدل وأيده اسطفانوس الرابع البطريرك الانطاكي الجديد فغضب الوليد الثاني خليفة هشام (٧٤٣ـ٧٤٤) لكرامة الاسلام والمسلمين فأمر باسطفانوس فقطع لسانه وتوفي في السنة ٧٤٤. ثم أمر ببطرس فقطع لسانه

1) *Millet, G., Les Iconoclast et la Croix, Ball. Corresp. Hellen., 1910, 96-109; Ebersolt, J., Sceaux Byzantins, Rev. Numis., 1914, no. 139 ; Lihacev, Sceaux de Leon III, Byzaution, 1936, 469 - 482 ; Jerphanion, G., Eglises Rupestres de Cappadoce, I, II, Planche 144, 154 - 158.*
2) *Gage, La Théologie de la Victoire Impériale, Rev. Hist., 1933, et la Vict. Imp. dans l'Empire Chrétien, Rev. Hist. Philol. Relig., 1933. 370 - 400.*
3) *Theophanes, Chron., a 6234.*

ايضاً ونني الى « العربية السعيدة » (١) . ونجا ثيودوروس ابو قرة اسقف حران ولعلّ السبب في ذلك انه جادل النصارى من اصحاب المشيئة الواحدة والطبيعة الواحدة (٢) .

وفي السنة ٧٤٥ رضي مروان الثاني عن الكاهن الأرثوذكسي ثيوفيلكتوس ابن قنبرة الصائغ الرهاوي فأوعز بانتخابه بطريركاً على انطاكية . فانتخب وتسلم عكاز الرعاية . وحرر الرسائل السلامية فوجهها الى زملائه رؤساء الكنائس الخمس . واضطر ان يدافع عن سلامة العقيدة فضيق على الباقين من رهبان بيت مارون في منبج وفي وادي العاصي (٣) .

و كان بطرس القصار قد اباح للكرجيين في النصف الثاني من القرن الخامس ان ينتخبوا كاثوليكوساً عليهم شرط ان تتم سيامته على يد البطريرك الانطاكي . فلما تم الفتح الاسلامي وانقطعت العلاقات بين الكرسي الانطاكي وبلاد الكرج شغر الكرسي الكاثوليكوسي كما شغر الكرسي الانطاكي . وفي السنة ٧٤٥ جاء وفد كرجي يفاوض ثيوفيلكتوس البطريرك في أمر الرئاسة . فدعا البطريرك الأساقفة الى مجمع محلي وسمح للكرجيين ان ينتخبوا رئيسهم وان يرسموه مستقلين شرط ان يذكروا البطريرك الانطاكي ويؤدوا له مالاً سنوياً . وبقي الحال على هذا المنوال حتى السنة الالف تقريباً حينما حل البطريرك الاوروشليمي محل البطريرك الانطاكي في نظام الكنيسة الكرجية .

مجمع هييرية : (٧٥٤) وطوى الزبلّ فؤآده على عزيمة ماضية فراح في حوالي السنة ٧٥٣ يستمزج الرعايا في أمر العقيدة التي كان قد عقد نيته عليها فأمر الولاة والمطارنة بعقد الاجتماعات لهذه الغاية (٤) . وبعد ان لاحت أشراط الفوز دعا الاساقفة الى مجمع في قصر هييرية *Hieria* بالقرب من خلقيدونية في العاشر من شباط سنة ٧٥٤ (٥) . فالتأم في هذا الموعد ثلاث مئة وثمانية وثلاثون

١) نظم الجوهر لسعيد ابن البطريق ج ٢ ص ٤٥ وما يليها
Barhebraeus, Chron. Syr. 126 ; Theophanes, Chron., a. 6234.
2) *Charon, Abou Qorra, Dict. Hist. Geog. Ecc., I, Col. 157 - 158.*
3) *Thesphanes, Chon., a. 6236 ; Michel le Syrien, II, 511.*
4) *Theophanes, Chron., a. 6244.*
5) *Vita Stephani Junioris, P.G., C. Col, IIII ; Ostrogorsky, G., Bilderstreit. 14.*

اسقفاً . ولم يظهر بينهم أي ممثـل لكنائس رومة والاسكندرية واوروشليم وانطاكية . وتوفي انسطاسيوس البطريرك القسطنطيني قبيل انعقاد هـذا المجمع فتولى الرئاسة فيه ثيودوروس متروبوليت افسس . وكان قـد اشتهر بعدائه للايقونات . وعاونـه في تسيير امور المجمع كل من سيسينيو اسقف برجـة وياسيليوس اسقف انطاكية بسيدية (١) .

وبحث الآباء المجتمعون أمر الايقونات فتبنوا قول لاوون وابنه واوجبوا نزعها . واكدوا ان تصوير المسيح بالمادة يعني واحـداً من اثنين اما القول مع نسطوريوس بامكانية فصل الطبيعتين وتصوير واحدة منها وهي البشرية او مجارة المونوفيسيين والقول معهم بطبيعة واحـدة هي الالهية (٢) . وابى الآباء ان يتقبلوا شيئاً من آراء الزبلي الخصوصية . فأننا نراهم يؤكدون ان مريم هي والدة الاله وانها اسمى المخلوقات تشفع مع سائر القديسين من اجل البشر (٣) . ومنع الآباء كل تخريب في الكنائس وكل تحطيم بدون موافقة البطريرك والامبراطور .

وفي منتصف شهر آب من السنـة ٧٥٤ قـدم الزبلي البطريرك الجديد قسطنطين سيلايون الى الآباء المجتمعين . ثم أعلنت في السابع والعشرين خلاصة اعمال هذه المجمع مشفوعـة بارادة امبراطورية تقضي بالتنفيذ وتؤدي بقطع كل من جرمانوس القسطنطيني وجاورجيوس القبرصي ويوحنا الدمشقي (٤) . وانتحل الآباء المجتمعون الصفة المسكونية لهـذا المجمع فاعتبروه المجمع المسكوني السابع .

تضييق واضطهاد : وتقوى قسطنطين الخامس الزبلي بقرارات هذا المجمع فاندفع في محاربة الايقونات اكثر من ذي قبل وصب غيظه وبلاءه على الرهبان . فكم عين قلع وكم يـد واذن قطـع فضـلا عن قتلهم (٥) . واكره طائفة منهم على الزواج اكراهـاً . واستعرض مرة فئة منهم في ميدان الهيبودروم

1) *Theophanes, Chron., a. 6245 ; Nicephore, Breviarum. 65 - 66.*
2) *Mansi, XIII, Col. 257, 260 ; Ostrogorsky, G., Byz. State, 153,*
3) *Mansi, XIII, Col. 335, 347 - 348 ; Brehier, L., Querelle des Images, op. cit., V, 469.*
4) *Theophanes, Chron., a. 6245 ; Nicephore, Brev., 66.*
5) *Nicephore, Brev., 61.*

موجباً على كـل منهم ان يمسك بيـد امرأة في اثناء العرض (١) . ويقول ثيوفانس ان حـاكماً من حكام آسيـة الصغرى (ميخائيل لاخانوذراكون) جمع رهبان ولايته وراهباتها فأمرهم بان يرتدوا الابيض ويتزوجوا حالا ومن لم يطع فتسمل عيناه ويقصى الى قبرص . فهنأه الزبلي قائلا : لقـد وجدت في شخصك رجلا يحب ما أحب وينفذ جميع رغبـاتي (٢) . وصادر الزبلي املاك الاديرة وضمها الى املاك الدولة . وهكذا فر عدد كبير من الرهبان الى ايطاليـة وجنوب روسية وشاطىء لبنان وفلسطين . ويقدر الاستاذ اندريف الروسي عدد الذين فروا الى ايطالية بخمسين الفاً (٣) . وأشهر الشهداء في هذه الفترة من تاريخ الكنيسة اسطفانوس الاصغر(٤) ومن هنا في الارجح كان رأي الاستاذ اوسبنسكي الروسي ان المؤرخين ورجال اللاهوت قد حرفوا الحقائق وشوهوها عندما رأوا في هذه الحوادث حرباً ضد الايقونات *Iconomachia* لان الواقع انها كانت حرباً ضد الرهبان *Monachomachia* (٥) .

موقف رومة : وكان من جراء العنف الذى لجأ اليه لاوون وابنـه قسطنطين ان نفرت رئاسة الكنيسة الغربية من حكومـة الروم فتقربت من ملوك الغرب لتستعين بهم على دفع شر الاضهاد . فافتى البابـا زخريا (٧٤١ ـ ٧٥٢) في السنة ٧٥١ بخلع كليريك ملك فرنسة وتنصيب بيبينوس . وفي السنة ٧٥٥ قدم بيبينوس بجيش الى ايطالية يحارب اللومبارديين فجعل البابـا اسطفانوس الثالث (٧٥٢ ـ ٧٥٧) سيداً على كل ولايات الروم في ايطالية . ولما طالب قسطنطين الزبلي بولاياته هذه اجابه بيبينوس انه وهبها لكرسي رومـة عن حب لبطرس الرسول كيما تغفر له خطاياه . من هـذا التباعد بين الفسيلفس والبابا وهذا التقارب بين البابا وبيبينوس زرعت بذور الانشقاق في الكنيسة البذور التي ادت فيما بعد الى الانشقاق العظيم .

1) *Theophanes, Chron., a. 6257. 6259 ; Amann, E., Querelle des Images, Fliche et Martin, op. Cit., VI, 109 - 110.*
2) *Theophanes. chron., a. 6262, 6263.*
3) *Andreev, 1, Germanus and Tarasius, 78.*
4) *Vita Stephani, P. G., C. Col. 1070 — 1186.*
5) *Uspensky, Ch. N., Hist. of Byzantium, 1. 228.*

المجمع المسكوني السابع : (٧٨٦–٧٨٧) وفي السنة ٧٧٥ توفي قسطنطين الخامس فخلفه ابنه لاوون الرابع . وكان لاوون هذامثل والده يرفض الايقونات ولكنه كان لـيّن الجانب . وبعد خمس سنين خلفه ابنه قسطنطين السادس وله من العمر عشر سنوات . وتولت امــه ايرينة زمام الحكم باسمه وكانت من محبي الايقونات (١) . ورأت ايرينه منذ بداية عهدها ان الجيش مــا يزال معادياً للايقونات وأن الصقالبة في غليان مستمر فأرجأت النظر في اعادة الايقونات الى وقت آخر . وكان البطريرك بولس الرابع القسطنطيني وغيره من كبار رجال الكنيسة قــد اكرهوا اكراهاً على تقبل قرارات مجمع هيبرية (٧٥٤) فاستقال ونصح الى الوصية ان تجمع مجمعاً مسكونياً وان يُرقىّ الى الكرسي البطريركي طراسيوس كاتم اسرار الدولة *asecretis* .وكان طراسيوس عالماً ورعاً تقياً فلم يقبل الدرجة الا بعد ان استوثق من الوصية بانها تدافع عن الرأي القويم (٢) . ومــا ان تسلّم عكاز الرعاية حتى بادر الى توجيه الرسالات السلامية الى رومة والاسكندرية وانطاكية واوروشليم مبيناً فيها استمساكه بقرارات المجامع المسكونية وايمانه الوثيق بشفاعة العذراء والملائكة والقديسين واحترامه للايقونات (٣) .

وفي السنة ٧٨٤ كتب البطريرك طراسيوس وكتبت الوصية باسمها وباسم ابنها قسطنطين السادس الى البابا ادريانوس الاول (٧٧١ ــ ٧٩٥) والى البطاركة ابوليناريوس الاسكندري وثيودوروس الانطاكي والياس الاوروشليمي من اجل مجمع مسكوني يعقد في القسطنطينية (٤) . فأجاب ادريانوس مادحاً مبتهجاً ولكنه اعترض على ارتقاء طراسيوس من العوام وعلى لقبه المسكوني وطلب ان ترد لــه « املاك بطرس الرسول » والسلطة على الابرشيات « التي اضافها لاوون الثالث الى الكرسي القسطنطيني » (٥) .

1) *Diehl. C., l'Impératrice Irène, Figures Byzantines, I, 77 - 111.*
2) *Vita Tarasii, P· G ,X CVIII, Col. 1385 1424 ; Theophanes, Chron; a. 6277; Mansi, XII, Col. 986 f.*
3) *Mansi, XII, Col. 1119 ; Grumel, Regestes dės Actes du Patirarcat de Const., 351, 352.*
4) *Dolger, Reg., 343 ; Mansi, XIII, Col. 1056.*
5) *P. L., XCVI, Col. 1215 f ; Mansi, XII, Col. 1073 f.*

وفي صيف السنة ٧٨٦ اجتمع المجمع في القسطنطينية في كنيسة الرسل (١) ولكن الجنــد اندفعوا اليها شاهرين السلاح فدفعوا بالآباء الى الخارج (٢) . فاستبدلت الوصية حامية العاصمة بغيرها . وعاد الآباء الى الاجتماع في ايلول السنة ٧٨٧ في مدينة نيقية فتألف المجمع من ٣٦٧ اباً وكان رئيسه البطريرك طراسيوس وناب عن البابا ادريانوس القسان بطرس وبطرس وعــن البطاركة الشرقيين الثلاثة القسان توما ويوحنا لان الظروف السياسة في الدولة الاسلامية كانت شديدة على هؤلاء (٣) .

وعقد المجمع المسكوني السابع ثماني جلسات واشترع اثنين وعشرين قانوناً وذلك في خلال شهر واحد بين الرابع والعشرين من ايلول والثالث والعشرين من تشرين الاول سنة ٧٨٧ وافتتح طراسيوس اعمال المجمع بخطبة وجيزة ثم تلي كتاب الامبراطور والوصية وأهم ما جاء في هذا الكتاب ما معناه : « اننا قياماً بالوصية الانجيلية وصية المسيح رئيس الكهنة الابدي قد عُنينا بارجاع السلام الى الكنيسة فبرضاه ومسرته قد جمعناكم انتم كهنتــه الجزيل بركم الحافظين عهده بذبائح غير دموية ليكون حكمكم حكم المجامع الارثوذكسية » . وجاء في هذه الرسالة ايضاً ان طراسيوس أغصب على قبــول المنصب البطريركي وانه قال قبل ان يقبل الشرطونية : «اني ارى وأنظر كنيسة المسيح المؤسسة على الصخرة التي هي المسيح الهنا مقسومة الان ومنشقة واننا نحن كنا نقول قبلا بغيرما نقول الان . ومسيحيو الشرق المماثلون لنا في الايمان يقولون قولا آخر وافقهم عليــه مسيحيو الغرب . ونحن اصبحنا غرباء عنهم جميعاً . وكل يوم نحرم من الجميع . فأطلب عقد مجمع مسكوني يحضره نواب عن بابا رومة وعن رؤساء كهنة الشرق» (٤) .

وبعد ذلك وفي الجلسة الثالثة في الثامن والعشرين من ايلول دخل الاساقفة المبتدعون واعترفوا بالخطأ الذي وقفوا فيه وقدموا الندامة ورفعوا اعترافات ايمان مستقيم

1) *Grumel, V., Regestes, 355.*
2) *Theophanes, Chron., a. 6278·*
3) *Mansi, XII, Col. 1127 — 1146: Amann, E., Querelle des Images, op. cil., VI, 116, n. 5.*
4) *Mansi, XII, Col. 1085.*

وفي مقدمة هؤلاء باسيليوس اسقف انقيرة . وقـد قال في اعترافه : « فانا باسيليوس اسقف مدينـة انقيرة قد اخترت ان اتحد بالكنيسة الجامعـة أعني ادريانوس بابا رومة القديمة الجزيل القداسة وطراسيوس البطريرك الجزيـل الغبطة والكراسي الرسولية الجزيلة القداسة كراسي اسكندرية وانطاكية والمدينة المقدسة وسائر رؤساء الكهنة والكهنة الأرثوذكسيين وقدمته اليكم أنتم الذين نلتم السلطان عن الاصل الرسولي » (١) .

وقرئت رسالة البابا ورسائل البطاركة وأعلن طاراسيوس موافقته على مضمون هذه الرسائل . واعترف الاباء في الجلسة الثالثة والرابعة بوجوب تكريم الايقونات وقبلوها والغوا قرارات مجمع هييرية (٧٥٤) (٢) . وفي الجلسة السابعة كتبوا اعتراف الايمان وحددوا موقفهم من الايقونات فقالوا « باكرامهـا بالسجود احتراماً للذين صوّرت عليهم لا عبادة لهم لأن العبـادة انما تجب لله وحده دون غيره (٣) .

وأوجبت القوانين الاثنان والعشرون التعويض على الأديار والأوقاف عما لحق بها من خسارة واضرار وفرضت على الأساقفـة القيام بواجبهم كما بينت حقوقهم وصلاحياتهم وتطلبت من الكهنة والقساوسة والرهبان التقيد بالقوانين الكنسية (٤) .

امبراطورية غربية : وكان من جراء هـذا الاضطهاد الطويل الذي لحـق بالكنيسة في الشرق والغرب ومن جراء استمساك بطريرك القسطنطينية بلقب بطريرك المسكونة ان حاول بابا رومـة لاوون الثالث اعادة الحـق الى رومة القديمة العاصمة الاولى في انتخاب الامبراطور . فانـه اعتبر فيما يظهر سلطة ايرينة غير قانونية لأنها امرأة ولأنه لم يسبق لرومـة ان اعترفت بحق امرأة في الحكم . واعتبر عرش الامبراطورية الرومانية شاغراً بعـد خلع قسطنطين

1) *Mansi, XII, Col 1087.*
2) *Mansi, XII, Col. 1086, XIII, Col. 132.*
3) *Mansi, XIII, Col. 377 ff.*
4) *Hefelé - Leclercq; Hist. des Conciles, III, 741 - 798 ; Grumel. V., Images, Dict. Theol. Cath., VII, Col. 746 - 844.*

السادس وسمل عينيه فتوج كارلوس الكبير ملك الافرنج امبراطوراً في كنيستـه الكتدرائية وفي يوم عيد الميلاد من السنة ٨٠٠ واعتبره خلفاً للاوون الرابع وهرقل ويوستنيانوس وثيودوسيوس وقسطنطين . واعتبرت حكومة القسطنطينية هـذا العمل خروجاً على السلطة . وتوقعت زحف كارلوس الكبير على الشرق كما فعل غيره من الاباطرة الذين قاموا قبلـه في الغرب فزحفوا ووحدوا (١) . وعلم كارلوس حق العلم ان حكومة القسطنطينية ستنتقي بعد ايرينة فسيلفساً جديـداً ففاوض ايرينة في الزواج ولكنها خلعت في السنة ٨٠٢ (٢) . ولم تعترف حكومة القسطنطينية بلقب كارلوس الجديد قبل السنة ٨١٢ ولكنها في مقابل هذا اضافت رسمياً الى اللقب الفسيلفس الكلمة « الروماني » ! وبقيام امبراطورية غربيـة تناظر الامبراطورية الرومانية الشرعية اشتد النزاع بين بطريرك هذه وبابا تلك ومهدت الطريق لانشقاق الكنيسة الجامعة انشقاقاً كبيراً !

* * *

1) *Bury, J. B., Charles the Geat and Irene, Hermanthena, 1893, 17 - 37 ; Schramm, P., Kaiser Rom und Renovatio, I, 12 - 13.*
2) *Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 265 - 269.*

الفصل الرابع والثلاثون

نظم الكنيسة وقوانينها وطقوسها

في القرنين السابع والثامن

ارتباك وانحطاط : وأدت حروب القرن السابع الى الارتباك والبلبلة . وزادت هجمات البرابرة الطين بلة فكثرت تنقلات العائلات والعشائر واختلط الحابل بالنابل . واستهال الأمر على الناس وتخوفوا وتنازقوا وتسافهوا وتطايشوا . ولجأت الحكومة الى القسوة فسملت العيون وجدعت الانوف وصلمت الآذان وقطعت الألسن. فتباغض الناس وتقاطعوا وانغمسوا في الشر وتهافتوا على المنكر وسخف الرأي وانتشرت الخرافات .

ترفع وتصوّن : ولاحظ آباء القرن السابع هذه الامور فأيقظوا لها الرأي وأسهروا لها القلوب واشترعوا في المجمع الخامس السادس في السنة ٦٩٢ مئة قانون وقانونين . وأوجبوا معاقبة كل كاهن او علماني يتغيب عن الاشتراك في صلوات الآحاد ثلاث مرات متتالية وأبعدوا الخمارات وحوانيت الطعام عن الكنائس ومنعوا النساء عن الثرثرة والبقبقة في اثناء الاحتفالات الدينية وقبحوا ايواء الماشية في كنائس القرى والمزارع . ثم زجروا الرجال والنساء الذين استغلوا ظرف الصلاة للاتجار باجسادهم وحرموا سنة كاملة اولئك الذين اتلفوا الكتب المقدسة او باعوها من تجار العطور ليصنعوا منها أبواقاً . ومنع المجمع منعاً باتاً اقامة حفلات الأغبّة في الكنائس (١) .

وهدد المجمع بأشد العقوبات جميع الذين يخالطون ويعاشرون الزهّد الذين كرسوا أنفسهم لله واعتبر الاجهاض نوعاً من القتل وحرم جميع الذين يصنعون ويتجرون ويروجون الرسوم المخلة بالآداب . وشجب المجمع كل تفنن في ترتيب

1) *Canons 80, 70, 76, 88, 97, 68, 74, Mansi, XI, Col. 935 ff.*

شعر الرأس للفت النظر والاغواء (١) .

وكان المؤمنون لا يزالون يمارسون بعض الطقوس الوثنية القديمة فيحتفلون ببدء السنة الجديدة بالطقوس نفسها التي كان يمارسها الوثنيون لتكريم كرونوس *Kronos* اله الزمان فيتنكرون بجلود الحيوانات ويصنّعون وجوههم(٢) . وكانوا لا يزالون يكرسون الاسابيع الثلاثة بين الرابع والعشرين من تشرين الثاني والسابع عشر من كانون الاول لشرب الخمر وتغير الازياء والرقص وغير ذلك مما شاع في عهد الوثنيين احتفاء بعيد الاله باخوس (٣) . فنهى الآباء المجتمعون عن هذا كله وعن الميّومة ايضاً ، وهي احتفال الربيع ، كما منعوا المؤمنين عن ابقاء النيران في اول الشهر القمري وعن تبادل الالبسة بين النساء والرجال لمناسبة عيد القطاف وحرموا على طلبة الحقوق التنكر بالالبسة لمناسبات معينة (٤) .

ولم يغفل الآباء أمر السحر والشعوذة وما تبعها من خرافات واحاديث كاذبة . وكان قد كثر عدد المشعوذين والساحرين والعرافين الذين ادعوا علم الغيب وكان قد أصغى اليهم وعمل باشاراتهم بعض كبار الرجال . فشجب الآباء هذا كله وفرضوا ندامة ست سنوات على المؤمنين الذين يلجأون الى السحرة والمشعوذين والذين يعرضون الدببة وغيرها من الحيوانات ليبيعوا صوفها تعاويز واحرازاً . (٥) .

قوانين الرسل : واعترف آباء المجمع الخامس والسادس بجميع قرارات المجامع المسكونية الستة . ثم اتخذوا من قوانين الرسل الخمسة والثمانين التي جمعها يوحنا سكولاستيكوس في كتابه النوموقانون اساساً لكل تشريع كنسي . وهي ليست رسولية بالمعنى الحرفي أي انها ليست من تصنيف الرسل أنفسهم وانما تتضمنت التقليد الذي شاع وطبق في كثير من الكنائس منذ ايام الرسل كما تتضمنت ايضاً عدداً من القوانين التي اشترعها الآباء في مجامعهم المحلية قبل المجمع المسكوني الاول .

1) *Canons, 4, 91, 100, 96.*
2) *Leclercq, H., Dasius, Dict. Arch. Chrét., IV, Col. 275 - 279.*
3) *Crawford, J., De Bruma et Brumalibus Festis, Byz. Zeit., 1920, 365 - 396.*
4) *Canons, 62, 65, 71.*
5) *Schlumberger, G., Quelques Monuments Byzantins Byz. Zeit., 1893,187-191.*

واستمسك الآباء المجتمعون في المجمـع الخامس السادس بجميع هـذه القوانين . وحـذا حذوهم فوطيوس فيما بعد و كذلك بلسامون وزونوارس . وشك آباء الكنيسة اللاتينية الشقيقة بصحة بعض هذه القوانين فلم يعتبروا ثابتـاً منها سوى الخمسين التي جمعها ديونيسيوس الصغير . فكان هـذا الاختلاف حول هذه القوانين من عوامل الانشقاق (١) .

وصايا الرسل : وامتنـع آباء المجمع الخامس السادس عن الاعتراف بوصايا الرسل لأنهم لمسوا فيها دساً غريباً لا يتفق والعبـادة الحسنة ورأوا من الصواب طرحها جانباً « كي لا يسري سم الهرتقة » وبينوا بوضوح اسماء الآباء الذين يرجـع اليهم في امر النوماقانون فذكروا في القانون الثاني ديونيسيوس وبطرس الاسكندريين وغريغوريوس قيصرية الجديدة واثناسيوس الاسكندري وباسيليوس قيصرية قبدوقيـة وغريغوريوس نيصيص وامفيلوسيوس ايقونية وتيموثاوس الاسكندري وثيوفيلوس و كيرلس الاسكندريـين وجناديوس القسطنطيني و كبريانوس قرطاجة .

الكتب المقدسة : وعينت قوانين الرسل التي تبناها المجمـع الخامس السادس الكتب المقدسة فجاءت هكذا : اسفار موسى الخمسة وسفر واحد للقضاة وسفر واحد لراعوث واربعة اسفار للملوك وما بقي من اخبار الايام سفران وسفران لعزرا وسفر واحد لاستير وسفر واحد لايوب والمزامير سفر واحد وثلاثة اسفار لسليمان وللانبياء اثنا عشر سفراً وواحد لاشعيا وواحد لارميا وواحد لحزقيال وواحد لدانيال وثلاثة اسفار للمكابيين وجاء في هـذه القوانين : « وعليكم ان تعلموا احداثكم ايضاً حكمة ابن سيراخ الجزيل المعرفة والادب » اما كتب العهد الجديد فهي البشائر الاربع ورسائل بولس الاربعة عشرة ورسالتا بطرس ورسائل يوحنا الثلاثة ورسالة ليعقوب ورسالة يهوذا و « كتاب اعمالنا نحن الرسل » . ومما جاء في القانون الخامس والثمانين اشارة الى رسالتي اقليمس ووصايا الرسل « التي اوصوا بها لكم ايها الاساقفة . وهي محررة بواسطتي انا اقليمس في ثمانية كتب ينبغي عدم

1) *Leclercp, H., Canons Apostoliques, Dict. Arch. Chrét., II, Col. 1913-1914.*

اشهارها تجاه الكل لاجل الامور السرية التي تتضمنها » . وردع الآباء المؤمنين عن مطالعة الابوقريفة ولا سيما ابو قريفة الشهداء وامروا باحراقها.

الاباطرة والكنيسة : وخاض الاباطرة في باطلهم فتدخلوا في شؤون الكنيسة تدخلا فعلياً فسن هرقل الاكثيسيس واشترع قسطنطين الرابع التيبوس ودعا الى المجمع المسكوني السادس وحذا حذوه يوستنيانوس الثاني وأعدّ لاوون الثالث الاكلوغة وغيرها من القوانين واعتبر نفسه كاهناً اعظم فركب رأسه وقال ما قال في الايقونات المقدسة . وبسط قسطنطين الخامس عنانـه في الجهل وتدخل هو ايضاً في امور الكنيسة . ويجوز القول ان عـدداً كبيراً من الاساقفة لم يستلموا عكاز الرعاية الا برضى الامبراطور وموافقته.

ولكن الكنيسة أنجبت في هذه الفترة نفسها من تاريخها ابنـاء قديسين غيورين اخذوا على يد هؤلاء الاباطرة وقصروا خطاهم وحبسوا عنانهم فدافعوا عن حرية الكنيسة دفاع الأبطال. وهل ننسى ادوار مرتينوس الاول ومكسيموس المعترف وغريغوريوس الثاني ويوحنا الدمشقي !

ومما يجب ذكره ان هرقل لوى عنانه وا كد ليوحنا الرابع بابا رومة ان سرجيوس أعد الاكثيسيس وان قسطنطين الرابع افاق من سكرته ورجع عن التيبوس وان يوستيانوس الثاني تساهل في تنفيـذ قوانين المجمع الخامس السادس ولم يكره البابا قسطنطين على العمل بموجبها .

ومـا لا يجوز اغفاله ايضاً ان لاوون الثالث استمزج وشاور وحاول الاقناع قبل ان اتخذ القرارات بنزع الايقونات وان ابنه حذا حذوه وان الآباء الذين اجتمعوا في هييرة لينفذوا برنامج قسطنطين الخامس قطعوا عليه وجهته في أمر العقيدة وخفضوا من غُلوائه وانه هو أمسك وارتدع !

البطريرك المسكوني : وكان المجمع الخلقيدوني (٤٥١) قد اعتبر اسقف رومة الجديدة مساوياً لاسقف رومة القديمة وكان اكاكيوس اسقف رومة الجديدة قد اتخذ لقب البطريرك المسكوني بعد ذلك بسنوات معدودة. ثم انتشر الاسلام في ابرشيات مصر وسورية ولبنان وفلسطين وقامت دولـة اسلامية فتية ثيوقراطية فاستضعف بطاركـة الشرق واستكانوا وتضاءل نفوذهم ثم تيتمت كراسيهم

وأمست شاغرة مدة من الزمن . فأصبح البطريرك المسكوني هو البطريرك الفعّال الوحيد في الشرق .

وجاء المجمع الخامس السادس (٦٩٢) فاعترف بالواقع وأيـد بقانونه السادس والثلاثـين قرار المجمع الخلقيدوني فنح البطريرك المسكوني الامتيازات نفسها التي تمتع بها زميله بابا رومة . وفي السنة ٧٣٢ استحكم الشقاق بـين لاوون الثالث وبين بابا رومة فوسّع لاوون سلطة البطريرك المسكوني على حساب زميله الروماني فخضعت اليرية وصقلية وكلابرية لسلطة بطريرك القسطنطينية . وسلخ لاوون في هذه السنة نفسها ابرشيات اسورية عن كنيسة انطاكية فاتبعها الكرسي القسطنطيني ايضاً . واذا ما قابلنا بين هيرارخية القسطنطينية كما أبانها ابيفانيوس القبرصي في السنة ٦٥٠ وبين تكتيكون البطريرك نيقوفوروس في السنة ٨١٠ نجد عدد الاسقفيات التابعة للكرسي القسطنطيني يرتفع من ٤٢٤ الى ٦٠٠ (١) .

وعظم قدر البطريرك المسكوني في عاصمة الدولة وارتفعت منزلته ووقرت مهابته في الصدور فأقسم الاباطرة امامه يمين الولاء للدين القويم وتسلموا التاج من يده (٢) . وتدخّل هو تدخلا فعلياً في الحكم واشترك في اعمـال مجلس الشيوخ والوزراء وناب عن الامبراطور في غيابه وتولى الوصاية على الاباطرة القصر . فان سرجيوس دار دفـة الحكم في اثناء تغيب هرقل عن العاصمة وتولى بولس الوصاية على قسطنديوس القاصر . وجلس البطريرك المسكوني في المرتبة الاولى بعد الامبراطور ونالت حاشيته مرتبة مرموقة في سجل التشريفات (٣) .

النظام والانضباط : وكانت المجامع قد ربطت كل اسقف بابرشيته ربطاً وثيقاً فحرمت عليه ترشيح نفسه بعد سيامته لاي مركز اسقفي شاغر خارج ابرشيته . وكان هذا التحفظ الشديد قد صعّب انتقاء الاكفاء لبعض المراكز العالية ولا سيا كراسي البطاركة. وحدث مثل هذا في السنة ٧١٥ عندما توفي البطريرك المسكوني يوحنا السادس وشغر كرسيه . فان انظار الشعب والاكليروس والسلطات الزمنية

1) *Parthey, G., Hieroclis Synecdemus et Notitiae Graecae Episcopatum ; Gelzer, Georgii Cyprii Descriptio Orbis Romani.*
2) *Sickel, Das Byzantinische Kronunsgrecht, Byz. Zeit., 1898, 511 - 558.*
3) *Dolger, Reg. 213 ; Constantin Porphyrogénète, De Caerimoniis, II, 39.*

اتجهت شطر جرمانوس اسقف كيزيكة لما تحلّى به من ورع وتقوى وعلم ومقدرة. واضطرت هـذه العناصر الى توقيع العرائض لاظهار رغبتها واجماعها قبل نقل هذا الحبر الجليل من ابرشية كيزيكة الى ابرشية القسطنطينية (١) .

ونظر الآباء المجتمعون في المجمع الخامس السادس في مشاكل الاسقفية فحرّموا الزواج على الاساقفة وسمحوا بوصول مرشح متزوج الى الكرسي شرط انفصال زوجته عنـه ودخولها ديراً من الاديار . وحض الآباء الاساقفة على الوعظ والارشاد ولا سيا في ايام الآحاد وعلى اقتطاف المعاني والاحكام من الكتاب الالهي متبعين في ذلك التقليد الذي وضعـه الآباء المتوشحون بالله مستمسكين بالتفسير الذي أقره كواكب الكنيسة . وأوجب القانون الثامن الذي اشترعـه المجمع المسكوني الخامس والسادس على المطارنة دعوة الاساقفة الخاضعين لهم الى مجمع محلي مرتين في السنة او على الاقل مرة واحدة بين عيد الفصح المقدس وقبل انتهاء شهر تشرين الاول . ومنع هذا المجمع الخامس السادس استئثار المطارنة بتركات الأساقفة الخاضعين لهم . فقد جاء في القانون الخامس والثلاثين انه اذا توفي اسقف تبقى تركته تحت مراقبة اكليروس الكنيسة التي كان متصدراً فيهـا الى ان يتم انتداب اسقف آخر . وأجاز القانون السابع والثلاثون للاساقفة الذين اكرهتهم الظروف على الاقامة في القسطنطينية وعدم العودة الى ابرشياتهم بالاكرام اللائق برتبهم وان يمنحوا الدرجات حسب عاداتهم .

ونص القانون الرابع عشر والخامس عشر على انه لا يسام قساً من كان دون الثلاثين من العمر وان لا يسام شماساً من كان دون الخامسة والعشرين ولا ايبوذياكوناً من كان دون العشرين وانه اذا كان المرشح مستحقاً فلتؤجـل شرطونيته الى نهاية السنة المعينة « لان الرب يسوع اعتمد وابتـدأ يعلم في سن الثلاثين » . وألغى القانون السادس عشر قرار مجمع قيصرية الجديدة فلم يحـدد عدد الشامسة » وجاء في القانون السابع انه لمـا كان بعض الشامسة يتواقحون فيجلسون فوق القساوسة فان المجمع يأمر بأن يجلس الشماس تحت القس ولو كان

1) *Theophanes, Chron. a. 6207 ; Nicephore, Brev., 50.*

متقلداً وظيفة من الوظائف وانـــه يستثنى من ذلك من كان نائباً عن بطريرك او متروبوليت وأتى الى مدينة اخرى بمهمة معينة . « ومن يخالف هذا الحـــد متكبراً فليكن آخر جميـــع الذين من رتبته لان ربنا نهانا عن محبة المتكآت الاولى في المجالس » . وأبقى المجمع الخامس السادس على تشريع يوستنيانوس في أمر الزواج فمنع الاكليريكيين من رتبة ايبوذياكون فما فوق عن الزواج . واذا كان اصحاب هذه الدرجات قد اقترنوا قبل سيامتهم فليحافظوا على نسائهم وليعنوا بهن مبتعدين عنهن عندما يقومون بالخدمة المقدسة « ومن تجاسر على عمل كهذا فليقطع ومن أراد من المتقدمين في الا كليروس ان يقترن بامرأة حسب ناموس الزيجة فليفعل ذلك قبل شرطونيته ايبوذياكوناً او شماساً او قساً » .

وعالج الآباء المجتمعون في السنة ٦٩٢ سر الزواج فاعتبروا الخطبة الرسمية الكنسية عقداً ساري المفعول وحرموا في القانون الثامن والتسعين زواج الخطيبة من شخص ثالث غير الخطيب الاول . وقالوا في القانون الرابع والخمسين : « لا يجوز ان يقترن أحد بابنة عمه او ام وبنتها بأخوين او اخوان باختين . ومن يفعل ذلك فليقف تحت قانون سبع وستين مع فصل الزيجة غير الشرعية » . ونص القانون السادس والعشرون ان القس الذي يزوج عن جهل زواجاً غير شرعي له ان يتمتع بالكرامة الكهنوتية . وأما الأعمال الكهنوتية فيمنع منها. ومن يداوي جراحاته لا يحق له ان يبارك غيره ولذلك فلا يبارك على انفراد ولا علنـــاً ولا يوزع جسد الرب ولا يخدم خدمة اخرى وليبتهل الى الرب بدموع ليصفح له . ومثل هذه الزيجة غير الشرعية قد تنحل ولا يكون للرجل اشتراك مع تلك التي حرم عمل الكهنوت بسببها . وجاء في القانون السابع والثمانين ان من تترك رجلها وتقترن بآخر فانها زانية وانه ان ثبت انها ذهبت من عند رجلها بدون داع موجب فالرجل يستحق العفو وأما هي فللعقوبة . ومن يترك امرأته التي ارتبط معهـــا بموجب الناموس ويقترن باخرى يقع تحت جريمة الزناء . ومثل هؤلاء يوضعون سنة كاملة في عداد الباكين وسنتين مع السامعين وثلاثاً مع الساقطين وفي الرابعة يقفون مع المؤمنين ويستحقون القرابين اذا تابوا بدموع! وجاء في القانون الثالث

والتسعين ان الامرأة التي يغيب رجلها عنها وتنقطع أخباره اذا اقترنت بغيره قبل التثبت من موته تعتبر زانية . وجاء في القانون الثاني والسبعين انه لا يجوز لرجل أرثوذكسي ان يقترن بامرأة هرطوقية ولا لامرأة أرثوذكسية ان تقترن برجل هرطوقي لأنه ليس من الواجب ان يخلط ما لا يجب اختلاطه ولا لذئب ان يجتمع بالخروف . واذا بادر أحد الزوجين الهرطوقيين الى النور الحقيقي ولبث الآخر في الظلمة فلا يفك رباطهما عملا بقول الرسول : ان الرجل غـــير المؤمن يقدس بامرأة مؤمنة والمرأة غير المؤمنة فلتتقدس بالرجل المؤمن . وقضى القانون الثاني والتسعون بأن الذين يخطفون النساء والذين يساعدونهم او يشيرون عليهم فليقطعوا ان كانوا اكليريكيين وليفرزوا ان كانوا علمانيين .

وحرم المجمع بقانونه الرابع والثلاثين التآمر على الأساقفـــة وغيرهم من رجال الاكليروس كما نهى عن العبث بالقوانين المدنية المرعية الاجراء وأوجب قطع من يشرطنون بالمال ومن يتناولون مقابلا لمناولة القربان الطاهر « لأن النعمة لا تباع ولأننا لا نوزع تقديس الروح بالمال بل ينبغي ان نعطي القربان لمستحقيه » وجاء في القانون الحادي والعشرين ان الاكليريكيين الذين يذنبـــون ثم يتوبون ويبتعدون عن الخطيئـــة يجوز قص شعرهم كسائر الاكليروس . أما اذا لم يرغبوا في ذلك فليربوا شعورهم مثل العوام لأنهم فضلوا العالم على الحيـــاة السماوية .

ممارسة الاسرار : ونهى الآباء عن التعميد في المنازل وأوجبوا ممارسة هذا السر في الكنائس وأمروا بقطع الاكليريكي المخالف وفرز العلماني . وأصروا على وجوب تعلم دستور الايمان وتلاوته في صباح الخميس الكبير أمام الاسقف او الكاهن . وسمحوا بقبول التائبـــين من الآريوسيين والمقدونيين والنوفاتيين والابوليناريين بدون اعادة معموديتهم. ولكنهم أوجبوا مسحهم بالميرون المقدس على الجبهة والعينين والأنف والفم والاذن . وأما البولسيون والاقنوميون الذين يعمدون بغطة واحدة والمونتانيون والصقاليون الذين يعتقدون بأن الآب والابن اقنوم واحد فهؤلاء « نقبلهم كالامم اي اننا في اليوم الأول نعدهم مسيحيين وفي

الثاني موعوظين وفي الثالث نستقسمهم نافخين في وجوههم وفي آذانهم ثلاثاً وعلى هذه الحالة نعظهم ونجعلهم ان يلبثوا مدة في الكنيسة ويسمعون الكتب وحينئذ نعظهم . ومثلهم المانويون والفالنتنيانيون والمركيانيون وغيرهم من أصحاب هـــذه الهرطقات . أما النساطرة فينبغي ان يعترفوا بالايمان كتابة وان ينكروا هرطقتهم مع نسطوريوس واوطيخا . وبما ان القرابة الروحية هي أهم من القرابة الجسدية وبما اننا علمنا ان قوماً يقبلون أولاداً من المعمودية ويتزوجون امهاتهم اذا ترملن فاننا نحدد الا يجري شيء من هذا .

ومنع آباء المجمع الخامس السادس المؤمنين عن التناول مباشرة وأوجبوا تناول القربان باليدين الاثنتين متقاطعتين اليمنى فوق اليسرى بشكل صليب والخمر من الكأس . وأجازوا استعمال الملعقة . وحرموا مناولة أجساد الموتى لأنه كتب : « خذوا فكلوا » وأما أجساد الموتى فانها لا تأخذ ولا تأكل .

الصوم : وعلم الآباء ان النصارى في بلاد الأرمن وغيرها يأكلون بيضاً وجبناً في الآحاد والسبوت من الصوم الأربعيني فأمروا بترتيب واحد في كنيسة الله في المسكونة كلها وأوجبوا اكمال الصوم لأن الكنيسة تمنع كل مذبوح والبيض والجبن من أثمار المذبوحين .

وعلم الآباء ايضاً ان أهل رومـــة يصومون في سبوت الصوم الاربعيني مخالفين الترتيب الكنسي. فأمروا بقطع كل اكليريكي يصوم الأحد او السبت مـــا عدا السبت العظيم وبفرز كل عامي يقـــدم على ذلك . وأثبتوا في القانون السابع والستين ان الكتاب الالهي يحظر الدم والمخنوق وان ذوي البطون الشرهة يقعون تحت العقوبة .

الليتورجية : وتطورت طقوس العبادة تطوراً ملموساً في القرن السابع . ففي السنة ٦١٥ او ما يقاربها ادخل البطريرك سرجيوس القسطنطيني ليتورجيـــة القدسات السابق تقديسها البرويجيازمينا . وكانت كنيسة اوروشليم قـــد سبقت غيرها الى هذا (١) . ويرى بعض رجـــال البحث ان البرويجيازمينا التي شاع

1) *Chronique Pascale, P. G., XCII, Col. 989; Leclereg, H., Messe, Dict. Arch. Chrét., XI, Col. 770 - 771.*

استعمالها في القرن السابع كانت تقام آنئذ في جميـــع ايام الصوم ما عدا السبوت والآحاد والخميس الكبير (١) .وجاء في القانون الثاني والخمسين الذي أقره المجمع الخامس السادس في السنة ٦٩٢ ان قداس البرويجيازمينا يقام في كل ايام الصوم الاربعيني المقدس ما عدا يومي السبت والأحد ويوم عيد البشارة المقدس. وتسمى هذه الخدمة خدمة القدسات السابق تقديسها لأن القرابين التي تقدم فيها لا تقبل استحالة وانما يتم عليها تذكار الخدمة لتقديس المؤمنين . وهذه القرابين يقدمها الكاهن مقدسة ومستحيلة من ذي قبل في خدمة سابقة ومؤلفة من جسد الرب ودمه ومحفوظة في بيت القربان *Skeuophglakion* الى يوم التقديم .

أما خدمة القداس في اوائل القرن الثامن فانها الخدمة التي تنسب الى ابينا الجليل في القديسين يوحنا الذهبي الفم . وقد وصفها وصفاً كاملا دقيقاً ابونا الجليل في القديسين جرمانوس بطريرك القسطنطينية (٧١٥ ـــ ٧٣٠) في كتابه تاريخ الكنيسة . وهو أعظم ما ظهر من نوعه قبل كتاب سمعان الثسالونيكي .

واعتبر آباء القرن السابع تعميد الأطفال اجبارياً فقل عدد الموعوظين وتضاءل الحد الفاصل بين قداس الموعوظين وقداس المؤمنين . وبدأ القداس في هذه الفترة بقبول تقادم الشعب وبتهيئـــة القرابين *Proscomidi* وتقدمتها على البروثيسيس *Prothesis* ثم بقراءة الذبيتيخة (٢) . وكانت هـــذه تشمل ذكر الأحياء والأموات من الأساقفة وجميع الكهنة والشمامسة ثم الأباطرة فالشعب(٣). ويلاحظ رجال الاختصاص ان الدخول بالانجيل بعد الخروج به بدأ في طقوسنا في القرن السابع ايضاً . ورأى القديس جرمانوس في هذا رمزاً الى خروج المسيح من اوروشليم وتعليمه الانجيل الذي هو صوفيا اورثي اي الحكمة المستقيمة الحقيقية. ورأى هذا القديس ان الشمعة التي تتقدم الانجيل تشير الى يوحنا السابق وان الترتيل بعد هذا « هلموا نسجد ونركع » انما هو اشارة الى فرح البشر بقبول الانجيـــل وايمانهم بالمخلص وان التسبيح الملائكي « قدوس الله » انما هو اشارة الى البشر لما

1) *Brehier, L., La Vie de l'Eglise Byzantine, op. cit., V, 492.*
2) *Germain, P. G., XCVIII, Col. 396 - 397.*
3) *Maxime, Mystagogia, P. G. XC, Col. 117.*

تعلموا سر الثالوث بتعليم الانجيل مجدوا الله بنغمة واحدة مع الملائكة اذ اصبحوا معهم رعية واحدة للراعي الواحد . وهنــا يصعد الاسقف الى السنثرونون Synthronon ويبارك الشعب . وبعد هــذا تقرأ الرسائل اشارة الى ان المسيح أرسل تلاميذه ليبشروا بالانجيل ثم يتلى الانجيل ويقبل العطاء وينادي الشماس بخروج الموعوظين (١) .

وعندئذ يفتح الكاهن الانديمنسي اي القائمة مقــام المائدة ويصار الى الايصوذن الكبير المعروف بدورة القداس وفيه تدخل القرابين وهي لا تزال غير مقدسة الى المائدة . والايصوذن الكبــير في نظر القديس جرمانوس يرمز الى نقل جسد يسوع من الجلجلة (المذبح) الى القبر (المائدة) (٢) . ويأخــذ بعض رجال الاختصاص بما جاء في تاريخ كدرينوس فيقولون ان الشاروبيكون الذي يرتل لهذه المناسبة ادخل في الخدمة في عهــد الامبراطور يوستينوس الثاني (٥٦٥ ـ ٥٧٨) وانه كان قبل ذلك يرتل عند تقديم التقادم (٣) . اما القديس جرمانوس فانه رأى في المراوح اجنحــة السيرافيم ترفرف لمناسبة دخول الملائكة والروح القدس والقديسين مع المسيح الملك . ومن هنا القول في هــذا الشاروبيكون :

« ايها المثلو الشاروبيم سرياً والمرنمون التسبيح المثلث التقديس للثالوث المحيي لنطرح عنا الآن كل مهمة دنيوية لاننا مزمعون ان نستقبل ملك الكل محفوفاً بالمراتب الملائكية بحال غير منظور هللوياً ! » .

أما باقي الخدمة فانه ظل كما كان في القرن السادس : غسل الأيدي والطلبات « وترتيــل » دستور الايمان وغلق ابواب الهيكل وصلاة الانافورا وترتيل التريصاغيون ولفظ الكلام الجوهري وقراءة الذيبتيخة وتلاوة الصلاة الربانيــة ورفع القدسات وكسر الخبز والمناولة . ورأى البعض ان سكب الماء الساخن يعود الى القرن السادس وان صلاة الشكر أدخلت في عهد البطريرك سرجيوس (٤) .

1) *P. G., XCVIII, Col. 405, 409, 412 - 413, 416 - 417.*
2) *Germain, P. G. XCVIII, Col. 416 - 417.*
3) *Cedrenus, P. G., CXXI, Col. 478.*
4) *Chronique Paseole, P. G., XCII, Col. 1001.*

ولا نزال نرى حتى يومنا هذا مع القديس جرمانوس وغيره من الآباء ان الستر الكبير يشير الى حجر القبر والبخور الى حنوط يوسف ونيقوذيموس وطيوب النسوة وتسكير أبواب الهيكل الى انحدار المسيح الى الجحيم وتسكير ستر الباب الى الحراس والتقبيــل الى المحبــة . ونقول « الابواب الابواب » الى البوابين كي لا يدعوا أحداً من غير المؤمنين او الموعوظين يدخل . ونتلو دستور الايمان لارتباط المحبة بالايمان . ونفتح ستر الباب الملوكي لنشير الى هرب الحراس ونرفرف فوق القرابين بالستر الكبير لنذكر بالزلزلة التي حدثت عند قيام المخلص . ويطوى الستر اذ يصل قارىء دستور الايمان الى العبارة « وقام في اليوم الثالث » للاشارة الى دحرجة الحجر عند باب القبر . والمراوح تمنع وقوع شيء من هوام الهواء في الأواني وتشير الى الاجنحــة الستة . ورفع الخبز المقــدس يتم به رسم قيامة المخلص . وقول الكاهن « القدسات للقديسين » يعني انه لا يجوز لغير الطاهرين . وقوله « الذي يجزأ ولا يتقسم » يعني ان الخبز المقدس هو جسد الرب كله . وكل جزء منه هو جسد الرب كله فجسد الرب لا يتقسم في جوهره وان تجزأ في اعراضه . وقوله « لا يفرغ ابداً » يعني ان المسيح يكون معنا الى انقضاء الدهر بأسراره الالهية وبعد ذلك في ملكوت السماوات . ووضع الخبز المقدس في الكأس يعني ان المسيح قام بكليته جسداً حياً . والماء الحار يقصد به ان يجعل الدم المقدس حاراً كما هو الدم الحي . ثم توضع في الكأس الأجزاء لتحصل على نعمة من ملامسة دم المخلص . وفتح الباب اشارة الى ظهور المخلص للتلاميذ بعد القيامة . وعرض الكأس على الشعب هو الاشتراك في التناول . وقول الكاهن « خلص يا الله شعبك » اشارة الى البركة التي أعطاها المسيح لتلاميذه على جبل الزيتون قبل الصعود : والقول « ارتفع اللهم » اشارة الى صعود الرب وانحدار الروح القدس يوم الخمسين . وعرض الكأس ثانية يذكر بمجيء المسيح ثانية (١) .

ومنع آباء المجمع الخامس السادس بالقانون الثــامن والعشرين تقديم العنب مع التقدمة الغير الدموية وأوجبوا تقديم القربان فقط وتوزيعه وحده على

١) خدمة القداس الالهي لجراسيموس مسرة متروبوليت بيروت ص ٨ ــ ١٢

الشعب لأجل موهبة الحياة ومغفرة الخطايا . وأجازوا قبـول العنب على انفراد ومباركته وتوزيعه على طالبيه شكراً لواهب الأثمار التي بها تنمو أجسادنا وتتغذى وحرموا في السابع والخمسين تقديم العسل واللبن على المذبح .

ولا نجثو بركبنا : وأوضح الآباء المجتمعون في السنة ٦٩٢ انه بعـد دخول الكهنة مساء السبوت الى الهيكل لا يحني أحد ركبتيه حتى عشية الأحد التالية لأننا نتخذ الليل الذي يلي السبت تقدمةلقيامة مخلصنا ومنها نبتدىء بالنشائد الروحية مقيمين العيد من ظلام الى نور فنحتفل بالقيامـة يوماً كاملا ليلا نهاراً ونحافظ على التقليد الذي تسلمناه قانونياً من آبائنا المتوشحين بالله ــ القانون التسعون من أعمال المجمع الخامس السادس .

الترتيل والمرتلون : وكان رومانوس المرتـل البيروتي قد اشتهر بنظم التراتيل والابتهالات في القرن السادس . فلما جاء القرن السابع لمع في هذا الحقل نفسه صفرونيوس البطريرك الاوروشليمي (١) (٦٠٥ ــ ٦٣٩) ومكسيموس المعترف (٢) . بيد ان أشهر المرتلين في هذا القرن هو اندراوس الاقريطشي . ولد في دمشق سنة ٦٦٠ وترهب في اوروشليم وخدم في كنيسة القيامة ثم أرسل مع وفد الى القسطنطينية لمقابلة الامبراطور قسطنطين الرابع في السنة ٦٨٥ فبقي فيها وترأس الاورفانوتروفيون . وفي السنة ٧٠٠ سيم متروبوليتاً على غورتينة في جزيرة اقريطش . وفي السنة ٧١٢ جنح الى المونوثيلية مع فيليبيكوس المغتصب ثم تاب وتوفي السنة ٧٤٠ (٣) . وقد سبقت الاشارة الى نتـاج يوحنا الدمشقي وصديقـه قوزما اسقف ميومة فلسطين في هـذا الحقل من العمل فلتراجع في محلها . وكذلك قانون الاكاثيسطون الذي نظمـه سرجيوس البطريرك القسطنطيني (٤) .

---

1) *Patr. Gr., LXXXVII, Col. 3733 ff.*
2) *P. G. XCI, Col. 1417 - 1424.*
3) *Vailhé, S., André de Crète, Echos d'Orient, 1902, 378 - 387 ; Petit, L., André de Crète, Dict. Arch. Chrét. I, Col. 2034 - 2041.*
4) *Krypiakiewicz, P. F., De Hymni Acathisti Auctore, Byz. Zeit. 1909, 357 - 382 ; Meester, L'Inno Acatisto, Rome, 1905 ; Bréhier, L , Vie de l'Eglise Byz., op. cit., V, 496 - 497.*

العلم والتعليم : ولم يهمل الآباء العلم والتعليم بعـد يوستنيانوس ولكن مراجعنا في ذلك قليـلة مشوشة . وجل ما يجوز قوله هو ان المدارس المسيحية ظلت سائرة في عملها في الشرق وانها زينت أكثر المدن العظمى . فصفرونيوس البطريرك الاوروشليمي علم الأدب في دمشق مدة الزمن قبل وصوله الى الكرسي الاوروشليمي وحاز لقب « الحكيم » (١) ومحى زلزال السنة ٥٥١ معالم مدرسة بيروت فاتجهت انظار طلاب العلوم العالية الى القسطنطينية وجامعتهـا ولعبوا في العاصمـة دوراً مرموقاً . ومن هنا اهتمام آباء المجمع الخامس السادس بهؤلاء الطلاب كما جاء عند الاشارة الى القانون الحادي والسبعين (٢) .

وحمل مكسيموس المعترف لواء الدفاع عن الايمان القويم فأفحم وأسكت بعلم وافر ومنطق سديد ونطق فصيح . واشتهر في حقل اللاهوت بكتابه الاجوبة على الاسئلة وبحاشيته على هامش مصنفات غريغوريوس النزيزي وديونيسيوس الاريوباغوسي . وكتب تحت تأثير هذين كتابه في الزهد ورسالته في التصوف *Mystagogia* وفصوله في المحبة (٣) . وجاء بعد مكسيموس يوحنا الدمشقي وقد سبق الكلام عنه في فصل خصوصي فليراجع في محله .

ومن آثار هذه الفترة من تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية حيـاة القديس يوحنا الرحوم بطريرك الأسكندرية (٦١١ ــ ٦١٩) وقد دبجها لاونديوس اسقف نيابوليس قبرص مستعيناً في ذلك بما وضعه صفرونيوس البطريرك الاوروشليمي ويوحنا موسكوس (٤) . وكان يوحنا هذا قد كرس شطراً وافراً من حياته في اوائل القرن السابع لجمع أخبار الرهبـان القديسين في مصر وفلسطين وسورية فوضع كتـابه الشهير الليموناريون الذي عرف ايضاً بالعنوان « الفردوس الجديد » (٥) .

---

1) *Vie de Sophronius, P. G., LXXXVII.*
2) *Fuchs, Die Hoheren Schulen von Konstantinopel im Mittelalter ; Schemmel, F., Die Hohschule von Konstantinopel.*
3) *Patr. Gr., XC, XCI ; Viller, Sources de la Spiritualité de Saint Maxime, Rev. d'Ascétique et de Mystique, 1930.*
4) *Delahaye, Une Vie Inédite de Saint Jean l'Aumônier, Aualectd Bollandiana, 1927, 5 - 75 ; Gelzer, Leontius von Géapolis.*
5) *Vailhé, S., Jean Moschus, Echos d'Orient, 1902, 107 ff ; Vasiliey, A. A., Byz. Emp., 186.*

ومن أغرب ما دون في هذا العصر قصة برلام ويواصف . وهي في أساسها سيرة بوذا غوماطة بقالب مسيحي . وقد نسبت خطأ الى يوحنا الدمشقي ولعل ناقلها زاهب آخر باسم يوحنا لا قديسنا الشهير . ونصها اليوناني كما نعرفه اليوم يعود في الأرجح الى القرن الحادي عشر (١) .

* * *

1) *Boissonade, Anecdota. Graeca, IV; Peeters, Première Trad. Lat. de Berlaam et Joasaph. Anal. Boll., 1931, 276 - 312; Nercessian, S., Illustration du Roman de Berlaam et Joasaph, 1637, 5 - 32.*

الفصل الخامس والثلاثون

العبّاسيّون والكنيسة

٧٥٠ - ٩٦٩

الثورة العباسية : ونشأت أحزاب سياسية في الدولة الأموية كالزبيريين والخوارج والشيعة ففتت في ساعد الأمويين وأضعفتهم فطمع فيهم الخصوم وقاموا يكيدون . ودان للامويين شعوب كثيرة ولكن الأمويين لم يحسنوا السياسة فأثقلوا الجزية والخراج واستاقوا الاسرى واستعبدوا وأذلوا . فلم تنم هذه الشعوب على الضيم . وانصرف الأمويون الى اللهو والخمر والمجون ولمس عمالهم غفلة واهمالا فأصبح لا هم لهم سوى ابتزاز الأموال وحشدها . وقيل لبعض الأمويين : « ما كان سبب زوال ملككم » فقال : « اختلاف فيما بيننا واجتماع المختلفين علينا » !

وكانت الشيعة قد قابلت نزول الحسن عن الخلافة بالسخط . وبايعت الحسين فكان يوم كربلاء فاستفظعت مقتل ابن بنت الرسول وازدادت حماساً وتعصباً . ثم تقسمت فرقاً . فناصر بعضهم محمد ابن الحنفية وعبدالله ابا هاشم بعده فمحمد ابن عباس . وعباس عم الرسول واليه انتسب العباسيون . وناصر آخرون وكانوا كثراً عبدالله ابن حسن ابن الحسن ابن علي . فتخوف العباسيون منه فعقدوا مؤتمراً هاشمياً يضم العلويين والعباسيين في مكة . فتشبث العلويون فسايرهم العباسيون ريثما تتهيأ لهم الأسباب ووافقوهم على مبايعة « النفس الزكية » .

وفي حوالي السنة ٧١٨ ألف محمد ابن عباس جماعات سرية وأرسل معظمهم الى خراسان لأنها كانت في نظره أصلح من غيرها لنشر الدعوة ففرسها كانوا شيعيين ويكرهون العرب والأمويين ولا يطمعون في الخلافة . وتوفي محمد

ابن عباس وتزعم الحركة العباسية بعده ابنه ابراهيم الأمام . فأرسل هـذا ابا مسلم الخراساني في السنة ٧٤٦ الى خراسان . فأقام في مرو وبدأ يدعوا الناس الى مبايعة آل محمد بدون تعيين . فتبعه اناس كثيرون . واشتدت شوكته فهرب عامل خراسان فألقى الخليفة مروان القبض على الامام ابراهيم في مركزه في الحميمة في شرق الاردن. فأوصى هذا بالخلافة الى اخيه ابي العباس السفاح . ومات ابراهيم الامام فدعا ابو مسلم أهل خراسان الى مبايعة السفاح . وكانت ثورة وكانت معركة حاسمة عند الزاب الأعلى في الثامن والعشرين من تشرين الثاني سنة ٧٤٩ . وتعقب السفاح مروان فأدركه في مصر وحز رأسه . فزالت دولة الأمويين واستتب الأمر للعباسيين في الشرق كله (١) .

السياسة العباسية : وكان العباسيون في عصرهم الأول أصحاب قوة وعزم وتدبير . ولكنهم لم يحجموا عن الفتك بكل من يخشى شره . وتعليل ذلك أنهم كانوا حريصين على الملك يستحلون كل شيء في سبيل تأييده . فقد تجدهم أعدل خلق الله وأعظمهم تسامحاً وقد تجدهم شديدين مشددين . فالحرية عندهم كانت مكفولة ما دامت بعيدة عن سياسة الأحزاب . والتساهل كان مباحاً مـا دام لا يؤثر في الملك (٢) .

العباسيون والنصارى: وهكذا فاننـا نرى الموالي الفرس الذين نظموا حكومة العباسيين ورتبوا دووانيها يقربون أهل الذمة في العراق والشام فيطمعونهم بالرواتب والجوائز ويكرمونهم . فجهابذة العباسيين أكثرهم من اليهود والكتاب من النصارى . وتقلد هؤلاء ديوان الجيش ايضاً وتسابق أكابر رجال الدولة من المسلمين أنفسهم الى تقبيل أيديهم . وممن تقلد هذا الديوان ملك ابن الوليد قلده أياه المعتضد بالله (٨٩٢ ـ ٩٠٢) « وكان المعتضد شهماً عاقلا فاضلا وكان شديداً على أهل الفساد » وقلد المتقي بالله (٩٤٠ ـ ٩٤٤) ابا العلاء صاعد ابن ثابت خلافة الوزارة وكان نصرانياً (٣) . واستخدم العباسيون الاطباء من أهل

1) *Weil, Gesch. d. Chalifen, I - III ; Vloten, G., De Opkomst der Abbasiden; in Chorasan.*

٢) ادباء العرب في الاعصر العباسية للاستاذ بطرس البستاني ص ١٤ ـ ١٦

٣) الوزراء والكتاب للجهشياري ص ٩٥

الذمة والحكماء والتراجمة والكتاب فأكرموهم وراعوا جانبهم وقدموهم . وقد حفظ لنا ابن ابي اصيبعة في كتابه طبقات الأطباء الشيء الكثير من هذه المحاسنة . ولعل أفضل ما ينقل عنه كلامه عن علاقة الخليفة المنصور بجورجيس ابن بختيشوع وكان جورجيس آنئذ رئيس أطباء مارستان جنديسابور . فلما انقطعت شهوة المنصور من الداء الذي أصابه في معدته استقدم جورجيس فدرس علته ووصف الدواء فاشتفى الخليفـة وطابت نفسه ومنع جورجيس من الرجوع الى بلده . وكان المنصور قد علم ان جورجيس خلف امرأته في جنديسابور فأرسل اليه ثلاث جوار روميات وثلاثة الاف دينار. فقبل جورجيس الدنانير ورد الجواري فلما عاتبه المنصور أجابه : « اننا معشر النصارى لا نتزوج الا بامرأة واحدة وما دامت حية لا نأخذ غيرها » (١) . وبذل المأمون وغيره جهدهم في نقـل الكتب من اليونانية والسريانية الى العربيـة وانفقوا بسخاء فكان السوريون المسيحيون ساعدهم الأقوى وفيهم الحمصي والبعلبكي والدمشقي والحـيري والحراني (٢) .

وأكرم بعض الخلفاء الأساقفـة وجالسوهم . فالهادي كان يستدعي اليه الاسقف تيموثاوس في أكثر الأيام ويحاوره في الدين ويبحث معه ويناظره ويطرح عليه كثيراً من القضايا . وله معه مباحث طويلة ضمنها كتاباً ألفه الاسقف المذكور في هذا الموضوع . وكان هارون الرشيد يفعل مثل هذا ايضاً . وغض بعض الخلفاء النظر عن اذلال بعض النصارى فسهلوا لهم الاختلاط بهم وأظهروا احترام مذهبهم حتى أصبح هؤلاء النصارى يهدون الخلفاء ايقونات القديسين فيقبلونها منهم . وكثيراً ما كان الأساقفة يطلبون من الخلفاء تثبيتهم في مناصبهم للاعتزاز بذلك على أخصامهم او منازعيهم (٣) .

١) طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة ج ١ ص ١٢٤

٢) طبقات الاطباء ايضاً ج ١ ص ١٣٨ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ٢٠٥ . راجع ايضاً الفهرست لابن النديم ٢٤٥ و٢٦٤ وتاريخ ابي الفرج الملطي (المشرق ١٩٤٩) ص ٤٩١ ـ ٤٩٢ .

٣) تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ج ٤ ص ١٣٠ ـ ١٣١ وفيه اشارة الى تاريخ المشارقة خط ص ١٤٣ وكتاب الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٥١١

ولكن بعض هؤلاء الخلفاء والوزراء العادلين المتسامحين كانوا في بعض الظروف أشد الناس تعنتاً . فالمهدي (٧٧٥ ـ ٧٨٥) « قوض الكنائس التي التي ابتناها النصارى في عهد العرب وأخرب كنيسة الخلقيدونيين (الروم) في حلب » (١) وأمر ان لا يقتني النصارى عبيداً (٢) . وفي السنة ٧٧٩ أقبل المهدي على حلب فخرج الى لقائه التنوخيون ممتطين خيولا مطهمة رافلين بالحلل . فقيل له هؤلاء هم نصارى « فاحتدم المهدي سخطاً واضطرهم ان يسلموا . فأسلم زهاء خمسة آلاف رجل . ولم تسلم النساء . واستشهد منهم رجل جليل اسمه ليث » (٣) .

وفي السنة ٧٩٧ مرّ هارون الرشيد بالرها فواجهه المسلمون وشكوا النصارى مدعين ان ملك الروم يزورهم كل سنة سراً ويصلي في كنائسهم . « فبحث الخليفة فاستبان له افتراؤهم فأوسعهم ضرباً . وفي هذا الزمان كان رجل قرشي مسلم اسمه رويح . وكان بيته مجاوراً للكنيسة . وكان يضايق الكاهن ويزعجه وقت الصلاة ويطرح عليه من الكوة كرات من طين . ولما كان يحدق فيه يوماً وقت ذبيحة القداس شاهد في الطبق على مائدة الحياة حملا مذبوحاً . فانحدر الى الكنيسة وشاهد أمام الكاهن خبزاً مكسوراً . فعاد الى الكوة وحدق ثانية فشاهد الحمل . فجاهر حالا بالنصرانية وترك بيته وقصد أحد الأديار واصطبغ بالمعمودية . ولما بلغ هارون الرشيد خبره استحضره ولاطفه ليعود الى الاسلام فأبى . فأوثقه والقاه في السجن ، وظل سنتين كاملتين راسخاً في عقيدته » (٤) .

وفي السنة ٨٠٧ أمر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور وأخذ أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم (٥) .

١) تاريخ ابي الفرج الملطي (المشرق ١٩٤٩) ص ٤٩٢
٢) المجدل لماري ابن سليمان اخبار بطاركة كرسي المشرق ص ٧٤
٣) تاريخ ابي الفرج الملطي ص ٤٩٣
٤) ابو الفرج ايضاً ص ٤٩٥ و٤٩٧
٥) الرسل والملوك للطبري ج ٢ ص ٧١٢ ـ ٧١٣

وفي السنة ٨١٢ في عهد الأمين (٨٠٩ ـ ٨١٣) اتفق ناصر وعمر الخارجيان وعبرا الجزيرة وجعل اصحابهما الخوارج يقتلون دون شفقة ويسبون ويغزون ويفحشون . وفيما كانا يحاصران حران كتب اليهما الرهاويون يقولون : ان ارسلتما من يدمر كنيسة النصارى فانهم يضحون بأموالهم كلها حرصاً عليها . فهلع الرهاويون وأوصوا بالصوم واعتكفوا على السهر والصلاة . فسمع الرب طلباتهم وألهم شيخاً من العرب يقال له يحيى ابن سعيد فخرج يريد مواجهة ناصر وعمر الخارجين وأشار عليهما ان يعدلا عن قصدهما . فلبيا مشورة الشيخ وادى لهما الرهاويون خمس مئة الف درهم (١) .

وفي عهد المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٤) تداعت قبة القيامة في اورشليم . فأرسل بكام المصري الى توما البطريرك الاوروشليمي بمال كثير يستعين به على اصلاح القبة . فأصلحها البطريرك (٢) .

تحاسد النصارى : ولو دققنا في ما كان يلحق بالنصارى من الأذى لرأينا سببه في بعض الأحيان وشايات بعضهم على بعض . فان عيسى ابن شهلا لما تولى الطبابة في دار الخلافة اغتنم تلك الفرصة وبسط يده على المطارنة والأساقفة يأخذ أموالهم لنفسه وكتب مرة الى مطران نصيبين يلتمس أشياء عظيمة المقدار من أواني الكنيسة . وهدد قائلا : ألست تعلم ان امر الملك بيدي ان شئت أمرضته وان شئت عافيته . فبعث المطران بالكتاب الى الخليفة فانتقم منه .

وحسد بختيشوع ابن جبرائيل الطبيب حنين ابن اسحق المترجم الشهير لما رأى من منزلته عند المتوكل فعمل على الكيد به من طريق الدين . فاصطنع ايقونة للسيدة العذراء وفي حجرها السيد المخلص . وأوعز الى بعض خاصته ان يحملها هدية الى الخليفة . وكان هو المستقبل للايقونة من يد حاملها . فاستحسنها المتوكل . وجعل بختيشوع يقبلها . فقال له الخليفة المتوكل لمَ تقبلها ؟ فقال له

١) تاريخ ابي الفرج الملطي ص ٥٠٠ ـ ٥٠١
2) *Eutichius, Annales, II, 55 - 57.*

يا مولانا اذا لم اقبل صورة سيدة العالمين فمن اقبل ؟ فقال المتوكل : وكل النصارى يفعلون ذلك . فقال نعم يا أمير المؤمنين وأفضلُ مني . ولكني اعرف رجلا في خدمتك يتهاون بها ويبصق عليها. وهو زنديق ملحد لا يقر بالوحدانية ولا يعرف آخرة يستتر بالنصرانية وهو معطل مكذب بالرسل . فقال المتوكل : من هذا الذي هذه صفته؟ فقال له : حنين المترجم . فأمر المتوكل باحضار حنين فاستمهله بختيشوع ساعة . ثم خرج توآ الى حنين وقال له : أهديت الى الخليفة ايقونة وقد استحسنها . وان نحن تركناها عنده ومدحناها بين يديه احتقرنا وقال لنا هذا ربكم وامه مصوران . وقد سألني عن رأيي فيها فقلت مثلها يكون في الحمامات والكنائس . فطلب الي ان ابصق عليها فبصقت . فاذا دعا بك فافعل . فصدّقه حنين ولما دعاه الخليفة فعل كما قال له بختيشوع . فحالما بصق على الايقونة أمر الخليفة بحبسه . ووجّه الى ثيودوسيوس الجاثليق فأحضره . فلما رأى الايقونة وقع عليها وقبّلها ولم يزل يقبلها ويبكي طويلا . ثم اخذها بيده وقام قائماً فدعا لامير المؤمنين واطنب في دعائه . فدعاه الى الجلوس . ثم سأله عما يستحق الذي يبصق عليها . فقال : « اذا كان مسيحياً عارفاً فاني أحرمه دخول الكنيسة ومن القربان وامنع النصارى من ملامسته وكلامه وأضيّق عليه » . فاعطى الخليفة الايقونة للجاثليق مع جائزة وأمر بحنين فجلد بالسياط والحبال وأمر بنقض منازله وحبسه. ولم ينجُ من ذلك حتى اعتل المتوكل واحتاج الى مشورته فأفرج عنه (١).

الشرع والنصارى : وأظهر العباسيون في دعوتهم انهم يريدون احياء السنة وتقويم ما اعوج من سبل الدين في عهد الامويين . فلما استتب لهم الأمر قربوا الفقهاء والعلماء والزهاد واكرموهم . وكانوا اذا لقوا فقيهاً او زاهداً طلبوا اليه ان يعظهم فاذا وعظهم بكوا . وأشهر المتعظين منهم المنصور والرشيد والمعتصم والواثق . ولا غرو فالمسلمون انقادوا الى فقهائهم فاستعان الخلفاء بهؤلاء على اخضاع العامة وامتلاك قلوبهم . واكتسب الفقهاء بتقربهم مالاً وجاهاً فرسخ احترامهم في قلوب العامة وتمسكوا بهم وعظموهم باسم الدين .

١) طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة ج ١ ص ١٩٤

ويستدل مما تبقى من آداب العصر العباسي ان الفقهاء والعلماء جعلوا « عهد عمر » اساساً لاجتهادهم في معاملة اهل الذمة . وقد سبق لنا القول ان نص هذا « العهد » اتصل بالفقهاء بطريق الاسناد الى عبد الرحمن ابن غنم الاشعري الراوي القديم الذي توفي في السنة ٧٨ للهجرة . ونضيف هنا ان اكثر مواد هذا العهد واردة في كتب الفقه والادارة في العصر العباسي ويكاد لا يخلو منها او من بعضها مصنف (١) .

واختلف الائمة في قيمة حياة الذمّي . فانها كانت عند ابي حنيفة (٦٩٦ ـ ٧٦٧) وابن حنبل (٧٨٠ ـ ٨٥٥) تكافىء حياة المسلم وديته دية المسلم . اما عند مالك (٧١٥ ـ ٧٩٥) فدية اليهودي او النصراني نصف دية المسلم . وعند الشافعي (٧٦٧ ـ ٨٢٠) ثلثها . اما المجوسي فديته جزء من خمسة عشر جزءاً من دية المسلم . واستحق التأديب عند هؤلاء وغيرهم من قال للمسلم يا يهودي او يا نصراني (٢) . وذهب بعض فقهاء هذا العصر الى انه لا تقبل شهادة الذمي على اهل دينه . فحزّ هذا في صدور النصارى حزاً عميقاً . وذهب البعض مذهباً آخر . وكان على قضاة النصارى ان يقبلوا شهادة المسلم على النصراني فزاد هذا الموقف في كرههم وحقدهم (٣) .

واجتهد الفقهاء في هذا العصر اجتهاداً شاقاً في أمر تسلط أهل الذمة على المسلمين ففي السنة ٨٤٩ أمر المتوكل الا يستعان بأهل الذمة في الدواوين واعمال السلطان التي تجري احكامهم فيها على المسلمين (٤) . ولكنه بعد ذلك بعشر سنين انشأ قصره الجعفري وأجرى اليه نهراً وجعل النفقة عليه الى دليل ابن يعقوب النصراني (٥) وفي السنة ٩٠٩ علا أمر النصارى وغلبوا على الكتاب فأمر المقتدر

١) سمات النصارى واليهود في الاسلام لحبيب الزيات المشرق ١٩٤٩ ص ١٦١ ـ ٢٥٢
٢) كتاب الخراج ليحيى ابن آدم القرشي طبعة اوروبة ص ٥٥ وكتاب الخراج لقدامة خط نسخة باريز رقم ٥٩٠٧ ص ٢٩ .
٣) كتاب الخراج لقدامة ايضاً ص ١٣ . *Sachau, Syrische Rechtsbucher, II, 107.*
٤) الرسل والملوك للطبري ج ٣ ص ١٣٨٩ ـ ١٣٩٠
٥) المرجع نفسه ج ٣ ص ١٤٣٨

بما أمر به المتوكل واضاف الا يستخدم احد من اليهود والنصارى الا في الطب والجهبذة (١) . ولكن هذه الاوامر كانت ضعيفة الاثر فان وزيره ابا الحسن علي ابن الفرات كان يدعو اربعة من النصارى الى طعامه كل يوم . وكانوا في جملة الكتاب التسعة الذين اختص بهم (٢) . ولما أراد المقتدر ان يستوزر الحسين ابن القاسم في السنة ٩٣١ أشار عليه بأن يجتهد في اصلاح اعدائه . فابتدأ ببني رائق فكان يمضي الى كاتبهم النصراني ويضمن لهم الضمانات . ثم فعل ذلك باصطفن ابن يعقوب كاتب مؤنس وقال له : « ان تقلدت الوزارة فأنت قلدتنيها » (٣) وكان الحسين هذا يتقرب الى النصارى الكتاب بأن يقول لهم : « إن أهلي منكم واجدادي من كباركم . وان صليباً سقط من يد عبيد الله ابن سليمان جدي فلما رآه الناس قال : هذا شيء تتبرك به عجائزنا فتجعله في ثيابنا من حيث لا نعلم » (٤) ومثل هذا كثير فليراجع في محله (٥) . وعالج الفقهاء هذه القضية فاختلفوا وأفتى بعضهم بأنه يجوز بأن يكون وزير التنفيذ لا وزير التفويض من اهل الذمة . ووزير التنفيذ لا يباشر الحكم ولا يقلد العمال ولا يدبر الجيش . اما وزير التفويض فهو الذي يفوض السلطان اليه تدبير الدولة برأيه (٦) .

ومنع الفقهاء في العصر العباسي تغيير الدين الا اذا كان دخولا في الاسلام . فانفصلت الطوائف بعضها عن بعض . وعوقب المرتد عن الاسلام بالقتل . وقل التزاوج بين المسلمين وغير المسلمين . اما زواج المسيحي من مسلمة فانه كان مستحيلا (٧) . ومنع الفقهاء ايضاً اهل الذمة من تعلية بيوتهم على ابنية المسلمين . فان ملكوا بيوتاً عالية اقروا عليها ومنعوا من الاشراف منها على المسلمين (٨) .

١) ابو المحاسن طبعة اوروبية ج ٢ ص ١٧٤ — ١٧٥
٢) كتاب الوزراء ص ٢٤٠
٣) مسكويه ج ٥ ص ٣٥٢
٤) عريب ص ١٦٤
٥) الحضارة الاسلامية للدكتور ادم متز ج ١ ص ٦٨ — ٧٠
٦) العقد الفريد لابي سالم محمد ابن طلحة ص ١٤٧
٧) كتاب الخراج لقدامة ابن جعفر ص ١٣
Sachau, Syrische Rechtsbucher, II, 75, 170, 192.
٨) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٤٢٨

ولم يُغلق الفقهاء دون اهل الذمة اي باب من ابواب الرزق . فكانوا مزارعين وتجاراً وصناعاً وصيارفة وأطباء (١) . وكان معظم الصيارفة والجهابذة يهوداً واكثر الاطباء والكتبة نصارى (٢) . وكان رئيس النصارى في بغداد طبيب الخليفة (٣) .

القضاء بين النصارى : ولم يفصل الاسلام بين السلطتين القضائية والتنفيذية فالنبي كان رئيس الدولة الاسلامية وقاضيها في آن واحد . وكان ايضاً « مبلّغاً لشريعتها » . وكذلك كان خلفاؤه من بعده . وكان محمد يعهد بالقضاء الى بعض الولاة ضمن توليتهم امور الولاية فاقتفى خلفاؤه أثره واتبعوا الخطة نفسها فقضى ولاتهم بين الناس بالنيابة عنهم . ثم كثرت الاعمال فاضطر الولاة الى تعيين القضاة (٤) . ولم يحدد الوالي اختصاص القاضي فاحتفظ لنفسه بما كان « يعجز عنه القاضي » (٥) . ثم خرج القاضي من سلطان الوالي فخضع للخليفة مباشرة . وكان ابو جعفر المنصور أول خليفة ولّى قضاة الامصار من قبله (٦) .

وكان هذا القاضي قاضي المسلمين « يحضر مجلسه المسلمون دون أهل الذمة » (٧) . ولا غرابة في ذلك فالمسلمون الفاتحون كانوا قد أقروا الناس على ما كانوا عليه من قبل فلم يتعرضوا لهم في شيء من معاملاتهم او احكامهم . ومن هنا اهتمام النصارى بعد دخولهم في دار الاسلام بالقوانين البيزنطية ونقلها الى السريانية والعربية . ومن هذه كتاب الهدى وقد سبقت الاشارة اليه (٨) . وأجاز بعض الفقهاء تقليد الذمي القضاء بين أهل دينه واعتبروا هذا التقليد تقليد زعامة ورئاسة لا تقليد حكم وقضاء . ولكنهم رأوا انه اذا امتنع أهل الذمة عن التحاكم امام

١) الخراج لابي يوسف القاضي ص ٦٩
٢) المقدسي ص ١٨٣
3) *Barhebraeus, Chron. Ecc., III, 187.*
4) *Wellhausen, J., Die Religios - Politischen Oppositionsparteien im Alten Islam, 78.*
٥) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٢٠٧
٦) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤٦٨ والقضاة للكندي ص ٣٦٨
٧) المبسوط للسرخسي ج ١٦ ص ٩٨
8) *Tyan, E., Hist. de l'Organisation Judiciaire en Pays d'Islam, I, 119 - 138.*

قضاتهم لا يجبروا على ذلك . فاذا رجعوا الى قاضي الاسلام قضى بينهم بحكم الاسلام « لانه يكون عليهم أنفذ ولهم ألزم » (١) .

والذي نعلمه من أمر هذه المحاكم النصرانية انها كانت محاكم كنسية يقوم فيها الرؤساء الروحيون مقام كبار القضاة . ولم تقتصر الاحكام فيها على مسائل الزواج بل كانت تشمل مسائل الميراث واكثر المنازعات التي قامت بين المسيحيين وحدهم . ولم ينظر الرؤساء بعين الرضا الى من لجأ من النصارى الى المحاكم الاسلامية . ولذلك صنف الجاثليق النسطوري ثيموثاوس في السنة ٨٠٠ كتاباً في الاحكام القضائية المسيحية « لكي يقطع كل عذر يتعلل به النصارى الذين يلجأون الى المحاكم غير النصرانية بدعوى النقص في القوانين المسيحية » (٢) . ولخص ابن العبري القوانين الكنسية والمدنية في كتابه الهدايات وأبدع في ابواب الشرع المدني (٣) . وجعل الآباء القضاة العقوبات دينية منها التكدير والتوبيخ ومنها القطع والندامة ومنها البذل والغرامة (٤) .

الخلفاء والبطاركة : وبعد انتقال مركز الحكم من دمشق الى بغداد أصبح « الجاثليق » النسطوري ذا مهابة ونفوذ نظراً لكثرة اتباعه في العراق وفارس وما وراءهما الى الشرق . وكانت تنتخبه كنيسته فيصدق الخليفة على انتخابه ويكتب له عهداً كما كان يكتب لكبار العمال . ولم يبق من نصوص هذه العهود سوى نص واحد صدر عن الخليفة المستنجد في السنة ١١٣٩ (٥) . وكذلك كان يكتب لبطريرك اليعاقبة وبطريرك الروم . وكان للنصارى النوبيين دون سائر النصارى مكانة ممتازة في الدولة الاسلامية . فكانوا يدفعون الضرائب لملكهم وكان للضرائب عامل من قبله في بلاد الاسلام (٦) .

وكان لليهود رئيس في بغداد يدعى « رأس الجالوت » ورئيس آخر في

١) الاحكام السلطانية للماوردي ص ١٠٨ – ١٠٩
2) *Sachau, Syrische Rechtsbuecher, II, 57.*
٣) اللؤلؤ المنثور للبطريرك اغناطيوس افرام ص ١١٩
4) *Sachau, op. cit., II, 68 ; Mez, A., Die Renaissance des Islam, Trad. Ar., I, 58.*
5) *Amedroz. Journ. Roy. Asiat. Soc., 1908, 467 ff.*
6) *Barhebraeus, Chron. Ecc., I, 384.*

القاهرة بعد قيام الدولة الفاطمية يلقب « سرهساريم » اي امير الامراء. وكان هذا يعين احبار اليهود في مصر والشام (١) . فاحتج احد بطاركة اليعاقبة فقال في مجلس له مع الخليفة : ان رؤساء المجوس واليهود حكام دنيويون وانه هو رئيس روحي لا يستطيع الا فرض العقوبة الروحية كأن يحكم بخلع اسقف او قطع كاهن او منع علماني من حضور الاحتفالات الكنسية (٢) .

وظل انتساب بطاركتنا الى الكنيسة الجامعة واستمساكهم باللغة اليونانية وتعلقهم بآدابها الكنسية سبباً لاتهامهم بالميل الى الروم والتجسس لهم ومطالعتهم بأخبار المسلمين . وظلوا هم بعيدين عن زميلهم الكبير بطريرك القسطنطينية لا يتصلون به ولا يجرأون على ذكره في الذبيحة . فقد جاء في تاريخ افتيخيوس تحت اخبار السنة (٩٣٧ – ٩٣٨) ان الروم والمسلمين تهادنوا وتبادلوا الاسرى فوجه ثيوفيلاكتوس بطريرك القسطنطينية رسولا الى افتيخيوس نفسه بطريرك الاسكندرية والى ثيودوسيوس بطريرك انطاكية والى خريستوذولس بطريرك اوروشليم يسألهم « ان يذكروا اسمه في صلواتهم وقداساتهم فأجابوه الى ما سأل . وهذا كان قد انقطع عن وقت خلافة بني امية » (٣) .

فثيودوروس (٧٧٤ – ٧٩٧) خالف كنيسة القسطنطينية وامبراطورها وواظب على احترام الايقونات وقطع قوزما متروبوليت حماه لانه ماشى القسطنطينية في امر الايقونات ولكنه على الرغم من هذا الموقف المعادي للقسطنطينية اضطر ان يتحمل عذاب النفي والاضطهاد عندما غزا قسطنطين الخامس حدود الخلافة فأبعد الى موآب (٤) .

وكان ايوب الاول البطريرك الانطاكي (٨١٣ – ٨٤٤) قد طوى فؤاده على التعاون مع الخلفاء لاسقاط التهم ورفع الشبهات فتوّج توما الصقلي الثائر في وجه الامبراطور ميخائيل الثاني ارضاء للمأمون (٥) . ورافق المعتصم الى حصار

1) *Benjamin von. Tudela, 98 ; Goldziher, I., Rev. Etudes Juives. VIII, 121 ff.*
2) *Dionysius Tellmehre, (Chabot), 148 ; Barhebraeus, Chron. Ecc., I, 372.*
3) *Eutichius, Ann., II, 93.*
4) *Theophans, Chron., a. 6248, 9255.*
5) *Michel le Syrien, III, 57.*

أنقره فكلم حاميتها « بالرومية وقال اطيعوا السلطان وادوا الجزيـــة » فقوبل بالشتم والحجـــارة (١) . ورأى خريستوفوروس البطريرك الانطاكي (٩٦٠ ـ ٩٦٧) ان يبعد عن انطاكية في اثناء الحرب بين سيف الدولـــة والروم فسار الى دير سمعان واقام فيه .. وعندما عاد الروم الى بلادهم قصـــد خريستوفوروس سيف الدولة في حلب فأحسن قبوله وشكره على ما فعل . وعاد البطريرك الى انطاكية . ثم توفي سيف الدولة فتألبت العامة على خريستوفوروس واتهمه صديقه ابن مانك بمكاتبـــة الروم واستنهاضهم . « فحلف البطريرك انه ما كاتب الروم قط فوثب عليه قوم من الخراسانيين واقامه واحد منهم وضربه آخر بالخنجر فانفذه في بطنه فسقط فقطع رأسه وطرح في اتون حمام وحملت جثته وطرحت في النهر . وانفذ ابن مانك قبل الصبح قوماً الى كنيسة القسيان وقبضوا على ما وجدوه في منزل البطريرك وفي خزانة الكنيسة واخذوا كرسي مار بطرس وهو من خشب النخل مصفح بالفضـــة وحفظوه في دار شيخ يعرف بابن عمر . وما زال في داره الى ان ملك الروم المدينة . وبعد ثمانية ايام ظهرت جثـــة البطريرك على جزيرة في النهر فخرج قوم من النصارى واخذوها سراً ودفنوهـــا في الدير المعروف بارسانة خارج المدينة » (٢) .

هيرارخية انطاكية : وتختلف المراجع في تتابع البطاركة وتعاقبهم على السدة الرسولية وتتباين آراؤهم في تعيين مدة الرئاسة لكل منهم . واليك ما جاء في لائحة البطريرك قسطنديوس القسطنطيني وما دونـــه افتيخيوس البطريرك الاسكندري وما دونه بعده يحيي ابن سعيد الملحق لتاريخ افتيخيوس .

1) *Eutichius, Ann., II, 60.*

2) *Eutichius, Ann., II, 124. 127 - 129 ; Ibrahim b. Yuhanna, Vie du Patriarche Melkite d'Antioche, Christophore. Proche - Orient Chrétien, 1952 11 - 38, 333 - 366.*

بطاركة انطاكيـــة

(١) ٧٤٨ – ٨١٠

لائحة قسطنديوس		لائحة افتيخيوس	
ثيوفيلاكتوس	٧٤٨ ـ ٧٦٢	ثيوفيلاكتوس	٧٥٤ ـ ٧٦٢
ثيودوروس	٧٦٧ ـ ٧٨٧	ثيودوروس	٧٧٤ ـ ٧٩٧
يوحنا الرابع	٧٩٧ ـ ٨١٠	يوحنـــا	٧٩٨ ـ ٨١١

(٢) ٨١٠ – ٩٠٢

ايوب الاول	٨١٠ ـ ٨٢٦	ايوب الاول	٨١٣ ـ ٨٤٤
نقولاووس	٨٢٦ ـ ٨٣٤	نقولاووس	٨٤٨ ـ ٨٧١
سمعـــان	٨٣٤ ـ ٨٤٠	اسطفانوس	٨٧١ ـ ٨٧١
اليـــاس	٨٤٠ ـ ٨٥٢	. . . .	
ثيودوسيوس	٨٥٢ ـ ٨٦٠	ثيودوسيوس	٨٧١ ـ ٨٩٢
نقولاووس الثاني	٨٦٠ ـ ٨٧٢	. . . .	
ميخائيل	٨٧٩ ـ ٨٩٠	. . . .	
زكريـــا	٨٩٠ ـ ٩٠٢	سمعـــان	٨٩٢ ـ ٩٠٤

(٣) ٩٠٢ – ٩٦٦

جاورجيوس الثالث	٩٠٢ ـ ٩١٧	اليـــاس	٩٠٥ ـ ٩٣٠
ايوب الثاني	٩١٧ ـ ٩٣٩	ثيودوسيوس	٩٣٤ ـ ٩٤٣
افستراتيوس	٩٣٩ ـ ٩٥٩	ثيوخريستوس	٩٤٤ ـ ٩٤٨
خريستوفوروس	٩٦٠ ـ ٩٦٦	خريستوفوروس	٩٦٠ ـ ٩٦٧

ويستدل من التنقيح الذي ادخل في القرن العاشر على لائحة انسطاسيوس البطريرك الانطاكي (١) ان المؤمنين الارثوذكسيين آثروا آنئذ التكتل في السواحل على الانتشار في الداخل وان أهم ابرشيات الكرسي الانطاكي الساحلية أمست في القرن العاشر كما يلي (٢) : ١ : ابرشية عكة من نهر الكرمل حتى نهر الزيب بما في ذلك دير القديس جاورجيوس اللبناني. ٢ : ابرشية صور من نهر الزيب حتى نهر الليطاني ٣ : ابرشية صيدا من الليطاني حتى الدامور ٤ : ابرشية بيروت من نهـر الدامور حتى نهـر ابراهيم . ويضاف اليها برج الهري *Trieris* وبرج المسيحة *Gigarta* (٣) . ٥ : ابرشية جبيل من نهر ابراهيم حتى سيل قانونيت *Kanonit* .
٦ : ابرشية البترون من هـذا السيل الشتوي حتى وجه الحجر *Lithoprosopon*
٧ : ابرشية طرابلس من رأس وجه الحجر (الشقعة) الى سيل ستروثيون *Strouthion*
٨ : ابرشيـة عرطوز *Orthosias* من سيل الستروثيون حتى خريسوبوتاموس *Chrysopotamos* ٩ : ابرشية عرقة من الخريسوبوتاموس حتى نهر السوسية *Sousié* (الحصن) (٤) . ١٠ : ابرشية طرطوس من نهر السوسية حتى نهر المرقية. وكانت تدعى ابرشية هنتارغوس *Hentargos* . ١١ : ابرشية بانياس من نهر المرقية حتى نهر بانياس . وهي خاضعة لمتروبوليت أبامية . ١٢ : ابرشية البلدة *Paltos* من نهر بانياس حتى النهر الكبير . وهي مستقلة . ١٣ : ابرشية جبلة من النهر الكبير حتى نهر صهيون ١٤ : ابرشية اللاذقية من جسر نهر صهيون حتى نهـر تراسكية *Thrascaia* ١٥ : ابرشية أبامية من نهر تراسكية حتى النهر الكبير (العاصي) .
١٦ : ابرشية سلفكيـة من النهر الكبير حتى الكيروبوتاموس بما في ذلك دير القديس سمعان . ١٧ : ابرشية موبسوستة من الكيروبوتاموس حتى نهـر الفيسي *Physi* الكبير . ١٨ : ابرشية ادنه من هذا النهر الكبير حتى نهر ادنة. ١٩ : ابرشية طرطوس من نهر ادنة حتى نهر الروسوس *Rhosos* وهو الحد الفاصل بـين الكرسيين الانطاكي والقسطنطيني .

1) *PapadoPoulos - Kerameus, Anec. Hell., Constantinople, 1884, 65 - 67.*
2) *Vailhé, S., Hiérarchie du Patriarcat d'Antioche, Echos d'Orient, 1907, 90 - 101, 139 - 145, 393 - 368.*
3) *Dussaud, R., Topographie, 81 - 83.*
4) *Ibid., 383, 388.*

وتشير هـذه اللائحة المنقحة نفسها الى كاثوليكوسين تابعين للكرسي الانطاكي احدهما كاثوليكوس روماغيريس *Romaggris* والاخر كاثوليكوس ايرينوبوليس *Irenoupolis* . وقد أبان الاب فاهي *Vailhé* أن روماغيريس هو حي الروم في نيسابور وان ايرينوبوليس هي مدينة السلام اي بغداد . وكان الداعي لسيامة الكاثوليكوس الاول كثرة التجار اليونانيين في نيسابور . امـا بغداد فانها كانت عاصمة العباسيين وكانت تضم عدداً لا يستهان به من أبناء الكنيسة الجامعة وجاء في تاريـخ ابن العبري ان البطريرك الانطاكي الياس سام اول كاثوليكوس ارثوذكسي في بغداد في السنة ٩١٠ (١) .

* * *

1) *Barhebraeus, Chron. Ecc., II, 236 ; Will, Ch., Acta et Scripta, 212 Echos d'Orient, 1907, 97.*

الفصل السادس والثلاثون

فوطيوس العظيم

٨٥٨ - ٨٦٧ و ٨٧٧ - ٨٨٦

لاوون الخامس والايقونات : وسيطر نقفور وزير المال على بلاط ايرينية وقبض عليها وحبسها في احد الاديرة . فانتهى عهد هذه الفسيلسة في السنة ٨٠٢ وكان نقفور سامي الاصل ولم يقل قول ايرينة فلم ينفذ مقررات المجمع المسكوني السابع ولكنه لم يضطهد من قال باكرام الايقونات ولا هو شجعهم . وسقط نقفور في حرب البلغار في السنة ٨١١ وقطع البلغاريون رأسه واتخذوا جمجمته كأساً . وجرح ابنه وولي عهده وتوفي فتولى العرش ميخائيل الاول صهره (٨١١ ــ ٨١٣) وكان ميخائيل لطيف المعشر معجباً بالرهبان فأبعد عن الوظائف جميع اعداد الايقونات فأثار غضبهم ودفع بهم الى التآمر . ومما زاد في الطين بلة ان البطريرك نيقوفوروس تقسى في معاملة المهاجرين الذين نقلوا الى العاصمة وتراقية من الولايات النائية الجنوبية الشرقية لتمسكهم بمذاهب لم تقرها المجامع المسكونية فعادت المشادة الدينية الى ما كانت عليه من قبل . وكانت الحرب البلغارية لا تزال ناشبة فأعد ميخائيل جيشاً وزحف الى الجبهة في ربيع السنة ٨١٣ فدارت الدائرة عليه فنادى الجند بلاوون الارمني احد كبار القادة فسيلفساً. فتنازل ميخائيل وترهب .

واول ما فعله هذا الفسيلفس الارمني لاوون الخامس (٨١٣ ــ ٨٢٠) انه أقسم يمين الولاء للكنيسة وقطع وعداً بأن يحافظ على عقائدها ومصالحها . ولكنه كان وصولياً وكان يعتمد على جنود آسيويين لا يحترمون الايقونات ولا يرغبون في تكريمها . فما ان استتب له الامر وتخلص من خطر البلغار حتى نكث يمينه ونبذ عهد الولاء للكنيسة . وكان مراوغاً مداوراً فبث بادىء ذي بدء

في الاوساط الرسمية وغير الرسمية ان ما حلّ بالدولة من ضعف وما أحدق بها من خطر انما نشأ عن العودة الى تكريم الايقونات وتقديسها . وبعد ان تمكن من جمع قرارات مجمع هييرية (٧٥٤) عقد مجلساً في القصر ضمّ بعض وجهاء الطرفين المتخاصمين ممن قال بالايقونات وممن حرمها . ودعا البطريرك نيقوفوروس الى هذا المجلس في خريف السنة ٨١٤ وثيودوروس رئيس دير الاستوديون وطلب الى المجتمعين ان يبحثوا في أمر الايقونات . فأجابه ثيودوروس بصراحة وشدة ان البحث في الامور الدينية منوط برجال الدين وان الواجب على الفسيلفس ان يطيع هؤلاء في امور الدين لا ان يغتصب دورهم اغتصاباً وان للفسيلفس ان يعنى بما سوى ذلك (١) . فأجاب لاوون بأنه لا يرغب في حمل الناس على الاستشهاد . وفي عيد الميلاد من هذه السنة استمع القداس الالهي في كنيسة الحكمة الالهية مظهراً الخشوع مكرماً الايقونات . ولكنه في ربيع السنة ٨١٥ قبض على البطريرك نيقيفوروس ونفاه الى خريسوبوليس واقام في موضعه علمانياً يدعى ثيودوتوس . ثم عقد مجمعاً محلياً في نيسان سنة ٨١٥ في كنيسة الحكمة الالهية ثبت فيه مقررات مجمع السنة ٧٥٤ وحرم تكريم الايقونات (٢) . على ان لاوون الخامس كان اقل اسراعاً ممن سبقه الى محاربة الايقونات مع ان مقاومة من كرّم الايقونات كانت اشد واقوى من ذي قبل . فاكتفى لاوون بنفي الاساقفة والرهبان وبحبسهم . واشهر المنفيين بعد نيقوفوروس البطريرك ثيودوروس الاستودي الذي كتب من منفاه في ازمير في السنة ٨١٩ يشدد عزائم الرهبان كما انه استغاث ببابا رومة وبطاركة الشرق الثلاثة (٣) . وكان بين المنفيين ثيوفانس المؤرخ . فانه ابعد الى سموتراقية فتوفي في السنة ٨١٧ (٤) .

ميخائيل الثاني والايقونات : (٨٢٠ ــ ٨٢٩) وأشرك لاوون الخامس ابنه في الحكم وظن انه بذلك يؤسس اسرة حاكمة . ولكن رفاقه في السلاح الذين

1) *Vita Theodore, P. G., Vol. 99, Col. 181 - 183 ; Dobroklonskij, A., Saint Theodore the Studite, 2 vols., Odessa, 1913 - 1914.*
2) *Serruys, D., Les Actes du Concile Iconoclaste de l'An 815, Mel. Arch. Hist. Ecole Fr. de Rome, 1903, 345 - 351.*
3) *P. G., Vol. 99 Col. 1152 - 1156.*
4) *P. G., Vol. 108, Col. 36 - 44.*

عاونوه في الوصول الى الحكم وفي طليعتهم ميخائيل العموري لم يرضوا عن مسلكه فتآمروا عليه . واكتشف لاوون هذه المؤامرة وقذف بمخائيل الى السجن ولكنه أجل عقابه وترك شركاءه في المؤامرة احراراً. فضرب هؤلاء ضربتهم قبل ان ينكشف أمرهم وذبحوا لاوون في كنيسته الخاصة . وأخرجوا ميخائيل من سجنه وتوجوه فسيلفساً قبل ان تكسر قيوده الحديدية .

وكان ميخائيل الثاني ريفياً غير مثقف جندياً عتيقاً في طباعه وعاداته ولكنه كان قديراً حكيماً . وعلى الرغم من قلة ايمانه بالايقونات (١) فانه اتخذ موقفاً معتدلا فمنع كل مشادة حول الايقونات واستدعى من المنفى جميع المبعدين بسبب ذلك واستقبل ثيودوروس الراهب في قصره واكد له حرية العبادة وقال نيقيفوروس البطريرك : ليس لي ان ابتدع في الايمان والعقيدة ولا ان اجادل في التقاليد الموروثة او ان انقضها . ولكنه لم يعترف بقرارات المجمع المسكوني السابع (٢) .

ثيوفيلوس الاول : (٨٢٩ ـ ٨٤٢) ويختلف المؤرخون في موقف ثيوفيلوس من الايقونات . فبعضٌ يرى فيه عدواً لدوداً للايقونات وانصارها وبعضٌ يراه معتدلاً في موقفه مقتصراً في اجراءاته على العاصمة وضواحيها (٣) . والواقع انه رغم تعلقه بالعذراء والقديسين فانه اتخذ له مستشاراً عدواً للايقونات وهو العالم الشهير يوحنا الكاتب . وجعل من صديقه هذا بطريركاً مسكونياً ولم يكترث بقرارات البطاركة باسيليوس الاوروشليمي وخريستوفوروس الاسكندري وايوب الانطاكي التي وُجهت اليه موجبة المحافظة على التقليد واحترام الايقونات (٤) . وكوى كنيّ الراهب العازار بالحديد الحامي وجلد ثيوفانس واخاه ثيودوروس الراهبين الفلسطينيين ووسم جبينيهما بابيات من الشعر نظمها هو نفسه (٥) .

1) *Mansi, XIV, Col. 417.*
2) *Ostrogorsky, G., Byz. State, 180 - 181 ; Ternovsky, F. A., Graeco-Eastern Church, 487 ; Amann, E., Epoque Carolingienne, Fliche et Martin, VI, 240.*
3) *Bury, J. B., East. Rom. Emp., III, 140 - 141 ; Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 286 ; Amann, E., op. cit., 241.*
4) *Texte, P. G., Vol. 95, Col. 345 - 386 ; Papadopoulos, Chrys. Ist. Ekk., 329.*
5) *Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 286.*

يوم استقامة الرأي : وتوفي ثيوفيلوس في السنة ٨٤٢ . وخلّف خمس بنات وابناً ذكراً هو ميخائيل الثالث . واذ كان ميخائيل هذا لا يزال في السادسة من عمره فان الفسيلفس الراحل جعل زوجته ثيودورة وصيةعلى ميخائيل القاصر . وعاونها في الوصاية مجلس تألف من كبار رجال الدولة بينهم اخواها برداس وبتروناس والمايستر سرجيوس وثيوكتيستوس عزيز ثيودورة المفضل على غيره (١) .

وتحدرت ثيودورة من أصل ارمني بفلاغوني شرقي ولكنها على الرغم من هذا أحبت الايقونات واكرمتها . ووافقها على ذلك مجلس الوصاية . فدعت الآباء الارثوذكسيين الى مجمع ليحلوا ثيوفيلوس زوجها من خطيئته في اضطهاد من كرّم الايقونات . وطلبت الى البطريرك يوحنا الكاتب ان يشترك في أعمال هذا المجمع فأبى . وادعى ان مؤامرة كانت تحاك لاغتياله فأخرجه برداس من المقر البطريركي واودعه بيته . ثم انتخب مثوذيوس المعترف بطريركاً على القسطنطينية وذلك في الرابع من اذار سنة ٨٤٣ . ووافق مجمع الآباء على خلع يوحنا واعترف برئاسة مثوذيوس وجدد الاعتراف بقرارت المجامع المسكونية واعتبر تكريم الايقونات عملا مشروعاً ولعن من حرّمها (٢) . وفي الاحد الاول من الصوم الكبير في الحادي عشر من اذار سنة ٨٤٣ خرجت ثيودورة في موكب عظيم الى كنيسة الحكمة الالهية يواكبها كبار الرجال لاستماع القداس الالهي ولتقبيل الايقونات ولطلب المغفرة لزوجها الراحل . ولا نزال حتى يومنا هذا نعتبر الاحد الاول من الصوم الكبير يوم استقامة الرأي (٣) .

لصورتك الطاهرة نسجد أيها الصالح طالبين مغفرة الذنوب أيها المسيح الاله
ان اسرارك كلها يا والدة الاله تفوق كل ادراك وتعلو كل مجد .

التريودي الاحد الاول من الصوم

1) *Dvornik, F., Photius and Iconoclasm, Dumbarton Oaks Papers, 7, 1953 96 ff.*
2) *Mansi, XIV, Col. 788 ; Grumel, Regestes, 415, 422 f.*
3) *Grumel, Regestes, 425*

الاحزاب والكنيسة : وكانت رومة الجديدة قد ورثت عن رومة القديمة أحزابها الاربعـــة الزرق والخضر والبيض والحمر . ثم انضم البيض الى الخضر والحمر الى الزرق فانقسم سكان عاصمة الروم وامهات مدنهم الى حزبين رئيسين الى زرق وخضر . وكانت الكنيسة الارثوذكسية (ولا تزال) يونانيـــة في فكرها ونظمها فقالت بالديموقراطية وأشركت الشعب في جميع نواحي حياتهـــا فلعبت الحزبية الشعبية دوراً هاماً في اعمال هذه الكنيسة واقوالها .

وشمل الزرق في ميدان السياسة الدينية الطبقتين الغنية والمتوسطة والرهبان المتطرفين ولا سيا الاستوديين . وانضوى الى الخضر جمهور الشعب والرعـــاة والكهنة ورهبان آخرون وحارب الزرق العلوم الكلاسيكيةالقديمـــة فماشى العلماءُ الخضرَ في غالب الاحيان . فانقسمت الكنيســـة الى زرق محافظين متطرفين *Acribeia* والى خضر طلقاء معتدلين *Oeconomia* .

واصطبغ الانقلاب الذي دبره الامبراطور نيقيفوروس واعوانه في السنة ٨٠٢ باللون الاخضر فأيده جمهور الشعب والاساقفة والكهنة وقاومـــه الاغنياء والاشراف والرهبان . وتوفي طراسيوس البطريرك في السنة ٨٠٦ فرشح الزرق المتطرفون ثيودوروس الاستودي ولكن نيقيفوروس الامبراطور آثر الاتزان والاعتدال فأيـــد نيقيفوروس وزير المال وجعل منـــه بطريركاً مسكونياً (٨٠٦ ــ ٨١٥) فاعترض الزرق المتطرفون على شرطونيـــة البطريرك الجديد وقاوموه مقاومة عنيفة (١) وتآمروا على حيـــاة الامبراطور (٢) . وكان ما كان من أمر نيقيفوروس في حرب البلغار وسقوطه في ميدان القتـــال فتألب الزرق المتطرفون على ابنـــه وولي عهده واقاموا ميخائيل الاول امبرطوراً محله . وعلا شأن الاستوديين في عهد هذا الفسيلفس ولكن قلة خبرتهم وتطرفهم في الرأي والعمل أديا الى الانحدار في الحرب والى وصول لاوون الخامس الى الحكم والى تأجيل تكريم الايقونات ثلاثين سنة اخرى .

وخلف نيقيفوروس على السدة المسكونية ثيودوروس كسيتراس(٨١٥ــ

1) *Dvornik, F., « Les Slaves, Byzance et Rome au IX Siècle, » 125 ff.*
2) *Gregorii Abulpharagii, Chron. Syr., II, 137 ; Michel le Syrien, III, 12 f.*

٨٢١) وانطونيوس كاسياتاس (٨٢١ ــ ٨٤٧) فيوحنا الكاتب (٨٣٧ ــ ٨٤٣) وقالوا جميعهم برفع الايقونات من الكنائس وعدم تكريمها . وجاءت الفسيلسفة ثيودورة تكرم الايقونات في السنة ٨٤٣ فأنزلت يوحنـــا الكاتب عن الكرسي وراحت تفتش عن خلف له . وكانت متطرفـــة في عاطفتها الدينية وقالت قول الاستوديين ولكنهـــا آثرت وصول بطريرك معتدل الى الكرسي المسكوني تحوطاً (١) . واوعزت بانتخاب مثوذيوس الصقلي العالم الكبير والتـــقي الورع وصديق زوجها المتوفى (٢) . ورغب مثوذيوس رغبة اكيدة في المحافظة على السلم والوئام في الكنيسة فابتعد في انتقاء الاساقفة الجدد عن الاوساط المتطرفـــة فأثار بذلك غضب الاستوديين واعوانهم . فهاجوا وماجوا وعابوا الاموات قبل الاحيـــاء فعادوا الى الطعن في طراسيوس ونيقيفوروس واضطر مثوذيوس ان يقطعهم من الشركة (٣) .

وتوفي مثوذيوس في حزيران السنة ٨٤٧ . ولحظ ثيوكتيستوس مستشار ثيودورة وعزيزها تكتلاً في الاوساط العلمية العالية حول برداس مناظره ففتش هـــذه المرة عن خلف لمثوذيوس في الاوساط المتطرفة وقدم اغناطيوس ابن الفسيلفس ميخائيل الاول ولم يكترث لـــا ابداه المعتدلون من تعلق بغريغوريوس اسبستوس صديق مثوذيوس ورئيس اساقفة سرقوسة . وكان اغناطيوس قد اشتهر بورعه وغيرته على الدين والكنيسة ولكنه كان سريع الغضب معجباً بنفسه مستبداً برأيه (٤) .

اغناطيوس وبرداس : (٨٤٧ ــ ٨٥٧) وظلت ثيودورة تدير دفـة الحكم اربع عشرة سنة (٨٤٢ ــ ٨٥٦) . وفي خلال هذه المدة نشبت مشادة بـــين ثيوكتيستوس وبرداس اخي ثيودورة أهم اسبابها حب السلطـــة وشهوة الحكم .

1) *Dvornik, F., Les Slaves, op. cit. 128 f.*
2) *Dvornik, F., The Photian Schism, 13.*
3) *Narratio de Beatis Patriarchis Tarasio et Nicephoro, P. G., Vol. 99, Col. 1853 ; Grumel, Pol. Relig. du Patr. St. Methode, Echos d'Orient, 1935, 385 - 401.*
4) *Amann, E., Epoque Carolingienne, op. cit., 466 ; Dvornik, F., Photian Schism, 17 ff.*

فنشأ انقسام داخلي في مجلس الوصاية ادى الى استقالة عمانوئيل عم الفسيلفس والى سجن ثيوكتيستوس وقتله سنة ٨٥٤ . وكان السبب المباشر وشاية رفعها برداس الى الفسيلفس الشاب ان ثيوكتيستوس عقد النية على التزوج من ثيودورة او احدى بناتها للوصول الى العرش . فنشأت مشادة عنيفة بـين ثيودورة واخيها برداس حول السلطة ادت في السنة ٨٥٦ الى خروج ثيودورة وبناتها من القصر . واصبح برداس صاحب الصول والطول .

وتوفي احد ابناء برداس فأقامت امرأته افذوكية في بيت عمها برداس . ولم تكن الحـياة والكنة على مشرب واحد فاندلعت الشرور في البيت . واظهر برداس عطفاً على كنته فاتهمته زوجته بكنته . فطرد امرأته من البيت . فالتجأت الى اخته ثيودورة. فوبخ اغناطيوس برداس ونهاه عن المحرم ونصح له ان يقبل امرأته في بيته . فأبى برداس . وفي عيد الظهور الالهي سنة ٨٥٧ تقدم برداس مع ميخائيل الثالث ليتناول الاسرار الالهية . فأبى البطريرك مناولتـه وطرده خارج الكنيسة . وحنق برداس على البطريرك اغناطيوس وطفق يسعى للانتقام منه .

واتفق ان راهباً ادعى انه ابن ثيودورة من رجل كان لها في السابق. فأخذ الشعب ينظر اليه كأنه هو الملك المزمع بعد تنحيها . فقبض عليه برداس وزجه في السجن . واستنطقه فلم يعترف . فأمر بقلع عينيه وقطع اوصاله . وكان البطريرك اغناطيوس يعطف على هـذا الراهب ويدافع عنه ناسباً عمله الى الجنون . فاغتنم برداس الفرصة واتهم البطريرك بالتآمر على الفسيلفس ليرجع ثيودورة وبناتها الى ادارة المملكة. فصدّق الفسيلفس كلام برداس وأمر اغناطيوس ان يجعل ثيودورة وبناتها راهبات في احدى الاديرة . فسألهن اغناطيوس هل يردن الدخول في سلك الرهبنة فأنكرن فامتنع عن اجابة طلب الفسيلفس . فصدّق ميخائيل ان البطريرك عدو له . فأكره والدته واخواته على الترهب كما اوعز الى اغناطيوس ان ينزل عن كرسيه . فلمس اغناطيوس تعقد الامور لمس اليد وادرك ان لا فائدة للكنيسة من بقائه في منصب الرئاسة فاستعفى عن رضى واختيار وأشار على الاساقفـة ان

ينتخبوا غيره « من ابناء الكنيسة » . (١) وليس من العلم بشيء ان نصرّ على الغيّ فنقول مع مرتينوس جوجي واميل أمان ان اغناطيوس خلع خلعاً (٢) .

فوطيوس رئيس الكنيسة : (٨٥٨) وشاورت الحكومـة وفاوضت الاساقفة فاتضح لها ان الاساقفة اصدقاء اغناطيوس رغبوا في تطبيق القانون اي في دعوة المجمع القسطنطيني الى الانعقاد ليبحث القضية ويرفع الى الفسيلفس اسماء ثلاثة اساقفة يرى فيهم اللياقـة والكفاءة لينتقي الفسيلفس افضلهم . فوافقت الحكومة على دعوة المجمع. وتوافد الآباء الاعضاء. ولكنهم كانوا قد تخالفوا فيما بينهم وتشاقوا في عهد اغناطيوس فانقسموا الى متطرفين يؤيـدون اغناطيوس ومعتدلين يعارضونه كل المعارضـة . ولدى اجتماعهم للبحث عن راع صالح يخلف اغناطيوس تفرقت كلمتهم واضطرب حبلهم . ثم توافقوا على ان يكون الخلف من كبار رجال الدولة اصحاب الرأي والورع والتقوى . ولم يروا في عملهم هذا خروجاً كبيراً على القوانين والتقاليـد فطراسيوس ونيقيفوروس لم يكونا اكليريكيين قبل اجماع الكلمة على انتخابهما. وهكذا فان المجمع رفع الى الفسيلفس اسماء ثلاثة احدهم اغناطيوسي متطرف والآخر معتدل معارض والثالث حيادي وهو فوطيوس رئيس مجلس الوزراء *protoaskretis* .

وأيد معظم الاساقفة من اتباع اغناطيوس المرشح الجديد لاسباب اهمها انه كان ارثوذكسياً لا غش فيـه وانه تحمل العذاب في سبيل الدفاع عن الذين القويم في اثناء حرب الايقونات وانـه كان أعلم اهل عصره وانه لم يتظاهر بالعداوة لاغناطيوس وانه كان يمت بصلـة النسب الى ثيودورة الفسيلسة والى برداس في آن واحد (٣) .

وكان فوطيوس كريم الاصل يرجع في نسبه الى اسرة يونانية قديمة تتصل بالاسرة المقدونية . وكان ابوه سرجيوس ابن اخي البطريرك طراسيوس وكان

1) *Theophanes Cont. IV, 37 - 38 ; Nicetas, P. G., Vol. 105, Col. 504 - 505 ; Dvornik, F., Photian Schism, 36 - 50.*
2) *Amann. E., « Destitution d'Ignace, » Fliche et Martin, op. cit., VI, 467 ; Jugie, M., Schisme Byzantin, 105, 106, n. 1.*
3) *Dvornik, F., Photian Schism, 50 ; Bury, J. B., Relationship of Photius to Empress Theodora, Eng. Hist. Rev., 1890, 252 - 258.*

سيافاً في القصر . وكانت ام فوطيوس ايرينة شقيقة لعديل الفسيلفس ثيوفيلوس . واشتهر والداه بمناصرة الرأي الأرثوذكسي واستشهدا لهذه الغاية. ونشأ فوطيوس في القسطنطينية وتلقى علومه فيها . ثم تبحر واستبحر فأصبح واسع الاطلاع غزير المواد متقناً لعلوم اللسان اليوناني مطلعاً على آدابه بصيراً بمذاهبه الفلسفيــة . وأحاط بسائر علوم زمانه كالفقــه والطب والفلك . وكان جزيل الورع فاضلا لطيفاً وديعاً محباً للسلام . ولدى وصوله الى السدة البطريركيــة تضلع من علم اللاهوت وخاض عباب علم التفسير واستجلى غوامضه . واشهر آثاره الفكريــة مجموعة الميريوبيبلون *Myriobiblon* « الوف الكتب » وفيهــا منتخبات من مئات المؤلفات القديمــة وتعليقات هامة عليها وكتاب الليكسيكون *Lexicon* في علوم اللغة وكتاب الامفيلوخية *Amphilochia* وفيه الاسئلة والاجوبة في مواضيع مختلفة. وله مقالات ورسائل تحفظ رأيه في بعض المشاكل التي اثيرت في عهده (١) . ولا يختلف اثنان فــيما نعلم في عبقرية فوطيوس وعظمته وسمو مطلبه وطهارة سيرته واستقامــة عقيدته (٢) . واستوظف فوطيوس فتسنم أعلى المراتب فأصبح بروتوسباتاريوس « السياف الاول اي رئيس رجال المعية » وبروتوسيكيرتيس اي السكرتير الاول ومستشاراً واول عضو في المجلس الاعلى . وانتدب سفيراً الى شرقنا . وعلّم فوطيوس في جامعــة القسطنطينية وأصبح بيته داراً للعلم والادب والحكمة يؤمه الادباء والعلماء في كل يوم .

وعلا فوطيوس درجات الكهنوت بسرعة فسيم في اليوم الاول متوحداً وفي اليوم الثاني اناغنوسطساً وفي الثالث ايبوذياكوناً وفي الرابع شماساً وفي الخامس قساً وفي السادس اسقفاً فبطريركاً . ولم يرَ الروم آنئذ في هــذه الترقية الشذوذ الذي نراه اليوم . فبولس الثالث سيم بطريركاً على القسطنطينية في السنة ٦٨٧ بهذه الطريقة نفسها وكذلك طراسيوس في السنة ٧٨٤ ونيقيفوروس في السنة ٨٠٦ .

1) *Patrologia Graeca, Vols. 101 - 104 ; Hergenroither, J., Photius Patriach von Konstantinopel, 3 vols., Monumenta Graeca ad Photium Pertinentia; Papadopoulos-Kerameus, A.. Monumenta Graeca et Latina ad Historiam Photoii Pertinentia, 2 Vols. ; Amann, E., Photius, Dict. Theol. Cath.*
2) *Ostrogorsky, G., The Byzantine State, (1956) 199.*

ومما يجدر قوله هنا ان رومة لم تمتنع عن الاعتراف بهؤلاء كما امتنعت عن الاعتراف بفوطيوس . وكان المتقــدم في شرطونية فوطيوس رئيس اساقفــة سرقوسة غريغوريوس خصم اغناطيوس . ولكنــه لم ينفرد بالشرطنة كما يزعم الأب جوجي (١) بل عاونه فيها اسقفان اغناطيوسيان آخران (٢) .

وأدى « تقدم » غريغوريوس في شرطونية البطريرك الجديد الى نفور اغناطيوس وخمسة أساقفة معه . ورغبت الحكومة في السلم والوئام فأشارت على فوطيوس بالتسوية . فاشترط الأساقفة الخمسة على فوطيوس ان يحل زعيمهم اغناطيوس فيحسبه بطريركاً بريئاً من التهم الموجهة اليه وان يمتنع عن التفوه بشيء ضده وان يمنع غيره عن ذلك ايضاً (٣). ويرى الاب جوجي ان فوطيوس وعد الا يقبل في الشركة من يطعن باغناطيوس (٤) . وهــذا توسع في تفسير النصوص لا تجيزه قواعد المصطلح (٥) .

وهكذا فان روح التضحية الشخصية وانكار الذات التي تجلت بتنــازل اغناطيوس عن الكرسي وبقبول فوطيوس بالشروط المفروضة أنقذت الكنيسة القسطنطينية من الشقاق . فكتب فوطيوس الى زميله بطريرك انطاكيــة يبشره بحلول السلام والوئام (٦) ودون نيقيناس خبر انتهاء المشادة والمشاحنة (٧) .

ولكن الأحقاد ظلت توغر الصدور في الاوساط السياسية وتستوقد الغيظ فثيودورة وأعوانها كانوا لا يزالون يبطنون العداوة لخائيل وبرداس وينصبون لها الحبائل الخفية . وكان اغناطيوس لا يزال يعطف على ثيودورة وكذلك بعض الاستوديين فانهم ظلوا حاقدين متنمرين مضمرين الحزازة والضغينــة . ورأى فوطيوس ان يمنع الاكليروس عن مكاشفة الحكومة بالعداوة فأتهمه الاغناطيوسيون

1) *Jugie, M., Schisme Byzantin, 107.*
2) *Mansi, Greek Acts, XVI, Col. 348, 352, 353; Dvormik, F., Photian Schism, 51, n. 4.*
3) *Metrophanes of Smyrna, Mansi, XVI, Col. 416 ; Dvornik, F., Phot. Sch., 52 - 53.*
4) *Jugie, M., Sch. Byz., 108, n. 2.*
5) *IV Congrès Int. Byz; Actes 317 .*
6) *Valetta, J., Photii Epistolae, I, 145, 146.*
7) *P. G., Vol. 105, Col. 512 ; Aristarchos, S., Photii Orationes et Homilae, I, 149 - 160.*

بالخيانة ونكث العهود . واجتمعوا في كنيسة القديسة ايرينة ونادوا باغناطيوس بطريركاً شرعياً وحرموا فوطيوس . فدعا فوطيوس المجمع القسطنطيني الى كنيسة الرسل لبحث المشكلة الجديدة. فاعتبر الآباء عمل اغناطيوس وأعوانه غير قانوني وأكدوا الجوء الى خلعه ان هو قبل الرئاسة مرة ثانية او عاد الى التجاوز والتطرف الذي كان قد أدى الى الشغب والفوضى في الكنيسة (١). واشترك الاغناطيوسيون في أعمال هذا المجمع ولكنهم لجأوا الى التشويش فقمعت الحكومة هذه المقاومة بالقوة ونفت اغناطيوس ونقولاوس رئيس دير الاستوديون وغيرهما (٨٥٩) (٢) .

رسائل الجلوس: (٨٦٠) وقضى العرف بتوجيه رسائل الجلوس الى سائر البطاركة لتنبيء بالانتخاب الجديد وتتضمن اعترافاً بالايمان المقدس (٣) . وكان الامبراطور نيقيفوروس قد منع البطريرك نيقيفوروس عن توجيه رسالة بالجلوس الى بابا رومة نظراً لاقدام حبر رومة على شق الامبراطورية والاعتراف بامبراطور غربي . ولم يرض الاباطرة محاربو الايقونات عن ارسال هذه الرسائل الى رومة نظراً للاختلاف في موقف الكنيستين الرومانية والقسطنطينية من الايقونات . وذهبت ثيودورة التقية وبطريركها مثوذيوس الى أبعد من هذا فامتنعا عن تبادل الرأي مع رومة قبل العودة الى اكرام الايقونات المقدسة (٤). واصطدم فوطيوس بامتناع الاغناطيوسيين عن الاعتراف بسلطته فرأى من الحكمة ان يوجه رسائل الجلوس الى كل من بابا رومة وبابا الاسكندرية وبطريرك انطاكية وبطريرك اوروشليم راجياً ان يعينه اعتراف زملائه برسائلهم السلامية في تخفيف الأزمة في القسطنطينية . فكتب في ربيع السنة ٨٦٠ الى حبر رومة نقولاووس الاول والى حبر الاسكندرية ميخائيل الاول والى حبر اوروشليم ثيودوسيوس والى ايكونوموس كنيسة انطاكية . وكان يتنازع الكرسي البطريركي في كنيستنا

1) *Metrophanes, Mansi. XVI, Col. 416 ; Zonaras, J., Commentaria, P. G., Vol. 137, Col. 1004 f.*
2) *Dvornik, F., Phot. Sch. 55 - 65.*
3) *Vancourt, R., « Patriarcats », Dict. Théol. Cath.*
4) *Ostrogorski, G., Byz. State, 199 - 200.*

نقولاووس الاول البطريرك الشرعي وافستاثيوس متروبوليت صور . ولعل هذا هو السبب الذي حدا بفوطيوس ان يرسل كتاب الجلوس باسم ايكونوموس الكنيسة الانطاكية لا باسم البطريرك .

وجاء في رسالة الجلوس التي ارسلها فوطيوس الى بطاركة الشرق بعد الشكر لله على احساناته وعلى نعمة الكهنوت ما معناه: «اني عندما اتأمل في سمو الرتبة الاسقفية وانظر الى الضعف البشري ولا سيما حقارتي يأخذني العجب وأحار في أمر اولئك الذين يقدمون على أثقال كاهلهم بهذا الحمل المرهق . اما انا فيعجز لساني عن وصف الحزن الذي شملني لدى قبولي ذلك العبء الثقيل . اني لم أرتق السدة البطريركية الا بعدما تنحى عنها سلفي ولاني لم أجد سبيلا للتخلص من تلك المسؤولية الكبرى التي اضطرني الى تحملها الكهنة والأساقفة ولا سيما الفسيلفس » (١) .

فأبطأ الآباء البطاركة ريثما ينجلي الموقف . ثم تلقوا رسالة من زميلهم الأكبر بابا رومة (٨٦١) أعلمهم فيها انه لم يشترك في رسامة فوطيوس او تنزيل اغناطيوس (٢). فازدادوا تريثاً وباتوا ينتظرون تطور الموقف . ثم عاد فوطيوس فكتب الى توما متروبوليت صور يسأله ما اذا كانت الكنيسة الانطاكية تعترف به فأجابه بالنفي (٣). بيد ان افستاثيوس منافس نقولاووس الأول عمد بعد حين الى الاعتراف بفوطيوس لعله يستعين بهذا الاعتراف على خصمه نقولاووس . فشكر فوطيوس وطلب اليه ان يقوم الى القسطنطينية (٤) .

البابا نقولاووس الاول : (٨٥٨ ـ ٨٦٧) وكان نقولاووس بابا رومة يهوى السياسة ويحب مزاولتها . وكانت مواهبه غير عادية ففاق سلفاءه القريبين من عهده علماً وعزماً وحزماً (٥). وعزّز رئاسته في الغرب تعزيزاً فنفذت كلمته

١) واللفظ لسيادة متروبوليت بيروت وجبيل كيريوس فيليبوس . المسرة ١٩٣٧ ص ٢٧٧ـ٢٧٨
Grumel. V., Regestes, 465.
2) *Mansi, XVI, Col. 168.*
3) *Grumel, V., Reg. 471.*
4) *Grumel, V., Reg. 472.*
5) *Duchesne, L., Les Premiers Temps de l'Etat Pontifical, 115, 119.*

في فرنسة والمانية وأخضع يوحنا رئيس اساقفة رابينة بعد مشادة عنيفة (١) .

وأراد نقولاووس ان يبلغ في الشرق الى حيث لم تبلغ آمال أسلافه . فكتب الى فوطيوس يأسف انه ليس بامكانه ان يعترف به فوراً وان اعترافه سيتوقف على التحقيق الذي سيجرى من قبله في القضية (٢) .

المجمع الاول الثاني : (٨٦١) وفي اثناء هذا كله استؤنفت محاربة الايقونات وذر قرن الشقاق بين الارثوذكسيين وأصحاب الطبيعة الواحدة . وهب البولسيون والمانويون يشاغبون . فرأى الفسيلفس ومجلسه الاعلى والبطريرك الجديد ان يجمعوا مجمعاً مسكونياً . وكانت الدعوة الى هذه المجامع من حق الاباطرة وقد مارسوها منذ عهد قسطنطين الكبير (٣) . فضمن الفسيلفس رسالته الى نقولاووس دعوة الى مجمع مسكوني يعقد في القسطنطينية للنظر في مشاكل كثيرة (٤) . فقبل نقولاووس الدعوة واعترض على أعمال مجمع كنيسة الرسل ثم اقترح اعادة النظر في قضية اغناطيوس امام المجمع المسكوني وبحضور ممثليه الاسقفين رادولدو وزخريا ليتسنى له الاطلاع على الحقيقة والعمل بموجب القوانين المرعية الاجراء . وأشار بعد هذا الى تعدي لاوون الاسوري على حقوق البطريركية الرومانية وطلب اعادة ما سلخ عنها وشمل هذا الطلب أبرشيات كلابرية وصقلية واليرية ومقدونية وتسالية وآخية وداقية وميسيةوبريفاليتانية(٥). ويرى الاب اميل امان ان اللوم في هذا التوسع في الطلب يجب ان يقع على انسطاسيوس سكرتير البابا لا على نقولاووس نفسه (٦) .

والتأم المجمع في ربيع السنة ٨٦١ فأعلن بولس متروبوليت قيصرية قبدوقية في الجلسة الاولى انه لا حاجة لاعادة النظر في قضية اغناطيوس لانه خلع لذنوب اقترفها وان كنيسة القسطنطينية تعتبر مشكلة اغناطيوس قضية مفروغاً منها ولكن اكراماً للقديس بطرس وللاب المسكوني الاقدس نقولاووس لا مانع من النظر

1) *Amann, E., op. cit., 381 - 383.*
2) *Jaffé - Wattenbach, 2682, Epistolae, VI, 433.*
3) *Dvornik, F., De Potestate Civili in Conciliis Oecumenicis.*
4) *Dvornik, F., Photian Schisn, 70 - 71.*
5) *Jaffé - Wattenbach, 2683 ; Epistolae, VI, 439.*
6) *Amann, E., Ep. Car., op. Cit., VI, 472, n. 1.*

في هذه ثانية (١) . ومثل اغناطيوس أمام المجمع وحقق معه في كيفية ارتقائه الى الكرسي وما اذا كان قد انتخب انتخاباً او عُيّن تعييناً . فأجاب ان امرأة رفعت طراسيوس قبله الى الكرسي نفسه . فاعترض الفسيلفس وقال : « بل قل انه عُيّن في عهد امرأة » . ثم امتنع اغناطيوس عن الحضور في الجلسة الثانية . وفي الجلسة الثالثة اكره على الحضور بأمر الفسيلفس . ولما مثل أمام الآباء اعترض على صلاحية ممثلي البابا وسأل : « من هم القضاة الذين ينظرون في قضيتي » . فأجابه الاسقفان الرومانيان : « هم نحن والمجمع المقدس » . فأجاب انه لا يرضى وانه سيطلب تدخل البابا . وفي الجلسة الرابعة استجوب المجمع بناء على طلب ممثلي رومة اثنين وسبعين شاهداً عن كيفية وصول اغناطيوس الى الكرسي البطريركي ثم اتخذ الآباء قراراً بخلع اغناطيوس والاعتراف بفوطيوس ووافقهم على ذلك ممثلا رومة (٢) .

وبحث المجمع مسألة الايقونات فأوجب تكريمها . وقاوم فرق الهراطقة بأقوال الروح فاجتذب أكثرها الى حظيرة الخلاص. ووضع قوانين تتعلق بالأديرة والرهبان فحرّم تحويل المساكن الى اديرة بدون موافقة الأساقفة وأوجب على الملاكين ان يتنازلوا عن حقوقهم في ملكية هذه المساكن . ومنع المجمع شرطنة الرهبان الذين لا يرغبون في الخضوع الى رئيس معين وأوجب الاقامة في الأديرة والابتعاد عن السكنى في المنازل الخصوصية . وفرض على كل راغب في الزهد والتقوى ان يتخلص من ممتلكاته قبل دخوله في الرهبنة . ومن أعمال هذا المجمع انالآباء أقروا الا يقوم بعد ذلك بطريرك من طبقة العوام او الرهبان ما لم يتمرس في درجات الكهنوت درجة درجة ويتمم المدة القانونية فيها (٣) .

وقد سمي هذا المجمع الأول الثاني لأنه عندما بحث أمر الايقونات هجم محاربوها من الخارج وعطلوا جلساته بالقوة . ثم عاد الى الانعقاد ثانية فسمي المجمع الأول الثاني .

1) *Dvornik, F., Ph. Sch., 78.*
2) *Ibid., 80 - 88 ; Amann, E., op. cit., 472 - 473.*
3) *Mansi, XVI, Col. 536 - 548 ; Grumel, V., Reg. 466 ; Deusdedit, Collectio Canonum, (Ed. Glanvell), 604 - 610.*

نقولاووس وفوطيوس : (٨٦١ – ٨٦٧) وأرسل ميخائيل الثالث أعمال هذا المجمع الاول والثاني الى البابا نقولاووس مع أحد كتابه لاوون ومع ممثلي البابا وزودهم بهدايا كنسية ورسالة منه الى البابا . وكتب فوطيوس ايضاً رسالة مملوءة محبة ولطفاً . وبشر الممثلان سيدهما بما احرزاه من نجاح في اعادة النظر في قضيـة اغناطيوس وبما سجلاه من نصر لرومة في التدخل في شؤون كنيسة القسطنطينية . فارتاح نقولاووس لذلك ووافق على الدور الذي لعبـه ممثلاه في المجمع الأول الثاني ووكل الى الاسقف رانولدو القيام بمهمة جديدة في بلاط الافرنج في خريف السنة ٨٦٢ واستمر الاسقف زخريا في متابعـة أعماله في رومة (١) .

ولكنه ساء نقولاووس ان ممثليه في المجمع الأول الثاني لم يسجلا اي تقدم في أمر الأبرشيات المسلوخة التي طالب باعادتها الى البطريركية الرومانيـة . وكان فوطيوس قد أشار في رسالته الى نقولاووس الى استعداده للاعتراف بحق رومة في هذه الابرشيات ولكنه أوضح ان القسيلفس عارض في ذلك . فاستأنس البابا بهذه الاشارات ورأى ان يؤجل الاعتراف ببطريركية فوطيوس الى ان ينال ما تمنى من السلطة على هذه الأبرشيات . وكتب الى كل من ميخائيل وفوطيوس (٨ اذار سنة ٨٦٢) معلقاً اعترافه وموافقته الى ان يتثبت من بعض الامور . وكتب بالمعنى نفسه الى زملائه بطاركة الاسكندرية وانطاكية واوروشليم (٢) . ويشك الأب دفورنك ما اذا كانت هذه الرسائل وصلت الى هؤلاء البطاركة في حينها لأن البابا ارسلها بطريق القسطنطينية (٣) .

ورأى ميخائيل وفوطيوس ان الثمن الذي حدده نقولاووس كان عالياً فصمتا صمتاً طويلا وباتا ينتظران تطور الظروف. واضطرب البابا وضاق صدره. وفيما هو ينتظر ورود الجواب أطل عليه وفد الاغناطيوسيين المتطرفين برئاسة ثيوغنوستوس *Theognostos* . وأدعى هـذا الوفد انه يمثل اغناطيوس ويطالب

1) *Dvornik, F., Phot. Sch., 91.*
2) *Epist. VI, 440 - 442.*
3) *Dvornik, F., op. cit. 95 - 96.*

بحقوقه واغناطيوس براء من هذا كله(١)، فأصغى البابا الى أقوال الوفد وظل ينتظر رد فوطيوس وميخائيل . ثم يئس فدعا أساقفته الى مجمع في رومة في صيف السنة ٨٦٣ . فاستمع الآباء الى تقرير الاسقف زخريا عن أعمال المجمع الاول الثاني وعن الدور الذي قام به في اثناء انعقاد هذا المجمع . فاعترف زخريا بأنه تجاوز صلاحياته فقطعه المجمع وامتنع عن الاعتراف برسامـة فوطيوس . ثم قطع غريغوريوس وأعلن اغناطيوس بطريركاً شرعياً على القسطنطينية (٢) . وأغرب ما في أخبار نقولاووس انه عين زخريا بعـد قطعه رئيساً على دير القديس غريغوريوس . وهذا الدير كان آنئذ من أغنى أديار رومة وأهمها ! ثم أعاده الى سابق عهده في رئاسة الكهنوت وفي العمل الاداري الذي كان يقوم به قبـل القطع (٣) . اما رانولد فانه رفض ان يمثل أمام الآباء في المجمع وأيد فوطيوس فوقع تحت الحرم (٤) .

ومضى برداس وفوطيوس في العمل معاً لصالح الامبراطورية والكنيسة فقضيا على مقاومـة الاغناطيوسيين ووطدا الامن في الداخل ثم احسنا السياسة في الخارج فحالفا رستيسلاف امير مورافية الكبرى وهزما جيشاً بلغارياً كان في طريقه الى الحدود المورافية . وراب رستيسلاف أمر المرسلين الالمان الذين كانوا يخلطون بين الدين والسياسة في بلاده فطلب مبشرين ارثوذكسيين يعلمون شعبه الدين القويم فاختار فوطيوس الاخوين قسطنطين ومثوذيوس لهذه الغاية . فقاما الى مورافية في السنة ٨٦٤ وصنفا كتباً دينية في اللغة الصقلبية ونقلا الانجيل اليها وبشرا . وجاء بوغوريس ملك البلغار بعـد انهزامه امام الروم سنة ٨٦٤ الى القسطنطينية فاعتمد على يد البطريرك فوطيوس وسمي ميخائيل في المعمودية باسم اشبينه ميخائيل القسيلفس . وعين فوطيوس رئيس اساقفـة لبلغارية وقسيسين ومعلمين . و كان نقولاووس قد طالب بمعظم الاراضي البلقانية مدعياً ان خدمة شعوبها الروحية منوطة باسقف رومة كما سبق وأشرنا فجاء عمل فوطيوس مخالفاً

1) *Dvornik, F., Ph. Sch., 96.*
2) *Epist. VI, 517 - 523.*
3) *Pat. Lat. Vol. 75, Col. 236.*
4) *Epist. VI. 561 - 562.*

لرغبته فاشتدت الازمة الرومانية البيزنطية تعقداً .

وبعد ان سجلت القسطنطينية هذا النصر المبين في مورافية وبلغارية رأى صاحبها ميخائيل الثالث ان يرد على نقولاووس . فكتب اليه في صيف السنة ٨٦٥ كتاباً مراً جعل البابا ان يقول عنه ان كاتبه قد غمس قلمه في حلق ثعبان! فلام القسيلفس البابا بادئ ذي بدء على قلة تقديره للتضحية التي قدمتها كنيسة القسطنطينية في سبيل السلم والوئام فأبان له ان مشكلة اغناطيوس مسألة داخلية ادارية لا تمت الى امور العقيدة بصلة وبالتالي فانه لا يحق لرومة ان تتدخل فيها . واضاف القسيلفس انه على الرغم من هذا فان كنيسة القسطنطينية نزلت عند رغبة البابا وسمحت باعادة النظر في قضية اغناطيوس امام ممثليه في المجمع . وأكد القسيلفس ان الموجب لدعوة هذين الممثلين الى المجمع انما كان للنظر في امر الايقونات . ثم أتهم القسيلفس ثيوغنوسطوس بالتحريض والمشاغبة وأمر البابا ان يرسل ثيوغنوسطوس واعوانه الى القسطنطينية للتحقيق وهدد باحضارهم بالقوة اذا اقتضى الامر (١) . فغضب البابا لكرامته ، وكان سريع الغضب ، وكتب في الخامس والعشرين من ايلول سنة ٨٦٥ رسالة أصبحت فيما بعد موضوع اهتمام عند علماء الجدل (٢) . وأهم ما جاء فيها ان السيد له المجد هو الذي خص بطرس بهذه الصلاحيات الواسعة وان بطرس منحها خلفاءه من بعده وان رومة وحدها تفخر باقامة بطرس وبولس فيها ووفاتهما ضمن اسوارها وان بعد رومة تأتي الاسكندرية وانطاكية . اما القسطنطينية فانها اضطرت ان تستورد رفات اندراوس ولوقا وتيموثاوس . وأضاف البابا ان هذه الامتيازات التي تمتعت بها رومة تمنحها حق الاشراف على كنيسة القسطنطينية (٣) . وذهب نقولاووس الى ابعد من هذا فحصر في نفسه حق الدعوة الى المجامع فاصطدم بالعرف والتقليد الشرقيين اللذين جعلا الدعوة لانعقاد المجامع من صلاحيات الامبراطور وحده .

1) *Epist. VI, 457 - 479.*
2) *Lammer, H., Papst Nikolaus I und die Byzantinische Staatskirche.*
3) *Epist. VI, 474, 484.*

انبثاق الروح القدس : وفي السنة ٨٦٦ هجم لويس الالماني على بوغوريس البلغاري وغلبه . فطلب البابا نقولاووس الى لويس ان يدفع بوغوريس الى طلب معلمين روحيين من البابا . فبادر البابا الى ارسال قسيسين الى بلغارية . فطعن القسيسون البابويون بفوطيوس وأعادوا معمودية من سبق ان اعتمدوا على يد قساوسة الروم وقالوا بصوم السبوت وفصلوا الاسبوع الاول من الصوم الكبير وسمحوا بتناول الألبان وأكل الجبن فيه وكرهوا البلغاريين بالقسوس المتزوجين زيجة شرعية وعلموا ان الروح القدس منبثق من الآب والابن (١) .

ولا يخفى ان كنيسة اسبانية كانت قد بدأت تقول بانبثاق الروح القدس من الآب والابن منذ أواخر القرن السابع وان هذا القول كان قد شاع في بعض كنائس الغرب في النصف الثاني من القرن الثامن . ولكن كنيسة رومة كانت قد واظبت على القول بانبثاق الروح القدس من الآب فقط كما جاء في دستور نيقية . ولم تقبل اضافة العبارة « والابن » *Filioque* قبل القرن الحادي عشر . ولنا دليل واضح على هذا في موافقة البابا نقولاووس نفسه على الاعتراف بالايمان الذي أورده فوطيوس في السنة ٨٦٠ في رسالة الجلوس . ففوطيوس قال في هذه الرسالة : « وبالروح القدس المنبثق من الآب » (٢) ونقولاووس أكد في الثامن من آذار سنة ٨٦٢ ان اعتراف فوطيوس كان مستقيماً كل الاستقامة (٣) .

دعوة الى مجمع مسكوني : (٨٦٧) ورأى القسيلفس في وصول اللاتين الى بلغارية خطراً على سلامة الدولة . ورأى فوطيوس في التعاليم خروجاً يجب بحثه في مجمع مسكوني . ورأى ايضاً في الرسائل التي وردت عليه من بعض الأوساط الاكليريكية الغربية تذمراً من سلوك نقولاووس وسياسته ما يوجب دعوة الآباء الى مجمع مسكوني . فوجه فوطيوس في السنة ٨٦٨ منشوراً الى بطاركة الشرق وأساقفته جاء فيه « ان ابليس لا يشبع من الشر وان رجالا كانوا قد نبغوا

1) *Lettre Encyclique de Photius, P. G. Vol 102, Col. 721 - 741 ; Grumel, V., Reg., 481.*
2) *P. G., Vol. 102 Col. 589.*
3) *Epist. VI, 440.*

في ظلام الغرب نزلوا في الآونة الاخيرة في بلغارية نزول الصاعقة وقفزوا قفز الوحوش ودخلوا كرم الرب المغروس جديداً فرعوه وأبادوه بأرجلهم وأسنانهم واحتالوا على البلغاريين فنقلوهم الى صوم السبوت وفصلوا الاسبوع الاول من الصوم الكبير عن جسم الصوم وجذبوهم الى شرب الالبان وأكل الجبن فيه والشراهة وجعلوهم يمقتوا القسوس الأفاضل المتزوجين الزيجة الشرعية كهنة الله الحقيقيين ولم يخشوا ان يعيدوا ميرون المميرنين من القسوس داعين أنفسهم أساقفة مدعين ان المسحة التي يتممها القسوس باطلة لا نفع لها . فانهم يقولون لا يجوز للكهنة ان يقدسوا المكملين بميرون لأن هذه الشريعة خصت بروساء الكهنة . ولم يقفوا عند هذا الحد من مخالفة الشريعة فانهم شرعوا بوقاحة زائدة في نغل الدستور الشريف المقدس فعلموا بأن الروح القدس ينبثق لا من الآب فقط بل من الآب والابن . فمن ترى سمع من الكفرة أنفسهم قولا مثل هذا . مَن من المسيحيين يطيق ان يدخل في الثالوث الاقدس علتين فيقول ان الآب علة الابن والروح ثم ان الابن علة الروح فيحل الرئاسة الواحدة الالهية الى اثنين ويمزق تعليم المسيحيين في الله . فمن أين سمعت هذا ومن أي انجيلي جاءك هذا الصوت فربنا والهنا قال : الروح الذي من الآب ينبثق » (١) . ثم يوضح فوطيوس ان القول بأن الآب علة الابن والآب والابن معاً علة الروح يوجب ان يكون الآب والابن والروح علة لاقنوم رابع والأربعة لخامس الى ما لا نهاية له . وايضاً ان الانبثاق من الآب كامل ولا حاجة الى القول بأكثر منه . فان كل ما يقال في الثالوث المتساوي في الطبيعة والجوهر إمـا ان يكون عاماً للثلاثة او خاصاً بواحد منهم . فان كان صدور الروح لا عاماً لهم ولا خاصاً بواحد منهم ينتج انه ليس أنبثاق للروح في الثالوث رئيس الحياة الكلي الكمال (٢) .

واجتمع الآباء الشرقيون في القسطنطينية سنة ٨٦٧ واشتركوا في اعمـال المجمع المنشود وحكموا على البابـا نقولاووس وقطعوه ونادوا بلويس الثاني

1) P. G., Vol. 102 Col. 721 - 741. واللفظ العربي لجراسيموس متروبوليت بيروت الانشقاق ج ١ ص ٤٨٢ — ٤٨٩ .

2) *Jugie, M., De Processione Spiritus Sancti, Rome, 1936.*

امبراطوراً (١) . وهذا جل ما يجوز قوله عن هذا المجمع . فأعماله ضائعة ومعظم ما يقال عنه في بعض المراجع الغربية مأخوذ عن اعداء فوطيوس ومناظريه (٢) . وهو بالتالي ناقص في العدالة لا يصلح وحده لاثبات الحقائق التاريخية ولا يجوز والحالة هذه القول مـع من قال ان بطاركة الشرق لم يرسلوا نواباً عنهم وان فوطيوس نفسه « عيّن ثلاثة رهبان من اتباعه من الرعاع الارديا الموافقين لرأيه الفاسد لينوبوا عن البطاركة » (٣) ولعل الافضل ان نقول مـع الأب اميل امان ان الابوكريساريوسة الثلاثـة الموجودين في القسطنطينية آنئذ لتمثيل البطاركة الشرقيين نابوا عن رؤسائهم في هذا المجمع (٤) .

رد نقولاووس : وخشي نقولاووس المناداة بلويس الثاني امبراطوراً في المجمع ولمس خطراً مداهماً يهدد نفوذ الكنيسة الرومانية . وساءت حالته الصحية في صيف السنة ٨٦٧ فأمر بتوحيد الجهود للرد على فوطيوس وطلب بصورة خصوصية الى عالم الكنيسة الغربية هنكمار *Hincmar* رئيس أساقفة ريمس ان يسخر علومه التاريخيـة لهذه الغاية . وظهرت ردود أهمها في تاريخ الكنيسة مصنف راترامنه *Ratramne* في الانبثاق (٥) . وتوفي نقولاووس في الثالث عشر من تشرين الثاني سنة ٨٦٧ دون ان يعلم النتيجة .

انقلاب في القصر : (٨٦٧) وكان ميخائيل قد عطف على فارس مغوار استرعى نظره حينما ذلل مهراً جامحاً فأحبه وجعله امير اخوره وهو باسيليوس مؤسس الاسرة المقدونية. وكان باسيليوس ذكياً نشيطاً قديراً ولكنه كان طموحاً ملاقاً . فما ان أصبح عالماً بأحوال البلاط حتى أيد برداس ضد اخته ثيودورة ثم أيد فوطيوس ليبعد عن الفسيلفس كاتم أسرار عاقلا فاضلا . ثم نصب لبرداس

1) *Dvornik, F., Phot. Sch., 120 - 121 ; Metrophanes, Mansi, XVI, Col. 417.*

2) *Liber Pontificalis (Duchesne), II, 178 ff ; Anastasius, Mansi, XVI, Sessions VII - IX.*

3) *Hefele - Leclerq, IV, 532.*

4) *Amann, E., Affaire de Photius, op. cit., VI, 481 - 482.*

5) *Contra Graecorum Opposita Romanam Ecclesiam Infamantium Libri Quatuor, P. L., Vol. 121, Col. 225 - 346.*

المكايد وغدر به . وفي الرابع والعشرين من ايلول سنة ٨٦٧ هجم على ميخائيل نفسه وقتله في قصره .

ولم يرض جمهور الشعب عن ميخائيل ولم يفرح بالانقلاب سوى الزرق المتطرفين . فاضطر باسيليوس ان يداري هؤلاء ويداورهم . فأوعز الى فوطيوس خصمهم ان يستعفي ففعل في اليوم الاول بعد الانقلاب . وفي الثالث من تشرين الثاني عاد اغناطيوس الى الكرسي البطريركي (١) . وكان باسيليوس قد اشترك في اعمال المجمع الذي قطع نقولاووس فرأى من الحكمة ان يسرع في اعلام رومة بما تم في بطريركية القسطنطينية .

وكانت السيادة في البحر المتوسط قد استقرت في يد المسلمين . وكان هؤلاء قد استقروا في صقلية وباري وترنتوم . وكانوا يغيرون من هذه القواعد على سواحل الادرياتيك الشرقية وسواحل ايطاليـــة الجنوبية فيرعبون سكانها ويعرقلون تجارتها . فأدى اندفاع باسيليوس في درء الخطر الاسلامي الى تقرب من البابا وتعاون مع الامبراطور الغربي لويس الثاني .

المجمع القسطنطيني التاسع : (٨٦٩ — ٨٧٠) ورغب الفسيلفس الجديد في تسوية تعيد الوحدة الى الصفوف في عاصمته. وعلمت رومة بهذه الرغبة ولكنها توجست خوفاً مما جرى في مجمع السنة ٨٦٨ من تذامر الآباء الشرقيين في محاكمة بابا رومة وقطعه . وكان الآباء الغربيون قد عظموا الرئاسة ووقروها فجعلوهـــا فوق حكم البشر (٢) . فتبنى ادريانوس الثاني (٨٦٧ — ٨٧٢) وجهة نظر نقولاووس ودعا الأساقفة الى مجمع في كنيسة القديس بطرس في العاشر من حزيران سنة ٨٦٩ (٣) . فرفض الآباء قرارات المجمعين القسطنطينيين اللذين عقدا في السنة ٨٥٣ والسنة ٨٦١ وحرموا فوطيوس وغضوا النظر عن هفوات الآبـــاء الذين اشتركوا في اعمـــال مجمع السنة ٨٦٧ ولكنهم اوجبوا ابعادهم عن مراكزهم

١) ولم يمسح فوطيوس الفسيلفس فسيلفاً وانما كان قد مسحه قيصراً في ايام ميخائيل . فاكتفى باسيليوس بذلك ولم يجر مسحاً جديداً. Dvornik, F., Phot. Sch., 132 - 137.

2) « Prima Sedes a nemine judicatur ».

3) Mansi, XVI, Col. 372 ff.

الاكليريكية . ووافقوا على اقتراح باسيليوس الذي قضى بعقد مجمع مسكوني في القسطنطينية ولكنهم اوجبوا على هذا المجمع قبول قراراتهم هذه دون اعادة نظر .

وافتتح المجمع اعماله في الخامس من تشرين الاول برئاسة بانس احد كبار رجال البلاط (١) وبحضور الوفد الروماني وممثلي البطاركة الشرقيين الثلاثة توما متروبوليت صور وايليا كاتم سر البطريرك الاوروشليمي والارشدياكون يوسف نائب البطريرك الاسكندري (٢) واثني عشر اسقفاً قسطنطينياً. فلمس الرومانيون لمس اليد مبالغة ثيوغنوسطوس في اهمية الحزب الذي كان يؤيد اغناطيوس . ثم تكاثر عدد الاساقفة بنسبة تعاظم الضغط من القصر حتى بلغوا المئـــة في الجلسات الاخــيرة . وعلى الرغم من توصيات المجمع الروماني بوجوب الاكتفاء بتصديق قراراتـــه والابتعاد عن كل بحث في مواضيعها فان بانس أصر على استدعاء فوطيوس واعوانه الاكليريكيين وعلى استماع ما يقولون في الدفاع عن انفسهم . فاحتج الوفد الروماني على هذا الاستماع ثم وافق . فطلب فوطيوس للمثول ففعل. ثم طلب اليه ان يجيب عمـــا وُجِّه اليه من انتقاد فرفض بعزة وأنفة . فقطع هو وجميع اتباعه وكسرت قرارات بطريركيته . وفرضت رومة طاعتها فرضاً فجاء في القانون الثالث عشر انه « ان جسر احد ان يتمثل بفوطيوس وديوسقوروس ويكتب كتابة او يقول قولا يحط من كرامة كرسي بطرس هامـــة الرسل فليكن محروماً مثلهما » (٣) .

ولكن هذا الانتصار لم يدم الا قليلا . ففي غد اليوم نفسه الذي انتهت فيه اعمال هـــذا المجمع (٢٨ شباط سنة ٨٧٠) تقدم بوغوريس ملك البلغار بطلب الى المجمع يرجو فيه البت فيما اذا كانت الكنيسة البلغارية تابعة لرومة او للقسطنطينية . فعقد اعضاء المجمع اجتماعاً خاصاً لهـــذه الغاية . ووجد رسل رومة ان باسيليوس واغناطيوس لم يكونا أقلَّ تمسكاً بالكنيسة البلغارية وبوجوب دوام خضوعها لكرسي القسطنطينية من برداس وفوطيوس. وعلى الرغم من احتجاج رسل البابا فان باسيليوس وممثلي بطاركة الشرق أقروا خضوع الكنيسة البلغارية لسلطـــة

1) Dvornik, F., Phot. Sch. 147.

2) Hefelé - Leclerq, IV, 492 ff.

3) Ibid. 522.

البطريرك المسكوني . وأسرع اغناطيوس فسام عليها رئيس اساقفة يونانياً يعاونه عشرة اساقفة يونانيين . واضطر الكهنة الرومانيون ورؤساؤهم ان يغادروا بلغارية .

ويتضح مما تقدم ان موقف البطريركيات الشرقية في معضلة فوطيوس هذه كان مرتبطاً بموقف القسيلفس . فالبطاركة قاوموا فوطيوس ارضاء لباسيليوس القسيلفس لا اعترافاً « بسلطة » نقولاووس وادريانوس او امتثالاً لأوامرهما . فالكنيسة الشرقية كانت ولا تزال تعتبر المجمع المسكوني صاحب السلطة الاولى في الكنيسة . ورئيس الكهنة فيها لا يعلو عليه رئيس من حيث درجة كهنوته سوى المجمع (قانون الرسل) . ولو كان الدافع لمقاومة فوطيوس انصياع هؤلاء البطاركة لأوامر رومة لما خالفوها في قضية بلغارية في غد اليوم نفسه الذي وقعوا فيه قرارات مجمع القسطنطينية .

اضطهاد فوطيوس والافواج عنه : (٨٧٠ ـ ٨٧٣) وأمر باسيليوس بنفي فوطيوس فأبعد الى دير سكابي في البوسفور ووضع تحت رقابة فرقة من الجند . واعتراه مرض ثقيل فلم يسمحوا بطبيب يعالجه او صديق يعزيه . وعرّوه من الكتب والأوراق ولم يسمحوا له بالكتابة الا نادراً . وظل فوطيوس على هذه الحال ثلاث سنوات ونيف . ثم كتب رسالته المئتين والاحدى والثمانين الى باسيليوس فقال :

« لا اذكرك بالصداقة القديمة ولا بالأقسام الرهيبة ولا بمسحك وسيامتك قيصراً ولا بالرباط الذي ربطنا به تبنّي ابنك الصالح بل اني اذكر بحقوق البشر . فملوك الأعاجم واليونان كانوا اذا حكموا بالموت نفذوا ولم يتركوا من حكموا عليهم ان يموتوا جوعاً وخنقاً بالعذاب . اما نحن فاننا نعيش عيشة امر من الموت فاننا قد حرمنا الأقارب والخدام والمعارف ثم الكتب . وهذا لعمري أمر جديد وقصاص غريب . وهل ترغبون ان لا نسمع كلام الرب ! لا سمح الله ان تتم في عهدك اللعنة القائلة : « ويكون في تلك الأيام جوع خبز وجوع لاستماع كلمة الرب » ... فلا نطلب منك كرسياً ولا مجداً ولا سعادة ولا رفاهة بل ما يسمح

للمسجونين ... فلا تسمح بأن يضاف في ترجمة حياتك ان ملكاً موصوفاً بالحلم والرأفة أسلم الى المنفى والجوع رئيس كهنة كان صديقاً له وشريكاً وانه فيما كان رئيس الكهنة يصلي من اجله دفعه الى الموت » .

المجمع القسطنطيني العاشر : (٨٧٩ ـ ٨٨٠) وحافظ الأساقفة والكهنة أصدقاء فوطيوس على عهودهم له ووفوا . فاضطر اغناطيوس ان يرسم غيرهم للقيام بالخدمات الروحية . فلم يلاق العدد الكافي من أصحاب اللاياقة . فكتب باسيليوس الى ادريانوس في ذلك ورجاه ان يعدل موقفه ممن رسم على يد فوطيوس فأبى(١). وحذا حذو ادريانوس خلفه يوحنا الثامن(٨٧٢–٨٨٢) (٢) وأصبحت كنيسة القسطنطينية كنيستين اغناطيوسية وفوطيوسية (٣) . وكان الجيش لا يزال يذكر انتصاراته على يد برداس وميخائيل ويعتز بها . فاضطر باسيليوس ان يتقرب من فوطيوس وأعوانه ومؤيديه وان يشركهم في الحكم (٤).

فدعا القسيلفس البطريرك من منفاه في السنة ٨٧٣ وأكرمه اكراماً عظيماً وطلب اليه ان يشرف على تهذيب اولاده قسطنطين واسكندر ولاوون (٥) . ولا نعلم ما اذا كان هذا العفو شمل الاساقفة المنفيين . ولعله لم يشملهم . ولما عاد فوطيوس الى العاصمة انصرف الى موالاة اغناطيوس ضناً بمصلحة الكنيسة . ولعله استسمحه ونال منه الصفح في السنة ٨٧٦ فانه في كتابه عن الروح القدس يدعوه قديساً وفي المجمع المسكوني الثامن صرح انهما تعانقا متسالمين (٦) . ويرى العلماء الباحثون ان اغناطيوس لم يعترض على شرطونية مناظره من الناحية الكنسية وانه اعتبره بطريركاً بعد المسالمة وان فوطيوس مارس السلطة البطريركية في الأشهر القليلة التي سبقت وفاة اغناطيوس وان هذا وافق على عودة فوطيوس الى الكرسي بعده (٧) . وتوفي اغناطيوس عن ثمانين عاماً في الثالث والعشرين من

1) *Mansi, XVI, Col. 203, 204.*
2) *Dvornik, F., Ph. Sch. 155 ff.*
3) *P. G., Vol. 102, Col. 900, 757 f.*
4) *Dvornik, F., Ph. Sch., 162 - 163.*
5) *P. G., Vol. 102, Col. 949, 952, 953.*
6) *Dvornik, F., Ph. Sch., 167 ; Vogt, A., Oraison Funèbre de Basil I, Orientalia Christiana, Vol. 27, pp. 62 - 69.*
7) *Dvornik, F., Ph. Sch., 172.*

تشرين الأول سنة ٨٧٧ فاستلم فوطيوس عكاز الرئاسة في السادس والعشرين من الشهر نفسه .

وكتب فوطيوس في أواخر السنة ٨٧٧ الى بطاركة الشرق رسائل الجلوس ودعاهم الى مجمع مسكوني يعيد النظر في قرارات مجمع السنة ٨٦٩ ــ ٨٧٠ وينظر في أمر الانبثاق وبات ينتظر رسائل السلام . فكتب ميخائيل الثاني الاسكندري يعرب عن فرحه وارتياحه ويشكر الله على النعمة بارتقاء فوطيوس وأكد ان سلفه لم ينبذ شركته قط . وكتب ثيودوسيوس الاوروشليمي ينعي ما حل بالمدينة المقدسة من خراب ويستنجد بفوطيوس وباسيليوس ثم يقول : « ومن لا يعترف بفوطيوس بطريركاً على المدينة الملكية فليكن محروماً ولينزل من منصبه » . وأظهر ثيودوسيوس الاول الانطاكي غمه وأسفه على الحكم بمجمع السنة ٨٦٩ الذي وقعه توما باسم كنيسة انطاكية وطلب الصفح لنائبه وختم رسالته قائلا : « ومن لا يعترف بفوطيوس بطريركاً يكون ملعوناً من الآب والابن والروح القدس » . وأوفد البطاركة قوزما وباسيليوس وايليا لينوبوا عنهم في المجمع المسكوني (١) . ويلاحظ هنا ان البطاركة لم ينتظروا تعليمات رومة وارشاداتها قبل الاقدام على الاعتراف ببطريركية فوطيوس وانهم لعنوا من لا يعترف بها !

ثم كتب باسيليوس الى يوحنا الثامن بابا رومة يعلمه بارتقاء فوطيوس ويرجو الاعتراف به والاشتراك في مجمع مسكوني للتعاون في جعل الوضع في القسطنطينية قانونياً . وكتب فوطيوس كتاباً لطيفاً وأردفه برسائل السلام التي كانت قد وردت من البطاركة الشرقيين (٢) .

وكان التيار الاسلامي يهدد ايطالية ورومة . وكانت آمال يوحنا الثامن في مساعدة فرنسية او المانية قد خابت . فأكرم هذا البابا الوفد البيزنطي الذي حمل رسائل الجلوس وأظهر ارتياحاً لما تم في القسطنطينية ووافق على رجوع فوطيوس الى منصبه وألغى المجامع السابقة التي عقدت ضده وطلب لقاء ذلك ان لا يتدخل فوطيوس في ابرشية البلغار والا يرتقي علماني بعد ذلك عرشاً اسقفياً وان يعتذر فوطيوس نفسه عما مضى امام المجمع . وعين البابا الكردينال بطرس نائباً عنه

1) *Grumel, Reg. 509, 510 ; Hefelé - Leclerq, IV, 594 - 596.*
2) *Doelger, Reg. 497 ; Grumel, Reg. 513.*

وحمله رسائل الى باسيليوس وفوطيوس وبطاركة الشرق واساقفة الكرسي القسطنطيني والى الاغناطيوسيين والى النائبين الرسولين الاسقفين اوجانس وبولس اللذين كانا قد ارسلا الى القسطنطينية قبل ارتقاء فوطيوس للبت في القضية البلغارية والقضاء على البطريرك اغناطيوس اذا لم يرفع ولايته عن بلغارية . واردف هذه كلها بكتاب التعليمات *Commonitorium* (١) .

ووصل الكردينال بطرس الى القسطنطينية فاشترك في المفاوضات التمهيدية التي كانت قد بدأت بين زميليه الاسقفين اوجانس وبولس وبين البطريرك فوطيوس . واتفق الطرفان في جميع الامور التمهيدية ولم يختلفا الا في أمر اعتراف فوطيوس بخطأه أمام المجمع . فالبابا كان قد جعل هذا الاعتذار شرطاً أساسياً للاعتراف ببطريركية فوطيوس . وفوطيوس رأى ان ما قاله في مجمع السنة ٨٦٧ ضد نقولاووس جاء رداً على تدخل هذا الحبر في شؤون كنيسة القسطنطينية الداخلية وانه اذا كان قد تجاوز حدود الدفاع عن النفس في ما قاله في هذا المجمع فان ممثلي رومة تجاوزوا حدود القانون في الحكم عليه قبل التحقيق والتدقيق . وأضاف فوطيوس انه اعتذر لاغناطيوس نفسه وتسالم معه . ورأى الوفد الروماني في تنازل فوطيوس وباسيليوس عن ابرشية البلغار وفي استعداد الفسيلفس للتعاون في صد المسلمين عن ايطالية ورومة ما يبرر التراجع عن أمر الاعتذار موضوع البحث . فوافقوا على ذلك وتحملوا مسؤولية هذا العمل تجاه الحبر الروماني (٢) .

والتأم المجمع في أوائل تشرين الثاني سنة ٨٧٩ في كنيسة الحكمة الالهية مؤلفاً من ثلاث مئة وثلاثة وثمانين اسقفاً خاضعين لفوطيوس ما عدا نواب رومة والاسكندرية وانطاكية واوروشليم . وتغيب الفسيلفس عن الحضور بداعي الحزن على ابنه قسطنطين فترأس الجلسات فوطيوس نفسه (٣) . وبعد تبادل السلام بين فوطيوس ونواب الكنائس الشقيقة القى خطبة الافتتاح

1) *Jaffe - Wattenbach, 3271 - 3276 ; Mansi, XVII, Col. 468 - 473 ; Epist. VII, 188 ff.*
2) *Dvornik, F., Ph. Sch., 180 - 181.*
3) *Ibid., 189.*

زخريا متروبوليت خلقيدونية . فأوضح أسباب الاضطراب وذكر المصائب التي حلت بفوطيوس ثم وجه كلامه الى نواب رومة فقال : « لقد عقد هذا المجمع لاجلكم ولاجل كنيسة رومة المقدسة كي لا يقول المشاقون انكم رؤساء القلاقل والاضطرابات . لقــد حسم الخلاف بنعمة الله وبسعي امبراطورنا محب المسيح وبصلوات بطريركنا اللائق للقداسة وبالتفاهم الذي تم بــين البطاركة الشرقيين الثلاثة وبصلوات البابا يوحنا اللائق بالقداسة وتضرعاته » (١) . فأمّن المجمع لكلامه . وقال الكردينال بطرس : « والبابا يوحنا يشارك فوطيوس في الرأي ولهذا السبب أرسل له بدلة رئاسة الكهنوت » . ثم ختمت الجلسة بالدعاء لجميع البطاركة .

وفي الجلسة الثانيةفي الثالث عشر من تشرين الثاني قرئت رسائل البابا الى الفسيلفس والى فوطيوس . وقد اختلف العلماء مدة طويلة من الزمن في صحة نصها . فقال الارثوذكسيون منهم بصحة النص اليوناني كما ورد في اعمال المجمع . وقال الغربيون بتشويه النص الاصلي واتهموا فوطيوس نفسه بهــذا التشويه واعتمدوا النصوص اللاتينية الباقية . ثم قضت العناية بأن ينبري ليبحث هــذه الرسائل وتدقيقها عدد من جلة علــماء الكنيسة اللاتينية الشقيقة نخص بالذكر منهم الأب اميل امان مدير موسوعة اللاهوت الكاثوليكية والأب فرنسيس دفورنيك استاذ التاريخ الكنسي في جامعة براغ والابوين غروملِ ولوران . ونظر هؤلاء العلماء في التفاوت بين النصين اليوناني واللاتيني فلم يثبت القول بالدس على فن النقد الحديث وارتأى الأب أمان ان يكون الوفد البيزنطي قــد اطلع على نصوص الرسائل البابوية بعد ادراج اصلها في السجل فلما لم يجدها موافقة للتفاهم والاتحاد عرض ان تُعدَّل فعُدّلت فحملها الكردينال بطرس معدلــة الى القسطنطينية فقرئت مُعدلة وضمت الى اعمال المجمع بنصوصها المعدلة (٢) . وعُني سيادة متروبوليت

1) *Mansi, XVII, Col. 385 f.*
2) *Amann, E., Affaire de Photius, Fliche et Martin, VI, 492 - 493, n. 2 ; Jean VIII, Dict. Théol. Cath., VIII, Col. 605 ff. Dvornik, F., Ph. Sch., 182 ff. ; Legendes, 324 ff. ; Grumel, V., Lettres de Jean VIII, Echos d'Orient, 1940 ; Jugie, M., Schisme Byzantin, 120 - 130.*

بيروت وجبيل كيريوس فيليبوس في السنة ١٩٣٧ بنقل خلاصة ما كان قد تمّ من هذه الابحاث الى العربية فدبج بيراع المحبة المسيحية سلسلة مقالات عنوانها « هل زور فوطيوس رسائل البابا يوحنا الثامن » ونشرها في اعداد مجلة المسرة لتلك السنة فأجاد وافاد .

وبعد قراءة هــذه الرسائل سأل الكردينال بطرس : هل يقبل المجمع فحواها ؟ فأجاب المجمع انه يقبل كل مــا جاء فيها عن السلام وعن البطريرك . اما ما يتعلق منها بارادة الفسيلفس فالأمر فيها له . فقال الكردينال : لقد ورد في كتاب التعليمات الذي احمل الا يرُسل الشرقُ بعــد الآن اموفوريوناً الى بلاد البلغار . فذكر فوطيوس ما كتبه الى البابا نقولاووس وأكد انه لم يشرطن لكنيسة البلغار احداً بعد عودته الى الكرسي . ثم قال بروكوبيوس قيصرية : اننا نؤمل برحمة الله ودعاء سيدنا ورئيس كهنتنا ان تخضع الامم كلها لملوكنا المقامين من الله وحينئذ يعينون لكل ابرشية بالهام من الله . فأمّن المجمع لكلامه وقالوا ان هذه المسألة ليست روحية بــل مدنية وانهم لم يجتمعوا ليوزعوا ابرشيات . ثم طرح نواب رومــة مسألة اخرى فقالوا : وكيف رقي فوطيوس الى الكرسي قبل وصولهم . فأجاب الاساقفة انــه تمّ باتفاق الاساقفة واعتراف البطاركة كلهم . ثم سرد فوطيوس تاريخ بطريركيته مستهلاً بالقول : « اني لم اشته هذا الكرسي مطلقاً » . ثم ذكر انتخاب الاساقفة والكهنة والحاح الحكام عليه ثم عزله وشكره لله . وأكد انــه عاد الى البلاط بدون وساطة وان اغناطيوس نفسه اقامه نائباً بطريركياً وانه لم يقبل عكاز الرعاية ثانية الا بعــد وفاة سلفه وضغط الفسيلفس والحاح الكنيسة . فقال الاساقفة : « نعم كل هذا جرى تماماً » . وقرئت رسائل البطاركة وسمع الاعضاء نص الحرم الذي وضعه البطريرك الاسكندري على مثله في المجمع السابق وعلموا ان توما متروبوليت صور ندم وطلب الصفح .

وفي الجلسة الثالثة في التاسع عشر من تشرين الثاني قرئت رسالــة البابا يوحنا الى بطاركة الشرق وحُقق في أمر نواب هؤلاء البطاركة الذين اشتركوا في مجمع السنة ٨٦٩ فتبين انهم انما مثلوا امير العرب لا رؤساءهم .

وفي الجلسة الرابعة في الرابع والعشرين من كانون الاول تليت رسائل جديدةمن بطريركي انطاكية واوروشليم حملها باسيليوس متروبوليت مرتيروبوليس فتبين منها ان اعتراف البطاركة لم يكن ضرورياً لوصول فوطيوس الى كرسي الرئاسة (١) . وتلي كتاب البابا الى الفسيلفس ونص الكومونيتوريوم فترك البت في قضية بلغارية الى الفسيلفس ولاسيما وان يوحنا وفوطيوس أصبحا اخوين متفقين متحابين . واعيد البحث في شرطونية العوام فقاوم الاساقفة اقتراح رومة مقاومة اشد من الاولى . وألغيت قرارات مجمع ادريانوس ومجمع السنة ٨٦٩ . وقرر المجمع اشتراك جميع الاساقفة في خدمة القداس في اليوم التالي يوم عيد الميلاد (٢) .

وعاد المجمع الى العمل في السادس والعشرين من كانون الثاني سنة ٨٨٠ فأقر في جلسته هذه الخامسة ان يعتبر المجمع النيقاوي الثاني مجمعاً مسكونياً وان يعرف بالمجمع المسكوني السابع . واوفد المجمع ثلاثة من اعضائه الى متروفانس متروبوليت ازمير لينقلوا اليه رغبة المجمع في اعترافه برئاسة فوطيوس . فاعتذر متروفانس بداعي المرض فقرر المجمع قطعه من الشركة الى ان يعترف بسلطة البطريرك . ثم سنّ المجمع قوانين ثلاثة بناء على اقتراح الوفد الروماني . وقضى الاول ان يحرم فوطيوس من يحرمه يوحنا من رجال اكليروسه او ابناء رعيته المقيمين في اوروبة وآسية وافريقية وان يقابل يوحنا فوطيوس بالمثل وان التقدم الذي للكنيسة الرومانية يبقى على حاله بلا احداث ولا تغيير ان في الحاضر والمستقبل (٣) . ومنع القانون الثاني الاساقفة الذين لجأوا الى الاديار رهباناً عن العودة الى وظائفهم السابقة . ولعن المجمع في القانون الثالث كل علماني يجرأ على ضرب اسقف .

ووقع بولس اسقف انكونة اولاً ثم اوجانس فبطرس ثم ممثلو البطاركة الشرقيين ثم سائر اعضاء المجمع . وكان الفسيلفس لا يزال قامعاً في قصره محزون

1) *Mausi, XVII, Col. 484.*
2) *Mansi, XVII, Col. 475 - 492.*
3) *Ibid., Col. 497.*

الصدر لهيف القلب على فقد قسطنطين . وكان لا بد من موافقته على قرارات المجمع لتصبح نافذة سارية المفعول . فأم الاعضاء القصر في الثالث من اذار وخلا الفسيلفس بالوفود وبثمانية عشر متروبوليتاً وبالبطريرك . وقضى العرف بأن يعلن الآباء ايمانهم فاقترح باسيليوس اضافة نص الدستور النيقاوي القسطنطيني الى اعمال المجمع فوافق الرؤساء . فوقف بطرس رئيس الكتبة وقال : اننا نحافظ على تعليم المسيح واوامر الرسل وشرائع المجامع السبعة المسكونية وتعاليمها كما تسلمناها ونرفض ما رفضوه ونقبل ما قبلوه . وعليه فاننا نقبل بالقلب واللسان دستور الايمان الواصل الينا منهم منذ القديم ونقرأه في كل مكان علناً ولا نحذف منه ولا نزيد عليه ولا نبدل فيه ولا نزيفه . لان هذه كلها من اعمال المحال الخبيث . فالمجمع المقدس المسكوني الحالي يعانق بالشوق الالهي وباستقامة الذهن دستور الايمان القديم ويوقره وعليه يؤسس ويبني حقيقة الخلاص ويهتف للجميع ان يرتأوا ويعلموا هكذا :

اؤمن باله واحد آب ضابط الكل خالق السماء والارض كل ما يرى وما لا يرى . وبرب واحد يسوع المسيح الخ . وبالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب المسجود له والممجد مع الآب والابن الناطق بالانبياء الخ .

فكهذا نعتقد وعلى هذا الاعتراف تعمدنا وبه طحنت كل هرطقة . واما الذين يغيرونه او يبدلونه او يمسونه بكلمات غريبة او بزيادة او بنقص فبحسب حكم المجامع السابقة المسكونية ان كانوا من الاكليروس فليقطعوا قطعاً نهائياً وان كانوا من العوام فليحرموا بالاناثيمة (١) .

فقال الاساقفة : جميعنا هكذا نعتقد وعلى هذا الاعتراف تعمدنا وعليه اهلنا لدرجة الكهنوت . فالذين يعتقدون غير هذا الإعتقاد هم اعداء الله والحقيقة .

وفي الثالث عشر من اذار اجتمع الاعضاء في كنيسة الحكمة الالهية فتلي اعتراف الايمان عليهم فصدقوا عليه وعلى اعمال الجلسة السادسة . ونادى الجميع ان كل من لا يعترف برئاسة كهنوت فوطيوس لا ينظر مجد الله .

1) *Grumel, V., Reg 521.*

وأدت مشاحنات الانشقاق فيما بعد الى التطرف في الجدل فشاع في الاوساط اللاتينية الغربية ان اعمال الجلستين السادسة والسابعة مزورة وان فوطيوس نفسه زورها (١) . ثم قام الكردينال هرغنروتر *Hergenrother* وصارح زملاءه في الغرب بأنه ليس في محتويات هذه الأعمال ما لا يتفق وعرف الآباء وأضاف ان تقاليد القصر في ذلك العهد قضت ببقاء الفسيلفس في قصره في حالة الحزن ستة أشهر كاملة (٢) . والواقع ان الآباء كانوا قد ذيلوا أعمال كل مجمع مسكوني باعتراف بالايمان سموه هوروساً *horos* (٣) . وانهم اضطروا اضطراراً في هذه المرة ان يجتمع رؤساؤهم بالفسيلفس في قصره اولا ليقروا الهوروس وينالوا التصديق وان يجتمعوا جميعاً لتلاوة الهوروس والاعتراف به (٤) . وليس في هذا الهوروس ما لا يتفق وتقليد الكنيسة الرومانية آنئذ . فانها كانت لا تزال تقول بالانبثاق من الآب مخالفة بذلك كنائس اسبانية وغالية (٥) .

يوحنا الثامن والمجمع : ورضي يوحنا الثامن عن فوطيوس واعتبره بطريركاً شرعياً على كنيسة القسطنطينية وابتهج لحلول السلام والوئام في هذه الكنيسة . وحرر الى باسيليوس وفوطيوس بهذا المعنى (٦) . وظل راضياً حتى وفاته ولم يقطع فوطيوس من الشركة مرة ثانية ولم يقع اي انشقاق آخر بين الكنيستين في أيامه (٧) . وقد ضل بارونيوس وهرغنروتر وهفله وغيرهم من علماء الغرب عندما رؤوا ان يوحنا الثامن لم يعترف بفوطيوس نهائياً ولم يؤيد حكم هذا المجمع وانه أرسل الكردينال مارينس الى القسطنطينية للتثبت مما جرى فلما أبلغه هذا ان فوطيوس زور رسائله عاد فحرمه حرماً عظيماً (٨) . والسبب

1) *Mansi, XVII, Col. 512.*
2) *Photius, II, 528 - 539.*
3) *Mansi, XI, Col. 638 f, XIII, Col. 376 f., XVI, Col. 179 - 184.*
4) *Dvornik, F., Phot. Sch., 194 - 196.*
5) *Grumel, V., Le Filioque au Concile Photien, Echos d'Orient, 1930, 257 - 264 ; Laurent, V., Le Cas de Photius, 396 - 415 ; Dvornik, F., Legendes de Constantin et de Méthode, 324 ff. ; Amann, E., Affaire de Photius, Fliche et Martin, VI, 495 - 496 ; Jugie, M., Schisme Byzantin, 126 - 130.*
6) *Jaffé - Wattenbach, 3322, 3323 ; Epist. 227, 229.*
7) *Amann, E., Affaire Photius, op. cit., VI, 496 - 497 ; Dvornik, F., Ph. Sch., 202 - 236.*
8) *Hergenrother, Photius, II, 553 ff.*

في هذا التساقط في الضلال ان هؤلاء العلماء اعتمدوا مراجع مغرضة . أهمها ملحق مجمع السنة ٨٦٩ الذي نشره لاول مرة الاب رادر اليسوعي سنة ١٦٠٤ ثم ادرج فيما بعد في مجموعة هاردوين ومانسي (١) . وواضع هذا الملحق عدو لفوطيوس لا تقبل شهادته بدون تجريح وقد انفرد في الحرم الثاني ولم يشر اليه أحد غيره . ولنا في أقوال الثناء التي فاه بها فوطيوس مادحاً يوحنا بعد المجمع ما يؤيد دوام المحبة والوفاق بين هذين الحبرين . فقد دعا فوطيوس يوحنا الثامن « قديساً » في رسالة وجهها الى رئيس أساقفة اكيلا في السنة ٨٨٤ . وجاء في كتاب فوطيوس عن الروح القدس ما معناه : « اما يوحنا فانه خاصتي ويحق لي ان أدعوه هكذا لأسباب كثيرة أهمها انه انتصر لي أكثر من غيره . وهو قوي بعقله وتقواه وبغضه للظلم والكفر . وهو خليق بأن يدير الشرائع المقدسة والشرائع السياسية وان يرد كل شيء الى النظام . وهو الذي ثبت بواسطة نوابه قرارات المجمع فيما هو من قانون الايمان » (٢) .

ولم يحد خلفاء يوحنا عن خطته هذه ولم يقطع أحدهم فوطيوس عن الشركة وهو قول يؤيده رجال الاختصاص ويجمعون عليه . والشقاق الثاني وهم قضى عليه العلم النزيه ونبذه التاريخ الصحيح .

سنو فوطيوس الأخيرة : (٨٨٦ - ٨٩٧) وتوفي باسيليوس الفسيلفس في السنة ٨٨٦ فخلفه ابنه لاوون السادس الملقب بالحكيم (٨٨٦ - ٩١٢) . ولدى ارتقائه دس أعداء فوطيوس الوساوس واقنعوا الفسيلفس الجديد ان الواشي به لابيه كان ثيودوروس الساحر وأشركوا مع هذا بالتهمة فوطيوس نفسه . فعزل لاوون فوطيوس أما لأنه صدق الوشاية او لأنه أحب ان يجلس أخاه اسطفانوس بطريركاً او للأمرين معاً . ونفى لاوون فوطيوس الى دير الارموريين فقضى البطريرك العظيم سني حياته الأخيرة في المنفى بعيداً عن أصدقائه معتزلا . وتوفي بعد ذلك بنحو عشر سنوات . ولا نعلم شيئاً عن هذه السنوات الأخيرة التي قضاها فوطيوس في الوحدة .

1) *Mansi, XVI, Col. 409 ff.*
٢) هل عاد فوطيوس الى الكثلكة لسيادة متروبوليت بيروت وجبيل كيريوس فيليبوس - مجلة المسرة سنة ١٩٣٨ ص ٧٥ - ٧٦ *P. G., Vol. 102, Col. 380, 820* .

تطويبه : ولا نعلم بالضبط متى طوب فوطيوس او من طوبه . وليس في هذا النقص في المعلومات ما يدعو الى التحذر والتيقظ. فالتطويب في الكنيستين اليونانية واللاتينية كان لا يزال عملا فردياً في غالب الأحيان . ولم يكن منوطاً برئيس الكنيسة وحده بل كان مباحاً لاي اسقف من الاساقفة ان يطوب من يراه لائقاً بالتطويب (١). وحصر تطويب فوطيوس بين السنتين ٩٦٦و٩٩٨ وجعله في عهد البطريرك سيسينيون هو اجتهاد في حد ذاته قام به الاب مرتينوس جوجي (٢). وجل ما يجوز قوله هو ان اسم فوطيوس يرد مطوباً تطويباً كنسياً كاملا لاول مرة في سينكساريون في دير الصليب الاقدس في القدس يعــود الى القرن العاشر او الحادي عشر (٣) . وانه بدأ يظهر في هــذا الوقت نفسه ايضاً في سينكساريات القسطنطينية (٤) . ويرى الاب دفورنك ان بعض اتباع فوطيوس بدأوا بتطويبه بعد انتقاله بفترة وجيزة (٥) .

وبينما نرى سرجيوس والد فوطيوس مطوباً معترفاً *homologetes* تحت اليوم الثالث عشر من اذار نجد فوطيوس نفسه مطوباً تحت السادس من شباط قديساً عجائبياً *thaumatargos* وذلك في سينكساريون باريز رقم ١٢٩٤ والعجيبة التي جرت على يده هي اندحار الروس أمام القسطنطينية في السنة ٨٦٠ .

لنمدح الآن بازهار النشائد قيثار الروح القدس اللاهج بالله كوكب الكنيسة الباهر الضياء المرشد الالهي للمستقيمين للرأي المقاوم للبدع الكلي الثبات ولنصرخ نحوه هاتفين : السلام عليك ايهــا القديس فوطيوس الكلي الاكرام .

اورولوغيون

* * *

1) Dvornik, F., Phot. Sch., 389.
2) Culte de Photius dans l'Eglise Byzantine, Rev. Or. Chrét., 1923, 109 ff.
3) Papadopoulos - Kerameus, Mon., II, 662.
4) Dvornik, F., Ph. Sch., 388 - 389.
5) Ibid. 388.

الفصل السّابع والثلاثون

عصر الـرّوم الذهبي

٨٤٣ – ١٠٢٥

ضعف الدولة العباسية : واشتد نفوذ الاتراك في بغداد وعلت أصوات الجواري امهات الامراء . وثار العلويون مطالبين بالعرش ونفر العرب من بني العباس . فتصرف طاهر ابن الحسين وخلفاؤه في النفوس لمصلحتهم في خراسان . واستقل حسن ابن زيــد الديلم في طبرستان وجرجان . وتغلب الصفاريون في سجستان وغيرها وأرادوا مهاجمة بغداد (٨٧٤) . واستطاع افاق ان يصبح سيد البصره وان يمد سلطانه الى أبواب بغداد . وسلخ احمد ابن طولون التركي مصر والشام وأخذ يجمع الضرائب لحساب نفسه (٨٧٧) . واكتفت بغداد بتحريض بعض امراء الشام عليه . ثم اعترفت دمشق بسلطة خارويه بن احمد بن طولون فقضى على الأحزاب المعادية (٨٨٩) واتخذ دمشق قاعدة لملكه .

فتوحات باسيليوس الاول : واستغل باسيليوس الأول هــذا الظرف لصالحه وصالح الروم فقام يحارب على طول الجبهة الاسلامية من شاطىء قيليقية حتى ارمينية وطرابزون . ونجح في دفع المسلمين الى الوراء في حروب متتالية بين السنة ٨٧١ والسنة ٨٨٢ . فاحتل الممرات الرئيسية عبر طوروس وقاتل البولسيين ودخل عاصمتهم تفريقية في السنة ٨٧٢ وذبح خريسوخيروس صاحبها وعرض رأسه في موكب النصر في القسطنطينية . وفي السنة التالية احتل زبطرة وسميساط . وعند السنة ٨٧٧ كان قد احتل لؤلؤة وجميع ما وقع بين قيصرية ومرعش وأصبح سيد جبال طوروس بسلسلتها وممراتها . وسره ان الخليفة المعتمد اعترف في السنة ٨٨٥ بدولة ارمينية مستقلة بزعامة أشوت فأسرع يعترف هو بدوره بالملك الجديد مؤكداً ان ارمينية ستظل أعز حليفات الامبراطورية .

وأدرك باسيليوس خطورة الموقف في البحر المتوسط . فان المسلمين كانوا قد استقروا في صقلية وجنوب ايطالية . وكان قد تبين جلياً ان الامراء اللومبارديين لا يقوون على الصمود في وجه المسلمين وان الامبراطور الغربي لويس الثاني كان قد أصبح ضعيفاً . وكان قد أم القسطنطينية وفدان أحدهما يمثل لويس الثاني والآخر يمثل البابا ليحثا الفسيلفس على صيانة النصرانية . فهب باسيليوس في السنة ٨٦٨ وأنفذ اسطولا قوياً بقيادة نيقيطاس . وقدر النجاح لهذا القائد فأعاد النظام والأمن الى بحر الادرياتيك. وعادت مدن دلماتية الى حوزة الفسيلفس واعترفت دويلات الصرب والكروات بسيادة القسطنطينية. وضرب نصر السوري بوارج المسلمين ضربات أليمة في مياه ايطالية الغربية وأحرز نصراً كبيراً بالقرب من جزر ليباري فدخلت كابوا وسالرنو ونابولي وغيرها في حماية الروم ودخل البابا يوحنا الثامن في حلف مع الروم . وجاءت السنة ٨٨٥ فأحرز القائد نيقيفوروس فوقاس انتصارات برية عديدة تمكن بها من استعادة مقاطعات ايطالية الجنوبية من يد المسلمين فأنشأ في السنة ٨٨٦ ثيمة لانغوبردية وثيمة كلابرية وقوّت الكنيسة الارثوذكسية أبرشياتها في هذه المنطقة عينها .

لاوون السادس : (٨٨٦ — ٩١٢) ولم يكن لاوون السادس « الحكيم » رجل حرب كوالده فلزم القصر واهتم بشؤون السلم والعلم والدين . وسنعود الى اثره في نظم الكنيسة فيما بعد . وكانت اقريطش قد أصبحت مأوى قرصان المسلمين وملجأهم . وقام لاوون الطرابلسي في السنة ٩٠٤ بهجوم جريء على القسطنطينية . ثم انثنى من تلقاء نفسه على تسالونيكية . وقدر له ان تكون خالية من الحامية فدخلها عنوة وقتل ونهب ثم سبى اثنين وعشرين الفاً من الشبان والشابات فباعهم في أسواق الرقيق في الخندق في اقريطش وفي طرابلس . فهب هيماريوس في السنة ٩٠٦ فانتصر على المسلمين انتصاراً كبيراً . وتشجع وتقوى فقاد في السنة ٩١٠ حملة بحرية على اقريطش نفسها فاخفق اخفاقاً كبيراً . وفي السنة ٩٠١ سيطر المسلمون على مضيق مسينة . وفي السنة التالية تم استيلاؤهم

على صقلية فأعلن امير القيروان انه « سوف يخرب مدينة الشيخ الهرم بطرس نفسها » .

قسطنطين السابع ورومانوس الاول : (٩١٢ — ٩٥٩) وتوفي لاوون السادس في السنة ٩١٢ . وكان قد جعل للدولة اباطرة ثلاثة : هو نفسه وأخاه الكسندروس وقسطنطين السابع الارجواني المولد . وكان قسطنطين لا يزال في السادسة من عمره فتسلم مقاليد الوصاية عمه الكسندروس . ثم توفي هذا في السنة ٩١٣ بعد ان أقام مجلس وصاية برئاسة البطريرك . وفي السنة ٩١٩ احتل القائد رومانوس ليكابينوس البلاط واستحوذ على شخص الفسيلفس الصغير وأزوجه من ابنته وأعلن نفسه أبا الملك ثم قيصراً ثم فسيلفساً .

وكان الخلفاء العباسيون لا يزالون مغلوبين على امرهم لقلة طاعة الجند ولشدة نفوذ الخدم ولدسائس امهات الامراء ووشاياتهن ومؤامراتهن ولشغب الجند على القادة وتنازع هؤلاء السيادة . وكان ان شعر الولاة بضعف الخلفاء فانصرفوا الى جمع المال فعمد الخلفاء الى اغتيال الولاة فكثر العصيان واضطربت الأحوال .

وقبيل انتهاء الحرب البلغارية حطم الروم عمارة لاوون الطرابلسي في مياه لمنوس (٩٢٤) ونجا لاوون نفسه باعجوبة ! وما ان وضعت الحرب البلغارية أوزارها في السنة ٩٢٧ حتى بادر الروم الى الهجوم وهب قائدهم غرغون *Courcouas* الى القتال في آسية الصغرى فأحرز انتصارات متتالية وتمكن من جعل دجلة والفرات الحد الفاصل بين الروم والعرب بدلا من الهاليس . وعاون غرغون في هذه الحروب عدد من كبار الضباط قدر لهم فيما بعد ان ينتصروا هم ايضاً كما انتصر غرغون نفسه . وأشهر هؤلاء ثيوفيلوس ابن غرغون وبرداس فوقاس وابناه نيقيفوروس ولاوون . ففي السنة ٩٢٨ احتل الروم ارضروم واخرجوا المسلمين من ارمينية . وفي السنة ٩٣٤ استولوا على ملاطية ثم ناوأهم سيف الدولة صاحب الموصل وتمكن من ايقاف تقدمهم . ولكنهم عادوا الى الهجوم بين السنة ٩٤١ والسنة ٩٤٢ فاحتلوا دارا ونصيبين وميافارقين وقاربوا

حلب . وفي السنة ٩٤٤ توج غرغون انتصاراته بأن نقــل بموكب فخم « منديل السيد » الذي كان قد احتفظ به أبجر ملك الرها من هــذه البلدة الى القسطنطينية .

دولة الحمدانيين : (٩٤٢ ـ ١٠٠٣) ولم يقع اي تمزيق جديد في جسم الدولة العباسية في ايــام المعتضد (٨٩٢ ـ ٩٠٢) والمكتفي (٩٠٢ ـ ٩٠٨) . ولكن في عهد المقتدر (٩٠٨ ـ ٩٣٢) عادت الدولة الى ما كانت عليه من التفكك ثم أضاع القاهر (٩٣٢ ـ ٩٣٤) والراضي (٩٣٤ ـ ٩٤٠) والمتقي (٩٤٠ ـ ٩٤٤) والمستكفي (٩٤٤ ـ ٩٤٦) آخر ولاياتهم فاضمحلت بذلك سلطة الخليفة الزمنية بكاملها .

وكان بين الطامعين في الملك والسلطان في أثناء هــذا الانحلال بعض القبائل البدوية العربية . ولعل أشهر هؤلاء بنو تغلب . فان كبيرهم الامير عبدالله بن حمدان تمكن في السنة ٩٠٥ في عهد المكتفي من الاستئثار بالسلطة في الموصل ونواحيها . وتمكن ولداه حسن وعلي في السنة ٩٤٢ من انتزاع اللقبــين ناصر الدولة الاول وسيف الدولة الثاني . وتوغل سيف الدولة في الجزيرة في السنــة ٩٣٧ . وفي السنة ٩٤٤ دخل حلب وأسس فيها دولة دامت حتى السنة ١٠٠٣ . وبقي ناصر الدولة في الموصل يسكن الفتن في بغداد بينما هب سيف الدولة يمتشق حسام الاسلام في وجه الروم . وما فتىء كذلك حتى أدركته المنيــة في السنة ٩٦٧ .

ولما استقر سيف الدولة في حلب وجعلها عاصمة لملكه وقاعدة لاعماله الحربية تحوّل القتال الرئيسي بين الروم والمسلمين من جبهة ارمينية الى خط جديد امتد من قليقية حتى ديار بكر . وانتقلت المبادرة في هذه الحروب الى الروم . ويرى رجال الاختصاص ان انتصار الروم على المسلمين في القرن العاشر لم يكن نتيجة ضعف العباسيين فحسب بل انه تأتى عن تجدد عند الروم وتيقظ وتنشط وان هؤلاء وان اختلفوا في العنصر فقد اتحدوا في الارثوذكسية وفي المفاخرة بامجاد ماضية وشعروا بوجوب اعادة النظر في انظمتهم السياسية والاجتماعيــة

والاقتصادية وبوجوب اتقــان الجيش وتكميله ليأتي بالفائدة المطلوبة . فالروم في القرن العاشر في نظر هؤلاء كانوا في يقظة ونشاط لا في غفـــلة وانقسام (١) .

وأثقل الحمدانيون كاهل العشائر الضاربة في الجزيرة بالضرائب وبين هؤلاء بنو حبيب . وكان بنو حبيب تغالبة ايضاً فشق عليهم الأمر فانقبضوا ثم خرجوا للقتال . فجرّد عليهم ناصر الدولة في السنة ٩٣٥ فقهرهم . فعولوا على الرحيل . فقاموا عشرة الاف فارس بنسائهم واولادهم وعبيدهم وقطعوا الحدود والتجأوا الى الروم وعادوا الى النصرانية دين الجدود . وحذا حذوهم غيرهم من عشائر الجزيرة (٢) .

وفي السنة ٩٣٨ سجل سيف الدولة انتصاره الاول على الروم أمام حصن زياد فدخله عنوة . ثم خرج منه يقاتل فأدركه الروم بين حصن زياد وحصن سلام فدارت الدائرة على الروم فيما يظهر وتغنى ابو فراس بالنصر . وفي السنة ٩٣٩ أنفذ الروم حملة الى القوقاس لتأديب الكرج لأنهم امتنعوا عن غزو المسلمين على الرغم من كونهم ارثوذكسيين يدينون بدين الفسيلفس . فاستنجد الكرج الحمدانيين . فهب سيف الدولة لمعونتهم وأجلى الروم عن بلادهم . وفي الربيع التالي توغل سيف الدولة في بلاد الروم فأصبح زعيم الجهاد الاكبر وعدو النصرانية عند الروم . وشغلت سيف الدولة ما بين السنة ٩٤٠ والسنة ٩٤٤ مشاغل في عاصمة الخلافه كان محورها السلطة العليا فانقض الروم على قيليقية في خريف السنة ٩٤٠ وووصلوا الى منطقة كفرتوتة . ثم شغلوا في اوروبة فتراجعوا . وعادوا في مطلع السنة ٩٤٢ فانطلقوا في سهول قيليقية حتى حدود سورية . ثم انقض غرغون في خريف هذه السنة نفسها على مقاطعة ديار بكر فاستولى على ميافارقين كما سبق وأشرنا . وكان ما كان من أمر المنديل . وفي السنــة ٩٤٤ دخل سيف الدولة حلب وحمص وانتزعها من يد الاخشيديين فانطلق الروم في منطقة مرعش ومنطقة بغراس حتى مداخل انطاكية . فرد سيف الدولة باغارة في منطقة عرابسوس .

(1 *Gelzer, H., Genesis der Byzantinischen Themenverfassung, 8 ; Canard, M., Dynastie des Hamdanides, I, 718 - 719.*

2) *Canard, M., op. cit., I, 741 - 747.*

وجاءت السنة ٩٤٦ فتبادل الخصمان الاسرى عند لامس سلفكية . وفي ربيع السنة ٩٤٨ خرج الروم من ملاطية وسميساط واتجهوا نحو الجزيرة ليستولوا على ممر الحدث مرعش . فصمد سيف الدولة في معركة جلباط الوارد ذكرها في احدى قصائد ابي فراس . وفي الربيع التالي ٩٤٩ ظهر لاوون بن فوقاس امام الحدث محاصراً فدخلها عنوة ودك حصونها . واستولى الروم ايضاً على مرعش وقاتلوا عند أسوار طرسوس . وحملوا على جزيرة اقريطش ولكن دون جدوى . وفي ربيع السنة ٩٥٠ قام سيف الدولة الى الجزيرة يتفقد شؤونها فانقض لاوون بن فوقاس على شمال سورية حتى مداخل انطاكية وحاصر بوقة في سهل العمق. فهب محمد بن ناصر الدولة لقتاله ولكنه فشل فشلا ذريعاً .

خرشنة والمصيبة : (٩٥٠) وعاد سيف الدولة الى حلب يستعد للقتال فجمع ثلاثين الفاً واصطحب ثلاثة من الشعراء المتنبي وابا فراس وابا زهير المهلهل ونهض الى مرعش فملاطية فاحتل صارخة وقتل وسبى وأحرق . وأراد العودة الى حلب . ثم علم ان لاوون ابن فوقاس قد حشد في منطقة خرشنة *Charsianon* فعاد اليه وأنزل به خسارة كبيرة . ثم اتجه نحو الجنوب فصمد له الروم في درب الجوزات بين الالبستان والحدث . ومرت طلائع سيف الدولة ولم يحرك الروم ساكناً . ثم اقبل سيف الدولة فوجد الممر مقطوعاً فأمطره الروم حجارة وصخوراً وسهاماً . ثم لحق به الروم مرة ثانية وثالثة وأرهقوه فتفرق عنه رجاله ففر هارباً نحو حلب فعرفت هذه الحرب بغزوة المصيبة .

يوحنا جيمسكي : وفي السنة ٩٥٨ بدت علامات الضعف في مقاومة سيف الدولة . وتسلّم قيادة الروم يوحنا جيمسكي *Jean Tzimisces* « يوحنا شمشيق » فأحرز انتصارات متتالية في الجزيرة العليا واحتل أكثر مدنها . ثم حاصر سميساط على الفرات الاعلى وأنزل بسيف الدولة سلسلة من الهزائم وبعد السنة ٩٦٠ أضاف الروم الى ملكهم كل ما وقع شرقي الفرات جاعلين من هذه المناطق ثيمة الجزيرة (١) .

1) *Philipson, A. E., Byzantinische Reich, 173.*

احتلال اقريطش : (٩٦٠ ـ ٩٦١) وكان لقسطنطين السابع ولد اسمه رومانوس تزوج وهو ابن سبع عشرة سنة بابنة اسمها ثيوفانو . وكانت ثيوفانو تكره العيشة بين حماتها وبنات حميها . فأوعزت الى زوجها رومانوس فدس السم لوالده قسطنطين . وشرب منه جرعة فلم يعش قسطنطين الا سنة واحدة . وكان رومانوس الثاني منصباً على الشهوات والملاهي فاتكل على زوجته في ادارة الامور وعلى رجل اسمه يوسف ابرينكاس *Bringas* . ولمس ابرينكاس ضعف العرب ورأى الظرف ملائماً لارجاع اقريطش الى حوزة الروم . فأعد نيقيفوروس فوقاس اسطولا عظيماً وجيشاً كبيراً واقتحم الخندق فدخلها عنوة في ربيع السنة ٩٦١ ثم استولى على الجزيرة بأسرها . ونقل اليها جاليات يونانية وأرمنية واستدعى نيقن مطانويتا القديس المبشر ليكرز فيها باسم المسيح وينصّر سكانها المسلمين .

مغارة الكحل: (٩٦٠) وأحب سيف الدولة ان يغتنم هذه الفرصة السانحة فجهز ثلاثين الفاً وقام بهم الى خرشنة . فأسرع لاوون فوقاس الى تلال طوروس يسد عليه طريق العودة وكمن له عند ممر اندراسوس *Andrasos* « مغارة الكحل » فهزمه فيه. وعظمت غنائم لاوون فأسر عدداً كبيراً من المسلمين وأطلق سراح جميع من كان قد وقع في الاسر من الروم (١) .

عين زربا وحلب : (٩٦٢) ورأى نيقيفوروس ان يستغل الكارثة التي حلّت بسيف الدولة فيفتتح قيليقية اكبر المعاقل البحرية الاسلامية بعد اقريطش واقرب الطرق الى سورية . فجال جولة موفقة في مطلع السنة ٩٦٢ واستولى في اثنين وعشرين يوماً على خمسين بلدةً او حصناً . وعاد في اول الصوم الكبير الى قبدوقية . وأعاد الكرة في الخريف فافتتح عين زربة . ولم يقوَ سيف الدولة على الصمود في وجهه عند ممرات الامانوس فتدفقت جيوش نيقوفوروس الى سهول سورية حتى منبج على الفرات . ثم حاصر نيقوفوروس حلب احد عشر يوماً (٢٠ ـ ٣١ كانون الاول ٩٦٢) فاقتحم سورها ولكنه لم يقو على القلعة . وعاد

1) *Canard, M., op. cit., I, 800 - 803.*

الى القسطنطينية بغنائم عظيمة . وعلم بوفاة رومانوس الثاني وهو في طريقه الى العاصمة .

نيقيفوروس فوقاس : (٩٦٢ – ٩٦٩) وتوفي رومانوس الثاني اما مسموماً او مسقوماً فتسلمت زوجته ثيوفانو زمام الحكم بالوصاية على ولديها القاصرين باسيليوس وقسطنطين . وكانت تكره ابرينكاس وتحب نيقيفوروس. فاستدعت نيقيفوروس من حلب . وسمح هذا لجنوده ان ينادوا به فسيلفساً وهو في طريقه الى العاصمة . فلما نهض اليها من قيصرية قامت ثورة ضد ابرينكاس ودخل نيقيفوروس العاصمة وتقبل التاج من يد البطريرك مشتركاً في الحكم مع القاصرين . وبعد شهر واحد تزوج من ثيوفانو الوصية الارملة . ولما جاء الى الكنيسة وطلب الدخول من الباب الملوكي اعترضه البطريرك بوليفكتوس بسبب زواجه من الثانية في حياة الاولى خلافاً للناموس .

فتوحات الروم في سورية : (٩٦٣ – ٩٦٩) وكان نيقيفوروس جندياً مدهشاً وتكتيكياً قديراً وقائداً محنكاً فأحبه الجنود وتعلقوا به . وكان زاهداً قنوعاً قاسياً متصلباً ولكنه كان في الوقت نفسه محباً عطوفاً . فأصبح رجل الساعة بقوة ارادته وتمسكه بالسلطة وحبه للدولة واخلاصه لها .

وأوقف الانقلاب في القسطنطينية الأعمال الحربية في قيليقية وسورية . فعاد سيف الدولة الى حلب واستعاد عين زربا وغيرها في قيليقية . وحاصر ابن شمشيق مصيصة في صيف السنة ٩٦٣ ولم يستول عليها . وقام الى ادنه فتحداه حاكم طرسوس فهزمه ابن شمشيق ولكنه اضطر ان يغادر قيليقية لما حلّ بها من قحط وجوع وأوبئة .

وفي ربيع السنة ٩٦٤ تولى نيقيفوروس الفسيلفس نفسه قيادة جيوشه . فأنشأ قاعدة هامة للتموين في قيصرية قبدوقية وزحف برجاله فاقتحم عين زربا وأدنه واستولى على اسوس عند مدخل سورية وعاد الى قبدوقية لتمضية فصل الشتاء . وفي السنة التالية عادت قيليقية بأسرها الى الروم بعد ان كانت زهاء ثلاثة قرون قاعدة برية بحرية تنقض منها جيوش الاسلام واساطيله على

الامبراطورية . وفي شتاء هذه السنة عينها احتل الروم قبرص ايضاً . وفي شتاء السنة ٩٦٦ أغار نيقيفوروس على الجزيرة فدخل دارا ونصيبين واستولى على الآجرة المقدسة « القرميدة » *Karmidion* التي كانت تحمل صورة السيد العجائبية . ثم انقض على انطاكية في حملة ارهابية . وفي خريف السنة ٩٦٨ عاد الفسيلفس الى الفتح فحاصر ابن سيف الدولة في حلب وقام بجيشه الى حمص فدخلها ثم انحدر منها الى عرقة فطرطوس فجبلة وأبقى فيها حاميات من الروم . ثم ظهر أمام انطاكية يشدد الحصار عليها بامرة ميخائيل بورجس البطريق ويرمم قلعة بغراس في طريق انطاكية الاسكندرونة . وأقام ابن اخيه بطرس فوقاس قائداً عاماً وأوصاه بوجوب انتظاره وعدم اقتحام انطاكية قبل عودته . وقام هو الى القسطنطينية فدخلها بموكب نصر عظيم في مطلع السنة ٩٦٩ وفي اثناء غيابه اتصل نصارى انطاكية بقيادة الروم مؤكدين وقوع الفوضى في صفوف المسلمين. فاندفع البطريق وقام ببعض رجاله فتسلق الأسوار ودخل بعض الابراج وكاد يموت موتاً لولا وصول لاوون وإسعافه . وسقطت انطاكية بيد الروم في الثامن والعشرين من تشرين الاول بعد ان بقيت اسلامية ثلاثة قرون ونيفاً . واشتد حماس الجند وألحوا بوجوب اقتحام حلب وفعلوا فسقطت في يدهم في كانون الاول من السنة نفسها . ووقّع صاحبها قرغويه معاهدة مع الروم اعترف فيها بسيادتهم وحمايتهم . واعترف الروم بولايته على حلب وولاية بكجور بعده على ان يعينوا اميراً عليها من يرونه لائقاً من ابناء حلب بعدهما . ومن شروط هذه المعاهدة ان يقيم في حلب ممثل رسمي للفسيلفس وان يدفع الحلبيون ديناراً عن كل ذكر في كل سنة وان يمتنعوا عن جباية الجزية من النصارى وان يؤمنوا طرق التجارة وان تشرف لجنة من الروم والحلبيين على جباية الكمارك (١) .

وعاد بطرس فوقاس الى انطاكية وحقق في مقتل البطريرك خريسطوفوروس الذي أشرنا اليه سابقاً فحبس ابن مانك اياماً ثم أخرجه الى جسر باب البحر حيث

1) *Schlumberger, G., Nicéphore, op. cit., 730 - 733 ; Canard, M., op. cit., I, 831 - 838.* الزبدة لكمال الدين ابن العديم (مجموعة كنار ص ٤١٩ – ٤٢٤)

طرحت جثة البطريرك وأمر به فقُطّع بالسيف عضواً عضواً ورُمي بكل ناحية قطعة . واما ابن محمود وابن دعامة شريكاه في الجرم فانهما كانا قد حملا الى سجن طرسوس وبقيا فيه مدة طويلة . ومات ابن محمود في الحبس وبقي ابن دعامة الى ان جاء ميخائيل البورجي فاحضره الى انطاكية وثقلـه بالحجارة وطرحه في النهر (١) .

يوحنا جيمسكي : (٩٦٩ – ٩٧٩) ولم ترضَ ثيوفانو الفسيلسة عن حياتها الزوجية مع نيقيفوروس . وكان ابن اخته يوحنا جيمسكي جميل الصورة لا يزال في الخامسة والاربعين من عمره فأحبته ثيوفانو فأبعـده نيقيفوروس . فأقنعت ثيوفانو زوجها فأرجعه الى البلاط . وكانت مؤامرة بين ثيوفانو ويوحنا فذُبح نيقيفوروس ذبحاً في اواخر السنة ٩٦٩ ونودي بيوحنا فسيلفساً بالاشتراك مع باسيليوس وقسطنطين القاصرين .

وكان يوحنا جيمسكي او ابن شمشيق كما عرفه العرب شجاعاً باسلاً متزناً صبوراً لطيفاً كريماً. وكان قد اشترك في معظم حروب نيقيفوروس فعرفه الجنود واحبوه وتعلقوا به . فأعاد باسيليوس ليكابينوس الى الادارة المركزية وانصرف هو الى السياسة والحرب .

ثيودوروس بطريرك انطاكيـة : (٩٧٠ – ٩٧٦) وكان الموقف السياسي في سورية لايزال حرجاً فطلب الفسيلفس الجديد الى البطريرك المسكوني بوليفكتوس ومجمعه المحلي ان ينتخبوا بطريركاً على انطاكيـة وسائر المشرق لان هذا الكرسي الرسولي كان لا يزال شاغراً منذ قتل خريسطوفوروس . واقترح الفسيلفس انتخاب الراهب ثيودوروس فتم إنتخابه في الثامن والعشرين من كانون الثاني سنة ٩٧٠ . ولما وصل ثيودوروس الثاني الى مركز رئاسته في انطاكية خرج الى كنيسة « ارشايا » وحمل جسد سلفه خريسطوفوروس الى القسيان (٢) .

دمشق تعترف بسيادة الروم : (٩٧٥) وأنهى ابن شمشيق مشكلة الروس

1) *Eutichius, Ann. II, (Yahya b. Said), 134 - 135.*
2) *Eutichius, Ann. II, (Yahya b. Said). 138.*

والبلغار فعزم على ازالة خلافة بغداد والاستيلاء على بيت المقدس . ولكن كان عليه قبل هذا وذاك ان يجابه دولة فتية جديدة كانت قد قامت في مصر . فان المعز لدين الله الخليفة الفاطمي الرابع كان قد سير جوهراً الرومي الى مصر في السنة ٩٦٨ فافتتحها وازال الشعار الاسود العباسي وألبس الخطبـاء الابيض وفتح دمشق وأنفذ جيشاً الى انطاكية فحاصرها خمسة اشهر خلال السنة ٩٧٠ – ٩٧١ . وكان الفسيلفس قد اكتفى بأن عيَّن ميخائيل بورجس دوقاً على انطاكية وجعلها صالحة للدفاع . وكان قد أنفذ في السنة ٩٧٣ الدومستيقوس الارمني مليه *Mleh* الى الجزيرة غازياً . فاستولى هذا القائد على ملاطيه ولكنه ارتد امام آمد فاعتقل وأرسل الى بغداد فتوفي فيها . وفي السنة ٩٧٤ قام الفسيلفس بنفسـه قاصداً بغداد فدخل ارمينيـة وحالف ملكها اشرت ثم استولى على آمد واحرق ميافارقين ودخل نصيبين وادخل امير الموصل الحمداني في طاعته . وتعسر عليه تموين جيشه فعاد الى القسطنطينية .

وفي ربيع السنة ٩٧٥ انطلق ابن شمشيق من انطاكية قاصداً اوروشليم . وما ان أطل على دمشق حتى فاوضه حاكمها فاعترف بسيادة الفسيلفس وتقبل حامية مسيحية ودفع جزية ستين الف دينار في كل عام . وكتب بذلك كتاباً وأخذ فيه خطوط الاشراف وقدَّم جماعة منهم رهينة . ولما كانت قوات الفاطميين قـد التجأت الى مدن الساحل قـام الفسيلفس ابن شمشيق الى الساحل قبل التوغل في الجنوب فاحتل جبيل وبيروت وأسر امير هذه المدينة نصر الخادم وحمله الى بلاد الروم . ونزل على طرابلس فلم يتم له شيء فيها . ثم استولى على بانياس وجبلـة وسلم كليب النصراني كاتب رقطاس حصن صهيون فصيَّره الفسيلفس بطريقاً ثم « باسليقا » على انطاكية (١) .

اوروشليم : وقام الى طبريـة فدخلها . ثم قام الى الناصرة فعف عنها احتراماً واجلالا وتسلق جبل الطور تيمناً وتضرعاً . وتقبل هناك دخول اوروشليم والرملة وعكة في الطاعة وارسل اليها عسكريين يقيمون فيها (٢) .

1) *Eutichius, Ann., II, (Yahya b. Said), 145 - 146.*
2) *Laurier, E., Chronique de Matthieu d'Edesse, 16 - 24 ; Georges Hamartolus Continuator, 865.*

باسيليوس الثاني : (٩٧٦ ـ ١٠٢٥) وتوفي ابن شمشيق مسموماً . وكان باسيليوس واخوه قسطنطين قد بلغا سن الرشد او ما يقرب منها . وكانا يهابان الخصي باسيليوس لانه كان قد تولى تربيتهما . وحدثته نفســه بالملك فأرجع ام القسيلفسين ثيوفانو وعزل القائد الاعلى برداس اسكليروس وعيّنه في وظيفة ثانوية في قيادة جيش الجزيرة . فذهب برداس واتحـد مع اعداء باسيليوس الخصي . فكانت بينه وبين جيوش العاصمة مواقع هائلـة وحروب شديـدة دامت اربع سنوات . ولجأ برداس الى بغداد وطلب معونة الخليفـة العباسي الطائع (٩٧٤ ـ ٩٩١) .

اغابيوس بطريرك انطاكيـــة : (٩٧٧ ـ ٩٩٦) وكان باسيليوس القسيلفس قد استدعى ثيودوروس الثاني البطريرك الانطاكي في بدء ثورة برداس . وأرسل اليه « شلندي » يقلـه الى القسطنطينية بحراً . فسار البطريرك ولما بلغ طرسوس توفي فيها . فبعث اهل انطاكيـة « يلتمسون بطريركاً يكون عليهم ويتولى تدبيرهم » . فاستقر الامر على ان يكتبوا الى القسيلفس بمن يقع اختيارهم عليهم . فاختاروا جماعة وكتبوا الى القسيلفس بهم وطلبوا الى اغابيوس اسقف حلب ان يحمل رسالتهم الى القسيلفس . فسألهم اغابيوس ان يضيفوا اسمه الى جملة الاسماء . فاجابوه الى ذلك . فشخص بالكتاب الى حضرة القسيلفس وأنهى اليه حال انطاكية وتمسك اهلها بطاعتــه « واعلمه ان الصواب يقضي بأن يكون لها بطريرك يدبرها ويثبت اهلهـا على طاعتــه » . فكتب القسيلفس الى الماچيسطرس في انطاكية يستميله ويعده بالاحسان اليه ويضمن له ولاية انطاكية مدة حياته وانه اذا تم ما استقر بينهما يكون اغابيوس بطريركاً على انطاكية .

وعاد اغابيوس الى انطاكية متنكراً بزي راهب . ولما وصل اليها اجتمع بالماچيسطروس وقدم له كتاب القسيلفس فقبله ودعا وقطع اسم فوقاس الثــائر واعترف باغابيوس بطريركاً على انطاكية .

ولما استقر أمر اغابيوس كتب رسائل الجلوس وبعث بواحدة منها الى ايليا البطريرك الاسكندري وقرن بها «امانته» ليُعلم منها انه يقول بما اتفق عليــه

اصحاب المجامع المسكونية السبعة وطلب اليه ان يذكر اسمه في الذبتيخـــة . فأنكر ايليا الاسكندري عليه فعله لانه ترك ابرشيتــه في حلب ليصير بطريركاً على انطاكية فأصبح حاله « حال من تزوج ابنة ثم تركها واخذ والدتها او كمن طلّق زوجته وتزوج بغيرها » . واكد ايليا ان درجات الكهنوت مرتبـة على مثال طغمات الملائكة والنجوم والكواكب التي تلزم نظامها ومواضعها . وطلب محضراً من اهل انطاكية وكهنتها وشيوخها يذكرون فيه واقع الحال . فرد اغابيوس رداً طويلا وفق فيه بين التقليد الرسولي وبين كيفية وصوله الى كرسي الرسولين في انطاكية . واليك نصه بالحرف كما حفظه يحيي ابن سعيد الانطاكي في تاريخه :

« بسم الله الرحمن الرحيم كتابي ايها الاب الروحاني الطاهر المشارك في الخدمة المساوي في الرتبة المتحد في الروحانية من الكرسي السليحي بمدينة الله الفائزة بفخر اسمه المحفوظة بتلميذه واول رسله يوم السبت السابع من كانون الاول عن سلامة بيع الله المقدسة واولادها قبلي وسلامتي من بعدهم والحمدلله على ما من وأولى وهو المسؤول أن يتم اسبال ستره على هذا الشعب واكمال نعمته على هذه الامة قبلي وقبلك وقبل كل راع استرعاه في كل موضع ارتضاه بمنه وكرمه .

« وقد وصل كتابك ايها الاب الروحاني الطاهر على يد أنبا يوحنا الراهب المنفذ من مسكنتنا الى قدسك . وأحطت علماً بمشتمله وسررت بأخبار سلامتك وما استدللت عليه من الاستقامة قبلك . ثم طار بعد ذلك فكري وتعسف ذهني وذهل عقلي وتقطعت خواطري متأملا ما كتبته ومتبحراً ما أجبته . ولا أدري ما السبب الذي حملك على دفع غير مدفوع وانكار غير منكر والاحتجاج بما لا يسلغ وفعل ما لا يليق . وقد كان ينبغي اذ عرفت موضع ابتدائي وايثـاري للتبارك بمشاركتك وانفاذي رسولي اليك في وقت كان يكاد ان يتعذر فيه عبور الطيور من جهتنا الى جهتكم فضلا عن الرسل والكتب الا كنت تكتب بما كتبت به دون ان تتحقق انك فيه على حق لا ينحـل وحجة لا تبطل وصواب لا ينكر وقاعدة لا ينسب اهلها الى هوى ولا غي ولا قصد ولا حال من الاحوال التي قدسك متبريء منها ومرتفع عنها .

« واما ان تذكر ايها الاب الروحاني غمك بما صار اليه حالي وقلقك بما جرى عليه أمري وايثارك الموت دون السماع بمثله فهذا ما كان يليق اذ كان لم يجر بحمد الله ها هنا ارايسيس ولا فساد مقالة ولا نقص سنة ولا حالة غير معروفة . والذي جرى هو أمر صغر حالي عنه وبعد موضعي منه لارتفاعه مني وقلة قيامي به وتفاوت نقص استحقاقي له . الا انه لم يكن مني ولا اتى بسعي الا ما اختاره اصحابي ورضي به شعبي وأمضاه رؤساء الدولة وعرفه علماء الملة في المدينة العظمى التي عليها يعول ومنها يقتبس . وكيف يجوز ان ينكر واحد ما تجتمع عليه هذه الطبقة وترضى به هذه الامة . وهو أمر مشهور عندنا مستعمل بيننا على قديم الزمان الى حيث انتهينا .

« والذي ذكرته ايها الاب الروحاني في هذا الباب انا اعلم انك لم تذكره الا لبعد العهد بهذا الحال ببلدك ولعدم الكتب التي تنبيء بمثله في ناحيتك ولقلة من يستعملهـا ويقتبسها في موضعك للاحوال التي دفع اليها اهل تلك الديار مما نسأل الله المعونة عليه . واذا انت رجعت الى الفحص عن ذلك وجدته امراً لم يبدأ منا ولا يتناهى فينا . وذلك انك تجد القديس افسطاتيوس بطريرك مدينتي هذه وقد نقله السينودس المقدس بنيقية من حلب الى انطاكيـة ووجدت القديس ملاتيوس منقولاً من لاريصه الى حلب ومن حلب الى انطاكية وقد حضر السينودس الثانية في القسطنطينية ونقل القديس غريغوريوس الثاولوغس من نازينزو وكرسه على كرسيها ووجدت اوذوكسيوس قد نقل من مرعش الى انطاكية ومنها الى القسطنطينية ووجدت اوسابيوس قد نقـل من بيروت الى نيقوميذية ومنها الى القسطنطينية ووجدت جماعة آخرين منقولين الى مواضع عدة .

« هذا بعد مار بطرس السليح الذي هو اساس البيعة ورأس الشريعة ومقامه اثنتي عشرة سنة بانطاكية وانتقاله بعد ذلك الى رومية . وكفاك به من شاهد وتناهى بمن ذكرناه قليلا من كثير قدوة يقتدى بها واصلا يرجع اليه . واذا كان ذلك كذلك فقد عرفت منا ايها الاب الروحاني ما طلبته ووجدت ما ابتغيته اذ كان التماسك في كتابك ان يوجد في هذا الباب أصل يرجع اليه وطريق تفسح لك في قبول الكسس ورفع الاسم لا سيا مع علمك بأن هـذا ليس هو مما تدعو اليه حاجة ضرورية وانما يراد به اتحاد البيعة المقدسة بالروحانية . ومن طلب ان يتحد مع قدسك ويشارك خدمتك فليس يجوز ان تنفرد عنه بالحجج التي احتججت بها ويتضح حلها ويقوم البرهان بصحة غيرها .

« من ذلك تشبيه هذا الامر بمن تزوج ابنة ثم تركها وأخذ والدتها . وقد ارتفع الكهنوت الالهي عن التشبيه بالتزويج البشري . ولو لم يكن الامر كذلك لكان اذا توفي اسقف وكان له اخ يستحق رئاسته لا يجوز له ان يرجع موضعه كما لا يجوز للاخ ان يأخذ زوجة اخيه بعد وفاته . والتشبيه بمن طلق امرأة وأخذ غيرها يبعد ايضاً عما نحن فيه ولا يليق ان يشبه به والا لم يكن بالجائز المدينة ان يصير عليها غير اسقفين كما لا يجوز للامرأة ان تتزوج أكثر من زوجين . فأما قول السيد المسيح بأنه من طلق امرأته فقد جعلها ان تفجر ومن تزوج مطلقة فانه يفجر فلم يكن مقولا عن الكهنوت وانما كان كلامه على اليهود لما حضروه مجربين له فأراهم بعد طباعهم عما يوجبه ناموس الطبع اللطيف والعقل الحصيف من المحافظة على الزوجة البشرية والتمسك بحبهـا لاجل ان الاثنين قد صارا جسداً واحداً كما قال الكتاب حتى اظهر عيوبهم واحوجهم الى ان قالوا لقد كان اخيراً للرجل ان لا يتزوج بالكلية . وان كان كذلك فأية مناسبة بين هذا المعنى وبين الكهنوت الالهي التي هي درجات تتراقى من الدون الى التي فوقها . فأما تشبيه هذه الدرجات بطغمات الملائكة التي تحفظ كل طغمة منها موضعها ولا تتعداه الى غيرها فهذا ايضاً مما لا يشبه في حال النقلة والا لم يكن بالجائز للانغنسط ان يصير ايبوذياكون ولا للايبوذياكون ان يصير تاماً ولا للتام أن يصير قسيساً ولا للقسيس ان ينتقل الى ما فوق . فأما تشبيهها بالنجوم فان الكواكب لازمة نظامهـا ومواضعها لا ينتقل أحدها الى موضع غيره فهذا ايضاً بعيـد لا يليق لان الكواكب اجرام غير ناطقة رتب الباري كل واحد منها في موضعه وجعل طبيعته لا تتغير عن حالته . فأما الانسان فانه

جعله حيواناً ناطقاً متحركاً من حال الى حال ومن أمر الى أمر . والخليق به ان يكون انتقاله الى ما هو اشرف وحركته الى ما هو اعلى . فمن هـذا جاز ان ينتقل من ذكرنا نقله . وقد قامت الشواهد بهذه الحال .

« فأما ما التمسته ايها الاب الروحاني من احضار محضر من المدينة الشريفة يذكر فيه كيف جرت هذه الحالة والرضى به فلم يجر بذلك رسم ولا فعل هذا من تقدمني فأفعله انا بعده . ولولا تعذر الطريق في هذا الوقت الى ما هناك لقد كان ذلك سهلا . فأما انفاذ خطوط كهنة الكرسي وشيوخه بالرضى فهذا نريد ان يكون لو لم يتم الامر وحينئذ تكون الشبهة لاحقة في مثل هذا . فأما بعد تمامه ومضي سنة عليه فانت تعلم انه لو لم يحصل في الاول خطوط ويقع اجماع ورضي قبل التوجـه الى المدينة المتملكة لما كان تم .

« وكان بعد تمامه اضطراب ولم يقع بعده سكون . ونحن كنيستنا بحمد الله واحدة والمشاركة فيها من كل جهة واقعة والمحبة بين اولادها تامة كاملة وليس ها هنا خلف ولا انفراد ولا انشقاق ولا حال فيها شبهة تحتاج الى انفاذ ما التمسته . وطلبة مثل هذه في غير موضعها تجري مجرى المعاياة والاجابة الى مثل ذلك نقص وايقاع شبهة . فاما الحق بالمودة الالهية والاليق بالاحوال الروحانية ان تدع التماس ما لم تجر العادة بالتماسه والاحتجاج بما قد بطل وبمثله والرجوع الى الواجب في توكيد المودة واتمام اتحاد الخدمة والمشاركة حتى يزول الشك ويرتفع سبب الفساد ولا يقع في البيعة انشقاق .

« وانت ايها الاب الروحاني تأتي في ذلك الواجب . وقد اردت انفاذ البرذة على ما جرى به الرسم والعادة ولم تتأخر الا لبعد الطريق وصعوبة الوقت . وانا ارصد الفرصة لانفاذها واراقب نفوذ من يصلح لحملها وأنفذها واتبارك باصدارها واني في ذلك على الرسم الذي انا قلق لتأخره . وأنت أيها الاب الروحاني تأتي في قبولها عند وصولها ما جرت فيه العادة التي تتبع الروحانيات ولا ينقصها تأخرها ولا يزيد فيها تقدمها . مع ابهاجي بكتابك عاجلا متضمناً من أخبارك واستقامة أحوال من قبلك ما أسر به ومن حاجاتك ومهماتك ما أقوم فيه بواجب المودة والاخوة الروحانية والمشاركة ان شاء الله .

« سلام ربنا والهنا يسوع المسيح يكون معك وعندك حافظاً ومواقياً وكافياً ومشدداً من الآن والى كل أوان والى دهر الداهرين آمين » (١) .

ووصل هذا الكتاب الى ايليا البطريرك الاسكندري ووافق على مضمونه وقبـل اغابيوس في الشركة واعترف ببطريركيته . ويلاحظ هنـا ان البطريرك الانطاكي رأى في اعتراف زميله واجبـاً روحانياً « لتوكيد المودة واتمام اتحاد الخدمـة والمشاركة حتى يرتفع سبب الفساد ولكي لا يقع في الكنيسة انشقاق »

1) *Eutichius, Ann., II, (Yahya b. Said), 150 - 154.*

ورأى هذا البطريرك ايضاً ان ارسال المحاضر بخطوط الكهنة والشيوخ أمر لم يفعله من تقدمه من البطاركة . واكتفى بأن يكون ايمانه ايمان اصحاب المجامع المقدسة السبعة وان يكون شعبه راضياً وان يكون رؤساء الدولة قد وافقوا على اختياره ويلاحظ ايضاً ان لا اشارة البتة في هذا الجدل حول الاعتراف بالبطريركية الى موافقة رومة وحبرها وان البطريرك الانطاكي الجديد اعتز بموافقة رؤساء الدولة في القسطنطينية « المدينة العظمى » وبعلم « علماء الملة » فيها .

حروب باسيليوس الثاني : وقُدر لباسيليوس ان يصبح أعظم قوة وأطول باعاً في الحرب من أسلافه . فانه تمكن بجده وسعيه ومقدرته في الادارة والحرب من تجييش عدد من الرجال أكبر بكثير من اي عدد جنده اسلافه . وحارب في وقت واحد في جبهات اربع في بلغارية وايطالية وسورية والقوقاس.

وكان سعد الدولة الحمداني قد دخل حلب واستولى عليها . فحاول مراراً ان يتملص من الاتاوة التي كان بقجور قد قبل بدفعها الى الروم . فأدى هذا الى انفاذ حملات ثلاث على حلب في السنوات ٩٨١ و٩٨٣ و٩٨٦ . واضطر سعد الدولة ان يستنجد العزيز الفاطمي فنشب خصام بين الروم والفاطميين . ولما كان باسيليوس منهمكاً في القضاء على ثورة البرداسين اضطر بدوره في أواخر السنة ٩٨٧ الى ان يصالح العزيز الفاطمي بمعاهدة كان من شروطها ان يذكر اسم العزيز في خطبة الجامع في القسطنطينية . وكان قد قام في القسطنطينية مسجد منذ القرن الثامن .

وتوفي سعد الدولة الحمداني في السنة ٩٩١ فطمع العزيز بحلب وحاصرها في السنة ٩٩٢ . فاستجار لؤلؤ الوصي على ابن سعد الدولة باسيليوس الثاني. فأمر باسيليوس دوق انطاكية ميخائيل بورجس ان يقدم المعونة اللازمة . فظفر الفاطميون بجيشه في موقعة العاصي في الخامس عشر من ايلول سنة ٩٩٤ . فرأى الفسيلفس ان يشرف بنفسه . فجمع جيشاً خاصاً وجعل لكل مقاتل بغلين وهبّ بسرعة فائقة فقطع آسية الصغرى في ستة عشر يوماً وفاجأ الفاطميين عند حلب فتراجعوا عنها حتى ابواب دمشق .

يوحنا الخامس بطريرك انطاكية : (٩٩٦ـ١٠٢٢) وسخط باسيليوس على ميخائيل بورجس وألزمه بيته وولّى على انطاكية الدوق دميانوس دلاسانوس وطلب الى اغابيوس البطريرك ان « يكتب خطه بالزهد في رئاسة انطاكية واعتزاله عنها » فامتنع البطريرك . فجعل الفسيلفس للبطريرك ديراً في القسطنطينية يعرف بالافرنذيو وأمر ان يحمل اليه في كل سنة من دخل كنيسة انطاكية اربعة وعشرين رطلا من الدنانير « برسم نفقة مائدته » فقبل البطريرك واستقال . وتوفي بعد ذلك بسنة (١) .

« وصيّر » باسيليوس عوضاً عن اغابيوس بطريركاً من اهل القسطنطينية اسمه يوحنا . وهو الخامس في المراجع الارثوذكسية والثالث في المراجع الغربية وكان خرتوفيلاكساً في كنيسة الحكمة الالهية. وأمر الفسيلفس ان «ترتب» كنيسة القسيان في انطاكية على مثال كنيسة الحكمة الالهية (٢) .

باسيليوس والحاكم : وتوفي العزيز الفاطمي وتولى الحكم بعده الحاكم « بأمره » (٩٩٦ ــ ١٠٢١) فأنزل بدوق انطاكية داميانوس دلاسانوس في تموز السنة ٩٩٨ هزيمة كبيرة وخر داميانوس مقاتلا . فاضطر باسيليوس ان يعود الى سورية لينقذ الموقف. فدخل انطاكية في العشرين من ايلول سنة ٩٩٩ واستولى على حمص في تشرين الاول من السنة نفسها . ثم قام الى طرابلس وحاصرها وسير سرية الى بيروت وجبيل فظفرت بالاسرى والغنائم. وعاد الفسيلفس الى طرسوس لتمضية فصل الشتاء . وبينما هو يعد العدة في طرسوس لمتابعة الحرب ضد الفاطميين علم بوفاة داود ملك الكرج . وكان داود هذا قد أوصى بملكه الى الفسيلفس . فقام الفسيلفس بجيشه الى ملاطية . ثم عبر الفرات ودجلة فقدم امراء الكرج خضوعهم وضم الفسيلفس دولة داود الى الامبراطورية وعاد الى القسطنطينية . وترك هذا كله اثراً في نفس الحاكم الفاطمي فأسرع يفاوض في السلم وخصّ اورستيوس بطريرك اوروشليم بالمفاوضة . فقام هذا البطريرك الى انطاكية . ومنها الى

1) *Eutichius, Ann., II, (Yahya b. Said), 177.*
2) *Ibid.*

القسطنطينية . فكان صلح بين الدولتين لعشر سنوات (١) .

وبما يروى ان يوحنا البطريرك الانطاكي فاوض زميلـه اورستيوس في اثناء مروره في انطاكية في امر كنيسة الكرج فتنازل له عن المـال السنوي الذي كان يتناوله من كنيسة الكرج لصنع الميرون واحتفظ بحقه في ان يذكر هو وحده في الذبتيخة وفي ان يوفد الى الكرج اكسرخوساً يتفقد احوال الكنيسة فيها ويجمع دخل اوقاف الكرسي الانطاكي منها (٢) .

المسيح هو الملك : وتنصرت الحكومة وفاخرت بنصرانيتها واعتزت . وأصبح السيد المخلص في نظر الحكومـة والشعب هو الملك . وأصبح الانجيل دستور الدولة . فكنت اذا قصدت القصر الملكي تقرأ على جدران بعض البنايات العبارة « المسيح الفسيلفس » او المسيح الامبراطور » . وقـد تسمع وانت في طريقك الى القصر جماعات يرتلون . فاذا ما اقتربوا منك وجدتهم جنوداً حاملين الصليب عالياً هاتفين : « المسيح المنتصر » . واذا ما وصلت الى مداخل القصر وجدت فوق العتبات ايقونات مقدسة تمثل المسيح مرتدياً لباس الملك متوجـاً . واذا دخلت ظننت انك في كنيسة لا في قصر ملكي. فمن ايقونة للعذراء والدة الاله حامية العاصمة الى ذخيرة تضم عود الصليب الى ايقونة عجائبية تمثل السيد مصلوباً كان قد ظفر بها ابن شمشيق (يوحنا جيمسكي) في اثناء مروره في بيروت الى زاوية مكرمة تحفظ حذاء السيد الذي وجده ابن شمشيق في جبيل الى المنديل الذي كان لا يزال يحمل رسم وجه السيد وقد احتفظت به الرها اكثر من تسعة قرون . وقـد تقف قليلا متأملا مصلياً فيدخل القاعة رئيس اساقفة تتبعه حاشيته وقـد جاء خصيصاً لتكريم هذه الآثار وتجديد التكريس .

وقد تكون احد اعضاء الوفود الاسلامية المفاوضة فيتاح لك الدخول الى قاعة العرش . فتجد العرش عرشين احدهما عليه الانجيل الطاهر وهو عرش المسيح الملك والثاني لنائبه على الارض الفسيلفس. فاذا قابلت العرش الاول او مررت من امامه رسمت شارة الصليب بالاصابع الثلاثة وانحنيت اكراماً واجلالا . وقـد

1) *Dolger, Reg., 788 ; Schlumberger, G., Epop., II, 201 - 208.*
2) *Echos d'Orient, 1934, 136.*

تكون احد القضاة الزائرين فيدفعك اهتمامك بالقضاء الى الوقوف في دار العدل لاستماع المرافعة وصدور الاحكام فتذكر هناك ايضاً بأن الملك للسيد لـه المجد . فالقوانين والاحكام تستهل « باسم سيدنا يسوع المسيح » وقـد تكون تاجراً تضطرك الظروف الى زيارة احد المصارف لتقبض تحويلا مالياً معيناً فتنقد الدراهم والدنانير فتجد رسم السيد المسيح على احد الوجهين (١) .

وقد تكون عدواً محارباً في الجزيرة او في سورية فتعد جيش الروم بعدد معين من الصلبان . وقد تمتنع في قلعة شيزر كما فعل بن كراديس في السنـة ٩٩٩ ثم تلتمس الامان من ملك الروم وتشترط شروطاً فيجيبك الى ذلك وينفـذ اليك صليبه (٢) . وقد تقع الهدن بين الروم والمسلمين فينفـذ ملك الروم صليباً من ذهب مرصعاً « اماناً لعدوه ووفاء بالشرط » (٣) .

الفسيلفس نائب المسيح : ولما كان الملك الحقيقي روحاً غير منظور أصبح الملك الملموس رمز الملك السيد ونائبه على الارض : ثوبه ثوب الايقونات وتاجه وصولجانه مشرفان بالصليب المقدس . ولما كانت ثيابه هذه هبـة ربانية حملها الملائكة الى قسطنطين الكبير أصبح المحل الوحيد اللائق بحفظها هو الكنيسـة . وأمسى قصر الفسيلفس من حيث التخطيط وهندسة البناء وتزيين الزوايا والقبب والجدران اشبه بالكنيسة من اي بناء آخر . وأمست أبواب قاعـة العرش تفتح وتغلق في أوقات معينـة كأبواب الايقونسطاس في الكنيسة . وقام العرش في حنيّـة كعرش الاسقف في الكنيسة . وقضت هـذه الصلة بين الفسيلفس وبين السيد الروح غـير المنظور ان يظهر الفسيلفس ظهوراً على عرشه في الاستقبالات الرسمية دون اي كلام او تبادل أفكار . وتغرد الطيور الذهبية وتزأر الاسود المصطنعة ويسجد الحاضرون ثلاث سجدات . وما هي الا لحظة حتى يرتفع الفسيلفس بعرشه نحو السماء فيختفي . واذا قضت الظروف ان

1) *Guerdan, R., Grandeurs et Misères de Byzance, (Paris, 1954), 1 - 5 ; Ensslin, W., Emperor and Imperial Administration, Byzantium, (Oxford 1953), 273 ff.*
2) *Eutichius, Ann., II, (Yahya b. Said) 183.*
٣) زبدة الحلب لابن العديم ص ٦٦

يستقبل الفسيلفس في باسيليقة المنيورة جلس على عرشه الذهبي صامتـــاً مسبل الجفنين . فاذا ما رغب في شيء رفع جفنيه ونظر الى رئيس الخصيان . فتصدر اشارة عن هذا فيتم تنفيذ الأمر الصادر دون كلام . وتنتهي المقابلة عندما يرسم الفسيلفس شارة الصليب فيخرج الزائرون متراجعين خاشعين . وقضت نيـــابة المسيح على الفسيلفس بأن يشترك مع البطريرك في ممارسة بعض الطقوس الدينية . فيخرج الاثنان الى الشوارع بسحابة من البخور وموكب كبير . ويركب البطريرك حماراً ابيض ويمتطي الفسيلفس جواداً عربياً فيزوران في كل يوم جمعـــة كنيسة السيدة حامية العاصمة . وفي يوم الخميس الكبير يتفقدان العجزة في المآوي فيغسل الفسيلفس أرجل هؤلاء ويقبلها مذكراً بما فعل السيد له المجد .

وجاء في كتاب الاعلاق النفيسة لابن رسته (٩٠٣) انه اذا خرج الفسيلفس الى كنيسة الحكمة الالهية مشى أمامه اثنا عشر بطريقاً وحمل هو بيده حقاً من ذهب فيه تراب . فاذا مشى خطوتين وقف ونظر الى التراب وقبله وبكى . وما يزال يسير كذلك حتى ينتهي الى باب الكنيسة . فيقدم رجل شيخ طشتاً وابريقاً من ذهب . فيغسل الفسيلفس يده ويقول لوزيره : اني بريء من دماء الناس كلهم . ويخلع ثيابه التي عليه على وزيره ويأخذ دواة بيلاطس ويجعلها في رقبـــة الوزير ويقول له : دن بالحق كما دان بيلاطس (١) .

واذا دخل الفسيلفس الكنيسة ليصلي استوى على عرش خاص واعتبر ممسوحاً من الله لينوب عن المسيح في الأرض . واستحق التناول بيده من المائدة المقدسة . ولكنه لم يرئس الكنيسة كما توهم البعض .

وكان على الفسيلفس ان يراعي هذا التقليد في حياته الخصوصية . فكان كلما انتهى من الطعام كسر الخبز وشرب الخمر . واذا ما جلس الى المائدة جلس حواليه اثنا عشر شخصاً . وعند كثرة الضيوف كانت تقام اثنتا عشرة مائدة . وفي ليلة عيد الميلاد كان عليه ان يدعو أفقر الفقراء لتناول الطعام معه . فالكل اخوان في المسيح . وكان يضيء غرفة نومه صليب وعدد من الكواكب . وكان

١) الاعلاق النفيسة لابن رسته ص ١٢٣ — ١٢٦

يطل عليـــه من فسيفساء الجدران باسيليوس الاول المقدوني وعائلته وفي ايديهم الاناجيل !

ولما كان الفسيلفس نائب المسيح على الارض كانت ارادته مطلقة وكان هو مصدر السلطة . فكان هو يسن الشرائع ويلغيهـــا ويعين القضاة والوزراء ويعزلهم ويوافق على انتخاب البطريرك . وكانت سلطته مسكونية تشمل العالم بأسره فلا تقف عند حد جغرافي او سياسي ولا يحق لمعترض ان يعترض عليها . وأصبح البطريرك الجالس الى يمينه بطريركاً مسكونياً ايضاً له حق التقدم على سائر البطاركة بعد بطريرك رومة .

وضاقت لا بل تضاءلت صلاحيات مجلس الشيوخ مصدر السلطة في رومة القديمة فأضحى في هذين القرنين متفرجاً يشاهد الحوادث الجسام دون ان يكون له رأي فيها . وبات الزرق والخضر في جملة المتفرجين لا مجالس لهم ولا صلاحيات . واستبدلوا اهازيج القتال بتراتيل الصلاة يأتمرون باشارة البروتوبسالطي بدلا من سيف القائد المغوار .

الفسيلفس والكنيسة : والدولة والكنيسة عنـــد الروم شخص واحد فالفسيلفس يتسلط على الجسم والبطريرك على الروح . ولا دولة بدون كنيسة ولا كنيسة بدون دولة (١) . فالآباء رأوا في شخص قسطنطين الكبير حامياً داعياً فمنحوه لقب « المساوي للرسل » *Isapostolos* . ولم يتنازل أحد من خلفائه عن هـــذه المنحة . ونادى أعضاء المجامع المسكونية مراراً بالفسيلفس حبراً أعظم *Pontifex Maximus* ومن هنا نشأت في الأرجح هـــذه الامتيازات الروحية التي تمتع بها ملوك الروم في داخل الكنيسة كمنح ولي العهد اكليل الاكليروس والسماح للفسيلفس بالدفاع في اثناء مسحه فسيلفساً كأنه شماس ودخوله الى الهيكل من الباب الملوكي وتناوله الذبيحة بيده على المائدة المقدسة (٢) . واضطر الفسيلفس في بعض الأحيان ان يتخذ موقفاً معيناً من بعض المشاكل العقائدية والادارية

1) *Epanagoge, II - III ; Treitinger, O., Ostromische Kaiser, 158 - 159.*
2) *Bréhier, L., Institutions, 432.*

الكنسية . فكان يلجأ في مثل هذه الظروف الى دعوة المجامع المحلية او المسكونية فيرعاها بعنايته وينفذ قراراتها . وتطرف بعضهم ففرض الحل فرضاً كما فعل هرقل عندما تبنى القول بالمشيئة الواحدة والفسالسة محاربي الايقونات (١) .

وتدخل بعض الفسالسة للمحافظة على النظام وتنفيذ قرارات المجامع . فقضى أحد قوانين يوستنيانوس الكبير (٥٣٥) بأن يحافظ هو على شرف الكهنوت فيقول كلمته في انتقاء الكهنة والأساقفة (٢) . وتدخل بعضهم ايضاً فقرر بعض الأعياد الكنسية . فيوستينوس الاول (٥١٨ — ٥٢٧) هو الذي عمم الاحتفال بعيد الميلاد في الخامس والعشرين من كانون الاول . ويوستنيانوس الكبير هو الذي ثبّت عيد دخول المسيح الى الهيكل في الثاني من شباط (٣) . وموريقيوس هو الذي حدد الخامس عشر من آب عيداً لانتقال السيدة العذراء (٤) . ويعود الفضل في الاحتفاء بعيد النبي الياس في العشرين من تموز الى باسيليوس الاول (٨٦٧ — ٨٨٦) فانه كان شديد التعلق به والتوسل اليه (٥) . وفي السنة ١١٦٦ جعل عمانوئيل كومنينوس الاعياد نوعين منها ما تجب البطالة فيه طوال النهار ومنها ما تنتهي البطالة فيه عند الانتهاء من خدمة القداس (٦) .

ولم تنفرد كنائسنا بهذا التدخل في شؤونها . فقد تعرضت كنيسة رومة ايضاً الى مثل هذا التدخل من فسالسة الشرق وأباطرة الغرب . وهو أمر معروف يجمع عليه جميع المؤرخين . وكما ناضلت كنيسة رومة في سبيل استقلالها كذلك فعلت كنائسنا . او لم ينصح البطريرك نيقولاووس الفسيلفس لاوون السادس الا يكون عثرة في سبيل الكنيسة وان يتصرف بما يشرف مركزه العالي . ثم لما أصر الفسيلفس على موقفه ألم يمنعه البطريرك من الدخول الى الكنيسة . والبطريرك بوليفكتوس ألم يعترض نيقيفوروس فوقاس عندما حاول الدخول من الباب الملوكي لأنه تزوج من الثانية في حياة الاولى خلافاً للناموس . ثم ألم يمنع هذا

1) *Ibid.*, 432 - 435.
2) *Linginthal, Z., Nov. Just., 16 Mars, 535.*
3) *Leclercq, H., Dict. Aech. Chrét., XII, 910 - 916, XIV, 1720.*
4) *Dolger, Reg., 147.*
5) *Theophanes Cont., V, 8.*
6) *Dolger, Reg., 1466.*

البطريرك نفسه يوحنا جيمسكي من الدخول الى الكنيسة الا بعد ان يقوم بشروط معينة . وباسيليوس البطريرك ألم يرفض المثول أمام مجلس القضاء الاعلى مصراً على المحاكمة أمام مجمع مسكوني . وهل ننسى ما جاء في الابناغوغة بفضل فوطيوس العظيم . فالفسيلفس بموجب هذه المجموعة مسؤول عن الجسم فقط أما الروح فانها برعاية البطريرك صورة المسيح على الأرض . وهذا البطريرك لا تمس كرامته ولا يعتدى عليه . ولا يغيب عن البال انه كان على الفسيلفس ان يتسلم تاجه من يد هذا البطريرك وان يعلن موقفه من بعض الشؤون الهامة الى البطريرك قبل التتويج . وكان لهذا البطريرك سلطة روحية على الفسيلفس لأنه راعي النفوس ومنها نفس الفسيلفس ولأنه كان عراب الامراء . وكان هو الذي يعلن شرعية ولادتهم (١) .

وليس من العلم بشيء ان نماشي الأب مرتينوس جوجي فنلوم الكنيسة الارثوذكسية لخضوعها الى الفسيلفس جاعلين من هذا الخضوع نظاماً قضى بأن يكون الفسيلفس هو البطريرك *Césaropapisme* (٢) وان نضرب في الوقت نفسه عرض الحائط برأي كبار رجال الاختصاص أمثال اوستروغورسكي وفزيلييف وغريغوار وديل وغيرهم (٣) .

الانجيل دستور الدولة : وقضت هذه الفلسفة الدينية السياسية بأن يُعترف عند الروم بقدسية الانجيل الطاهر ووجوب تطبيق أحكامه . فأصبحت دولتهم ديموقراطية في تساوي أبنائها مطلقة مستبدة في تنفيذ مبادىء الانجيل الشريف . ولم يبق فيها اي تفوق نظري لطبقة على سواها . وأصبح بامكان أوضع الرجال ان يتسنّم أعلى المراتب . أو لم يكن لاوون الاول لحاماً ويوستينوس الاول راعياً للخنازير وفوقاس قائد مئة ولاوون الثالث شحاذاً متسولا وباسيليوس الاول فلاحاً ورومانوس ليكابينوس افاقاً ؟ أو لم يُنعت قسطنطين الخامس

1) *Dolger, Reg., 823 ; Grumel, Reg. I, 830.*
2) *Jugie, M., Schisme Byzantin, 3 - 10.*
3) *Ostrogorsky, G., The Byzantine State, 214 - 215, 217 - 219 n. 1 ; Grégoire H., The Byzantine Church, Byzantium, 129 - 130 ; Diehl, C., Problémes de l'Histoire Byzantine, 59 - 61.*

بالزبلي وميخائيل الثالث بالسكير وميخائيل الخامس بالقلفاط اي نقّال البضائع؟ والفسيليسات ألم تكن احداهن خزرية واخرى مغنية وغيرها مروضة للدببة ؟ او لم يكن عدد كبير منهن بنات موظفين عاديين ؟ !

وعملا بتعاليم الانجيل المقدس ترفع الفسيلفس عن الشموخ والتكبر فدعا الى مائدته البؤساء والمتشردين . وفتح بابه لجميع الرعايا من عباد الله يلجونه أنى شاؤوا . واشتدت عنايته وعناية البطريرك ايضاً بالمرضى والمصابين والعجز . فكثرت المآوى والمياتم ولا سيما المستشفيات . وأشهر هذه المؤسسات دير الاله القوي *Pantocrator* الذي انشأه يوحنا كومنينوس (١١١٨ — ١١٤٣) في عاصمة ملكه وفيه مستشفى للرجال وآخر للنساء وثالث للامراض المعدية . وكان يؤمه طبيب استاذ وعقاقيري ورهط من الطلبة . وكان يفاخر الاستاذ الطبيب بطريقته الخصوصية في تنظيف أدوات الجراحة وتطهيرها (١) .

وساوى الروم بين الرجل والمرأة . فكان للنساء شأن كبير في الحياة الاجتماعية . وشاطرن أزواجهن السلطة في كثير من الأحيان. وشاركت الفسيلسة زوجها حق السيادة وسبقته الى تقبل طاعة الشعب وولائه . وكان الشعب لدى خروجها من الكنيسة يهتف لها : « أهلا بالاوغسطة المحمية من الله ، أهلا بلابسة الارجوان ، أهلا بمحبوبة الكل » .

ولم تكن هذه الديموقراطية وليدة نضج سياسي او فلسفي ولكنها تأتت بطبيعة الحال عن تقبل الانجيل وتقبيله واتخاذه دستوراً للدولة . فالدافع نفسه الذي جعل من الفسيلفس نائباً للمسيح على الأرض أدى الى السعي لجعل المجتمع الارضي مماثلا قدر المستطاع للمجتمع الرباني . ومن هنا هذه القسوة في العقوبات عند الروم : في قطع يدي المزور وحرق المرتشي . فالقانون الهي والخروج عليه خطيئة تستوجب نار جهنم !

البطريرك : وجارت الكنيسة الدولة في نظمها . فكانت الكنيسة واحدة

1) *Oeconomus, L., Les Oeuvres d'Assistance et les Hôpitaux Byzantins ; Codellas, S., The Pantocrator, Bull. Hist. Med., 1942, 392 - 410.*

جامعة كما كانت الامبراطورية واحدة جامعــة . وكما جاز للامبراطورية ان يكون لها امبراطوران او أكثر في آن واحد كذلك جاز للكنيسة ان تخضع لأكثر من رأس واحد (١) . وتقبّل المجمع المسكوني الثاني (٣٨١) هذه النظرية فأوجب في قانونه الثاني على الأساقفة الا يتعدى أحدهم على الكنائس التي تقــع خارج حدود أبرشيته . وأقر في قانونه الثالث ان يكون التقدم « في الكرامة » لاسقف القسطنطينية بعــد اسقف رومة « لكونها رومة الجديدة » (٢) . ثم أقر المجمع المسكوني الرابع في قانونه الثامن والعشرين هــذا التقدم في الكرامة لاسقف القسطنطينية بعد اسقف رومة (٣) . ثم جاء يوستنيانوس الكبير يشترع فتعرف الى بطاركة خمسة: بطاركة رومة والقسطنطينية والاسكندرية وانطاكيةواوروشليم واعتبرهم أساس النظام والسلطة في الكنيسة الواحدة الجامعة (٤) .

الشرطنة : وهو لفظ يوناني *Cherotonia* ومعناها الانتخاب . وكان البطريرك ينتخب انتخاباً . فقد قضى قانون يوستنيانوس بأن ينتخب الاكليروس ووجهاء العاصمة ثلاثة فينتقي الاسقف المشرطن اي اسقف هرقلية أفضل هؤلاء للسدة البطريركيــة (٥) . ثم حرّم المجمعان النيقاوي (٧٨٧) في قانونه الثالث والقسطنطيني (٨٧٠) في قانونه الثاني عشر سيامة بطريرك ينفرد امــير بانتقائه كما حرما تدخل الشعب في الانتخاب . وأصبح انتخاب البطريرك بعد هذا محصوراً في مطارنة الكرسي . وتوجب على جميع المطارنة ان يشتركوا في هذا الانتخاب . ثم جاء في كتاب التشريفات لقسطنطين السابع (٩١٢ — ٩٥٩) ان المطارنة ينتخبون ثلاثة ينتقي الفسيلفس أحدهم وانه اذا لم يرضَ عن الثلاثة جاز له انينتقي رابعاً يقبل به المطارنة(٦) وبقي الحال علىهذا المنوال حتى آخر ايام الامبراطورية : المجمع ينتخب والفسيلفس يرقي (٧) .

1) *Bréhier, L., Institutions, 447.*
2) *Mansi, III, 559.*
3) *Mansi, VII, 428 - 429.*
4) *Lingenthal, Nov. Just., 109, 123, 131.*
5) *Lingenthal, Nov. Just., 174.*
6) *Vogt, A., Livre des Cérémonies, II, 14, (1040 - 1048).*
7) *Codinus, LV, 20 (101 - 102), Symeon de Thessalonique, 224.*

التنصيب والتولية : وكان التنصيب يتم على درجتين : اعلان اسم المنتخب *menouma* وحفلة التنصيب *Prozlesis* . وكان الفسيلفس يدعو أعضاء مجلس الشيوخ والمطارنة وعـدداً كبيراً من سائر رجال الاكليروس الى القصر ليقول : « ان النعمة الالهية وقدرتنا المستمدة منها تعلنان ترقية فلان الى رتبـة بطريرك القسطنطينية » (١) . وعندئذ يظهر البطريرك المنتخب ليتقبـل تهاني الشيوخ والمطارنة . ثم يصار الى تنصيبه بطريركاً في الاحد التالي في كنيسة الحكمة الالهية . فيترأس حفلة التنصيب متروبوليت هرقلية ويقدم له الفسيلفس العكاز والمنديّة والصليب (٢) . ويدعى بعد هذا صاحب القداسة ويخاطبـه المطارنة بالعبارة : « ايهـا السيد الفائق القداسة » ويوقع هكذا : « بنعمة الله اسقف القسطنطينية رومة الجديدة والبطريرك المسكوني » (٣) .

الانتقاء : وحرمت مجامع نيقيـة (٣٢٦) وانطاكية (٣٤١) وسرديكة (٣٤٧) تنقل الاساقفة من كرسي الى كرسي فتعذر على اساقفة الكرسي القسطنطيني ان يتبوأوا السدة البطريركية . والواقع انه لم يرق هذه السدة من اساقفة الكرسي القسطنطيني سوى ستة بين القرن السادس والقرن الثاني عشر وسوى أحدى عشر بين السنة ١١٦٩ والسنة ١٤٤٠ . وهكذا فان انتقاء البطاركة كان يتم في غالب الأحيان من بين الكهنة والرهبان . وآثر الأساقفة المنتخبون اعضاء السنودوس كهنة كنيسة الحكمة الالهية على سواهم فرقوا في القرون الاربعة بين السنة ٣٧٩ والسنة ٧٠٥ ثمانية عشر كاهناً من كهنة هذه الكنيسة الى السدة البطريركية وسبعة من كنائس القسطنطينية الاخرى وثلاثة عشر كاهناً من كنائس آسية الصغرى وانطاكية واسقفاً واحداً وعلمانيين اثنين وثلاثة رهبان . وتخرج معظم هؤلاء من مدارس القسطنطينية او اثينة او الاسكندرية او انطاكيـة فتحلوا بالعلم العالي وبسعة الاطلاع . وما بين السنة ٧٠٥ والسنة ١٢٠٤ رقي السدة القسطنطينية

1) *Vogt, A., op. cit., II, 14, (1044).*
2) *Ibid., II, 14 (1040 - 1048) 38 (1177),*
3) *Bréhier, L., Investiture des Patriarches de Constantinople, Misc. Merca, III, 3658, ff. ; Laurent, Byzantion, 1929, 629 - 631.*

خمسة واربعون راهباً وخمسة عشر كاهن رعية وسبعة علمانيين وستة أساقفة (١) .

صلاحيات البطريرك : والبطريرك بموجب الابناغوغة (٨٨٤ — ٨٨٦) معلم الكنيسة الاكبر ومفسر عقيدتها الأوحد . وهو صاحب السلطة الاكليريكية العليا ينظر في ما يستأنف اليه من القرارات فيبرمها او يلغيها . وتمتع بموجب نص الابناغوغة بحق الستافروبيغية اي بالسلطة المباشرة على كل ما يغرز فيه صليبه في جميع الابرشيات الخاضعة لسلطته الروحية فزاد هذا الامتياز نفوذه ودخله في آن واحد (٢) . وكانت قراراته *thespismata* نافذة مرعية الاجراء في جميع أنحاء الامبراطورية وكانت تصدر في ظاهرها عنه وحده ولكنه قلما أقدم عليها بدون موافقة لجنة السنودوس . وكان البطريرك يدعو السنودوس بكامله الى الانعقاد للنظر في المسائل الهامة كاعداد اعتراف بالايمان او النظر في قضيـة عقائدية او اتخاذ اجراء اداري هام (٣). فلما عظم أمره وكثرت مشاغله وتنوعت نشأ حوله في أواخر القرن الخامس او اوائـل السادس سنودوس دائم شمل مطارنة الابرشيات القريبـة من القسطنطينية وعرف بالسنودوس الانذموسي *Endemousa* وظل السنودوس الاكبر الذي شمل جميع المطارنة هو المرجع الأخير في المشاكل الهامة . وعند تأزم الامور كان البطريرك يدعو الى الاشتراك في أعمال المجمع الاكبر وجهاء الشعب وأعضاء مجلس الشيوخ فيتحول السنودوس الى «مجمع عام » يمثل أكبر كبراء الكنيسة القسطنطينية من اكليريكيين وعلمانيين (٤) .

وظل البطريرك صاحب الكلمة الاولى والأخيرة في امور الليتورجية . فكان هو وحده يقر الأعياد الجديدة ويعدل التقويم الكنسي ويشرف على ممارسة الأسرار . بيد ان واجبه الأكبر قضى بالسهر على انضباط الاكليريكيين وتقيدهم بالانظمة المرعية الاجراء. فكان عليه ان يقمع الفساد ويؤدب العصاة والمعاندين. وكان يستند في تنفيذ أحكامه الى تعاون وثيق مع السلطات الزمنية والى امتيازات

1) *Bréhier, L., Institutions, 482 - 486.*
2) *Lingenthal, Nov. Leon VI 31 ff. ; Mitard, Mélanges Diehl, I, 220.*
3) *Grumel, Reg., 805, 839.*
4) *Acte Synodal de Georges Xiphilin, 1191, éd. Papadopoulos Kerameus, Byz. Zeit., 1902, 75 ff.*

خصه بها العرف والقانون . وأهم هذه انه كان له حق الاشراف على انتخاب الاساقفة وحق الامتناع عن الاعتراف بقانونيـــة الانتخاب . فكان الاسقف المنتخب يظل اسقفاً منتخباً الى ان ينال من يـــد البطريرك الاوموفوريون *Omophorion* رمز السلطة الروحية (١) .

وكان التشريع في الأحوال الشخصيـــة لا يزال محصوراً كغيره من أنواع التشريع في يد الامبراطور . وكان شغل لاوون السادس (٨٨٦ – ٩١٢) الشاغل ان يكون له ولد ذكر يخلفه على العرش . وماتت زوجته فتزوج ثانية ثم ثالثة ثم رابعة غير مكترث بنصوص القانون الذي سنه هو نفسه . فكانت مشادة بينـــه وبين البطريرك أدت الى نزول هذا عن كرسيه ولكنها لم تنته عند هذا الحد . فالكنيسة أصرت على شجب الفسيلفس وتوصلت في السنة ٩٢٠ الى اصدار قرار اسمته كتاب الاتحاد *Tomos Enouseos* منعت فيه الزيجة الرابعة منعاً قطعياً وحرمت على المتجاسر عليها الدخول الى الكنيسة ونعتت الزيجة الثالثـــة بالدناسة ومنعتها على الذين لهم اولاد والذين يزيد عمرهم على الأربعين ووضعت المتزوجين الزيجة الثالثة تحت قصاص الابتعاد عن المناولة خمس سنوات (٢) . فانتصرت بذلك انتصاراً باهراً وبدأت تنتزع حق التشريع في امور الزواج والأحـــوال الشخصية من يد الفسيلفس والسلطات الزمنية . ثم جاء البطريرك اليكسيوس الاستودي (١٠٣٨) فلم يسمح بالزواج في درجة القربى السابعة الا بعد الندامة والتوبة (٣) . وتبعه البطريرك ميخائيل كيرولاريوس (١٠٤٣ – ١٠٥٩) فحرم هذه الزيجة تحريماً (٤) . وأصبح التشريع في امور الزواج بعد هـــذا حقاً من حقوق الكنيسة (٥) .

البطريركية : وقـــام القصر البطريركي *Patriarchéion* الى جانب

1) *Chrysanthos, Hist. of the Church of Trebizonde, 178 ; Concile de Constantinople, 870, Canon 12 ; Monnier, H., Les Novelles de Léon le Sage, 34 - 35.*
2) *Grumel, Reg. 669.*
3) *Grumel, Reg. 844, 845 - 847.*
4) *Lambros, Byz. Zeit., 1896, 565.*
5) *Brehier, L., Institutions, 492.*

كتدرائية العاصمة كنيسة الحكمة الالهية وأطل بواجهته الجميلـــة على الفوروم الاوغسطي . وحوى في طابقه السفلي مكتبة البطريركية وقاعتي المحاكمة السكريتون العظمى والصغرى وقاعة السندوس . وكان يربط هـــذا القصر بكنيسة الحكمة الالهية من جهته الخلفية ممر يؤدي الى منابر الوعظ والارشاد .

ولم تختلف الادارة البطريركية في اوائل عهدها عن ادارات المطرانيات . فتألفت من اكليريكيين يعاونون الاسقف في القيام بواجباته الطقسية وفي قضاء حاجات الشعب الخاضع لسلطته . ثم تطورت ظروف اسقف القسطنطينية فأصبح بطريركاً ثم بطريركاً مسكونياً فتنوعت الواجبات وتعددت وكثر عدد الموظفين وتفاوتوا في الاهمية فاصبحوا طبقات. ويقدّر العلماء عدد الاكريكيين في البطريركية القسطنطينية في هذا العهد الذي نحن بصدده بحوالي خمس مئـــة كما يرجحون ان عدد كبار الموظفين لم يتجاوز الخمسة والاربعون موظفاً . ويرون ان اهم هؤلاء كانوا خمســـة : السنكلوس والايكونوموس والسكيلاريوس والسكيفوفيلاكس والخرتوفيلاكس .

اما السنكلوس *Sugkellos* فانه كان في البدء امين سر البطريرك وموضع ثقته فيه ومعاونه الاول في الادارة . وعظم امره فاعتبر في غالب الاحيان وريث البطريرك وخليفته . فرقي السدة البطريركية بين عهـــد يوحنا القبدوقي (٥١٨) وعهد ميخائيل كيرولاريوس (١٠٤٣) ثلاثـــة عشر سنكلوساً (١) . وتدخل الامبراطور بانتقاء السنكلوس وتمت ترقيتـــه الى منصبه في قصر الامبراطور (٢) ومنح مرتبة خصوصية في التشريفات الامبراطورية وتقدم على المطارنة (٣) وعهد اليه بمهمات سياسية (٤) فأصبح رجل الامبراطور في البطريركية. ثم تطورت الظروف فمنح الامبراطور هذا اللقب المطارنة المقربين فنشأت مشادة بينهم وبين زملائهم الذين لم يحملوا هذا اللقب انتهت بشغب يوم عيد العنصرة في كنيسة الحكمة الالهية في السنة ١٠٢٩ . فظهر عندئذ لقب البروتوسنكلوس (٥) .

1) *Athenagoras, Ann. Soc. Etudes Byz., IV, 1928, 9 - 10.*
2) *Constantin VII, Ceremoniis, éd. Reiske, II, 5.*
3) *Athenagoras, op. cit., 12 - 14.*
4) *Ibid., 25 ff.*
5) *Grumel, Les Metropolites Syncelles, Et. Byz., 1945, 92 ff. ; Athenagoras, op. cit., IV, 31 ff.*

وعني الايكونوموس *Oikonomos* بتدبير مصالح البطريركية الماديـــة . وكان عليه ان يفتش الاوقاف ويجبي دخلها . وكانت هـــذه الاوقاف كثيرة متنوعة منها الاراضي الزراعية والقرى والاديرة . وتوجب على الايكونوموس ان يتسلم المعونات السنوية من صندوق الدولة وان يشرف على انفاقها (١) .

وسكيلاريوس الامبراطور هو حارس السكليون *Sakellion* اي امين الصندوق . أمـــا سكيلاريوس البطريرك فانه كان ناظر الأديرة وحافظ النظام فيها (٢) .

وحفظ السكيفوفيلاكس *Skeuophylax* الاواني المقدسة والبدلات الحبرية وكتب الخدمة المقدسة وأعد كل ما لزم لخدمة القداس . ومن هنـــا اهتمامه بالقمح والخمر والزيت والشمع ومـــا نتج عن ذلك من مشاكل . ولا يخفى ما وصلت اليه الأواني المقدسة من ترصيع وتزيين وتجميل وما حوته البدلات الحبرية من جواهر (٣) .

ويستدل من أعمال المجامع ان الخرتوفيلاكس *Chartophylax* كان في القرنين السادس والسابع مدير محفوظات البطريركيـــة وامين مكتبتها (٤) . ثم أصبح في القرن التاسع أكبر كبراء البطريركية وأقرب المقربين الى البطريرك يحل محله عند الحاجة وينفذ القانون باسمه (٥) . ونراه في القرن الحادي عشر مسيطراً على جميع أعمال البطريركية مقدماً على المطارنة في التشريفات الملكية « لأنه فم البطريرك ويمينه » (٦) . وشملت المحفوظات التي تولى حفظها القوانين الملكية والأحكام البطريركية واعترافات الأساقفة بالايمان وأعمال المجامع المسكونيـــة والمحلية ولوائح الأساقفة . وكانت هذه الأوراق جميعهـــا تختم بخاتم البطريرك

1) *Grumel, Reg. 768 - 769, 772, 774 ; Dolger, Reg., 1956 ; Codinus, ps., Officialibus, éd. Will, I, 23.*
2) *Codinus, ps., Officialibus, I, 25 - 26 ; Siméon de Thessalonique, Sacri ord., 242 (461).*
3) *Codinus, op. cit., I, 25 - 26 ; Siméon de Thess., op. cit., 242 (461) ; Athenagoras, op. cit., IV, 4 - 5.*
4) *Dvornik, Légendes 53 ; Mansi, VIII, Col. 1035, X, Col. 1000, XI, Col. 214 - 216.*
5) *Fortescue, Dict. Arch. Chrét. III, Col. 1015.*
6) *Dolger, Reg., 1175 ; Nicole, Byz. Zeit, 1894, 19.*

وتوقع بتوقيع الخرتوفيلاكس . وقضى الواجب ان يعنى الخرتوفيلاكس بجميع الكتب الكنسية والمحافظة على سلامتها ومنع كل دس فيها ومقابلتها عند الاقتضاء بغيرها وترجمتها (١) . وتنوعت أعماله الادارية واتسعت صلاحياته فكان عليه ان يحقق في كل ترقية اكليريكية قبل السماح بها . وكان عليه ايضاً ان يشرف على انتخابات الأساقفة وان يراقب جميع كهنـــة القسطنطينية ورهبانها . وكان يجلس للنظر في سلوك الاكليريكيين فارضاً الندامة والتوبة ومهدداً بالقطع اذا قضت الظروف بذلك . وكان يفصل في دعاوى الزواج والطلاق . وكان عليه بالاضافة الى هذا كله ان يفض جميع الرسائل الموجهة الى البطريرك المسكوني وان يقترح اجوبتها . ولم يستثن من هذه سوى رسائل البابا والبطاركة (٢) .

وشملت الحاشية البطريركية موظفين آخرين أبرزهم آمر السكليون اي السجن البطريركي وله حق الاشراف على كنائس القسطنطينيـــة والرفرنداريوس *Referendarius* ناقل رسائل البطريرك الى القصر الملكي والمنداتون *Mondaton* معلن الطقوس اليومية والايبوميمنسكون *Hypomimneskon* معادل الميستيكوس في القصر والايرومنمون *Hieromnemon* المشرف عـــلى فرز الاصوات في الانتخابات الواقف وراء البطريرك يوم التتويج واساتذة المدرسة البطريركية وأمين الانجيل والواعظ ومفسر الاسفار المقدسة . ومن هؤلاء الموظفين الكاتاستاسيوس المراقب العام في الخدمة الالهيـــة والبروتوباباس معاون البطريرك في الهيكل والبروتوبسالتيس المرتل الاول والنوميكوس مدير الموسيقى .

الاساقفة : وبينهم المطارنة في مراكز ولايات الدولة ورؤساء الاساقفة في مناطقهم المستقلة والاساقفـــة في المدن وامهات القرى وكان البرديوت « الاكليريكي الزائر » قد حل محل الخوراسقف .

وقضت قوانين يوستنيانوس بأن ينتخب الاسقف انتخاباً وبأن يشترك في هذا الانتخاب اكليروس الابرشية ووجهاء المركز فيتفقون على ثلاثـــة ينتقي

1) *Beurlier, Bull. Soc. Antiq. Fr., 1895, 92 - 93 ; Balsamon, Meditations, P. G., Vol. 104, Col. 1083.*
2) *Fortescue, op. cit. Col. 1017 ; Grumel, Reg., Preface, XII.*

الاسقف المشرطن أليقهم . وكان هذا الاسقف المشرطن اما متروبوليت الولاية او البطريرك او ممثله . وقضت هذه القوانين ايضاً بأن يكون المرشح قد أكمل الخامسة والثلاثين من العمر وان لا يكون قد تزوج مرتين والا تكون زوجته قد ترملت من قبل (١) . وجاز انتخاب العلمانيين لهذه الدرجة شرط التدرج في مدة من الزمن لا تقل عن ثلاثة أشهر (٢) . وتوجب على المرشح ان يكون عالماً مطلعاً وان يتمكن من الاجابة عن الاسئلة التي يوجهها اليه الاسقف المشرطن (٣). وأوجب الآباء في مجمع نيقية الثاني على المرشح لدرجة الاسقفية ان يعيد المزامير عن ظهر القلب (٤) . وحُرمت السيمونية تحريماً واعتبر العاطي والآخذ مشتركين في الجرم (٥) .

وظل هذا التشريع نافذاً طوال قرون متتالية . فقد ورد بتمامه في بروخيرون باسيليوس الاول (٨٧٨) (٦) . وجل ما اضيف اليه ان آباء مجمع نيقية الثاني أوجبوا خلع الاسقف الذي يصل الى كرسيه بتدخل علماني (٧) وان آباء المجمع الخامس السادس حرموا العيشة الزوجية وأوجبوا على كل اكليريكي متزوج يصل الى رتبة الاسقفية ان يبتعد عن زوجته فيدخلها ديراً بعيداً عن مركز عمله (٨) . والغى لاوون السادس القانون الذي منع انتخاب اسقف ابي ولد شرعي وسمح للاساقفة باعالة ذويهم المعوزين (٩) . وحرم وصول عبد آبق الى الكرسي وأوجب اعادته الى سيده (١٠) .

وحاول الاباطرة التدخل في الانتخابات وتدخلوا ولكن الكنيسة قاومتهم مقاومة عنيفة . فالبطريرك تراسيوس حارب تدخل الفسيلفس في السنة

1) *Nov. Jus. 6 (535), 123 (546).*
2) *Nov. Jus. 123 (546).*
3) *Nov. Jus. 6, 8.*
4) *Mansi, XIII, Col. 417 - 418.*
5) *Nov. Jus. 6, 9.*
6) *Prochiron de Basile, éd. Lingenthal, 28, 155 - 160 ; Vast, H., le Cardinal Bessarion, 272.*
7) *Mansi, XIII, Col. 419 - 422.*
8) *Mansi, XI, Col. 945 - 948, 965.*
9) *Léon VI, Nov. ed. Lingenthal, 16 - 17 ; Monier, H., Les Nov. de Léon le Sage, 173.*
10) *Monier, H., op. cit., 66.*

٧٩٠ في انتخاب اسقف اما ستريس ولم يعترف الا بمرشح الشعب والاكليروس (١) وكان نيقيفوروس فوقاس قد أصدر قانوناً قضى بوجوب موافقة الفسيلفس على ترشيح الاسقف فهب بوليفاكتوس البطريرك يحاول الغاء هذا القانون فاستغل ظروف يوحنا جيمسكي واكرهه على الالغاء (٢). وفي السنة ١٠٧١ ألغى السنودوس انتخاب اسقف برناسوس بعد ان ثبت تدخل الفسيلفس (٣) .

ولم يحصر القانون حق الترشيح بل أباحه لجميع الاكليريكيين على السواء (٤) . ولكن ظروف الاكليريكيين المقربين من البطريرك والمطارنة عاونتهم على الوصول الى الكرسي الاسقفي أكثر من غيرهم. وكاد الترشيح ينحصر بعد أوائل القرن الثامن برؤساء الاديار وكبار الرهبان . ثم قدمت السلطات الروحية شمامسة الكرسي البطريركي ومتخرجي المدرسة البطريركية واساتذتها على غيرهم فتميز رهط من الأساقفة بعلمهم وثقافتهم أمثال يوحنا مفروبوس اسقف افخايته وثيوفيلاكتوس اسقف اوخريدة وافستائيوس اسقف تسالونيكية. ولم يقتصر في الترشيح على الرهبان الا بعد القرن الرابع عشر (٥) .

واجبات الاساقفة وامتيازاتهم : وقضى القانون والعرف والتقليد على الاسقف بأن يكون نبيل النفس حر الخلال محمود الشمائل وقوراً محترماً وان يخضع لرئيسه متروبوليت الولاية وان يبقى في ابرشيته فلا يبرحها الا لضرورة وان يكرس وقته للوعظ والارشاد وألا يطمع في المال ويجمعه لنفسه . وكان مطلق السلطة في المسائل الاكليريكية (٦) معفى من معظم الضرائب غير خاضع لسلطة الوالدين (٧) لا يطلب للشهادة أمام المحاكم الا باذن الفسيلفس (٨) . وكان حر التصرف بأمواله الشخصية التي توفرت لديه قبل السيامة . أما دخله بعد

1) *Vie de Saint Georges d'Amastris, 15 - 20.*
2) *Dolger, Reg. 723, 726 ; Schlumberger, G., Epopée, III, 16 - 17.*
3) *Kougeas, Melanges Sp. Lambros, 574 - 579.*
4) *Nov. Jus., 6 (535).*
5) *Bréhier, L., Institutions, 511 - 512.*
6) *Epanagoge Basilii, VIII, 1 (77) ; Vogat. A., Basile I, 273.*
7) *Prochiron de Basile, éd. Lingenthal. XXVI, 78 (145).*
8) *Barhebraeus, III, 1.*

السيامة فانه اعتبر مالا كنسياً لا يجوز انفاقه بصورة شخصية (١) . وحرم على الاسقف تعاطي الأعمال المدنيـــة كجباية الضرائب وتصفية الثروات وقبول الوصاية (٢) . ولكنه توجب عليـــه الاشراف على اقتصاديات الاسقفية والمؤسسات الخيرية الخاضعة له (٣) .

الكهنة : وظل هؤلاء متزوجين كما جرت العادة من قبـــل وحرمت القوانين انفصالهم عن زوجاتهم . وأجيز لهم في أواخر القرن التاسع الزواج حتى نهاية السنة الثانيـــة بعد الرسامة . ثم جاء لاوون السادس فأبطل هذا التوسع (٤) .

واحتفظت كنيستنا بالشماسات قروناً طوالا وفرضت عليهن شروط بولس الرسول في رسالته الاولى الى تيموثاوس : « لا تكتتب في عداد الأرامل الا التي لها ستون سنة على الأقل ولم تتزوج الا مرة واحدة ويشهد لها بالأعمال الصالحة بأن تكون قد أحسنت تربية أولادها وأضافت الغرباء وغسلت أقدام القديسين وامدت المتضايقين وسعت في كل عمل صالح» (٥ : ٩ ــ ١٠) ولكنهن بقين غير اكليريكيات لا يحق لهن الوعظ او ممارسة الأعمال الكهنوتية واكتفين بمعاونة الكهنـــة فكن يرأسن تعميد النساء ويعلمن الموعوظات ويراقبن النساء المؤمنات في الغونايكيون *gunaikeion* (مد النساء) في اثناء القداس الالهي . وكن ايضاً يتفقدن المرضى والمصابين . وكان قانون يوستنيانوس قد قضى بعد قبولهن بهذه الدرجة قبل الخمسين وبوجوب محافظتهن على الآداب والوقار . فاذا ما أجحفن بالنذر فحدن عن السيرة الحسنة او تزوجن عوقبن بالموت (٥) . ثم لطّف هذا القانون في عهد باسيليوس الاول وقبلن شماسات في الأربعين من العمر (٦) . وما فتئن يعملن في حقـــل الرب حتى القرن الثالث عشر . وزالت الحاجة الى

1) *Prochiron de Basile, XXIV, 1 (133).*
2) *Epanagoge Basilii, IX, 1.*
3) *Ibid., IX., 9.*
4) *Nov. Léon VI, éd. Lingenthal, 3, 79; Monier, H., Nov. de Leon, 24.*
5) *Nov. Jus., 6 (535), 123 (546).*
6) *Vogt, A., Basil I, 279 - 280.*

تعميد النسوة واصبحن كلهن معمدات في الصغر فزال السبب الرئيسي لوجود الشماسات وانقطعت أخبارهن (١) .

وكانت القوانين المدنية والكنسية قد ميزت الكهنـــة بما يزيدهم وقاراً واحتراماً بالحيـــة واللباس الخصوصي وشارة الصليب على القلنسوة لكبرائهم في تسالونيكية وبصيانتهم وعدم الاعتداء عليهم وباعفائهم من بعض الضرائب ومن السخرة والخدمة العسكرية وبحصر النظر في دعاويهم امام محاكم الاساقفة . وكان قد أبيح لهم العمل لتأمين الرزق فمنعهم لاوون السادس من معاطاة المحاماة وغيرها من الاعمال المدنية وحرم عليهم العمل بالاجور كادارة الاملاك (٢) .

الرهبان : ولعب الرهبان دوراً هاماً في الكنيسة والدولـــة . ولم ينتموا باديء ذي بدء الى طغمة الاكليروس وانما اعتبروا علمانيين مربوطين بنذر وجب القيام به على اكمل وجه باشراف الاساقفة . ثم تدرج بعضهم في سلم الكهنوت وبقي معظمهم علمانيين فعرف الاكليريكيون منهم بالرهبان المقدسين *hieromoines* ثم تكاثر هؤلاء المقدسون فعظم شأنهم . وما فتئوا يتقدمون حتى احتكروا الكرسي الاسقفية .

وعرف الروم نوعين من الترهب : الشرقي والباسيلي . وتميـــز الترهب الشرقي بالتأمل والانفراد. فكان الراهب منفرداً منعزلاً *monos monomakos* يعيش في صومعة مقفلة *egkleistoi* او على عمود *stulites* او على شجرة *dendrites* وجاء القديس باخوميوس في القرن الرابع فجمع هؤلاء الزهد حول دير معين يعيشون فيه مجتمعين . وتكتل النساك في فلسطين فعاشوا في صوامع قريبة واشتركوا في مائدة واحدة وصلاة واحدة مرة في الاسبوع (٣) . اما الطريقة الباسيلية فانهـــا تميزت بالعيشة المشتركة والعمل المشترك والطاعة . ووافقت هذه الطريقة ظروف المناطق اليونانية في آسية واوروبـــة فانتشرت انتشاراً واسعاً وقامت الصوامع

1) *Balsamon, P. G., Vol. 137, Col. 442, Vol. 138, Col. 987 ; Blastares, P. G., Vol. 119, Col. 1272.*
2) *Nov. Leon, 86 ; Spulber, C., Etudes de Droit Byzantin, Nov. 86, 288.*
3) *Besse, dom, Les Diverses Sortes de Moines en Orient avant le Concile de Chalcédoine, Rev. Hist. Relig., vol. 40, 159 ff. ; Jerphanion, G., La Voix des Monumenls, II, 111 ff.*

والأديار في كل مكان . وأشهرها أديرة جبـل القديس اوكسنديوس وجبل اوليمبوس في بيثينية وجبل آثوس في شبه جزيرة خلقيذيـة وجبل الميتيورة في تسالية .

وحـدد القديس باسيليوس ساعات الصلاة والدرس والعمل والاكل والنوم وعين نوع اللباس وتفاصيله . واكتفى بعـدد محدود من الرهبان في الدير الواحد ونهى عن الكثرة . وصعب الخروج من الدير والدخول اليـه واوجب الطاعة الكاملة للرئيس .

وأقبل الناس على الترهب جماعات واندفعوا في سبيل الرهبنة وانفردوا في تأسيس الاديار فاحدثوا بلبلة وتشويشاً فاتخذ المجمع المسكوني الخلقيدوني (٤٥١) قرارات منعت تأسيس الاديار قبل موافقة الاسقف صاحب العلاقـة وأوجبت اقامة الرهبان في الاديار وعدم خروجهم منهـا بدون اذن الاسقف كما اوضحت ان واجب الرهبان الاول هو الصوم والصلاة في الاديرة . وحرمت على العبد تقديم النذر بدون موافقة سيده كما منعت الزواج بعد تقديم النذر .

وجاء يوستنيانوس (٥٢٧ ــ ٥٦٥) فاشترع قوانين اعترف بها بقدسية الحياة الرهبانيـة ثم اتخذ من مبادىء القديس باسيليوس الكبير وقرارات الجامع اساساً للتنظيم فمنع انشاء الاديرة في اية ابرشية قبل موافقة اسقف هـذه الابرشية وبركته (١) . وأوجب احاطة الدير بسور ومراقبة بابه (٢) . وحرم بعـد ذلك انطلاق الرهبـان « التائهين » الذين كانوا ينتقلون من مكان الى آخر مستعطين خبزهم اليومي . وأبعد اديرة الراهبات عن اديرة الرهبان وفرق بين الاسكيتيرية *asketeria* اديرة التائبات واديرة الرهبان (٣) . وجعل على كل دير رئيساً بلقب ايغومينس *hegoumenos* ومعنـاه المدير او ارشمندريت *archimandrites* ومعناه حارس الحظيرة (٤) . ومنح الراهبات حق انتخاب هـذا الرئيس واوجب خضوعهم للتفتيش . فكان على البطريرك ان يوفد اكسرخوساً لهذه الغاية مسلحاً بالتعليمات البطريركية الـ *Entalma* (٥) .

1) *N. J., 67 (538).*
2) *N. J. 5 (535).*
3) *C. J., I, 3, 43 (529).*
4) *Dict. Arch. Chrét., I, Col. 2739.*
5) *N. J. 133 (539).*

ولم يتعرض يوستنيانوس لنظم الرهبان الداخلية . فكان على المؤسس ان يذكر أهمها في تيبيكيون *Typikon* التأسيس . وكان للرئيس والاسقف حق الاضافة والتعديل . وواظب الرهبان منذ عهد القديس باسيليوس الكبير على صلوات الساعات السبع بما فيها من صلوات الميسونوكتيكون *Mesonuktikon* وصلوات الاورثروس *Orthros* . وكان من حسن حظ كنيستنا ان أوجب القديس سابا بالتيبيكون تقدم اللغة اليونانية على السريانية والعربية فأكره الرهبان السريان والعرب ان يشتركوا في ليتورجية الكنيسة الكبرى بعد اقامـة الصلاة بلغتهم في الكنائس الصغرى . فظلت كنيستنا بفضل هذا التدبير على صلة وثيقة بكنائس اليونان واللاتين وتسنى لها متابعة الفكر الكنسي الجامعي والاشتراك فيه. وقضى هذا التيبيكون ايضاً بأن يكون الايغومينس يونانياً او في الارجح متهلناً يجيد اللغـة اليونانية (١) .

ودافع الرهبان دفاع الابطال عن الايقونات فذاقوا الامرين في عهـد قسطنطين الخامس (٧٤٠ ــ ٧٧٥) . ثم انتصروا فعـادوا الى سابق عزهم وسطوتهم . فحاول البطريرك القسطنطيني نيقيفوروس الاول (٨٠٦ ــ ٨١٥) ان يحـد من غلوائهم . ثم جاء الفسيلفس نيقيفوروس فوقاس (٩٦٣ ــ ٩٦٩) فمنع انشاء الاديرة الجديدة وتوسيع القديمـة . ولكن الفسيلفس باسيليوس الثاني (٩٧٦ ــ ١٠٢٥) ألغى هذه الاحكام فعاد الرهبان الى سابق عهدهم .

القديس ثيودوروس الاستودي : (٧٥٩ ــ ٨٢٦) وادى هذا التضييق الشديد على الرهبان الى تفكير جدي في الرهبنـة والترهب . وقام في الجبل المقدس نفسه في جبـل اوليمبوس من دعا الى الاصلاح والتجـدد . فظهر بادىء ذي بـدء القديس يوانيكيوس الكبير الذي اشتهر بالفضيلة والتقوى وأسس في اوليمبوس ثلاثة اديار كانت حياته المثلية فيهـا اكبر رادع عن الشر واشد دافع للخير . وهو الذي علمنـا ان نقول : « الآب رجائي والابن ملجائي

1) *Dimitrijevskij (Travavx de l'Aacademie de Kiev, 1890 ; Kurtz, Byz. Zeit., 1894, 168 - 170 ; Laures Palestiniennes, Dict. Arch. Chrét., IX, 1966-1976.*

والروح القدس وقائي ايها الثالوث القدوس المجد لك » (١) .

وظهر ايضاً ثيودوروس المعترف الاستودي . أبصر النور في القسطنطينية في السنة ٧٥٩ ونال حظاً وافراً من التربية الصالحة والعلوم الفلسفية . ثم عافت نفسه الدنيا وما فيها في الثانية والعشرين من عمره فلجأ وجماعة من رفاقه الى عقار له في السكوذيون في جبل اوليمبوس . ووضع نفسه ورفاقه تحت تصرف خاله القديس افلاطون الذي كان قد سبقه الى العزلة والتأمل في دير السكوذيون . ونذر ثيودوروس نفسه فبهر اقرانه بالتقوى والصلاح والمحافظة على التقاليد الرهباني . فرقاه البطريرك تراسيوس في السنة ٧٨٤ الى رتبة الكهنوت . وألمّ بخاله مرض عضال فأوصى بانتخابه رئيساً على دير السكوذيون فأصبح هيغوميناً في السنة ٧٩٤ (٢) .

وقام ثيودوروس باعباء الرئاسة بجد ونشاط وغيرة وتفان . فقدس نفسه قبل تقديس غيره واحترم القوانين ليحترمها غيره . فسطعت الحياة الرهبانية في السكوذيون بكل سناها . وكان خطير النفس رفيع الاهواء فصبا الى اصلاح كامل يشمل الحياة الاجتماعية بأسرها . فطالب بتطبيق المبادىء المسيحية في جميع النواحي وقال باستقلال الكنيسة وحريتها في انتخاب اساقفتها وأوجب مكافحة السيمونية وخلع من رشا للوصول الى الكرسي ومحاربة من لم يحترم الايقونات ومن غالط في العقيدة وأنب كل تهتك دنس (٣) .

واتخذ ثيودوروس موقفاً حازماً من الفسيلفس قسطنطين السادس لتشبثه في تطليق امرأته الشرعية ثيوذورة فنفي الى تسالونيكية هو ورهبانه في السنة ٧٩٥ ثم اعادته ايرنية في السنة ٧٩٧ . ثم اقلق المسلمون البلاد وظهرت طلائع جيوشهم في بيثينية فرحل ثيودوروس وجماعته في السنة ٧٩٩ واستقروا في دير

1) *Van Den Gheyn, Acta Sanct. Boll., Nov., 325 - 371.*
2) *Vie de Saint Théodore, P. G. Vol. 99, Col. 236 - 241, 248 - 249 ; Dvornik, F., Legendes, 115 ; Marin, Saint Théodore, 24 - 25.*
3) *Brehier, L., Institutions, 541.*

الستوذيوس *Stoudios* القديم في القسطنطينية (١) . فأم الرهبان هذا الدير من كل حدب وصوب حتى فاق عددهم الالف (٢) . ولم ينعم ثيوذوروس براحة البال طويلا . فان لاوون الخامس الارمني (٨١٣ — ٨٢٠) اثار على الكنيسة والرهبان حرباً اليمة سبقت الاشارة اليها . واضطهد هذا الفسيلفس ثيوذوروس ورهبانه بأنواع منوعة من الاهانة والسجن والنفي . ومات لاوون فقضى ثيوذوروس البقية الباقية من حياته في ديره مطمئناً متفرغاً للارشاد والاصلاح . ورقد بيسوع شيخاً طاعناً سنة ٨٢٦ .

وقسم ثيوذوروس العمل الرهباني الى دوائر معينة وأقام على رأس كل دائرة قيماً جعله مسؤولاً عن عمله فيها . وحدد ثيوذوروس الواجبات في هذه الدوائر المختلفة ونظمها نظماً ليسهل على الرهبان حفظها . ثم اشترع قانون عقوبات لمن خالف هذه القوانين . ودعا الرهبان الى اجتماع عام ثلاث مرات في الاسبوع ليعظهم في التقوى والطاعة وضبط النفس والاندفاع في سبيل العمل المشترك . ودونت هذه الاصلاحات في مصنفاته ولا سيما الكاتيكيسيس *Katekesis* الصغير بعظاته المئة والاربع والثلاثين (٣) والكاتيكيسيس الكبير بأقسامه الثلاثة وعظاته السبع والسبعين (٤) . وقد خلّد شخصيته في رسالته الى تلميذه نقولاووس فلتراجع قبل غيرها (٥) . واما التيبيكون الذي يعزى الى القديس ثيودوروس فانه في الحقيقة تطبيق معدل الانظمة الاستودية في اديرة مختلفة (٦).

وتتجلى مبادىء ثيوذوروس في تيبيكون دير الافرجيتيس *Evergestis* الذي انشيء في القسطنطينية في اوائل القرن الحادي عشر . فقد حدد هذا التيبيكون كيفية الترتيل والتكريس والتطهير وبين ساعات الصلات في الليل

1) *Delahaye, H., Stoudion - Studios, Analecta Bollandiana, 1934, 64 ; Janin, Les Eglises du Précurseur à Const., Echos d'Or., 1938, 319.*
2) *Delahaye, H., Byz. Monasticism, Byzantium, 148 - 149.*
3) *Théodore le Studite, P. G., Vol. 99, Col. 509 - 688 ; Van Der Vost, La Pétite Catéchèse de Saint Théodore, Anal. Boll., 1914, 31.*
4) *Gardner, Alice, Theodore of Studium, His Life and Times, 78 ff ; Cozza Luzi, Nava Patrum Bibliotheca, IX, 1 - 217.*
5) *Gardner, A., op. cit., 71 - 74.*
6) *P. G., Vol. 99, Col. 1703 - 1720.*

والنهار واوجب اقامة القداس الالهي يومياً واجاز المناولة ثلاث مرات في الاسبوع للرهبان المقدمين ومرة واحدة في الاسبوع لسائر الرهبان واوجب الاعتراف قبل المناولة وحصر حق استماع الاعتراف برئيس الدير وحده وقضى عليه بوجوب الاصغاء مرتين في النهار : في الصباح وبعد العشاء . وسلطة الرئيس بموجب هذا التيبيكون واسعة مطلقة وعلى الرهبان ان يحترموا هذا الرئيس ويطيعوه طاعة تامة . وهو يعين رؤساء الدوائر دونه . واهم هؤلاء الايكونوموس *Oeconomos* وهو القهرمان ويمين الرئيس وقد يخلفه في الرئاسة . وهنالك السكيفوفيلاكس *Skeuophylax* وهو امين الكنيسة والذوخياريوس *Dochiarios* وهو امين الصندوق وضابط اللوازم والابيستيمونارخوس *Epistemonarchos* وهو الناظر المحافظ على النظام والترابيزاريوس *Trapezarios* وهو مدير المائدة ورئيس الطهاة والخبازين وعلى الرهبنة ان تحتفل بعيد تأسيسها وبذكرى المحسنين اليها . وعليها ايضاً ان تأوي المسافرين والمرضى فتنزلهم عندها وتعنى بهم (١) .

* * *

1) *Delahaye, H., Byz. Monasticism, Byzantium, 150 - 152 ; Bréhier, L., Institutions, 542 - 545.*

الفصل الثامن والثلاثون

الفاطميّون والكنيسة

٩٦٩ - ١٠٥٤

الشيعة : وكانت شيعة عليّ لا تزال تتطلب الخلافة له ولنسله وترى انهم أحق بها . وكان الخلفاء العباسيون يحذرونهم ويراقبونهم وينكلون بهم فلا يرجع الشيعة عن مطالبهم ولا يُغيّر الخلفاء سياستهم . وكان العباسيون اقدر على تتبع الشيعة من الامويين لانهم كانوا اعرف بالعلويين واساليبهم فقد خالطوهم وحالفوهم للعمل ضد الامويين . وكان كلما قام خليفة عباسي قام داعٍ علوي يدعو الى نفسه ثم يقاتل فيُقتَل . وقد يكشف امره قبل الخروج فيُحبس او يُسَمّ . ولم يجد عطف المأمون على الشيعة ولم يدم نفعه فالمتوكل تحامل عليهم فأعاد الاضطهاد سنة ٨٥٠ وهدم قبر علي في النجف وحرث قبر الحسين في كربلاء .

وأدى هذا الاضطهاد المستمر الى التكتم فاتخذت الشيعة مبدأ التقية بحيث أخفت ميولها اتقاء للضرر . وحصرت الشيعة الخلافة في علي وابنه الحسن ثم الحسين (٦٨٠) ثم علي زين العابدين (٧١٢) فمحمد الباقر (٧٣١) فجعفر الصادق (٧٦٥) فموسى الكاظم (٧٩٩) فعلي الرضا (٨١٨) فمحمد الجواد (٨٣٥) فعلي الهادي (٨٦٨) فالحسن العسكري (٨٧٤) فمحمد المنتظر . وهو في حالة غيبة موقتة حي لا يموت . وقد تغيّب في كهف في جامع سامراً سنة ٨٧٨ . هو المهدي الذي سيظهر فيحكم العالم قاطبة ويكون ظهوره فاتحة عصر يسبق نهاية العالم . وهو الامام المدبر « قائم الزمان » (١) .

١) اصل الشيعة واصولها للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء (صيدا ١٩٣٦) والعقيدة والشريعة في الاسلام لاغناطيوس غولدزير تعريب محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلي حسن عبد القادر (القاهرة ١٩٤٦) وتاريخ العرب للدكتور فيليب حتي .

الاسماعيلية : وكان جعفر الصادق قد عين ابنه اسماعيل خلفاً لـه ولكنه عاد فعيّن ابنه الثاني موسى الكاظم . ووافقت اكثرية الشيعة على هذا التغيير ولكن بعضهم ظلوا تابعين لاسماعيل . فلـما مات في السنة ٧٦٠ أصبح عندهم الامام المهدي المستور. ولما كان اسماعيل هو الامام السابع عُرف هؤلاء بالسبعية ايضاً .

ثم راجت النظريات الفلسفية اليونانية واشتد الاحتكاك بالمانوية والمجوسية فأخذ الاسماعيليون عن فيثاغوروس وافلوطين وغيرهما واعتبروا العدد سبعة مقدساً وجعلوا التجليات سبعة : الله والعقل والنفس والمادة الاصليـة والفضاء والزمن وعالم الارضين والبشر . وقالوا بسبعة انبياء مشترعين « ناطقين » : آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ثم محمد التام ابن اسماعيل . وقالوا ايضاً بسبعة ابناء صامتين بـين كل نبيين ناطقين . واول هؤلاء الاساس ومنهم اسماعيل وهارون وبطرس وعليّ . وجاء بعـد هؤلاء زعماء الدعاية واحدهم « حجة » فالمبشرون « الدعاة » . وقالوا ايضاً بتأويل القرآن فرأوا المعنى الحقيقي مستوراً بالمعنى الظاهري . ومن تعاليمهم تناسخ الارواح وحلول الالهيـة في اسماعيل وانتظار «رجعته» مهدياً . وجعلوا المريدين المتدرجين سبعة طبقات ايضاً ناسجين على منوال اليونان والمانويين .

واشهر رجالهم في القرن التاسع عبدالله ابن ميمون القداح وهو الذي اكمل نظامهم الديني السياسي . جعل البصرة اولا مقره ثم انتقل الى سلمية في شرق حماة . ومنها أنفذ الدعاة الى جميع انحاء العالم الاسلامي ليبثوا روح الشك في العقائد الرائجة ويوجهوا الانتباه الى المهدي المنتظر .

القرامطة والالفة : وقبل وفاة عبدالله ابن ميمون في السنة ٨٧٤ للميلاد لمع بـين اتباعه حمدان قَرْمَط . وكان من غلاة الدعاة . فابتنى لنفسه مقراً « دار الهجرة » في جوار الكوفة في السنة ٨٩٠ . واستغل العداوة المزمنة بـين الفلاحين وابناء البادية . وجعل لمنظمته ارزاقاً جاريـة « مشتركة » مستمدة من تبرعات المريدين . وأباح حمـدان الاشتراكية « الالفـة » في الاموال . وشدد على المساواة وجعل للعمال والصناع مراسيم تقربهم من نقابـات العصر

الحديث . وفي الرسالة الثامنة من رسائل اخوان الصفا وصف لهـذه النقابات الاسلامية القديمة فليراجع في محله . ويرى العلامة المستشرق الافرنسي ماسينيون صلة بين حركة حمدان قرمط وبين الماسونيـة وغيرها من الجمعيات السرية التي بدأت تظهر في الغرب بعد ذلك بقليل .

وساهم القرامطة في ثورة الزنج في البصرة (٨٦٨ — ٨٨٣) واسسوا دولة لهم في الاحساء (٨٩٩) واحتلوا مكة (٩٣٠) وحملوا الحجر الاسود منهـا الى هجر . ولجأ بعضهم الى سلمية مقر اخوانهم الاسماعيليين في شمال سورية وشنوا منها الغارات على من جاورهم من اهل هـذه البلاد . وبلغوا بفتنهم وقلاقلهم خراسان واليمن (١) .

الفاطميون : ولمع بين دعـاة الاسماعيليين في اواخر القرن التاسع رجل من اهل صنعاء اليمن اسمه ابو عبدالله الحسين . فرحل الى شمال افريقية وبث دعوته في صفوف البربر ولا سيما في مرابض بني كتامة . وكانت آنئذٍ خاضعـة لدولة الاغالبة . ولاقي ابو عبدالله نجاحاً فغادر سعيد ابن حسين زعيم الاسماعيليين سلمية متخفياً الى شمال افريقية . وقال سعيد انه من ذرية فاطمة من نسل الحسين واسماعيل (٢) وسجن سعيد في سجلماسة بأمر زيادة الاغلبي (٩٠٣ — ٩٠٩) فأنقذه ابو عبدالله الحسين بثورة قضت على دولة الاغالبة . ونودي بسعيد اميراً فعرف بالامام عبيد الله المهدي حفيد فاطمة من نسل الحسين واسماعيل .

وحكم المهدي (٩٠٩ — ٩٣٤) من الرقادة وقتل ابا عبد الله الحسين وبسط سلطانه حتى حدود مصر . ثم احتل الاسكندريـة في السنة ٩١٤ . وانشأ لنفسه عاصمة جديدة على الساحل التونسي الى الجنوب الشرقي من القيروان وأطلق عليها اسمه فعرُفت بالمهدية . ثم خلفه القائم (٩٣٤ — ٩٤٥) فالمنصور (٩٤٥ — ٩٥٢) فالمعز (٩٥٢ — ٩٧٥) . وفي عهد هذا الاخير عظم شأن الاسطول الفاطمي فغزا سواحل اسبانية في السنة ٩٥٥ . وبعد ذلك بثلاث سنوات تقدم الجيش غرباً حتى بلـغ المحيط الاطلسي . وفي السنة ٩٦٩ استولى الفاطميون على مصر وقضوا على

1) *Karmatians, Encyc. of Islam ; de Goeje, Mémoire sur les Carmathes ; Goldziher, I., Streitschrift gegen die Batinijja Sekte.*

٢) تاريخ العرب للدكتور فيليب حتي ص ٧٣١ — ٧٣٢

سلطة الاخشيديين . وكان بطل هذه الفتوحات جوهراً الصقلي الرومي . وكان هذا نصرانياً ولد في صقلية وجاء منها الى القيروان رقيقاً .

ولم يكتف جوهر بفتح مصر بل عمل على مد نفوذ الفاطميين الى بلاد الشام فأنفذ قائده جعفر ابن فلاح لمقاتلة الاخشيديين في فلسطين وسورية . فالتقى الخصمان في الرملة في ايلول السنة ٩٦٩ . وكان الحسن الاخشيدي على رأس جيوش المقاومة فوقع اسيراً . وتتابعت انتصارات الفاطميين ففتحوا طبرية . وضرب جعفر عقيل وفزارة ومرة وغيرها من قبائل البدو بعضها ببعض وقصد دمشق فثار اهلها على الاخشيديين فانهزموا عنها وذلك بعد شهر واحد من معركة الرملة . فاتخذ الفاطميون دمشق قاعدة لهم وانطلقوا شمالا وغرباً فاستولوا على الساحل حتى طرابلس ولكنهم انهزموا امام الروم في انطاكية . واقيمت الخطبة للمعز لدين الله الفاطمي في دمشق في اول جمعة من شهر محرم سنة ٣٥٩ للهجرة اي في التاسع عشر من تشرين الثاني سنة ٩٦٩ وحذف اسم الخليفة العباسي المطيع .

وتولى القرامطة ، بعد خروج عبيدالله المهدي من سلمية ، زعامة جميع طوائف الاسماعيلية فيها وحواليها . فلما اصبح عبيدالله امام الفاطميين تدخل في شؤون سلمية فأيده بعض القرامطة فيها وقاومه غيرهم . ورأى الموالون وعلى رأسهم ابناء ابي طاهر ان تنضوي طائفتهم تحت لواء الفاطميين . ورأى المعسكر الثاني وفي طليعتهم احمد ابن ابي سعيد واخوته ان يوجهوا السياسة توجيهاً يعود بالنفع على القرامطة انفسهم . وتوفي صديق الفاطميين في السنة ٩٤٤ ولم يترك من الابناء من يصلح للحكم والزعامة فتولى الاستقلاليون دفة السياسة وما فتئوا حتى وصول الفاطميين الى سورية .

وتوفي المعز في اواخر السنة ٩٧٥ وخلفه ابنه « العزيز بالله » ابو منصور نزار . ولبث في الخلافة احدى وعشرين سنة . ومال الى اصطناع الموالي ولم يعتمد على المغاربة الا قليلا . وانتقى مواليه من الاتراك والصقالبة فولى بنجوتكين التركي القيادة وولاية دمشق . وولى وفيا الصقلي على عكة « وبشارة » الاخشيدي على طبرية وجهاتها . ومن هنا القول « بلاد بشارة » حتى يومنا هذا.

فأدى هذا الانتقاء الى كثير من الحسد والنزاع بين الاتراك والمغاربة .

العزيز والنصارى : (٩٧٥ ـ ٩٩٦) ولم يحصر العزيز الحكم بالمسلمين دون سواهم فولى عيسى ابن نسطوريوس النصراني الوزارة وجعل ابا الفتح منصور النصراني طبيبه وأنزله منزلة سامية في الدولة (١) . وكثر عدد الذميين من النصارى واليهود في الدواوين ومناصب الحكم واستأثروا بشيء كثير من السلطة والنفوذ وجاء لابي صالح الارمني ان الخلفاء الفاطميين كانوا يشجعون اقامة الكنائس والاديار بل ربما تولوا اقامتها بأنفسهم (٢) .

وكانت زوجة العزيز وام ست الملك جارية رومية ارثوذكسية . وكان لها في ايام زوجها نفوذ عظيم في الدولة . كانت ابنتها ست الملك حازمة عاقلة بصيرة في الامور فأحبها العزيز وأصغى اليها واستمع الى نصحها فكان لها اثر ظاهر في توجيه سياسته نحو النصارى وكان لست الملك خالان رفعهما العزيز بتدخله في شؤون الكنيسة الى الذروة فجعل احدهما اورسطيوس بطريركاً على اوروشليم (٩٨٤ ـ ١٠٠٥) والآخر ارسانيوس متروبوليتاً على القاهرة ثم بطريركاً على الاسكندرية (٣) .

السياسة الفاطمية الدينية : وقامت دولة الفاطميين على الدعوة الشيعية فكان خلفاؤها ائمة احفاداً لعلي وفاطمة . وتحدرت امامتهم من امامة اسماعيل ابن جعفر الصادق . وحرصوا كل الحرص على هذه الصفة . ولما استقروا بمصر والشام اعتمدوا الدعاية السرية لتأييد دعوتهم لانهم لم يجدوا في هذين القطرين ما وجدوه في المغرب مهداً خصباً لدعوتهم .

واتخذت دعوتهم المذهبية صبغة رسمية فانتظمت في القصر نفسه وفي الجامع الازهر . وتولى بثها بنو النعمان بقراءة علوم آل البيت والتفقه فيها .

---

١) مختصر الدول لابن العبري ص ٣١٦

٢) تاريخ الاديار والكنائس ٣٩ و٤١ نقلا عن كتاب الحاكم بأمر الله لعبدالله عنان ص ٣٧

٣) تاريخ يحيى ابن سعيد الانطاكي ص ١٦٤ و١٦٥ و١٨٥ و٢٩٨ وتاريخ المكين ابن العميد (ليدن ١٦٢٥) ص ٢٤٧ والخطط للمقريزي ج ٤ ص ٣٩٨

Gay, J., Italie Méridionale, 362.

وكان عظماء الدولة يشاركونهم في بعض الاحيان فيقرأون هـذه العلوم ويشرحونها . وكانت هنالك دعاية اخرى تحاط بالتحفظ والتكتم ويشرف عليها زعيم كبير يدعى داعي الدعاة. وكانت هذه الدعوة تجري في تسع مراتب يعرضها الدعاة بالتعاقب وفقاً لاستعداد المريد واهليته فلا يصل الى درجاتها العليا الا من كان موضع الثقة . فالدين في المرتبـة الاولى امر مكتوم وانصراف الناس عن الائمة هو أصل الشر والخلاف في الاسلام وليس دين محمد ما تعرفه الكافة وانما هو سر الله المكتوم لا يطيق حمله الا ملك مُقرّب او نبي مرُسل او عبد مؤمن اصطفاه الله . واذا آنس الداعي قبولا انتقل بالمريد الى المرتبة الثانية فأكد ان الله لم يرض في اقامة حقه الا ان يؤخذ عن ائمـة معينين . ويقول الداعي في المرتبة الثالثة ان هؤلاء الائمة سبعة : علي والحسن والحسين وزين العابدين ومحمد وجعفر واسماعيل وهو القائم صاحب الزمان . وابنه محمد صاحب العلم المستور ودعاته هم الوارثون لعلمه. وكان يقال في المرتبة الرابعة ان الانبياء الناطقين بالامور الناسخين للشرائع سبعة ايضاً وانه لا بد لكل منهم من صاحب يأخذ عنه دعوته ويحفظها على امته . ويكون لهذا ظهير في حياته يخلفه بعد وفاته. ويسير كل مستخلف على هذا المنوال الى ان يأتي منهم سبعة . ويقال لهؤلاء « السبعة الصامتون » . فاذا انقضى هؤلاء السبعة يبدأ دور ثان من الائمـة يفتتحه نبي ناطق ينسخ شريعة من مضى . واول النطقاء آدم وظهيره او سوسه شيث وثاني النطقاء نوح وظهيره سام وثالثهم ابراهيم الخليل وظهيره ابنـه اسماعيل ورابعهم موسى وظهيره هارون وخامسهم عيسى وظهيره شمعون الصفا وسادسهم محمد وظهيره علي وهو اول السبعـة الصمت . وجاء بعده ستة صمتوا على الشريعة الاسلامية . وسابع النطقاء هو قائم الزمان محمد ابن اسماعيل ابن جعفر . وكان يلقى على المريد في المرتبة الخامسة انه لا بد مع كل امام قائم من حجج اثني عشر متفرقين في الارض . ويدعو الداعي في المرتبـة السادسة الى ان الشرائع رموز لها معان مستترة تختلف عن نصوصها الظاهرة وان منطق العقل هو المعول عليه في هذه الامور فيتعرف المريد الى افلاطون وارسطو وفيثاغوروس وغيرهم . وجاء في المرتبة السابعة ان صاحب الشريعـة لا يستغني من نفسه ولا بـد له من صاحب يعبر عنه ليكون احدهما الاصل والآخر يصدر

عنه . وجاء في الثامنة ان مدبر الوجود والصادر عنه انمـا هو تقدم السابق على اللاحق تقدم العلة على المعلول وان الاعيان كلها ناشئة وكائنة عن الصدر الثاني . فالسابق لا اسم له ولا صفة ولا يعبر عنه ولا يحدد فلا يقال هو موجود ولا معدوم ولا عالم ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز . والتالي يلحق بمنزلة السابق . ومعجزات الانبياء تكون تارة رموزاً يعقلها العالمون وتارة تكون بافصاح يعرفه كل الناس . والقرآن والقيامة والثواب والعقاب معناها غير ما يفهمه الكافة وهي حدوث ادوار تقع عند انقضاء ادوار من ادوار الكواكب وعوالم اجتماعاتها. وفي الدعوة التاسعة الاخيرة كان المدعو ينتقل الى الفلسفة وما وراء الطبيعة فيعلم ان مـا ذكر من الحدوث والاصول انما هي رموز الى معاني المبادىء وتقلب الجواهر وان الوحي انما هو صفاء النفس ويعبر عنه بكلام الله وانه ليس على العارف المستنير ان يعمل به وان الانبياء اصحاب الشرائع انمـا وجدوا لسياسة العامة وان الفلاسفة انبياء الخاصة (١) .

الحاكم بامره : (٩٩٦ ــ ١٠٢١) « وُجِدَ » في الرابع عشر من آب سنة ٩٨٥ وتولى الخلافة بعد العزيز وهو لا يزال في الحاديـة عشرة من عمره . وطوى مرحلة الحداثة في الخامسة عشرة . وما ان بلغ اشده حتى اصبح « مبسوط الجسم مهيب الطلعة له عينان كبيرتان سوداوان تمازجهما زرقة ونظرات حادة مروعة كنظرات الاسد لا يستطيع الانسان صبراً عليهـا وله صوت قوي مرعب يحمل الروع الى سامعيه » . (٢) وكان منذ حداثته يؤثر العمل المضني على مجال اللهو واللعب . وظل طوال حياته عفيفاً زاهداً « لم يمد يده قط الى الاخذ من مال احد بل كان له جود عظيم وعطايا جزيلة » (٣) . وكان اذا أمر باحد من الوجهاء الاغنياء وهب تركته او ضمها الى صندوق الدولة وكان زاهـداً متقشفاً يحتقر الرسوم والالقاب الفخمة يرتدي ثياباً بسيطة من الصوف الابيض ويتعمم بفوطة

١) الخطط للمقرزي جـ ٢ ص ٢٢٧ ــ ٢٣٣ وقد نقلها الى اللغات الاوروبية عدد من المستشرقين بينهم دي ساسي في مقدمة كتابه الشهير عن الدروز .

٢) اخبار الدول المنقطعة للعزيز جمال الدين نقلا عن كتاب الحاكم لعبد الله عنان ص ٥١ . وتاريخ يحيي ابن سعيد الانطاكي ص ٢٢١

٣) المرجع نفسه ٢٠٦

ويحتذي حذاء ساذجاً ويركب فرساً بلا زينة او حماراً ولا يصحبه من الحشم سوى بضعة من الركابيــة . ولم ينقطع عن الاتصال بالشعب وقضاء ما استطاع من حوائجهم وربما حمل اليهم بنفسه السجلات والمراسيم المطلوبة (١) .

وجاء في كتاب عمــدة العارفين للشيخ محمد شرف الدين الاشرفاني « ان سيرة الحاكم كانت من أعجب السير واغربها يأمر بشيء ثم ينهي عنه وكانت اموره متضادة لان كان عنده شجاعة واقدام وجــبن واحجام يبخل بالقليل ويعطي الجزيل وذلك لحكمة في ذاته » وعني بالدعاية للمذهب فحارب الفسق والدعارة والخمر والخمارين. وحرّم دخول الحمام بلا مئزر وحرّم على النساء التزين والتبرّج وكشف الوجه في الطريق وعاقب كثيرين (٢) . ولم يرَ الحاكم في النصارى مادة للمذهب الذي دعا اليه فشجعهم على النزوح الى اراضي الروم في انطاكية وشمال سورية . وهدمت كنيسة القيامة في عهده في ايلول السنة ١٠٠٩ . وهدمت الكنيسة المريمية في دمشق (٣)

حمزة ابن علي : وظهر في القاهرة في الثلاثين من ايار سنة ١٠١٧ حمزة ابن علي ابن احمد الزوزني . وكان فارسياً أبصر النور في زوزن ثم هاجر الى مصر وانضاف الى المقامات الربانية . « واشتهر بخدمة الحاكم قبل التجريد وبعــد التجريد فأضيفت النذر ودعاتهم اليه . واستمر في مصر حتى حلت الثامنة واربع مئة فكشف التوحيد في اول يوم من المحرم (٣٠ ايار سنة ١٠١٧) ودعا الخلائــق الى التوحيد . وكانت دعوته تخييراً لا تكليفاً » (٤) .

فصدر سجل بابطال السجلات التي صدرت من قبــل في حق النصارى واليهود ورفع الفروض التي ضربت عليهم واطلق الحرية لهم في اعادة الكنائس وعودة من أسلم منهم الى النصرانية . وقد حفظ لنا يحيي ابن سعيد الانطاكي نص سجلين بهذا المعنى احدهما موجه الى رئيس دير طور سينا الانبا سليمان والآخر

١) الخطط لمقريزي جـ ٤ ص ٧٢ — ٧٣ وتاريخ يحيى الانطاكي ص ٢٠٥ و٢١٧ — ٢١٨
٢) يحي ابن سعيد الانطاكي ص ٢١٨ و٢١٩ و١٨٦
٣) المرجع نفسه ١٩٥ و١٩٦
٤) عمدة العارفين ص ٤٤ — ٤٧

الى نيقيفوروس بطريرك اوروشليم وخلف ثيوفيلوس . وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر امير المؤمنين بكتابة هــذا المنشور لينقيفور بطريرك بيت المقدس بما رآه من اجابة رغبته واطلاق بغيته من صيانته وحياطته والذي عنه وعن اهل الذمة من نحلته وتمكينهم من صلواتهم على رسومهم في افتراقهم واجتماعهم وترك الاعتراض لمن يصلي منهم في عرصة الكنيسة المعروفة بالقيامة وخربتها على اختلاف رأيه ومذهبه ومفارقته في دينه وعقيدتــه واقامة ما يلزمه في حدود ديانته وحفظ المواضع الباقيــة في قبضته داخل البلد وخارجه والديارات وبيت لحم ولد وما يرسم هــذه المواضع من الدور المنضوية اليها والمنع من نقض المصليات بها والاعتراض لاحباسها المطلقة لها ومن هــدم جداراتها وسائر ابنيتها احساناً من امير المؤمنين اليهم ودفع الاذى عنهم ومن كافتهم وحفظاً لذمة الاسلام فيهم . فمن قرأه او قرىء من الاولياء والولاة ومتولي هــذه النواحي وكافة الجهات وسائر المتصرفين في الاعمال والمستخدمين على سائر منازلهم وتفاوت درجاتهم واستمرار خدمتهم اوتعاقب نظرهم في هذا الوقت وما يليه فليعلم ذلك من امير المؤمنين ورسمه ويعمل عليه وبحسبه وليحذر من تعدى حده ومخالفته حكمه ويتجنب مباينة نصه ومجانبة شرحه . وليقر هذا المنشور في يده حجة لمودعه يستعين بها على نيل طلبته وادراك بغيته ان شاء الله تعالى (١) .

الدروز في ابرشيات انطاكية : وانتشرت هــذه الدعوة في الاوساط الاسلامية في ابرشيات انطاكية ولاسيا في ربوع لبنان الشرقي فالغربي ثم اضطهد اتباعها في كل مكان فنزحوا الى سورية ولبنان وآثروا السكنى مــع المسيحيين وتعاونوا معهم في المحافظة على الراحة والامن والطمأنينة وعلى حريــة المعتقد والعبادة .

اسم الكنيسة ولقبها : وعاب اليعاقبة المصريون تيموثاوس البطريرك الاسكندري (٤٦٠ — ٤٨٢) بقولــه قول الملك في المجمع الخلقيدوني (٤٥١) فاطلقوا عليه لقب البطريرك الملكي وسموا اتباعه ملكيين تعيراً وتقبيحاً . ويقول المؤرخ ايفاغريوس ، وهو من اعيان القرن السادس ، ان هــذا التعبير جاء اولا باليونانية مشتقاً من اللفظ فسيلفس اي الملك (٢) . وظلت اللغــة اليونانية حتى القرن السادس لغة جميع النصارى الشرقيين . ثم أحل الاقباط القبطية محلهافي مصر

١) تاريخ يحيي ابن سعيد الانطاكي ص ٢٣٠ — ٢٣١
2) *Evagrios, P. G., Vol. 86, Col. 2532 ; Duchesne, L., Eglises Séparés, 52, Hist. Anc. de l'Eglise, III, 486, n. 2.*

واليعاقبة السريانية في سورية والجزيرة فنقل هؤلاء التعبير اليوناني « فاسيليكوس » الى السريانية باللفظ « ملكايا » نسبة الى ملكا . وعُرّبت هذه التسمية فأصبحت ملكائية (١) .

وتناصر الناس وتكتلوا حول العقيدة الدينيـــة وانتظمت الحكومات على هـــذا الاساس نفسه فظنّ الخلفاء الامويون والعباسيون بأبناء الكنيسة الجامعة فاتهموهم بالتجسس للروم والتعاون معهم وقرّبوا الاقباط في مصر واليعاقبـــة والنساطرة في سورية والجزيرة وما بين النهرين فعيروا ابناء الكنيسة الجامعة باللفظ نفسه الذي اطلقه عليهم هؤلاء المونوفيسيون . وأصبح التعبير لقباً رسمياً في جميع الاوساط الحكومية الرسمية (٢) فحمله المؤمنون وتناقلوه .

ولكن ابناء الكنيسة الجامعة لم يتناسوا ولم يتنازلوا عن اللفظين ارثوذكسي وكاثوليكي للتعبير عن صحـــة العقيدة وجامعية الكنيسة . فالايمان الذي اقره المجمع المسكوني السادس هو في نظر البطريرك افتيخيوس المؤرخ « الامانـــة المستقيمة الارثوذكسية للنقية التي بلا عيب » (٣) . وكنيسة ابي جبلة في مصر هي « كنيسة اهل الملة الجامعة » (٤) . والمريمية التي أمر الحاكم بهدمها في دمشق هي « كنيسة السيدة الكاثوليكي » (٥) . وهذه المصادر التي نعتمد اولى بثقتنا من حيث العدالة والضبط في الموضوع الذي نبحث من اقوال الاقباط واليعاقبـــة والمسلمين التي استشفع بها حبيب الزيات في كتابه « الروم الملكيون » . وكنيستنا كانت وظلت ولا تزال وستبقى الكنيسة الجامعة المقدسة الرسولية . وهي كانت وظلت ولا تزال وستبقى ارثوذكسية في عقيدتها كاثوليكية في جامعيتها . وليس من العلم بشيء ان نقول مـــع الزيات اننا اخترنا اللقب « ارثوذكس » عند انفصال اخواننا الروم الكاثوليك عنا سنة ١٧٢٤ .

١) الروم الملكيون في الاسلام لحبيب زيات ص ٢ ـ ٣ . اطلب ايضاً المباحث الجليـــة في الليترجيات الشرقية والغربية للبطريرك افرام الرحماني ص ٤٧٣ .
٢) الروم الملكيون لحبيب الزيات ص ٣ ـ ٩
٣) تاريخ سعيد ابن بطريق ج ٢ ص ٣٥
٤) يحيي ابن سعيد الانطاكي ص ٩٥
٥) المرجع نفسه ص ١٩٥

انطاكية والقسطنطينية ورومة : وكان نزاع حول احترام الايقونات المقدسة كمـــا سبق واشرنا وناضلت كنيسة انطاكية في سبيل اكرام الايقونات واحترامها فخالفت بذلك الموقف الرسمي في القسطنطينية فشفع موقفها عند هشام ابن عبد الملك الخليفة الاموي وضعفت ريبته فيها فرخص لها بالرجوع الى حقوقها وسمح باقامة بطاركتها في انطاكية مدينة الله . ولكنه لم يسمح فـــيما يظهر بذكر بطاركة القسطنطينية في الذبتيخة الانطاكية . وبقي الحال على هـــذا المنوال حتى قلت هيبة الخلافـــة وعظم شأن الامبراطورية الشرقية . ففي السنة ٩٣٧ ـ ٩٣٨ تهادن الروم والمسلمون فوجه ثيوفيلاكتوس بطريرك القسطنطينية رسولا الى افتيخيوس بطريرك الاسكندرية والى ثيودوسيوس بطريرك انطاكية وخريستوذوللس بطريرك اوروشليم يسألهم ان يذكروا اسمه في صلواتهم وقداستهم فأجابوه الى ما سأل « وهذا كان قد انقطع من وقت خلافة بني امية » (١) .

ولم يمنع الخلفاء الامويون والعباسيون ذكر بطريرك رومة في الذبتيخات الانطاكية والاوروشليمية والاسكندرية . ولكن صلة هذه الكنائس بكنيسة رومة تضاءلت ثم انقطعت . فقـــد جاء ليحيي ابن سعيد الانطاكي ان البطريرك الاسكندري افتيخيوس ذكر في تاريخه اسماء بطاركة رومـــة « من بطرس رأس الحواريين الى اغابيوس البطريرك الذي عاصر المجمع السادس في القسطنطينية » . ولعله يشير الى اغاتون الذي تولى السدة الرومانيـــة من السنة ٦٧٨ الى السنة ٦٨٢ . وقال افتيخيوس انه « لم يقع له » بعد هذا التاريخ اسماء بطاركة رومة « ولا شيء من اخبارهم » . ثم يفيد يحيي ابن سعيد انه « لم يزل اغاتون هـــذا يذكر في الذبتيخات الشرقية منذ اجتماع المجمع السادس (٦٨١) الى بعد وفاة سعيد ابن بطريق بطريرك الاسكندرية (٩٣٣ـ ٩٤٠) بمدة طويلة لا يعرف مقدارها وانه ذكر بعده اسم بطريرك على رومة يدعى بنديكتوس . ولعله بنديكتوس الثالث (٨٥٥ ـ ٨٥٨) . ويضيف يحيي ابن سعيد : « ولم يزل اسم بنديكتوس مذكوراً في الذبتيخية الى سنة نيف وتسعين وثلثمائة للهجرة (٩٩٩ ـ ١٠٠٠) وقد كان صير

١) يحيي ابن سعيد ايضاً ص ٩٣

بعد بناديكطس هذا بطاركة عدة الا لم يرفع لاحد منهم في بلاد مصر والشام اسم ولا ذكر واقتصروا على اسم بناذكطس المتوفي .وفي زماننا هذا صيروا عليهـا بطريركاً يسمى يوحنا (يوحنا العشرون ١٠٢٤ ــ ١٠٣٣) ورفعوا اسمه واسقطوا اسم بناذكطس . فهذا هو السبب المانع من تدوين اسماؤهم والعذر في الاضراب عن ذكرهم » (١) .

وفي هذا كله ما يكفي للقول بتضاؤل الصلـة وانقطاعها في الارجح بين كنيسة رومة وشقيقاتها كنائس الاسكندرية وانطاكية واورشليم منذ اواخر القرن السابع حتى اوائل القرن الحادي عشر، فاذا جهل بطاركة هـذه الكنائس طوال قرون ثلاثة اسماء بطاركة رومـة ولم يذكروا في ذيبتيخاتهم سوى اغاثون الثاني وبنديكتوس الثالث فاي شيء علموه عن رومة وكنيستها !

لغة كنيسة انطاكية : وكانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية في جميع الكنائس شرقاً وغرباً حتى القرن الثالث بعد الميلاد. ثم انفردت رومة باللاتينية . وخرج النساطرة واليعاقبة والاقباط في القرن الخامس فبدأت القبطيـة تحل محل اليونانية في مصر والسريانية في سوريـة والجزيرة في الكنائس التي انفصلت عن الكنيسة الجامعة . وظلت اليونانية تحتل مرتبة مرموقة في الكنيسة القبطية في مصر حتى القرن الثاني عشر للميلاد . فقد جاء في سير البطاركة انه « لما أقيم البطريرك أبا مقارة في السنة ١١٠٣ وقدس في الكنيسة المعلقة بالسيدة في مصر قرى تقليده على الانبل يونانياً وقبطياً وعربياً » (٢) . وجاء لابن العسال في مقدمـة كتابه تصحيح الانجيل « ان القبط لما زال ملكهم وملكت عليهم الروم تكلموا بالرومي ايضاً » . ودليله ان قداساتهم الى اليوم (١٢٥٣) يوجد فيهـا الكثير من الالفاظ الرومية » . فلما غلبت اللغة العربية على القبط لم يبق منهم من يعرف القبطيـة او الرومية الا القليل » (٣) .

١) تاريخ يحيى ابن سعيد الانطاكي ص ٩٢
٢) سير البطاركة مخطوط باريز رقم ٢٠٠ ــ ٢٠١ ص ٣٠٢
٣) كتاب الانجيل المقدس مخطوط اكسفورد هانت ١١٨

وكانت كنيسة انطاكية قد نشأت يونانية في لغتها هلينية في ثقافتها أممية في اتجاهها ورسالتها . وكان كبار آبائها قد كتبوا باليونانية فجعلوا تراث كنيستهم يونانياً ايضاً . وكانت سلطة هذه الكنيسة قد اتسعت فشملت بلداناً يونانية اللغـة كما سبق واشرنا فظلت اللغة اليونانية لغة هذه الكنيسة الرسميـة . وظل اساقفتها وبطاركتها يجيدون هذه اللغة طوال القرون الاسلامية العربية وحتى هـذا العصر الذي نحن بصدده . وقد مرّ بنا كيف استعان الخليفـة المعتصم (٨٣٣ ــ ٨٤٢) بالبطريرك ايوب بطريرك انطاكية فحمله معه الى حصار انقرة وكيف ان هـذا البطريرك « كان يخاطب الروم بالرومية » (١) .

الطقس البيزنطي : وكتبت معظم الاناجيل وجميـع الرسائل باليونانية ودوّن اقدس الآباء واعلمهم بهذه اللغة عينها فأصبحت اليونانية لغة المسيحيين المقدسة ولا تزال . وصلّى الانطاكيون بها منذ تأسيس كنيستهم ولكنهم لم يمنعوا استعمال اللغات المحلية في القرى والمزارع التي لم تفهم اليونانيـة وسمحوا بقراءة الاسفار مترجمة في اثناء الاحتفالات الدينية من اليونانية الى اللغات المحلية فكانت هذه الترجمة من جملة الاعمال التي قام بها الاناغنوسطوس (٢). وتبلورت مع مرور الزمن خدمة روحية دينية نسبت الى يعقوب اخي الرب وترجمت الى السريانية(٣) لتسهيل العبادة على من كان يجهل اللغة اليونانية. ولا مجال للقول مع غبطة البطريرك اغناطيوس يعقوب السرياني ان الليتورجية المنسوبة الى القديس يعقوب دونت اولا بالسريانية ثم تناقلتها كنائس اليونان والرومان (٤) لاننا لا نعلم «بالضبط» الطقس الذي اتبعه يعقوب وسائر الرسل والتلاميذ . ولعلـه كان آنئذ أقرب بكثير الى طقوس اليهود من هذا الذي ننسبه الى اخي الرب (٥) .

١) سعيد ابن البطريق جـ ٢ ص ٦٠
2) *Justinus, Apolog., I, 47.*
3) *Dalmais, I. H., La Liturgie, Initiation Théologique, I, 119 ; Bardy et Bréhier, Expansion Chrétienne, Fliche et Martin, op. cit., IV, 547.*
٤) الكنيسة السريانية الارثوذكسية لسويروس يعقوب « متروبوليت بيروت ودمشق وتوابعهما للسريان » ص ٤ (بيروت ١٩٥٧) .
5) *Dom Cabrol, La Prière des Premiers Chrétiens ; Cullmann, Le Culte dans l'Eglise Primitive.*

انفصل اليعاقبة في منتصف القرن الخامس ونشط آباؤهم وعلماؤهم لنقل الادب الكنسي من اليونانيــة الى السريانية واستمر آباؤنا وعلماؤنا في كنيستنا الانطاكية الجامعة يصلون باليونانية والسريانية بموجب مـا نسميه خدمة يعقوب اخي الرب . ولا نعلم بالضبط مدى انتشار هاتين اللغتين في كنائسنا المحلية . ولا يجوز القول مع من يريد التفرقة بيننا وبين شقيقاتنا الكنائس اليونانية ان لغــة كنيستنا في طقوسها كانت سريانيــة لمجرد العثور على عــدد من كتب الخدمة باللغــة السريانية . فهؤلاء الذين يريدون التفرقــة احصوا الباقي من هذه الكتب المخطوطة بالسريانية « وأهملوا » احصاء ما تبقى منها باليونانية . وهو أمر لا يجيزه العلم ولا تقره « المحبة المسيحية » .

وقال آباؤنا بكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية فلم يفرقوا في تنظيم الطقوس بـين سرياني ويوناني او بين انطاكي واسكندري وقسطنطيني بل انهم استحسنوا الاحسن واستظرفوا الاظرف . فلعب ابناء الكنائس الشرقية الثلاث دوراً هاماً في تطور الطقس القسطنطيني . او لم يكن رومانوس المرتــل حمصياً بيروتياً قبل ان يغرّد في كنائس القسطنطينية . وقانون الفصح المجيد الذي يعد من اجمل صلوات الخدمة القسطنطينية هو من نظم يوحنا الدمشقي وتلحينه . والاوكتيوخوس بكامله كما تبنته كنيسة القسطنطينية يحمل هو ايضاً طابع هــذا القديس الانطاكي الدمشقي « دفاق الذهب » . والقديس اندراوس الذي نلمس اثره في عــدد لا يستهان به من قوانين الخدمة البيزنطية هو فلسطيني . وصفرونيوس العظيم واضع خدمة الابيفانية كان دمشقي المولد انطاكي الكنيسة قبل ان يتبوأ السدة البطريركية الاوروشليمية (١) . والقديس كيرللس الذي خلّد اسمه بصلوات جمعة الآلام كان مصرياً قبل ان يصبح بطريرك الاسكندرية . وهكذا فان الطقس البيزنطي الذي وصفنا تطوره في فصل سابق كان نتيجة عمل تعاوني لم تنفرد به كنيسة القسطنطينية دون سواها .

1) *Vailhé, A. A., Sophrone le Sophiste et Sophrone le Patriarche, Rev. Or. Chrét., 1903, 356 - 370 ; Puniet, Dom Pierre, La Fête de l'Epiphanie, Rassegna Gregoriana, 1906, 497 - 514.*

ويرى العلماء الباحثون ان هــذا التعاون في « الاخراج » بين انطاكية والقسطنطينية ادى الى تسرب الطقس البيزنطي في ابرشيات انطاكيــة منذ ان تم تبلوره في القرن السابع وانه شاع واكتسح الموقف فيها مع عودة الروم الى الحكم في شمال سورية في القرنين العاشر والحادي عشر وانه لم يصبح اجبارياً قبل القرن الثالث عشر كما سيجيء في حينه (١) .

البطاركة : وهنالك تفاوت كبير في عدد البطاركة الذين تولوا رئاسة كنيستنا في هذا العصر بين لائحة البطريرك قسطنديوس القسطنطيني وبين نصوص يحيى ابن سعيد الانطاكي المؤرخ المعاصر . وهنالك ايضاً فرق ظاهر في عدد سني الرئاسة وفي ترقيم البطاركة . ولعله من الضروري ان نثبت هذه الفروقات وفي الجدولين التاليين :

لائحة قسطنديوس		لائحة يحيى ابن سعيد	
يوحنا الخامس	٩٩٥ – ١٠٠٠	يوحنا	٩٩٣ – ١٠٢٢
نقولاووس الثالث	١٠٠٠ – ١٠٠٢	نقولاووس	١٠٢٥ – ١٠٣١
الياس الثاني	١٠٠٣ – ١٠١٠	ايليا	١٠٣٢ – ١٠٣٣
ثيودوروس الثاني	١٠١٠ – ١٠١٥	ثيودوروس الثاني (جرجس)	
مكاريوس الفاضل	١٠١٥ – ١٠٢٢	سينوذيكون	١٠٣٤ – ١٠٤٢
الفثيريوس التقي	١٠٢٣ – ١٠٢٨	باسيليوس الثاني	
بطرس الثالث	١٠٢٨ – ١٠٥١	بطرس الثالث	١٠٥٢ – ١٠٥٦ ؟

ولا بد من تقديم رواية يحيى ابن سعيد الانطاكي على رواية البطريرك قسطنديوس لأن الأول راو معاصر انتقل من الاسكندرية الى انطاكية وأقام فيهــا والثاني مؤرخ متأخر من أعيان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولكن ليس هذا كل ما في الأمر . فالبطريرك قسطنديوس اعتمد وثائق بطريركية القسطنطينية ونقل عنها . فلا بد والحالة هذه من اثبات روايته الى ان يقوم من أبناء كنيستنا من

1) *Charon, C., Hist. des Patriarcats Melkites, III, 9 - 24 ; Salaville, S., Les Liturgies Orientales ; Raes, A., Introductio in Liturgiam Orientalem, Rome, 1947 ; Hanssens, M., Institutiones Liturgicae de Ritibus Orientalibus, Rome, 1932.*

يدقق هذا الأمر ويثبت الحقيقة . ويوحنا الخامس عندنا هو يوحنا الثالث بموجب ترتيب لوكيان والمؤرخين الغربيين . ونقولاووس الثالث هو الثاني عندهم . أما ثيودوروس فانه كان يعرف بجرجس لاسكارس قبل وصوله الى السدة البطريركية . ومن هنا ورود اسمه أحياناً البطريرك جرجس . وجاء في سينوذيكون « أحد الايمان القويم » بعد ثيودورس الثاني باسيليوس الثاني فبطرس الثالث .

يوحنا الخامس : (٩٩٣ ـ ١٠٢٢) وتدخل اغابيوس في السياسة كما سبق وأشرنا فأغضب الفسيلفس واضطر ان يتنازل عن السدة الانطاكية فخلفه في السنة ٩٩٣ خرتوفيلاكس الكنيسة الكبرى كنيسة الحكمة الالهية يوحنا الخامس . ويفيد يحي ابن سعيد الانطاكي ان باسيليوس الفسيلفس حض البطريرك الجديد على اصلاح كنيسة القسيان في انطاكية على طراز كنيسة الحكمة الالهية في القسطنطينية ثم يضيف ان اغابيوس توفي في ايلول السنة ٩٩٤ ولا يذكر شيئاً عن عودته عن التنازل قبل وفاته وعن تنازل خلفه عن اي امتياز تمتعت به كنيسة انطاكية لقاء بقائه على السدة البطريركية (١) . والاشارة هنا الى ما اورده نيقون الراهب من ان يوحنا تنازل عن استقلال مطارنة الكرسي الانطاكي في انتخاب بطريركهم وانه وضع أمر انتقاء البطريرك الانطاكي في يد البطريرك المسكوني . والراهب نيقون تنسك مدة من الزمن في النصف الثاني من القرن الحادي عشر في دير القديس سمعان العمودي (٢) .

وقدّر ليوحنا الخامس ان يعاصر الحاكم بأمره الفاطمي وان يتلقى ضرباته المؤلمة في الابرشيات الانطاكية الجنوبية وقد سبقت الاشارة اليها في القسم الاول من هذا الفصل . ولكن قدرله ايضاً ان يرى تراجع الحاكم عن تضييقه بعد ظهور حمزة ابن علي وقيامه بالدعوة الدرزية .

وماشى يوحنا الخامس ملوك الروم في عصرهم الذهبي فسعى معهم لاعادة

١) يحيى ابن سعيد الانطاكي ص ١٧٧

2) *Vailhé, A. A., Echos d'Orient, 1933, 283. Grumel, V., Patriarches Grecs d'Antioche du Nom de Jean, Echos d'Orient, 1933, 283 - 284.*

المجد التالد . ففاوض اورستيوس البطريرك الاوروشليمي في اثناء مروره في انطاكية في السنة ١٠٠٠ في ما كان قد تنازل عنه ثيوفيلاكتوس ابن قنبرة البطريرك الانطاكي الى زميله الاوروشليمي في القرن الثامن من حقوق الانطاكية على كنيسة الكرج فاتفق الطرفان على اعادة ذكر البطريرك الانطاكي في الذبتيخة الكرجية وعلى حق هذا البطريرك في ارسال اكسرخوس الى الكرج يتفقد شؤونهم الروحية ويتولى جباية الاموال من الاوقاف الانطاكية في بلاد الكرج (١) .

وفي السنة ١٠٠٤ اختلف النصارى في مصر في حساب عيد الفصح لاختلاف اليهود في حسابهم . فجعل البعض فصح اليهود يوم السبت في الخامس من نيسان وقال آخرون انه يوافق يوم الاحد في السادس من الشهر نفسه . فكتب ارسانيوس بطريرك الاسكندرية الى اهل اوروشليم بما صح عنده جاعلا فصح النصارى يوم الاحد في السادس من نيسان. «فكتب اهل الشام الى مصر يتعارفون منهم ما اتفقوا عليه . فلما وصلت كتب ارسانيوس عيّد جميع النصارى في يوم الاحد في السادس من نيسان الا قوم من اليعاقبة من اهل صعيد مصر فانهم فصحوا يوم الاحد الذي يليه » (٢) .

الحاكم وسرّ الأفخارستية : وجدد الحاكم في رمضان السنة ٤٠١ اي في ايار السنة ١٠١١ منع الناس عن صنع النبيذ وشربه سراً وجهراً وكسّر ما عند الناس منه من الجرار والدنان وحذّر على النصارى تقديمه «في سائر مملكته» ومنعه في قرابينهم فقربوا عوضاً عنه ماء نقع فيه زبيب او عود الكرم ! (٣) .

الاعتراف ببطريركية نيقيفوروس : وفي السنة ١٠٢١ انتهى حكم الحاكم ونودي بابنه الظاهر فعادت السيدة ست الملك الى سابق عزها فأوفدت نيقيفوروس بطريرك اوروشليم الى القسطنطينية ليعلم باسيليوس « بعودة الكنائس وتجديد كنيسة القيامة المقدسة وسائر البيع في جميع بلاد مصر والشام ورجوع

1) *Vailhé, A. A., op. cit., Echos d'Orient, 1934, 136.*

٢) يحيى ابن سعيد الانطاكي ص ١٩٢ ـ ١٩٣

٣) المرجع نفسه ص ٢٠٠

أوقافها اليهـــا واستقامة امور النصارى » ويرجوه السماح بالاتجار بين البلدين والشروع في « المسالمة والموادعة » فاستكشف افستاثيوس البطريرك المسكوني من نيقيفوروس « امانته » فأوضحها فألفـــاها البطريرك المسكوني ارثوذكسية فأطلع الفسيلفس على ذلك فأمر الفسيلفس برفع اسم نيقيفوروس في القسطنطينية وانطاكية على ما كان عليه قبل وصوله . وتوفيت ست الملك فعاد نيقيفوروس الى انطاكية ومنها الى طرابلس في ايار السنة ١٠٢٤ (١) .

نقولاووس الثالث : (١٠٢٥ — ١٠٣١) وتوفي يوحنا الخامس البطريرك الانطاكي في السنة ١٠٢٢ فخلا كرسيه ثلاث سنين ونصف السنة . ثم انتخب نقولاووس رئيس دير الاستوديون بطريركاً على انطاكية وصلي عليه في القسطنطينية يوم الأحد سابع عشر كانون الآخر سنة ١٠٢٥ فأقـــام في الرئاسة خمس سنين وثمانية أشهر وواحداً وعشرين يوماً (٢) .

« ورقي الى رومانوس ارعيروس الثـــالث (١٠٢٨ — ١٠٣٤) ان لليعقوبيين بطريكاً يسمى يوحنا يقيم في بلد مرعش يسمى ببطريرك انطاكيـــة ويسيم مطارنة وأساقفة للمدن ، فأنفذ اشخصه وأشخص معه ستة من مطارنته وأساقفته وتقدم الى الكسيوس بطريرك القسطنطينية في ان يحضرهم بمشهد ممن اتفق عنده من المطارنة والأساقفة الارثوذكسيين ويخاطبه في الرجوع عن اعتقاده والاعتراف بالسبعة المجامع المقدسة وقبول من قبلته ودفع من دفعته . واستدعى نقولاووس بطريرك انطاكية للحضور معه ومشاركته في الخطاب له لأنه كان يومئذ بالقسطنطينية . فأبى ذلك الارطوقي وجرى بين الكسيوس البطريرك وبين من اجتمع معه من أصحابه خطاب في هذه المعاني . ولم يذعن يوحنـــا بطريرك اليعاقبة للانثناء عن رأيه . واجتمع خلق من العوام وهموا بالايقاع به فدفعوا عنه . ولما أيس الملك من عودته عن اعتقاده نفاه الى كفربا بالمغرب . واعترف من الستة الأساقفة والمطارنة المشخصين معه ثلاثة . وثبت ثلاثة على ما هم عليـــه

١) يحيى ابن سعيد الانطاكي ص ٢٤٣ — ٢٤٤
٢) المرجع نفسه ص ٢٤٤ وكتابنا الروم جـ ٢ ص ٦٤ ومجموعة دولغر رقم ٨٢٤

فحبسوا في الحبس . ومات يوحنا هذا بعد ثلاث سنين من نفيه وأقام اليعاقبة لهم بعد موته بطريركاً غيره . فلما عرف رومانوس الملك حاله أنفذ من يحضره فهرب الى ديار بكر من بلاد الاسلام (١) .

أبجر والمسيح : وفي تشرين الاول من السنة ١٠٣١ استولى الروم على الرها . فسار صاحبها سليمان ابن الكرجي الى حضرة رومانوس في القسطنطينية وحمل معه كتاب أبجر الى السيد المسيح وجواب السيد له . « وكان كل واحد منها في ورقة طومار مكتوبين بالسرياني . وخرج الملك والكسيوس البطريرك وجميع أهل المملكة لاستقبالها . وتسلمها الملك بخشوع وخضوع تعظيماً لكتاب السيد المسيح وأضافها الى الآثار المقدسة التي في بلاط الملك . وعني رومانوس الملك بترجمتها الى اليوناني . وترجمها الى العربي الناقل الذي تولى نقلها الى اليوناني على هيئتها ونصها .

« وهذه هي نسخة رسالة أبجر ملك مدينة الرها الى ربنا والهنا يسوع المسيح: من أبجر الاسود الى يسوع المسيح الطبيب الصالح الظاهر في ارض اوروشليم . سيدي سلام عليك . سمعت عنك وعن الاشفية التي تصنع انك تبرىء بغير ادوية ولا عقاقير بل بالقول فقط تبصر العميان وتشفي الزمنى وتسمع الخرس والصم وتطهر البرص وتخرج الشياطين والأرواح النجسة بكلمتك وتقيم الموتى . فلما سمعت عنك يا سيدي ذلك تعجبت بالمعجزات الباهرة التي تصنـــع وقررت في في نفسي وحملت أمرك على احدى الحالتـــين انك اما تكون الله الذي ينزل من السموات فتفعل هذه او ابن الله . ولذلك اكاتبك لتصير الي لاسجد لقدسك ولكي تشفي لي مرضاً ما كما آمنت . وبلغني ايضاً ان اليهـــود يتبرمون بك ويضطهدونك ويطلبون هلاكك والهزؤ بك . ولي مدينـــة واحدة صغيرة حسنة جداً وهي تكفينا لنسكنها بهدوء وسلامة معاً . فالأمر أمر منك يا سيدي والسلام عليك .

« نسخة رسالة السيد المسيح الى أبجر ملك الرهـا : امض فقل لصاحبك

١) يحيى ابن سعيد الانطاكي ص ٢٥٢

الذي أنفذك : طوباك يا أبجر اذ آمنت بي ولم ترني لانه مكتوب من جهتي ان الذي يروني لا يؤمنون بي والذين لم يروني سوف يؤمنون بي . وكتبت الى ان أصير اليك فالامر الذي بسببه ارسلت من لدن الآب الى ههنا من الان قد حضر واصعد الى الآب الذي ارسلني فـاذا صعدت انفذت اليك واحداً من تلاميذي والمرض الذي بـك هو يشفي ولسائر من لك يرد الى الحياة الابدية . وبلدك فليكن مباركاً ابداً . والعدو ايضاً فلا يتسلط عليك ولا عليه الى الدهر والسلام عليك » (١) .

الياس الثاني : (١٠٣٢ ــ ١٠٣٣) وفي يوم السبت الكبير في اول نيسان سنة ١٠٣٢ « صلي على الياس الراهب النيقوميذي بطريركاً على انطاكية . فأقام سنة وخمسة اشهر وثمانية ايام وتنيح (٢) .

وصدرت اوامر الظاهر الفاطمي بـترك الفساد وخفظ مجاورة الروم . ووافق الروم على المهادنة . واتفق الطرفان على ان ينفذ الظاهر رسولا يجتمع برسول رومانوس في ناحية انطرطوس « آخر حد الروم واول بلد المسلمين » . واشترط رومانوس على الظاهر ثلاث شرائط احداها « ان يعمر الملك كنيسة القيامة ببيت المقدس ويجددها من ماله ويصير بطريركاً على بيت المقدس وان تعمر النصارى جميع الكنائس الخراب التي في بلاد الظاهر» . والشريطة الثانية الا يتعرض الظاهر لحلب . والشريطة الثالثة الا يساعد صاحب صقلية . وارسل نصر بن صالح بن مرداش صاحب حلب مال الهدنة الى رومانوس وشعر القديس يوحنا المعمدان . وكان هذا الشعر في سالف الزمان في كنيسة حمص فنقل منها الى كنيسة القلعة في حلب « اشفاقاً عليه من اخذ الروم له عند ترددهم الى حمص » . وبقي هناك الى ان خرج منصور بن لؤلؤ من حلب . فاستعاده نصر بن صالح وتقرب بـه الى رومانوس فاضافه الى الآثارات المقدسة التي في بلاط الملك (٣) .

ثيودوروس الثاني : (١٠٣٤ ــ ١٠٤٢) وفي يوم الأحد الاول من

١) يحيى ابن سعيد الانطاكي ص ٢٦٣ ــ ٢٦٤
٢) المرجع نفسه ص ٢٦٥
٣) المرجع نفسه ايضاً ص ٢٧٠ و٢٦٩

الصيام الكبير صير جرجس لاسكارس بطريركاً على انطاكية وصلي عليـه في القسطنطينية وسمي ثيودوروس . فأقام في الرئاسة ثماني سنين وستة أشهر وواحداً وعشرين يوماً وتنيح (١) . ونفذ ثيودوروس الاتفاق الذي تم في عهـد يوحنا الخامس حول كنيسة الكرج فأرسل بموجب شهادة نيقون الراهب اكسرخوساً الى بلاد الكرج ليعاقب ويصلح (٢) .

باسيليوس الثاني : ولا نعلم شيئاً عن باسيليوس الثاني . ونجهل أخبار مكاريوس الفاضل والفثيريوس الصالح .

بطرس الثالث : (١٠٥٢ ــ ١٠٥٦) أبصر النور في انطاكيـة ونشأ وترعرع فيها . ثم طلب العلم في القسطنطينية فأحاط به « كله » والتحق بالبلاط الملكي فأصبح سكرتير رومانوس الثالث . ثم قدم النذر والتحق بكنيسة الحكمة الالهية فأسندت اليه وظائف أهمها وظيفـة سكيفوفيلاكس الكنيسة . فكان من الطبيعي ان يُقدم على غيره وان يرقى الى رتبة البطريركية .

وكان بطرس الثالث ورعاً تقياً واثقاً بالله معتمداً عليه وكانت امه قد نقلت اليه خبر النور البهي الذي أحاط بها يوم ولادته وما طن في أذنها من أصوات سماوية تنبيء بالمستقبل الباهر فنشأ بطرس متوكلا على الله مستلهماً روحه عاملا بمشيئته على الأرض كما في السماء . وممـا زاده حماساً وغيرة ان السيدة العذراء والدة الاله تراءت لقسطنطين التاسع (١٠٤٢ ــ ١٠٥٤) وأومأت له بترقيـة بطرس الى السدة البطريركية ففعل .

وتسلم بطرس عكاز الرعاية وانطلق يعمل في حقل الرب فوجه رسالة الجلوس الى كل من زميليه بطريرك الاسكندرية وبطريرك اورشليم معلناً تبوأه العرش البطريركي مبيناً ايمانه القويم راجياً ذكره في الذبتيخة (٣) . واسف على انقطاع الصلة بين كنيسته وكنيسة رومة مدة طويلة كما سبق واشرنا فكتب الى لاوون التاسع

١) يحيى ابن سعيد الانطاكي ص ٢٧٢
2) *Vailhé, A. A., Echos d'Orient, 1934, 138.*
3) *Michel, A., Humbert und Keroullarios, II, 437 - 452.*

متلهفاً على هذا الانقطاع متسائلاً عن سبب ابتعاد خليفة بطرس العظيم عن جسم الكنائس وانقطاع صوته من مجامعها وامتناعه عن المساهمة في حل مشاكلها الاكليريكية مبيناً الفائدة التي تنجم عن مثل هـذا التعاون من حيث التوجيه الاخوي الرسولي . ورجا بطرس زميله الروماني ان يصرح بايمانه ليتمكن من ذكر اسمه في الذبتيخة اذ لا يجوز الاعتماد على ماضي رومة القويم والافتراض قبل اعمال النظر بان ايمانه خال من الخطأ . ثم ذكر البطريرك الانطاكي ايمانه بوضوح ولكنه تحاشى البحث في قضية الانبثاق . وعاقت الاقدار هذه الرسالة فلم تصل الى رومة الا بعد مرور سنتين على صدورها . فكتب بطرس رسالة ثانية اقصر من الاولى . فحذف معظم ما جاء في مقدمة رسالته الاولى واكد تعلقه بدستور نيقية وقرارات المجامع المسكونية السبعة ولعن من لعن من الهراطقة (١) .

وأجاب كل من بطريركي الاسكندرية واوروشليم برسالة سلام . وورد لاوون التاسع على رسالة بطرس الاولى برسالـة سلام ايضاً ولكنه اكد بوضوح تقدم رومة وعصمة السدة البطرسية . واوضح ان كنيسة رومة ام الكنائس وان محكمتها اعلى المحاكم . ثم نبّه زميله الانطاكي على تلبد غيوم الهم والشقاق في الشرق وحثه على الدفاع عن حقوق الكرسي الانطاكي (٢) . وتسلم بطرس هـذا الرد ولكنه لم يتمكن من قراءته لانه كتب باللاتينية فطيب الى الرسول الافرنجي الذي حمله اليه ان يستنسخه له . ففعل فأرسل بطرس النسخة الى ميخائيل كيرولاريوس بطريرك القسطنطينية ليأمر بترجمتها الى اليونانية (٣) . وذكر بطرس زميله الروماني في ذبتيخة انطاكية وحذا حذوه بطريرك اوروشليم وبطريرك الاسكندرية .

الشماس عبدالله ابن الفضل الانطاكي : ولمـع في افق الكنيسة في القرن الحادي عشر الشماس عبدالله ابن الفضل الانطاكي فخدم بالتأليف والتعريب واشتهر بصورة خصوصية بحسن تعبيره في تفسير الكتب الدينية وبسلامة ذوقه في اختيار المؤلفات اليونانية وتعريبها . وتنافس أبناء الكنيسة باستنساخ مؤلفاته ومعرباته .

1) *Michel, A., op. cit. II, 446-448. Jugie, M., Schisme Byzantin, 222-221, n. 1.*
2) *P. L., Vol. 143, Col. 769 - 773 ; Michel, A., op. cit., II, 458 - 475.*
3) *P. G., Vol. 120, Col. 813.*

وكان بارعاً بالعربية واليونانية والسريانية وعرب عن الاثنتين وألف بالعربيـة واليونانية (١) .

وأهم مصنفاته كتاب المصابيح . وهو يشتمل على كلام الحكماء والانبياء والرسل القديسين بوبه تبويباً لطيفاً وأكثر من الأمثلة الكتابية وأقوال الفلاسفة . وله ايضاً كتاب المنفعـة وهو مختصر ومطول ويبحث في العقائد في الخالق وجوهره ووحدة طبيعته وتثليث أقانيمه وفي المنطق والفلسفة والجدل والفقـه وله كذلك كتاب الروضة في الفضائل وهو منتخبات من أقوال الكتب المقدسة والقديسين ورجال اللاهوت وكتاب تفسير ستة ايام الخليقة للذهبي الفم عربه عن اليونانية وتفسير انجيل متى ويوحنا للذهبي الفم ايضاً . وعرب عن السريانية كتاباً للآباء الأبرار انطونيوس وارسينيوس ويوحنـا اقليمس واسحق وفيلوكسينس . وعرب عن اليونانيـة كتاب البرهان في تثبيت الايمان للقديس صفرونيوس الاوروشليمي وعرب له ايضاً احاديث الآباء القديسين والرهبان ومن اثار هذا العلامة كتاب مجموع الأمان في ابانة غلط اليعاقبة والنساطرة وميامر غريغوريوس النزيانزي ومديح القديسين نقولاوس واندراوس الاقريطشي(٢).

انطاكية والبندقية . وفي اواخر السنة ١٠٥٣ تلقى بطرس الثـالث رسالة من دومينكوس رئيس اساقفة اكويلية جاء فيها ان القساوسة البنـادقة في الشرق يشكون الصعوبات التي يلقونها عند ممارستهم سر الافخارستية بالفطير وان هؤلاء القساوسة خاضعون لرئيس اساقفة يستمد البركة من القديس مرقس ويتمتع بلقب بطريرك (٣) . فأجابه بطرس الثالث جواباً لطيفاً ولكنـه لم يسكت عن اللقب الذي ادعى به دومينيكوس فقال : «لقد نشأت بين الكتب ودرست العلوم المقدسة منذ الطفولية والى سن الشيخوخة ولا ازال مواظباً على مطالعتها ومع ذلك ما تعلمت ولا سمعت ان رئيس اكويلية يسمي بطريركاً لان النعمة الالهية دبرت ان يكون في كل العالم خمسة بطاركـة وهم الروماني والقسطنطيني والاسكندري

١) مقدمة كتاب النحلة للبطريرك مكاريوس الحلبي
٢) النعمة ج١ ص١٦ و٣٢٥ و٧٢٦
3) *P. G., Vol. 120, Col. 751 - 756.*

والانطاكي والاوروشليمي . ومن هؤلاء الخمسة البطريرك الذي يسمى بطريركاً على وجه الحقيقة هو البطريرك الانطاكي . فالروماني والاسكندري يتمتعان بلقب بابا والقسطنطيني والاوروشليمي رئيسا اساقفة . وكيف نستطيع ان نقيم بطريركاً سادساً ما دام الجسد ليست فيه حاسة سادسة وما دامت هنالك ابرشيات اعظم من اينوريتك يديرها مطارنـــة ورؤساء اساقفة كبلاد البلغار وخراسان وسائر الشرق ولم يدع احد منهم بلقب بطريرك » .

ثم يشير بطرس الثالث الى رسالة الجلوس التي وجهها الى البابا الروماني مع الحجاج ويقول انه لم يتلق جواباً عنها وانه مرسل صورة عنهـــا ليقدمها دومينيكوس الى البابا حتى اذا رضي البابا بفحواها « اتحد الجميع بنفس واحدة ليقدموا لله جميعاً ضحية واحدة » . ويعرض بطرس بعد هـــذا الى مسألة الفطير فيقول ان شكوى الغربيين من ان بطريرك القسطنطينية يشيع عنهم اشاعات رديئة ويقطعهم من شركة الكنيسة هي باطلة لانه يعرف حق المعرفة انكم ارثوذكسيون تؤمنون مثلنا بالثالوث القدوس وبسر التجسد ولكنه يأسف انكم تخالفون البطاركة الاربعة في تقديم الذبيحة الغير الدموية » (١) .

انطاكية والقسطنطينية : ولم يرض بطرس الثالث عن تدخل بطريرك القسطنطينية في شؤون بطريركية انطاكية . فاحتج بشدة على ترقية شماس انطاكي في القسطنطينية بدون موافقة رئيسه الانطاكي (٢) وعلى توسيع النفوذ القسطنطيني في الولايات الارمنية مبيناً ان هذه الولايات كانت لسلطة انطاكية الروحيـــة لا القسطنطينية . ورأى في الحاح البطريرك ميخائيل القسطنطيني على توحيد الطقوس سياسة غير مجدية لانتشار السريانية والعربية في بعض ابرشيات انطاكية ولخضوع هذه الابرشيات عينها للسلطات الاسلامية (٣) .

1) *P. G., Vol. 120, Col. 757 ; Jugie, M., op. cit., 222 - 223.*
2) *Grumel, V., Patriarcat d'Antioche, Echos d'Orient, 1934, 140 - 141.*
3) *Runciman, S., Eastern Schism, 64 - 65.*

الفصل التاسع والثلاثون

بدء الانشقاق العظيم

١٠٥٤

نفوذ الالمان في رومة : وعني اوثون الاول الملك الالماني (٩٣٦ـ٩٧٣) بشؤون دولته فأدار دفة الحكم بحذق ومهارة وأخضع رجال الاقطاع فيها وكبح جماح الصقالبة وصد هجمات المجر . وقام في السنة ٩٦٢ على رأس جيش الماني الى ايطالية فدخل رومة واكره اسقفها يوحنا الثاني عشر على تتويجه امبراطوراً فأسس الامبراطورية الرومانية المقدسة التي دامت حتى السنة ١٨٠٦ .

وادى تدخل اوثون في شؤون رومة الى تطاحن في داخلها دام اربعين سنة بين عمال الالمان وبين اسرة كرسنتيوس صديقة الروم ومن شد ازرها من الاشراف الرومان (١) . وشغل الشرق الروم عن ايطالية وشؤونها فتوطد نفوذ الالمان في رومة وتسربت اليها آراؤهم في الاصلاح والعقيدة .

تدعيم سلطة البابا : وطالب المؤمنون في الغرب باصلاح الكنيسة وعلا صوتهم في مقاطعة لورين فأوجبوا انضباط الاكليروس وترفعهم عن السيمونيـــة وعن الزواج واستعانوا بالسلطات المدنيـــة الالمانية فرحبت بطلبهم ورأت في اصلاح الاكليروس اداة فعالة لتوسيع سلطانها وفرض احترامها . فصممت هذه السلطات على الاحتفاظ برومة وتدعيم سلطـــة اسقفها للوصول الى الانضباط المنشود . وطالب رهبان كلوني في فرنسة برفع مستوى الرهبان والرهبانيـــة فلم يلقوا من السلطات المحلية الا التثبيط والاحباط فلجأوا الى اسقف رومة ووضعوا مقدرات رهبانيتهم بين يديه . فأجمع المصلحون على تدعيم سلطة البابا والمطالبـــة بحقوقه وصلاحياته التاريخية (٢) .

1) *Gay, J., Italie Meridionale, 218 - 228.*
2) *Dumas, A., Les Eglises Monastiques, Fliche et Martin, VII, 293 - 367.*

مشكلة الانبثاق : وكانت كنيسة رومة قد قالت بانبثاق الروح القدس من الآب كما علم الآباء الاطهار في نيقية والقسطنطينية . فلما سيطر الالمـــان على رومة نقلوا اليها القول بالانبثاق من الآب والابن فأثاروا بذلك مشكلة الفيليوكوي *Filioque* . وهو لفظ لاتيني معناه « ومن الابن » . وتفصيل ذلك ان النزاع بين الاسبانيين الكاثوليكيين والقوط الغربيين الآريوسيين جعل الكاثوليكيين في اسبانية يصرون على القول بالانبثاق من الآب والابن وعلى ادخال ذلك في دستور الايمان الاثناسيوسي الذي اقر في اسبانيـــة في السنة ٦٣٣ . فلما تقبلوا الدستور النيقاوي بعد ذلك بقليل استمسكوا بالعبارة « ومن الابن » وأضافوها الى هذا الدستور . ويقول بعض العلماء انهم أدخلوا هذه العبارة في مجمع طوليدو الاول سنة ٤٠٠ ولكنه قول ضعيف (١) . ثم تسرب هذا القول من اسبانية الى بلاط كارلوس الكبير فلقي في شخص هذا الزعيم مدافعاً مخلصاً عنه . ومن هنا في الأرجح قبوله في مجمع فرانكفورت سنة ٧٩٤ وانتقاد البطريرك تراسيوس القسطنطيني لقوله « بواسطة الابن » *per Filium* (٢) . وحاول كارلوس اقنـــاع رومة بالقول « ومن الابن » ولكنه لم يفلح. وفي السنة ٨٠٨ كتب توما الاول بطريرك اوروشليم الى لاوون الثالث بابا رومة يلفت نظره الى المشادة التي نشأت بين رهبان القديس سابا والرهبان الافرنج على جبل الزيتون حول القول بالانبثاق من الآب والابن. فكتب لاوون بدوره الى كارلوس الكبير ممول رهبان الافرنج على جبل الزيتون يقترح نبذ العبارة « ومن الابن » لان القول بها يشكل في حد ذاته خروجاً على الدستور الذي يقول به جمهور المؤمنين (٣) . وأمر لاوون الثالث بنقش دستور الايمان على لوحات الفضة لتعليقها في كنيسة القديس بطرس فاذا به يتفق كل الاتفاق ودستور نيقية ويخلو من العبارة « ومن الابن » (٤) . ثم شاع القول بالفيليوكوي في القرن التاسع في جميع كنائس المانية ولورين ومعظم كنائس فرنسة اما كنيسة باريز فانها ثابرت على القول النيقاوي قرنين آخرين (٥) . ونقل بعض

1) *Palmieri, A., Filioque, Dict. Théol. Cath., II, Col. 2309 ff.*
2) *Hefelé - Leclercq, Hist. des Conciles, III, 1061 - 1091.*
3) *P. L., Vol. 129, Col. 1257 - 1260 ; P. G., Vol. 94, Col. 205 - 208 ; Hefelé - Leclercq, op. cit., III, 1127 1131.*
4) *Liber Pontficalis (Duchesne), II, 26.*
5) *Alexander of Hales, Summa Theologica, I, 218.*

الاكليريكيين الالمان القول بالفيليوكوي الى رومة فقبـــله البابا فورموسوس (٨٩١ ـــ ٨٩٦) وأمر به في بلغارية فلفت بذلك نظر فوطيوس العظيم وأدى الى احتجاجه كما سبق وأوضحنا . وجاء التدخل الالماني في رومة في النصف الثاني من القرن العاشر فجر وراءه قولا جريئاً واضحاً بالفيليوكوي .

والكلام في الانبثاق عقيدة تنطوي عليها النصوص المسيحية المقدسة . فقد جاء في بشارة يوحنـــا الحبيب في الفصل الخامس عشر والآية السادسة والعشرين : « ومتى جاء المعزي الذي ارسله اليكم من لدن الآب روح الحق الذي من الآب ينبثق » . وجاء ايضاً في الفصل السادس عشر من هذه البشارة نفسها وفي الآية الرابعة عشرة عن روح الحق : « انه سيمجدني لأنه يأخذ مما لي » . وجاء لبولس في رسالته الى أهل غلاطية في الفصل الرابع والعدد السادس «والدليل على أنكم أبناء كون الله أرسل في قلوبنا روح ابنه » .

وظهرت بدعة آريوس فأكد الآباء المجتمعون في نيقية في المجمع المسكوني الاول (٣٢٥) ان المسيح ابن الله الوحيد مولود من الآب قبل كل الدهور نور من نور اله حق من اله حق مولود غير مخلوق مساوٍ للآب في الجوهر الذي به كان كل شيء . وقال مقدونيوس بخلق الروح القدس فاجتمع الآباء في القسطنطينية في السنة ٣٨١ وقالوا « وبالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب الذي هو مع الآب والابن مسجود له وممجد » ليؤكدوا لاهوت الروح القدس ومساواته بالابن ووحدة المصدر وانتشرت الآريوسية في اوروبة الشمالية الغربيـــة بانتشار البرابرة فقال الآباء في اسبانية بانبثاق الروح القدس من الآب والابن ليؤكدوا مساواة الابن بالآب .

وبحث دفاق الذهب الدمشقي الانطاكي هذا الموضوع في النصف الاول من القرن الثامن فأكد ان الروح القدس هو روح الآب وروح الابن ايضاً (١) . وكرر آباؤنا المجتمعون في نيقيـــة في المجمع المسكوني السابع (٧٨٧) القول بالدستور النيقاوي القسطنطيني واثبتوه في أعمال المجمع معترفين بالانبثـــاق من

1) *De Fide Orth., I, 8, P. G., Vol. 94, Col. 832 ; Lossky, V., Théologie, 60.*

الآب . ووجهوا الرسائل الى البطاركة الشرقيين وبحثوا هذا الموضوع وفسروا فقالوا بالانبثاق من الآب « بالابن » *per Filium, dia Iyoun* (١) .

وعلى الرغم من هذا كله فاننا لا نزال شرقيين وغربيين متفقين على اثبات وحدانية الثالوث الاقدس اثباتاً تاماً كاملا صريحاً وعلى تأكيد شخصية كل من الاقانيم وعلى التساوي بينهم وعلى وحدة الجوهر .

اتصال واحتكاك : واختلف المؤمنون في أمر الانبثاق وتعارضت آراؤهم ولكنهم ظلوا أبناء كنيسة واحدة جامعة مقدسة ولم تتفرق وحدتهم ولم تنتقض عقدتهم ثم استولى الروم على جزيرة كريت في السنة ٩٦١ وعلى قبرص في السنة ٩٦٥ وعادوا الى انطاكيـــة في السنة ٩٦٩ ودخلت فلسطين في حوزة العزيز المتساهل المتسامح ولم يطل عهد الحاكم فخلت مياه المتوسط الشرقي من قرصنة المسلمين وتسهلت سبل الاتصال بالشرق فتوافد التجار الايطاليون الى الجزر والسواحل وأقاموا فيهـــا . وبسط الفسالسة نفوذهم على البلقان وعظم أمرهم فهابهم الصقالبة والبلغاريون وتفتحت أمام الحجاج طرق برية قليلة النفقة خالية من عراقيل الحدود فتدفقوا زرافات زرافات وزاروا القسطنطينية للتبرك بذخائرها والاستراحة فيها قبل متابعة السفر الى الأراضي المقدسة (٢) . وانشأ الفسالسة في هـــذا العصر حرسهم الافرنجي . فازداد عدد الغربيين المقيمين في القسطنطينية ومرافيء الامبراطورية وجزرها وكثر عدد المتجولين في أراضيها من الدانوب في أقصى الشمال حتى مداخل طرابلس وحمص ودمشق . ولم تخل ايطالية نفسها من تجار الروم ورهبانهم وعمالهم ولا سيما جنوبها . وأشهر رهبان الروم فيها في هذا العصر القديس نيلوس ويوحنا فيلاغاثوس (٣) .

البطريرك افستاثيوس والبابا يوحنا التاسع عشر : ورافق هذا التطور في العلاقات بين فرعي الكنيسة الجامعة اهتمام شديد في الحج والحجاج في الأوساط الرهبانية في الغرب ولا سيما رهبانية كلوني . وكان الاهتمام في توطيد سلطة اسقف

1) *Mansi, XII, 1122.*
2) *Runciman, S., Hist. of. the Crusades, I, 38 ff.*
3) *P. G., Vol. 120 ; Gay, J., Italie Meridionale, 391 - 395.*

رومة من أبرز النقاط في برنامج هـــذه الرهبانية . وهب أفرادها للتبشير به والدعاية له في كل مكان وزمان فأقضوا بذلك مضجع البطريرك المسكوني ولا سيما في الأبرشيات الخمس الايطالية الخاضعة له .

فبحث البطريرك المسكوني هذه القضية مع الفسيلفس باسيليوس الثاني واتفق الكبيران على الكتابة الى يوحنا التاسع عشر في هذا الموضوع . فعرض افستاثيوس في السنة ١٠٢٤ حلا على زميله الروماني قضى بالاعتراف بتقدم رومة في الكرامة والاحترام وبعـــدم تدخلها في شؤون القسطنطينية الداخلية وسائر الأبرشيات الشرقية الداخلة في حوزة الامبراطورية. والمقصود هنا بنوع خصوصي شؤون الأبرشيات الايطالية الخمس . ولا يجوز القول في هذا العرض أكثر مما تقدم لأن النص اليوناني مفقود ولأنه لم يبق عنه سوى الترجمة اللاتينية كما رواها رادولف غلابير (١) . فوافق يوحنـــا التاسع عشر (٢) . ولكن رئيس دير القديس بنينوس في ديجون اعترض باسم رهبانيته على تمزيق سلطة هامة الرسل وكتب بذلك كتاباً شديد اللهجة الى يوحنا التاسع عشر . فتراجع هذا البابا عما اعترف به . فلم يُذكر اسمه في ذبتيخة القسطنطينية ولم يرد في سينوذيكون السنة ١٠٢٥ (٣) . ومن هنـــا قول المؤرخ الالماني المعاصر : « انه في السنة ١٠٢٨ خرجت الكنيسة الشرقية عن طاعة البابا » (٤) . وهو كلام مضلل ينقصه شيء كثير من الضبط والتدقيق ويكذبه سير الحوادث بعد السنة ١٠٢٤ . وجل مـــا حدث ان الاكليريكيين الكبيرين عادا الى ما كانا عليه من المقاطعة في الذبتيخة اما كنائس اللاتين فانها ظلت مفتوحة في القسطنطينية وسواها من مدن الشرق وظل اللاتينيون ايضاً يتعبدون في كنائس الروم وكذلك تابع الدير اللاتيني أعماله في جبل آثوس (٥) . بيـــد ان ظروف الحال أصبحت قابلة الاشتعال سهلة الالتهاب . فجاءتها شرارة قوية من عالم السياسة .

1) *Radulf Glaber, P. L., Vol. 142, Col. 671 ; Michel, A., op. cit., I, 25.*
2) *Jugie, M., Schisme Oriental, 168 - 169.*
3) *Michel, A., op. cit. I, 25.*
4) *Chronica S. Petri Erphordensis moderna, Nonumenta Germ. Hist. Vol. 30, P. 407.*
5) *Leib, B., Rome, Kiev et Byzance, 82 - 83, 100 - 101.*

ازمة سياسية في ايطالية : وكان جنوب ايطالية لا يزال في قبضة الروم . وكان هذا الجنوب يشمل امارتين لومبارديتين امارة ساليرنون وامارة كابوة وبنيفنتوم . وكان يدخل في هذا الجنوب ايضاً ثلاث مدن حرة هي غايتة واماِلفي ونابولي وولاية كالابرية اليونانية وولاية ابولية او لانغوباردية . وكانت هذه يونانية في مدنها لومباردية لاتينية في ريفها . ولم تحاول كنيسة القسطنطينية التدخل في شؤون الكنائس الرومانية القائمة في الامارتين وفي المدن الحرة. ولكنها لم ترض عن تطلع اللاتين في ابولية الى ما وراء الحدود الى رومة القريبة (١) .

وفي السنة ١٠٢٠ ثار ميلو *Melo* على الروم في أبولية واستعان بعدد من الفرسان النورمنديين المرتزقة . وقضى الروم على هذه الثورة المحلية ولكنهم تركوا النورمنديين يستقرون في أبولية ويستدعون اليها عدداً كبيراً من أصدقائهم وذويهم من شمال فرنسة . وفي السنة ١٠٤٠ طمع النورمنديون في الحكم فأخذوا يدوخون جنوب ايطالية بزعامة اسرة هوتفيل *Hautevilles* الشهيرة . وتدخلت المانية في شؤون رومة مرة اخرى في شخص امبراطورها هنريكوس الثالث . فزار هذا الامبراطور رومة في السنة ١٠٤٦ وخلع باباواتها الثلاثة دفعة واحدة وأجلس على سدتها اقليمس الثاني ثم دماسوس . وفي السنة ١٠٤٨ وبعد وفاة هذين الحبرين جاء باسقف تول برونو اللوريني فأجلسه على العرش البطرسي باسم لاوون التاسع (١٠٤٩ — ١٠٥٤). وشغلت هنريكوس مشاغل في المانية فعاد اليها تاركاً امور ايطالية الى لاوون يديرها ويدبرها بحكمته .

رومة تتحدى القسطنطينية : وزار الامبراطور الالماني في اثناء وجوده في رومة جنوب ايطالية فقوى النورمنديين بأن اعترف بحقهم الشرعي في الأماكن التي كانوا قد سطوا عليها . وارتاح لاوون بادىء ذي بدء الى نشاط النورمنديين في جنوب ايطالية لأن نشاطهم عزز سلطته الروحية وأفسح له المجال للصمود في وجه التوسع اليوناني ولا سيما في ابرشية اوترانتو التي كان قد أنشأها نيقيفوروس فوقاس في النصف الثاني من القرن العاشر . ولكنه لم يقدم على الغاء الطقس

1) *Gay, J., Italie Meridionale, 414 - 429.*

البيزنطي (١) . ثم اضطرب لاوون عندما بدأ النورمنديون يدوخون المقاطعات اللومباردية ويقتربون من حدود رومة. وكان هنريكوس لا يزال منهمكاً في امور المانية فتقرب لاوون من الروم للقضاء على نفوذ النورمنديين ولكنه أراد ان يظل محتفظاً بما جناه من توسع النفوذ النورمندي فحاول الجمع بين نقيضين وأمسى تقربه من الروم استفزازاً لسلطاتهم الروحية فاخفق في ميدان السياسة ووقع في يد النورمنديين اسيراً (١٠٥٣) ونفر زميله القسطنطيني فجر الكنيسة الجامعة الى شقاق أليم .

موقف القسطنطينية : وكان قسطنطين التاسع مونوماخوس (١٠٤٢ — ١٠٥٥) فسيلفساً طائشاً خاملا مستهتراً مسرفاً مبدداً الى ان حل به فالج أقعده عن كل حركة . ولكنه كان صافي القلب بشوشاً بعيداً عن الحقد والتكبر يجذب القلوب بلطفه وخفة روحه (٢) . وكان رومانوس اسكليروس اخو خليلة هذا الفسيلفس يكره القائد الكبير جورج منياكيس . فاستدعى قسطنطين هذا القائد من ايطالية وأبعده . فثار القائد ونادى به جنوده فسيلفساً . وشملت حركته جنوب ايطالية فقاومه فيها ارجيروس ابن ميلو اللومباردي الكبير . وعند انتهاء أمر منياكيس استدعى الفسيلفس هذا اللومباردي الصديق وشمله بعطفه وأولاه ثقته . وفي السنة ١٠٥١ عينه مجيستروساً ودوقاً على ايطالية الجنوبية . فأثار بذلك سخط الأوساط المحافظة في القسطنطينية لأن ارجيروس كان لومباردي العنصر لاتيني المذهب . وكان كيرولاريوس البطريرك في طليعة هؤلاء المحافظين الساخطين (٣) . ووافق ارجيروس المجيستروس لاوون التاسع على سياسته في جنوب ايطالية ودخل معه في حلف نجهل شروطه فزاد في وجس المحافظين في العاصمة وأقض مضجعهم .

البطريرك ميخائيل الاول : (١٠٤٣ — ١٠٥٨) وتحدر هذا البطريرك

1) *Epist. ad Michaelem Constantinopol. tanum, P. L., Vol. 143, Col. 764 ; Jugie, M., Schisme Byzantin, 189, n. 1. ; Ostrogorsky, G., Byzantine State, 296.*
2) *Psellos, Chronographia, I, 133 - 134 ; Diehl, C., Figures Byzantines, I, 273 - 276.*
3) *Gay, J., op. cit., 450 472.*

المسكوني كيرولاريوس من اسرة شريفة مثلت مراراً في مجلس الشيوخ . والتحق بسلك الادارة المدنية وتدخل في السياسة . ولعله تزعم حركة الانقلاب في السنة ١٠٤٠ التي استهدفت ازال ميخائيل الرابع عن عرشه . ولعله طمع في هـذا العرش آنئذ كما جاء في بعض المراجع الاولية (١) . ويروى ايضاً انه لدى اخفاقه في هذه الحركة طلب العزلة ثم قدم النذر عن اخلاص وتقوى ولبس الاسكيم (٢) . ولدى وصول قسطنطين التاسع الى العرش عاد كيرولاريوس الى الاهتمام بالبلاط وشؤونه فاستمال الفسيلفس وكسب ثقته وأصبح أشد الناس أثراً في نفسه . ثم عينه البطريرك اليكسيوس الاستودي بروتوسينكيلوساً فأصبح هو البطريرك المنتظر . وتوفي البطريرك اليكسيوس في العشرين من شهر شباط سنة ١٠٤٣ فخلفه في السدة بعد شهر من الزمن كيرولاريوس باسم ميخائيل الاول .

وكان ميخائيل الاول ادارياً قديراً صارماً قاسياً ينقصه دهاء فوطيوس وتوقد ذهنه وكان عزيز الجانب لا يناله طالب ولا يطمع فيه طامع . ولم يكن ذاك العالم اللاهوتي المؤرخ الذي وجدته القسطنطينية في شخص فوطيوس . ولكنه شابه فوطيوس في اعتزازه باليونان وتعلقه بطقوسهم . وكان رفيع الأهواء بعيد الهمة فتبنى برنامج سلفه افستاثيوس وحاول قدر المستطاع تحقيقه فكان هو المقدم على بطاركة الشرق وزعيم الكنيسة الشرقية . فأوجب توحيد الطقوس والقوانين وتدخل في شؤون الكنائس الشرقية غير الأرثوذكسية محاولا انقاذها من الضلال وارجاعها الى حظيرة الكنيسة الجامعة وخص الكنيسة الأرمنية بعنايته . وكانت هذه الكنيسة قد انفصلت عن الكنيسة الجامعة بعد المجمع الخلقيدوني فقالت مع اليعاقبة بطبيعة واحدة وخالفت الكنيسة اليونانيـة الأرثوذكسية فأكلت الدم وصامت السبت وبدأت الصوم في الأحد السبعيني الثالث قبـل الصوم الكبير واستعملت الفطير في سر الافخارستية فبحث ميخائيل هذا الأمر مع الفسيلفس واستدعى كبير الكنيسة الأرمنية آنئذ الكاثوليكوس بطرس الى القسطنطينيـة

1) *Skylitzès (Cedrenus)*, 106.

2) *Amann, E., Rome et Const., op. cit.*, 138.

للتفاهم والاتحاد . فجاء بطرس في السنة ١٠٤٩ ولقي حفاوة كبيرة واكراماً من السلطات الزمنية والروحية (١) .

الكنائس اللاتينية في القسطنطينية : (١٠٥٢) وبينـما كان البطريرك المسكوني وحاشيته وأصدقاؤه وأعوانه يضطرمون بهذا الروح الوثاب وهـذه الخلال الأرثوذكسية النقية كان بريد ايطالية يحمل الى العاصمة الشرقيـة بين آونة واخرى أنباء التوسع اللاتيني في الأبرشيات الايطالية الأرثوذكسية وضغط النورمنديين على الكنائس الأرثوذكسية التي كانت قد دخلت في حوزتهم . ومما زاد في الطين بلة ان ارجيروس ممثل الروم في ايطاليـة كان يجادل البطريرك المسكوني في أمر الفطير ويدافع عن وجهة نظر اللاتين . فلما قاربت السنة ١٠٥٢ نهايتها أوجب البطريرك المسكوني على جميع الكنائس اللاتينيـة في القسطنطينية ممارسة الأسرار والطقوس بموجب التقليد اليوناني الأرثوذكسي . فامتنعت هذه الكنائس فأمر البطريرك باغلاقهـا (٢) . وليس من العلم ان نقول مع بعض المؤرخين ان نيقيفوروس أحد رهبان البطريركية المسكونية أخذ القربان المحفوظ في كنيسة لاتينية ورمى به الى الأرض وداسه زاعماً انه غير مقدس. فهو قول ينفرد به هومبرتو وينقصه الشيء الكثير من العدالة والضبط .

رسالة لاوون اخريدة : وفي ربيع السنة التاليـة ١٠٥٣ كتب لاوون متروبوليت اخريدة ورئيس اساقفة بلغارية الى السينكلوس يوحنا اسقف تراني في جنوب ايطالية ونائب البطريرك المسكوني فيها يوجب تجنب البدع الغربيـة كاستعمال الفطير وصوم السبت وأكل الدم والمخنوق وغير ذلك ويوضح وجوه الخطأ فيها . ثم يرجو اطلاع اساقفة الافرنج على مضمون رسالته ويود لو ان البابا الجزيل الاحترام يحيط علماً بها ايضاً (٣). وجاءت لهجة لاوون قاسية عنيفة

1) *Every, G., The Byzantine Patriarchate*, 166,

2) *Leon IX, Epist. 19, 29, P. L., Vol. 143, Col. 158, 164 ; Humbert, Brevis et Succincta, P. L., Vol. 163, Col. 1002 ; Amann, E., op. cit., VII, 140 ; Jugie, M., op. cit. 189 - 190.*

3) *Epistola ad Ioannem Episcopum Tranensem, P. G., Vol. 120, Col. 836 ff.; Michel, A., op. cit., II, 282 - 291.*

كقوله : « من يصوم السبت ويقدس على الفطير ليس يهودياً ولا وثنياً ولا مسيحياً وانما هو شبيه بجلد النمر المرقط » فأثارت الكره والحقد والشقاق .

ووصلت رسالة لاوون في أتعس الاوقات . فالنورمنديون كانوا قد قضوا على مقاومة ارجيروس في شباط السنة ١٠٥٣ وكانوا قد اسروا البابا لاوون التاسع في حزيران السنة نفسها واجبروه على الاقامة في بنيفنتوم . وشاء سكرتير هذا البابا هومبرتو مورموتييه *Humbert de Mourmoutiers* كاردينال سيلفة كانديدة *Silva Candida* ان يتصل بسيده فأذن له النورمنديون بذلك . فرأى ان يذهب اولا الى ابولية ليتصل بارجيروس فمر بمدينة تراني واتصل باسقفها . فأطلعه هذا على الرسالة التي وجهها اليه لاوون اخريدة . فقرأها ونقلها الى اللاتينية وتوجه الى بنيفنتوم فأطلع سيده عليها . ويرى رجال الاختصاص ان هومبرتو اساء الترجمة وانه كان يكره اليونانيين وكنيستهم فأهمل ودس فجاءت ترجمته اشد عنفاً واسوأ اثراً من الاصل اليوناني . ومن دسائسه انه اضاف اسم البطريرك المسكوني الى الرسالة فجعلها تصدر عنه وعن رئيس اساقفة بلغاريا . ومن هنا قول البطريرك المسكوني الى بطريرك انطاكية انه لم يخاطب البابا ولم يكتب الى اي اسقف في الغرب في موضوع الفطير وان اللاتينيين « فضوليون قليلو التبصر يحبون الكذب » (١) . وكان لاوون التاسع لا يزال يجهل اليونانية فاعتمد ترجمة هومبرتو واستشاط غيظاً وامر بالرد عليها .

رد لاوون التاسع : وأمر البابا بالرد على رسالة لاوون اخريدة برسالتين توجه احداهما الى « الاسقفين » ميخائيل القسطنطينية ولاوون اخريدة وتترك الثانية بدون عنوان وترد التهم الموجهة الى الكنيسة اللاتينية (٢) .

وأعد هومبرتو هاتين الرسالتين (٣) فاستهل الاولى بالرغبة في السلام ولكنه ملأها بعبارات الصلف والترفع والاستمساك بالرئاسة . وهدد بامتيازات

1) *Jugie, M., Schisme Byzantin, 193, n. 1. ; Runciman, S., Eastern Schism, 42 - 43.*
2) *Leon IX, Epistola ad Michaelem Constantinopolitanum, P. L., Vol. 143, Col. 744 - 769 ; Adversus Graecorum Calumnias, P. L., Vol. 143, Col. 931 - 974 ; Michel, A., op. cit., I, 43 - 76.*
3) *Michel, A., Ibid. ; Jugie, M., op. cit., 194.*

رومة واعتبر « الاسقفين ميخائيل ولاوون » أحمقين لانهما تجاسرا فحكما على السدة الرسولية التي لا يستطيع احد من المثتين ان يحاكمها . ولكي يؤيد هذه السلطة ذكر منحة قسطنطين الى سيليفستروس ورأى فيها امراً الهياً مصدقاً من المجمع المسكوني الاول . ونصح الى هذين « الاسقفين » ان يندم كل منهما على ما فعل وان يرجع عن الطريق التي مشى فيها لئلا يصبح في الآخرة من جملة المسحوبين بذنب التنين الذي جرّ ثلث كواكب السماء . وضم هومبرتو الى هذه الرسالة نسخة عن منحة قسطنطين « لكي لا يرتاب احد في ان سيادة رومة على الارض لم تؤسس على الخرافات والخزعبلات وانما صدرت عن قسطنطين نفسه الذي رأى ان خضوع صاحب السلطات السماوية للسلطات الارضية غير لائق » ! .

والواقع الذي لا مفر من الاعتراف به هو ان منحة قسطنطين هذه التي احتج هومبرتو ولاوون بها هي وثيقة مزورة صنفت في القرن الثامن لتدعيم سلطة رومة . وهو امر يجمع عليه رجال الاختصاص من كاثوليكيين غربيين وبروتستانتيين وارثوذكسيين (١) .

توسط السنكلوس : ولمس الستراتيجوس أرجيروس درجة الاساءة التي شعر بها البابا لاوون لدى اطلاعه على رسالة لاوون اخريدة فاتصل بالسنكلوس يوحنا اسقف تراني وبحث تطورات الموقف معه فرأى الاثنان معاً ان المصلحتين السياسية والدينية تقضيان بتلافي الامر وتدارك الخطر قبل وقوعه فقام يوحنا الى القسطنطينية وأكد للبطريرك المسكوني ان البابا رجل نجيب فاضل عاقل وان التعاون معه ضروري لمصلحة الروم في ايطالية . وكان البطريرك شديد الثقة بالسنكلوس لايشك في ولائه فكتب الى زميله الروماني كتاباً رقيقاً اوضح فيه رغبته في الوئام والاتفاق ورجاه ان يذكر اسمه في ذبتيخة رومة مقابل ذكر البابا في ذبتيخة القسطنطينية . ولكنه حيا زميله الروماني اخاً لا اباً ووقع بصفته بطريركاً مسكونياً . وكتب الفسليفس ايضاً كلاماً لطيفاً دعا به الحبر

1) *Leclercq, H., Constantin (Donatio Constantini). Dict. Arch. Chret., III, 2676 - 2683,* اطلب ايضاً رأي ملاتيوس رئيس أساقفة اثينة ورأي جراسيموس متروبوليت بيروت في كتابه تاريخ الانشقاق ج ٢ ص ٨٠ — ٨١

الروماني الى التعاون المخلص في الحقل السياسي . وقد ضاع نص هاتين الرسالتين ولم يبق منها سوى ما جاء عنها في رد البابا وما اشار اليـــه البطريرك المسكوني في رسائله الى بطرس الثالث بطريرك انطاكية . وعاد هومبرتو فـــيما يظهر الى الدس والافساد فانه جعل البطريرك المسكوني يقول بأنه يقابل ذكر اسمه في ذبيحة رومة بذكر اسم البابا في جميـــع كنائس العالم *in toto orbe terrarum* . ولعل البطريرك استعمل اللفظ اليوناني « المسكوني » بمعناه البيزنطي اي في جميع كنائس الامبراطورية فهال البابا هذا الكلام بلفظه اللاتيني وأضرم غيظه . وكان قـــد أضعفه المرض فوكل أمر الرد الى هومبرتو وليته لم يفعل !

الكردينال هومبرتو : وكان الكاردينال هومبرتو يمين البابـــا ورئيس اركانه على شي من العلم والثقافة وبعض الشيء من التقوى ولكنه كان ضيق الخلق جافي الطبع شديد التصلب صفيق الوجه لايندى له جبين . وكان يكره اليونانيين فجاء وفي رأسه خطة وعزم على الذهاب بنفسه الى القسطنطينية حاملا رد البابا . فأعد باسم سيده رسالة الى الفسيلفس شكا فيها البطريرك واخبر بسؤ فعله وأنذر بالمقابلـــة بالمثل وخوّف من العواقب . واعلم بقيام وفد باباوي الى القسطنطينية وطلب تسهيل مهمتـــه . وكتب رسالـــة اخرى الى البطريرك المسكوني اكد فيها اولوية رومـــة وسيادتها ولام البطريرك على التقلب بالمسكوني وشك في قانونية انتخابه وأنكر عليه تطاوله على حقوق كنائس الاسكندرية وانطاكيـــة وأنبه على تطفله وانتقاده الطقس اللاتيني ولا سيا التقديس على الفطير ورجا الله ان يجده ممثلو البابا الذاهبون الى القسطنطينية في التوبة والندامة ! (١)

الوفد البابوي المفاوض : وتألف الوفد المفاوض من الكردينال الاسقف هومبرتو والشماس فريدريكوس اللوريني حافظ الختم وبطرس رئيس اساقفـــة أمالفيس . وسهل النورمنديون المفاوضة . فدعا لاوون التاسع الى مجمع محلي في باري في صيف السنة ١٠٥٣ فتشاور الاباء اللاتينيون في امر الانبثاق من الآب

1) *Léon IX, Epist., P. L., Vol. 143, Col. 773 - 781 ; Runciman, S., Eastern Schism, 44 ; Jugie, M., Schisme Byzantin, 196, n. 1.*

والابن وزودوا الوفد بما يجادلون به (١) . وفي مطلع السنة ١٠٥٤ قام الوفد الى ابولية للاتصال بأرجيروس المجيستروس والاصغاء الى ارشاداتـــه . فنصح اليهم ارجيروس ان يتصلوا بأخصام البطريرك المسكوني في القسطنطينية وان يتعاونوا معهم في السعي لدى الفسيلفس لاحباط مشاريع البطريرك المسكوني وابطالهـــا . فجاء رأيه سخيفاً فاسداً لان البطريرك ميخائيل الاول كان قـــد غبّر في وجوه اخصامه في القسطنطينية وأصبح لا يباري ولا يمادي في سياسة العاصمة . والتبس على هومبرتو وجه الصواب فأخذ بهذا الرأي الطائش وقاطع من رغب في مفاوضته قبل الاتصال به (٢) .

هومبرتو في القسطنطينية : (١٠٥٤) ووصل الوفد المفاوض الى عاصمة الروم في أواخر آذار او أوائل نيسان سنة ١٠٥٤ . وعملا برأي ارجيروس العاثر أهمل الوفد البطريرك واتصل بالفسيلفس اولا فخالف العرف الكنسي . ثم عرّج على البطريركية فاستقبله البطريرك في قاعة التسجيل يحيط به رهط من المطارنة وكبار الموظفين الاكليريكيين . وقضى العرف المسيحي بأن يدخـــل الكردينال الاسقف على البطريرك المسكوني متواضع النفس خافض الجناح متنحياً عن مقاعد الكبر ولكن هومبرتو أقبل شامخ الأنف رافع الرأس سموداً . وقضى البروتوكول البطريركي بأن يجلس الاسقف بعد المطارنة فجاوز هومبرتو قدره وتعدى حده وامتنع عن الجلوس . ثم نصب صدره ومط حاجبيه ودفع برسالة لاوون التاسع دفعاً وسما بنفسه ثم خرج أزهى من الغراب . فاعتبر البطريرك هذا العمل وقاحة وخرقاً لحجاب الحشمة (٣) .

ثم قرأ البطريرك رسالة البابا ودقق في ختمها فرابه امرها واعتبرهـــا من وحي أرجيروس خصمه فامتنع عن الاعتراف بصلاحية الوفد المفاوض وأبى ان يشترك مع اعضائه . وتوفي لاوون التاسع في الثالث عشر من نيسان سنة ١٠٥٤ وشغر الكرسي الروماني سنة كاملة ولم يرق فيكتوريوس الثاني السدة قبل الثالث

1) *Michel, A., op. cit., I, 97 - 111.*
2) *Gay, J., Italie Meridionale, 409 ; Runciman, S., op. cit., 44 - 45.*
3) *Epist. Cerularii ad Petrum Antiochenum, P. G., Vol. 120, Col. 785 - 788.*

من نيسان سنة ١٠٥٥ وعلم البطريرك هذا كله (١) فنام عن أمر هومبرتو وتركه رهن الطوارق .

ولكنّ هومبرتو أسهر قلبــه واستوقد غضبه وراح يتحرّق ويتلهّب فعكف على ملفه وقلّب اوراقه فوجد فيــه الردين الاولين على رسالة لاوون اخريدة وعثر ايضاً على رسالة كانت قد وردت على رومة من اوروشليم وفيها ما يؤيد رومة في بعض طقوسها فأعاد النظر في نصوص هذه الرسائل « وهذّبها » ونقلها الى اليونانية واتحف الروم برد على لاوون اخريدة افرغ فيــه ذنوباً وذنوباً (١) . فهب الراهب نيكيتا ستيثاتوس الاستودي فصنف رسالة في حق اللاتين (٢) . وطعن في حالة العزوبة المفروضة على الكهنة عندهم وفي ممارسة القداس العادي في اثناء الصوم على الرغم من تحريمه في القانون الثاني والخمسين من قوانين مجمع ترولي ولكنه لم يرَ في هــذا كله هرطقة بل انحرافاً عن التعليم الرسولي . وسمى كنيسة رومة « عين المسكونة كلها » (٣) .

فعاد الكردينال الى طيشه وخلع جلباب الحياء فأوسع نيكيتا شتماً وسباباً وجعله سافلا وحماراً وزانياً ورئيس الهراقة (٤) . واحتج لدى الفسيلفس وأصر على الاعتذار متخذاً لنفسه صفــة القاضي الروماني الذي جاء ليصدر حكماً مبرماً لا المفاوض بالسلام والمحبة . « فاعتبر الكرسي القسطنطيني العظيم اسقفية متمردة خاضعة لبطريركية رومة وعامل صاحبها معاملة مرؤوس مذنب يجب عليــه التماس الصفح من رئيسه الكريم . وظن ان ميل الفسيلفس نحوه لاسباب سياسية يكفي لقهر البطريرك والشعب » (٥) وسال لعابه من فــه فأثار مشكلة الانبثاق وادعى ان اليونانيين حذفوا من دستور الايمان النيقاوي القسطنطيني العبــارة « ومن الابن » ! فأساء التصرف وكشف جهلــه . واضطر الفسيلفس ان يطلب

1) *Ibid. Col. 784 A.*
2) *P. L., Vol. 143, Col. 951 ff.*
3) *P. G., Vol. 120, Col. 1012 - 1022 ; P. L., 143, Col. 973 - 984 ; Demetracopoulos, A., Biblioth. Ecc., I. 18 - 36 ; Milhel, A., Humbert und Kéroularios, II, 322 - 342.*
4) *Jugie, M., op. cit., 200 - 202.*
5) *Contra Nicetam, P. L., Vol. 143, Col. 983-985, Jugie, M., op. cit., 202-203.*

الاجتهاد في سبيل الاتحاد للمرسلين البولسيين ص ٢٠

اليه شرح ذلك كتابة . ففعل وقدم مذكرة خطية بهذا المعنى قبل الرابع والعشرين من حزيران سنة ١٠٥٤ . وقد عثر على نسخة قديمة عنهــا العلامة الالماني ميشال ونشرها في مؤلفه عن هومبرتو و كيرولاريوس (١) . وحاول الفسيلفس جهده للتقريب بين الطرفين ولكن البطريرك أصر على مجانبة هومبرتو واوجب دعــوة مجمــع مسكوني للبت في أمر الانبثاق . فازور الكردينال وانقبض ولجأ الى الحرمان والتحريم .

حرم هومبرتو : وفي السادس عشر من تموز سنة ١٠٥٤ دخل الوفــد البابوي الى كنيسة الحكمة الالهية والقداس قائم فيها واتجهوا نحو الهيكل فالمائدة ورفعوا الانجيل الطاهر ووضعوا حرماً تحتــه بحضور الاكليروس والبطريرك . ثم نفضوا غبار أرجلهم وخرجوا قائلين : « الرب يحكم في ما بيننا وبينكم »(٢). ومكثوا يومين في القسطنطينية ثم غادروها حاملين الهدايا حسب العادة ! « فجاء عملهم أقرب الى التمثيل المسرحي منه الى عمل كنسي (٣) .

والامر الذي يؤسف له هو نص الحرم ولهجته . فقــد نسب الكردينال الى البطريرك المسكوني سلسلة من التهم والهرطقات الخيالية . فقد جاء في هــذا الحرم عن البطريرك ميخائيل الاول انه ذاك الذي يزعم انــه بطريرك وجاء عن المؤمنين انهم تبعوا جنون هذا الذي يزعم انه بطريرك وانهم كالغيلاسيين يرقون الخصيان الى درجــة الكهنوت الاسقفية وكالاريوسيين يجددون عماد اللاتين وكالدوناطيين ينكرون وجود كنيســة المسيح خارجاً عنهم وكالنيقولاويين يزوجون الكهنة بعد رسامتهم وكالسافاريين يلعنون شريعــة موسى وكاعداء الروح القدس حذفوا من قانون الايمــان العبارة والابن وكالمانيين يقولون بان الخمير حي ذو نفس كالناصريين لايعمدون ولو في خطر الموت من كان في حالة من الاحوال التي تسمى نجاسة في شريعة موسى وانهم يرفضون تقديم القربان لمن يحلق لحيته الى ما هنالك من الافتراءات التي لا اساس لها . وجاء في الحرم اخيراً

1) *Michel, A., Humbert und Keroullarios, I, 97 - 111.*
2) *Brevis et Succincta Commemoratio, 3, P. L., Vol. 143. Col. 1001-1002.*
٣) الاجتهاد في سبيل الاتحاد ص ٢١

ان ميخائيل الاول اغلق كنائس اللاتين واضطهدهم ومنع المندوبين من اقامة القداس وانه بانزاله الحرم ببعض اللاتين تجرأ على حرم الكرسي الرسولي نفسه .

وانتهى الحرم هكذا : « ميخائيل الحديث في الاكليروس الذي يحمل بلا حق لقب بطريرك الذي اتخذ اللباس الرهباني بعامل الخوف البشري فقط ومعه لاوون الذي يزعم انه اسقف اخريدة ونيقيفوروس كاتب ميخائيل الذي انتهك حرمة القدسيات فداس برجليه ذبيحة اللاتين وكل الذين يتبعونهم في ضلالاتهم المذكورة وتجاسراتهم المتغطرسة كل هؤلاء فليسقطوا تحت اللعنة «ما ران اثا» مع السيمونيين والفالاسيين والآريوسيين والدوناطيين والنيقولاويين والسافاريين واعداء الروح القدس والمانيين والناصريين وجميع الهراطقة لا بل مع الشيطان وملائكته ما لم يتوبوا . آمين آمين آمين » ! (١) .

وخرج هومبرتو من كنيسة الحكمة الالهية وخرج شريكاه ايضاً فلحق بهم شماس ارثوذكسي حاملا الحرم بيده راجياً استرجاعه . فأبوا فرمي بالحرم الى ارض الشارع ثم التقط الحرم ورفع الى البطريرك فأمر بترجمته . فنقله الى اليونانية كل من البروتوسبثاريوس كوزما وبيروس الروماني والراهب يوحنا الاسباني .

البطريرك والفسيلفس : ووقف البطريرك على الترجمة اليونانية فاتصل بالفسيلفس واطلعه عليها . وكان قسطنطين قد ودع ضيوفه بقبلة السلام والمحبة فلما اطلع على مضمون الحرم اشتعل غضباً وكاد يخرج من ثيابه . ثم رجعت أناته وخشي ان يكون البطريرك قد بالغ في الامر فأرسل من لحق بالوفد الروماني وطلب نسخة عن الأصل اللاتيني . ولدى اطلاعه على هذا الاصل وضح الامر وبان الذنب فأرسل الفسيلفس يأمر الوفد بالعودة الى القسطنطينية والمثول امام السنودوس المقدس . فأبوا وتابعوا السير .

ولم يلبث خبر الحرم ان ظهر وشاع في العاصمة . فاضطربت به الألسنة

١) واللفظ العربي مأخوذ عن الاجتهاد في سبيل الاتحاد ص ٢١ – ٢٢ راجع ايضاً تاريخ الانشقاق لجراسيموس متروبوليت بيروت ج ٢ ص ٨٦ – ٨٩ .
Jugie, M., Schisme Byzantin, 203 - 208.

وسار على الأفواه ففار فائر الشعب وثار ثأره وبات يرعد من الغضب . فخشي قسطنطين سوء العاقبة فأمر بمعاقبة الوسطاء بين الوفد وبين الأوساط الرسمية وألقى القبض على أقرباء ارجيروس وزجهم في السجن ثم أمر باحراق الحرم علناً . وكتب بهذا كله الى البطريرك المسكوني هكذا :

« ايها السيد الجزيل القداسة . ان دولتي قد دققت في الأمر الذي حصل فوجدت أصل الشر ناشئاً عن المترجم وعن ارجيروس . أما غرباء الجنس فانهم مرسلون من آخرين ولا نستطيع ان نعمل معهم شيئاً. وأما المسببون فقد ضربوا. ثم إنا أرسلناهم الى قداستك ليؤدب بهم آخرون . أما «الورقة» فمن بعد حرمها وحرم الذين أشاروا بها والذين أصدروها والذين كتبوها والذين لهم أقل علم بها فلتحرق أمام الجميع . وقد أمرت دولتي بسجن الفيستارشيس صهر ارجيروس وابنه الفيستياريوس ليقيما فيه تحت الشدة بحسب استحقاقهما » (١) .

السيميومة : ودعا البطريرك المجمع المقدس الى النظر في قضية هومبرتو . فالتأم المجمع في العشرين من تموز بحضور رسل الفسيلفس الثلاثة الذين حملوا رسالته الى البطريرك . فلعن المجمع الحرم وواضعيه وكل من عاون في اعداده . وأبى البطريرك احراق الحرم لأنه رغب في « ان يبقى شهادة على العار الأبدي والذنب الدائم اللذين لحقا باولئك الذين جدفوا على الهنا مثل هذا التجديف » (٢).

وفي الرابع والعشرين من الشهر نفسه عاد المجمع الى الانعقاد فجلس في كنيسة الحكمة الالهية في المكان المعين للموعوظين واتخذ قراراً رسمياً في قضية هومبرتو عُرف بالسيميومة *Semeiouma* اي الحاشية وقرىء على المؤمنين في الوقت نفسه الذي افسح لتلاوة قرارات المجمع المسكوني الخامس . وكانت العادة قد جرت بقراءة هذه القرارات في مثل ذلك اليوم (٢٤ تموز) من كل عام.

« لقد جاء الان رجال اردياء الايمان وكرهون رجال نبغوا من الظلام

١) وقد جاء هذا النص تابعاً لنص القرار المجمعي . واللفظ العربي لجراسيموس متروبوليت بيروت: الانشقاق ج ٢ ص ٩٩ .
2) *P. G., Vol. 120, Col. 748 B.*

لانهم اولاد المغرب ودخلوا هذه المدينة الحسنة الايمان المحفوظـــة من الله التي تتدفق منها ينابيع الرأي القويم فتجري الى اقاصي المسكونـــة لتسقي النفوس بالعقيدة الحسنة . وقفز هؤلاء الرجال وشرعوا يفسدون التعليم الصحيح وتمادوا فوضعوا صكاً على المائدة السرية مائدة كنيسة الله العظمى وبه وضعونا وكنيسة الله الارثوذكسية وسائر الارثوذكسية تحت الحرم لاننا نريـــد ان نواظب على الايمان الحسن ونعيش على استقامة الرأي . وقد طعنوا فينا ببعض المطاعن وبأننا لا نطيق ان نحلق لحانا فنحول صورة الانسان الطبيعية الى صورة غير طبيعيـــة مثلهم وبأننا لا نرتاب في امر تناول الاسرار من قساوسة متزوجين وبأننا لم نرغب في الدس في الدستور الشريف المقدس وفي تزويره بآراء نغيلة واقوال دخيلة فلم نقل مثلهم ان الروح القدس ينبثق من الآب والابن بل من الآب .

« وقـــد تظاهروا بأنهم جاؤوا من رومة واوفدوا من البابا والصحيح انهم جاؤوا من تلقـــاء أنفسهم وبارشادات ارجيروس الغشاشة ولفقوا تحارير وادعوا انها صادرة عن البابا . وقد كشفنا هـــذا التزوير بتدقيق الاختام وامور اخرى وجاء الصك بأحرف ايطالية ووضعه هؤلاء الاردياء اولا على مائـــدة كنيسة الله العظمى بحضور سبعة ايبوذياكونة القسم الثاني . فرفضه الايبوذياكونة ورموه عن المائدة الالهية وقالوا لواضعيـــه ان يأخذوه . فامتنعوا . ثم تناقلته الايادي فأخذته حشمتنا وحفظته كي لا تنشر التجاديف التي فيه . ثم اننا دعونا من يجيد الترجمة وسمحنا بنقل الصك الى اليونانية . فتبين منـــه ان كل من يقاوم ايمان السدة الرومانية وذبيحتها فليكن اناثيما وليدع خميرياً وضداً جديداً للمسيح . فاعلنت حشمتنا هـــذا الامر لملكنا صاحب القدرة والقداسة . فأرسل يستدعيهم الى المدينة العظمى لانهم كانو قد سافروا قبل ذلك بيوم واحد . فعادوا ولكنهم لم يريدوا ان يحضروا امامنا ولا ان يواجهوا المجمع العظيم المقدس ويجيبوا عمـــا فاضت به بطونهم من الكفر . ولم يرض ملكنا العظيم ان يجبرهم على ذلك لانهم يتقلدون رتبة السفارة بحسب الظاهر . ولكن بما انه لايليق ايضاً ولا يحق ان تبقى هذه السفاهة بلا قصاص فقد دبرّ الملك علاجاً ناجعاً وارسل الى حقارتنا كتاباً

شريفاً محترماً . وهذه صورته بالحرف الواحد : » (١) .

البطريرك المسكوني وسائر البطاركة : وسارع ميخائيل الى الاتصال بزملائه البطاركة الشرقيين لاطلاعهم على واقع الحال وحثهم على اتخاذ موقف مماثل لموقفه فحرر رسالتين الى بطرس الثالث بطريرك انطاكية . وكتب الاولى فور انتهائه من اصدار السيميومة فذكر أعمال هومبرتو باختصار وبيّن موقفـــه منها ولا سيما من قضية الفيليوكوي ووعد بارسال نسخة عن حرم هومبرتو ورجا زميله الانطاكي ان يتصل بزميله الاوروشليمي والاسكندري ويحضهما على الدفاع عن الارثوذكسية (٢) . ثم عاد الى الكتابـــة فأسهب وتكلم في موقف الكنيسة اليونانية الارثوذكسية من الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية . ومما قاله ما معناه .

« ولمـــا علمت ما كان يتحلى به البابا الذي توفي من فضائل كتبت اليه كتابة مسهبة بوجوب الاتفاق على نقاط الاختلاف في الايمان . وكنت ارجو ان استميل البابا للتعاون مـــع الافرنج ضد النورمنديين في ايطالية . ودفعت بهـــذه الرسالة ورسالة من القيصر الى البستياريوس ليسلمها امينة وينقل الجواب عنها . فلما وصل هـذا الرسول الى ايطالية اتصل بارجيروس فخدعه واخذ الرسائل منه مدعياً انه بامكانه ان يقدمها للبابا بسرعة اكثر منه . واخذ ارجيروس الدراهم الملوكية المرسلة الى البابا وتصرف بها لمنفعته الشخصية . ودعا اليه تابعيه وبينهم واحد كان اسقفاً على مدينة أملفينا فطرد من كنيستها لاسباب شرعية . وبينهم ايضاً الكردينال هومبرت له اسم رئيس اساقفة فقط ولم تكن ابرشيته معروفة . امـــا الثالث فان ارجيروس لقبه كانكيلاريوس الكنيسة الرومانية ليجعله برجاً حصيناً لمقاصده . ثم فتح ارجيروس رسالتي وكتب الي جواباً متستراً تحت اسم البابا . ثم جعل هؤلاء الثلاثة يحملون هذا الجواب الى القسطنطينية . ولما وصلوا الى هنا حضروا اولا امام القيصر بعنفوان غريب . ثم زاد هذا العنفوان حين جاؤوا الي . فانهم لم يقولوا لي كلمة واحدة ولم يحنوا رأسهم ولم يسلموا السلام العادي ولم يرضوا بالجلوس بعد المطارنة . وما لي والقول عن نفسي فانهم دخلوا على القيصر حاملين بأيديهم الصلبان والمكاكيز . واكتفوا بأن سلموني الرسالة المختومة وابتعدوا ولاحظت الرسالة قبل فضها فرأيت ختمها مزوراً . اما فحواها فانه كان مملوءاً مالقة وخبثاً لانه شمل جميع المواضيع التي كان ارجيروس قد ذاكرني بها يوم كان في القسطنطينية ولا سيما موضوع الفطير . وكنت قد إضطررت الى حرمه اربع مرات . واني مرسل اليك نسخة عن رسالتي الى البابا وترجمـــة يونانية لجوابه الذي حمله الي اولئك الكفرة لكي تعلم الحقيقة حق علمها . ثم ان خبثهم ظهر بجلاء بعد حضور رئيس اساقفة تراني فانه كشف لنا كل شيء فاذا به يتفق وما كنت قد سردته للقيصر » .

١) وهو ما ورد نصه قبل هذه السيميومة اطلب ايضاً :
P. G., Vol. 120, Col. 736 - 748 ; Jugie, M., op. cit., 212 - 213.

2) *P. G., Vol. 120, Col. 815 - 820.*

ولام ميخائيل زميله الانطاكي فراجعه بذكر اسم لاوون التاسع في الذبيتيخة مؤكداً ان اسماء الباباوات حذفت من ذبيتيخات الكنائس بعد البابا فيجيليوس . وطعن في استعمال الفطير في كنائس اللاتين وفي امور اخرى انحرفوا بها عن التسليم الابوي القديم وخالفوا القوانين المسنونة ولا سيا اكل المخنوق والدم وحفظ صوم السبت بدلا من الاربعاء ومنع زواج الكهنة والسماح بالزيجة بين الاقرباء والتعميد بغطسة واحدة والزيادة على دستور الايمان والقول بالانبثاق من الآب والابن والخاتم الذي يلبسه اساقفتهم وخروجهم في الحروب كالعسكر وهرق الدم لهلاك النفوس . وأضاف ميخائيل ان الذين يرسلون من الغرب يسعون لبث تعاليمهم المنحرفة ويكرهون الناس على قبولها (١) .

انطاكية تذكر بالمحبة : وقال بطرس الثالث بطريرك انطاكية قول سلفائه بطاركة انطاكية بالبنتارخية اي برئاسة البطريركيات الخمس على الكنيسة وصارح رومة بذلك في رسالة الجلوس التي وجهها الى لاوون التاسع حين تسلم عكاز الرعاية . وكرر هذا القول في رده على دومينيكوس رئيس اساقفة اكويلية. وقد سبقت الاشارة الى هاتين الرسالتين في بحث سابق . واعتبر بطرس زميله الروماني مقدماً على البطاركة عملا بقرارات المجامع المسكونية . واوضح لميخائيل البطريرك المسكوني ان موقفه من ذكر البابا في الذبتيخة لا يتفق والواقع . فأكد انه يذكر ان اسم البابا كان مكتوباً في ذبيتيخة انطاكية في عهد بطريركها يوحنا وانه عندما زار القسطنطينية قبل اربعين سنة سمع اسم البابا يوحنا يذكر مع اسماء سائر البطاركة .

ورأى بطرس الثالث ان اضاليل رومة التي ذكرها ميخائيل ثلاثة : منها ما يجب تجنبه ومنها ما يجب اصلاحه ومنها ما يجب السكوت عنه « لأنه ماذا يهمنا اذا كان الاساقفة اللاتينيون يحلقون لحاهم ويلبسون الخواتم . الا نقص نحن شيئاً من شعر قمة الرأس اكراماً لبطرس ونلبس ألبسة مذهبة . ولا حرج فيما يتعلق بالاطعمة واللحوم الغير الطاهرة لان رهباننا يفعلون ذلك. ولا يجب ان يكره

1) *P. G., Vol. 120, Col. 789 - 793.*

الانسان شيئاً مما خلقه الله بل يجب ان يقبل كل شيء بالشكر » .

اما « الشر العظيم الذي استحق الاناثيما » في نظر البطريرك الانطاكي فانه كان تلك الاضافة الى نص الدستور المقدس اي القول بالفيليوكوي . ولكنه رأى انه من الواجب « ان ننظر بانتباه الى الطوية الصالحة . فان لم يكن الايمان على خطر فعلينا حينئذ ان نرجع السلام والمحبة على غيرهما لان الغربيين اخوتنا وان كانوا يخطئون احياناً كثيرة بسبب توحشهم وجهالتهم . ولا يجوز ان نطلب من البربر الكمال الذي عندنا نحن الذين منذ نعومة الاظفار ننشأ في مطالعة الكتب المقدسة . ويكفي ان يحفظ الغربيون التعليم القديم في الثالوث القدوس وسر التجسد » .

ولم يستحسن بطرس الثالث منع القسوس المتزوجين عن مسك القدسات ولم يرض ايضاً عن عدم حفظ الاصوام كما حفظها هو . وأسهب في الكلام عن الفطير . ومما قاله في هذا الموضوع ما يلي : « ان من يقدم الفطير يقدم جسداً ميتاً لا حياً وان من يأكل الفطير لا يستفيد من المسيح » .

وأنهى بطرس رده على ميخائيل قائلا : « فان كنت تكتفي بالتشبث في موضوعي دستور الايمان وزواج الكهنة فقط فحسناً تفعل . واما ما بقي فيمكنك غض النظر عنه . وعلينا ان لا نكون سريعين في تصديق الوشايات . وانت ستكتب حسب الواجب الى البابا الجديد بعد انتخابه وربما يجيبك بأن المطاعن كاذبة . ومن يستطيع ان يصدق انهم لا يكرمون الذخائر وهم يفتخرون بأن عندهم جسدي بطرس وبولس . وكيف لا يحترمون الايقونات ما دام البابا وقع على قرارات المجمع السابع المسكوني ولعن محاربي الايقونات » .

« وبناء عليه اترامى على اقدامك واتضرع اليك ان تتساهل اكثر مما فعلت لكي لا تكون وانت راغب في اقامة الساقط قد جعلت سقوطه اكثر ثقلاً . وانا اظن ان هؤلاء اذا اصلحوا زيادتهم في دستور الايمان فلا يبقى لنا شيء نطلبه بل يمكننا ان نغض النظر عن مسألة الفطير . فأتضرع اليك الا نطلب كل شيء لكي لا نخسر كل شيء » (١) .

1) *P. G., Vol. 120, Col. 796 - 816 ; Runciman, S., op. cit., 65 - 66 ; Jugie, M., op. cit., 225 - 229.*

اهمية الحروم والسيميومة : ولم يشتمل الحرم الكنيسة الارثوذكسية بأسرها وانما اطلق ضد بطريرك واحد من بطاركتها وعدد معين من رجال اكليروسها . واعلن بعد وفاة لاوون التاسع وقبل وصول خلفه فيكتوريوس الثاني الى السدة الرومانية . ولا يجوز القول ان لاوون وافق مسبقاً على القرارات الخطيرة التي تتضمنها هذا الحرم ولم يصدق احد من البابوات التابعين محتوياته (١) ولم تشمل السيميومة الكنيسة اللاتينية ولم تذكر احداً من رؤسائها وانما نظمت في حق هومبرتو ورفيقيه « لتسجل خجلا ابدياً للذين تجرأوا فجدفوا على الله » .

ولا اساس فيما يظهر لما جاء في تاريخ العقيدة لجاورجيوس الميتوخيتي من ان ميخائيل الاول اذاع ، بعد ان تسلم جواب بطرس الثالث ، منشوراً بطريركياً عاماً اعلن فيه اضمحلال تفوق رومة ووصوله المقام الاول بين البطاركة (٢) . ولا يخفى ان جاورجيوس هذا من اعيان القرن الرابع عشر وانه بالتالي بعيد جداً عن الحادث الذي يروي . وقل الامر نفسه عما جاء في مصنفات ميخائيل بلاستارس وجاورجيوس فرانجيس اللذين ادعيا بأن ميخائيل الاول ترأس مجمعاً عاماً في السنة ١٠٥٧ وان هذا المجمع « حرم اللاتين وبطريركهم » . فالتفتيش الذي جرى بأمر الفسيلفس اليكسيوس في السنة ١٠٨٩ في سجلات البطريركية المسكونية واوراقها لم يظهر للوجود اي قرار اتخذته كنيسة القسطنطينية لاقصاء عن كنيسة رومة (٣) .

والحرم والسيميومة في نظرنا عرض من اعراض علة مزمنة كانت ولا تزال تنتاب الكنيسة الجامعة بفرعيها اليوناني واللاتيني حتى يومنا هذا . فكنيسة رومة ما فتئت منذ القرون الاولى تطالب بالسلطة العليا على جميع الكنائس في الغرب وفي الشرق . وكنائس الشرق ما فتئت منذ القرون الاولى ايضاً ترد هذا

1) *Jugie, M., Schisme Byzantin, 230.*
2) *Metochite, G., Hist. Dog.. Nova Patrum Bibliotheca (Mai), VIII.*
3) *Laurent, V., Notes Critiques, Echos d'Orient, 1932, 104 ; Jugie, M., op. cit., 242.*

الطلب مؤكدة تساوي الرسل والاساقفة والبطاركة مبينة ان السلطات العليا في الكنيسة الجامعة هي في يد المجمع المسكوني وان المجامع المسكونية اجمعت على هذا الامر وان شرائع الامبراطورية الرومانية ولا سيما قوانين يوستنيانوس اثبتت هذا التساوي بشكل لا يحتمل الشك .

وليس من العلم او الانصاف بشيء ان نقول مع اخواننا الغربيين ان ميخائيل الاول اراد الانشقاق ومهد له السبيل ودبر التدابير للوصول اليه ودفع لاوون البلغاري وغيره الى العمل والظهور واختبأ هو وراء هؤلاء ليوجد منفذاً عند اللزوم يستطيع الخروج منه عند تأزم الحال. نقول ليس من العلم او الانصاف ان نقول هذا القول وننسى مطلب رومة التاريخي واقدامها على تزوير منحة قسطنطين واستعمال هذا المزور في السنة ١٠٥٤ واندفاع لورين وكلوني في سبيل تدعيم سلطة اسقف رومة وانتشار الرهبان اللاتين في ابرشيات ايطالية الجنوبية الارثوذكسية الخمس للدعاية لكنيسة رومة وطقوسها . فالمبادرة في سير الحوادث التي ادت الى ازمة السنة ١٠٥٤ جاءت من الغرب لا من الشرق . وموقف ميخائيل الاول على مآخذه كان موقفاً دفاعياً لا هجومياً .

وليس من المسيح بشيء ان نفتش مع الأب مرتينوس جوجي الصعودي والأب إيف كونغار الدومينيكاني وغيرهما من الآباء الغربيين العلماء (١) عن الاسباب الحقيقية التي ادت الى الانفصال في الكنيسة الجامعة فنجدها عرقية وثقافية وحكومية وسياسية وننسى ان جميع هذه الاسباب توفرت في القرون الاولى ولم ينتج عنها مثل هذا الأنشقاق . ونحن نرى ان الذين مهدوا لهذا الانشقاق في الشرق وفي الغرب معاً لم يفسحوا المجال لعمل الروح القدس فخلت قلوبهم من المحبة المسيحية التي تتأنى وترفق ولا تحسد ولا تتباهى ولا تنتفخ ولا تأتي قباحة ولا تطلب ما لنفسها ولا تحتد ولا تظن السوء ولا تفرح

1) *Jugie, M., Schisme Byzantin, 3 - 45 ; Congar, Y.. Après Neuf Cents Ans, Proche — Orient Chrétien, 1954, 3 - 25 ; Amann, E., Rome et Constantinople, Fliche et Martin, VII, 111 - 125.*

بالظلم بـــل تفرح بالحق وتتغاضى عن كل شيء وتصدق كل شيء وتصـــبر على كل شيء وانهم لم يصلّوا بحرارة وانكسار قلب وانسحاق نفس « من أجل ثبات كنائس الله المقدسة واتحاد الكل » !

أنر بصيرتي وافتح فمي لأهذّ بأقوالك ، وأفهم وصاياك

واعمل بمشيئتك ، وارنم لك باعتراف القلب ، واشيد

لإسمك القدوس ، أيها الآب والإبن والروح القدس ،

الآن وكل أوان والى دهر الداهرين . آمين .

* * *

الفصل الاربعون

صدى الانشقاق

١٠٥٤ ـ ١٠٩٨

في انطاكية : وتولى السدة الانطاكية بعد بطرس الثالث البطاركة يوحنا السادس فاميليانوس فثيودوسيوس الثاني فنقيفوروس فيوحنا السابع (١) . وجاء في السينوذيكون بعد بطرس كل من ثيودوسيوس فنيقيفوروس فيوحنا . وجاء في مجموعة لوكيان تحت الرقم المتسلسل ٩٦ ثيودوسيوس الثالث ثم باسيليوس الثاني ٩٧ ثم بطرس الثالث ٩٨ فثيودسيوس الثالث ٩٩ فاميليانوس ١٠٠ فنيقيفوروس ١٠١ فيوحنا الرابع ١٠٢ . وتختلف هـــذه المراجع في تعيين سني الرئاسة ولكنها تتقارب في تحديد بداية عهد يوحنا السابع (الرابع في المراجع الغربيـــة) . ويرى رجال الاختصاص ان رئاسة يوحنا السادس امتدت من السنة ١٠٥٦ حتى السنة ١٠٥٧ وان ثيودوسيوس الثـــاني تولى من السنة ١٠٥٧ حتى السنة ١٠٥٩ وان رئاسة اميليانوس انتهت في السنة ١٠٧٩ وان نيقيفوروس جاء بين اميليانوس وبين يوحنا السابع وان هذا رقي العرش البطريركي في حوالي السنة ١٠٨٨ (٢) .

وقضى التقليد الكنسي بالقول بتساوي البطاركة الخمسة في السلطة وبعدم تدخل أحدهم في شؤون غيره المحلية (٣) . وأعلن بطرس الثالث هـــذا الموقف قبـــل حوادث السنة ١٠٥٤ وبعدها . وكان ثيودوسيوس الثاني خريزوفرجيس صديق ميخائيل الاول كيرولاريوس فلا عجب اذا امتنع هو وخلفاؤه في هـــذه الفترة عن توجيه رسائل الجلوس الى رومـــة وعن ذكر احبارها في الذيبتيخة الانطاكية . ولكنهم لم يذهبوا الى ابعد من هـــذا ولم يتخذوا فيما يظهر اي قرار

1) *Constantius, op. cit., 172 - 173.*
2) *Grumel, V., Patriarches d'Antioche, Echos d'Orient, 1934 ; Grumel, V., Patriarches Grecs d'Antioche, du Nom de Jean, Echos d'Orient, 1933.*
3) *Jugie, M., op. cit., 219 - 229.*

مجمعي بشأن مشكلة هومبرتو وحرمه . وهو ما يجمع عليه كبار الثقات في تاريخ الروم (١) . وجاء في سيرة القديس جاورجيوس الاثونيتي ان ثيودوسيوس الثاني البطريرك الانطاكي هددملك الكرج في نزاع نشب بينهما حول حقوق الكرسي الانطاكي بأخبار البطاركة « الاربعة » بسوء فعله (٢) .

في اوروشليم : واتخذ بطاركة الكرسي الاوروشليمي الموقف نفسه الذي وقفه بطاركة الكرسي الانطاكي . وتأثروا بالعوامل نفسها التي دفعت زملاءهم فقالوا بتساوي البطاركة الخمسة في السلطة . ووقفوا الى جانب بطريرك القسطنطينية فامتنعوا عن ارسال رسائل الجلوس الى رومة وعن ذكر أحبارها في الذبتيخية . وكتب سمعان الثاني بطريرك اوروشليم رسالة في هذه الفترة عينها في موضوع الخلاف بين رومة والكنائس الشرقية أبان فيها بوضوح عدم موافقته على زيارة الفيليوكوي واعتراضه على استعمال الفطير (٣) . وقد أوضح العلامة الالماني ميشال أمر هذه الرسالة فأزاح عنها حجاب الريب الذي اسدله زميله لايب وأكد ان هذه الرسالة هي من قلم البطريرك سمعان وتعود الى القرن الحادي عشر (٤) .

وقد سبقت الاشارة الى الاضطهاد الذي أنزله الحاكم بأمره الفاطمي بالمسيحيين ومعابدهم في الربع الاول من القرن الحادي عشر . ولم يكن من ينجد كنيسة اوروشليم ويقيلها من عثرتها سوى ملوك الروم فقسطنطين التاسع هو نفسه جدد كنيسة القيامة بعد تدميرها .

ونرى بطاركة اوروشليم يكتفون بما اكتفى به زملاؤهم في انطاكية . ففي السنة ١٠٦٤ توجه عدد من اساقفة الغرب يتقدمهم سيغفريد رئيس اساقفة ماينز وعدد من الاشراف وغيرهم الى زيارة الاماكن المقدسة . ومروا

1) *Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 338 - 339 ; Bréhier, L., Schisme Oriental, 232 - 241 ; Ostrogorsky, G., Byz. State, 297 ; Amann, E., Rome et const., Fliche et Martin, VII, 150.*
2) *Grumel, V., Patriarches d'Amtioche, Echos d'Orient, 1934, 142 - 144.*
3) *Leib, B., Deux Inédits Byzantins, Orientalia Christiana, IX, 85 - 107.*
4) *Michel, A., Amalfi und Jerusalem im Griechischen Kirchenstriet (Orientalia Christiana No. 121), 34-47 ; Runciman, S., Eastern Schism, 75, n. 3.*

بالقسطنطينية فأكرمهم قسطنطين العاشر وزاروا كنيسة الحكمة الالهية . ولدى وصولهم الى المدينة المقدسة خرج صفرونيوس البطريرك الاوروشليمي بنفسه لملاقاتهم ومعه الاكليروس والشعب بالمباخر والشموع وأدخلهم باحتفاء عظيم كنيسة القبر المقدس (١) . وهو امر ذو بال في موقف رجال الدين في الغرب والشرق معاً من حرم هومبرتو وسيميومة المجمع القسطنطيني .

في الاسكندرية : ونكاد لا نعلم شيئاً عن كنيسة الاسكندرية في هذه الفترة . ولا نعلم اسم البطريرك الذي جلس على كرسي مرقس سنة ١٠٥٤ . ولا يجوز التكهن عند سكوت المصادر الاولية . وان لا ادري لمن العلم . !

يوحنا متروبوليت كييف : ودخلت كنيسة رومة في نزاع داخلي حول الخلافة فادعى اقليمس الثالث حق تولي السدة ثلاثين عاماً (١٠٧٠ — ١١٠٠) فخاصم كلا من غريغوريوس السابع وفيكتوريوس الثاني واوربانوس الثاني . وحوالي السنة ١٠٨٠ وفي عهد غريغوريوس السابع كتب اقليمس الثالث رسالة الى يوحنا الثاني متروبوليت كييف راجياً تدخله في القسطنطينية للاعتراف به بطريركاً وبابا على رومة . وكانت كنيسة روسية لا تزال خاضعة لرئاسة البطريرك المسكوني وكان يوحنا الثاني رئيسها متروبوليت كييف يونانياً يمت بصلة الى الشاعر البيزنطي ثيودوروس بروذوموس . فكتب يوحنا الثاني الى اقليمس الثالث يأسف لانحراف رومة عن قرارات المجامع المسكونية السبعة في امر الفطير والصوم والمعمودية والفيليوكوي ونصح الى اقليمس ان يرسل من يمثله الى القسطنطينية ليعلن انسجامه مع التقليد القويم (٢) . وبعد ذلك بقليل كتب الى يوحنا احد ابنائه الروحيين راجياً تبيان موقف المؤمن الروسي من الوثنيين واليهود واللاتين . فأجابه المتروبوليت يوحنا بأنه لا يجوز التناول مع من يقدس على الفطير او مع اولئك الذين لا يطبقون قرارات المجامع المسكونية في الصوم . ولكنه اجاز الاشتراك مع هؤلاء في الاعياد اذا ادى عدم الاشتراك الى

1) *Annales Altahenses Majores (M. B. SS, XX) ; Lambert de Hersfeld, M. G. SS., V, 168 - 169.*
2) *Pavlav, A., Essai Critique Sur l'Ancienne Polémique Gréco - Russe Contre les Latins, 168 - 186 ; Leib, B., Rome, Kiev et Byzance, 32 - 37.*

العداوة والحقد . لم يشجع التزاوج مع اللاتين (١) .

ثيوفيلاكتوس متروبوليت اخريدة : وفي السنة ١٠٩٠ كتب الشماس نيقولاووس القسطنطيني الى ثيوفيلاكتوس متروبوليت اخريدة يسأل رأيه في اخطاء اللاتين . وكان ثيوفيلاكتوس اعلم علماء زمانه درس على بسلّوس في جامعة القسطنطينية وعني في تهذيب ميخائيل السابع ابن قسطنطين . ثم اضطر ان يقبل التسقف على كنيسة اخريدة تنفيذاً لرغبة صديقه البطريرك المسكوني نيقيفوروس الثالث وقياماً بواجب ارثوذكسي كبير نظراً للمشادة حول تبعية كنيسة بلغارية . وساءه تطرف الشماس نيقولاووس فكتب اليه يوجب الاعتدال والمحبة . وأكد ان الاختلاف في الصوم وفي الزواج وفي المعمودية لا يشكل خطأ مهماً . وقال انه من المضحك ان نقاطع اللاتين لان اكليروسهم يحلق اللحى ويلبس الخواتم ويرتدي الاثواب الحريرية الملونة . ولم يرَ في عدم زواج الكهنة خطيئة مميتة كما انه لم يجد في الاسفار المقدسة وقرارات المجامع السبعة ما يمنع التقديس على الفطير . وآلمه جداً ان يستمر الروم في التفتيش عن اخطاء غيرهم والا يعترفوا بامكانية وقوعهم في مثل هذه الاخطاء .

ولكن ثيوفيلاكتوس خشي ان يؤدي ادعاء رومة بالسلطة على جميع الكنائس واستمساكها بهذا الادعاء وخروجها عن قرارات المجامع المسكونية باضافة الفيليوكوي الى الدستور المقدس نقول خشي ثيوفيلاكتوس ان يؤدي هذا كله الى انشقاق أليم. وعزى هذا العلامة قول اللاتين بالانبثاق من الآب والابن الى فقر في الاصطلاحات اللاهوتية اللاتينية وأبان ان اللفظ اللاتيني للتعبير عن الانبثاق يشمل اربعة معان يعبر عنها اليونان بأربعة الفاظ مختلفة . فاذا شاء اللاتين ان يحتفظوا بالفيليوكوي لاغراض تفسيرية داخلية فلا مانع شرط ان يذكروا دائماً ان هذا اللفظ لم يرد في الدستور المقدس الذي يقول به جمهور المؤمنين (٢).

1) *Canonic Answers to the Monk James, Goetz, Kirchenrechtliche und Kulturgeschichte Denkmaler Altrusslands, 98 ff. ; Golubunsky, E. E., Hist. of Russian Church, I, 820 - 828 ; Jugie, M., op. cit., 236 - 238.*

2) *De Iis in quibus Latini Accusantur, P. G., Vol. 126, Col. 221 ff.*

ورأى ثيوفيلاكتوس لمناسبة اخرى ان ادعاء رومة بصحة قول ما لمجرد صدور هـذا القول عن اسقفها في ظرف رسمي ادعاء مردود « ولو تكلم البابا بصوت بطرس وهزّ مفاتيح السماء في وجوهنا » . واضاف انه من الهزء ببطرس ان نستند الى السلطة المستمدة منه لنعلن عقيدة لم تقرها مجامع الكنيسة (١) .

ويتضح مما تقدم ان ثيوفيلاكتوس لم يرَ الكنيسة الجامعة منشقة في السنة ١٠٩٠ ولكنه خشي ادعاء رومة بالسلطة وقولها بالفيليوكوي ورجا الا تتدخل الكنائس في شؤون بعضها الداخلية .

نهاية ميخائيل الاول : وتوفي قسطنطين التاسع بعد صدور السيميومة بخمسة أشهر أي في الحادي عشر من كانون الثاني سنة ١٠٥٥ فنودي بالعقب الوحيد الباقي من الاسرة المقدونية بثيودورة ابنة قسطنطين الثامن الصغرى . وكانت قد مضت معظم حياتها في الدير فنشأت تقية فظة بقدر ما كانت اختها زوية متيمة بالحب. ورأى البطريرك ميخائيل ان تتزوج فتشرك معها في الحكم من كان اهلا لذلك ولا سيما وانها كانت قد ناهزت السبعين . ورأى الخصيان حولها غير ذلك فحكمت ثيودورة وحدها . وفي صيف السنة ١٠٥٧ أشرفت الفسيلسة على الموت فاتخذت ميخائيل استراتيوتيكوس خليفة لها وتبنته قبل وفاتها. ودام حكم ميخائيل السادس سنة وعشرة ايام. واشتد في اثنائه النزاع بين العسكريين والخصيان . وتفجر الخصام يوم عيد الفصح في الثلاثين من اذار سنة ١٠٥٨ . وكانت مؤامرة وتدخل البطريرك ميخائيل فأرسل وفداً من المطارنة يشيرون على ميخائيل السادس بالتنازل . فسأل الفسيلفس المطارنة ماذا تعطونني بدل المملكة فقالوا ملكوت السماوات . فرمى شعار الملك والتجأ الى الدير وتوفي بعد ذلك بقليل . فوصل الى عرش رومة الجديدة زعيم العسكريين اسحق كومنينوس .

وكافأ اسحق البطريرك فمنحه حق انتقاء ايكونوموس كنيسة الحكمة الالهية وسكيفوفيلاكسها . وكان ميخائيل الاول قد طلب ذلك من ثيودورة وميخائيل فلم يفلح . وظن البطريرك انه سيتمكن من ارشاد الفسيلفس الجديد

1) *Ibid. Col. 241 ; Runciman, s., Eastern Schism, 71 - 74.*

وتوجيهه . ولكن اسحق استثقل هـذا الارشاد فنشأ شيء من الكره بين الاثنين ما لبث ان تحول الى عداء . فهدد البطريرك الفسيلفس واحتذى الحذاء الارجواني مدعياً ان الاحتذاء بالارجواني حق من حقوق السدة البطريركية . وكان الاقدام على الاحتذاء بالارجواني في عرف الروم آنئـذٍ اول دليل على الطمع في السلطة العليا . وفي الثامن من تشرين الثاني سنة ١٠٥٨ حين كان البطريرك متوجهاً ليخدم القداس في دير الملائكة ألقى الفسيلفس القبض عليـه ونفاه مع اولاد اخيه الى جزيرة ايمبروس . فهاج الشعب فاستحضر الفسيلفس البطريرك وجمع مجمعـاً وطلب محاكمته لانه عطف على راهبين كانا يتعاطيان الشعوذة ولأنـه كان يقرأ اشعار الشعراء وقت الخدمة ولانـه ايضاً ثار على الفسيلفس السابق . والتزم البطريرك الصمت وقام في النهاية وسامح الفسيلفس والقضاة ودعا للشعب ولاعدائه وسقط ميتاً وهو يقول : السلام لجميعكم مشيراً بيـده اليمنى اشارة البركة . فأمر الفسيلفس بدفنه بحفاوة فائقـة واشترك بنفسه في تشييع الجثمان . ورقي الكرسي المسكوني بعده قسطنطين الثالث ليخوذي (١٠٥٩ ــ ١٠٦٣) .

رومة تدعو الى الوئام : (١٠٥٧ ــ ١٠٦١) وأدى اقصـاء ميخائيل الاول عن العمل في حقل السياسة الى تقريب ارجيروس والاصغاء اليـه ففتحت كنائس اللاتين في القسطنطينية بعد اغلاقها وأرسل وفد الى المانيـة ليفاوض هنريكوس الثالث في امر التعاون في ايطالية الجنوبية ووضع حد لمطامع النورمنديين فيها (١) . وكتب البابا فيكتوريوس الثـاني (١٠٥٥ ــ ١٠٥٧) الى الفسيلسة ثيودورة بألطف العبارات وارقها راجياً تخفيض الضرائب عن الحجاج الغربيين الساعين الى اوروشليم بالتوبة وانسحاق النفس (٢) . وما كاد البابا اسطفانوس التاسع (١٠٥٧ ــ ١٠٥٨) يعلم بخلع ميخائيل الاول حتى بادر يتعاون مع الروم في السياسة ويوفد الى القسطنطينية ديسيديريوس ليعالج الوضع الكنسي . وقام هذا الوفد من رومة قاصداً القسطنطينية . ولدى وصولـه الى باري علم بوفاة البابا

1) *Gay. J., Italie Méridionale 508 - 509; Chalandon, F., Domination Normande, I, 160.*
2) *P. L., Vol. 149, Col. 961 - 962 ; Runciman, S., Eastern Schism, 56, n. 2.*

(كانون الثاني سنة ١٠٥٨) فعاد الى رومة (١) .

ونهج البابا نيقولاووس الثاني (١٠٥٩ ــ ١٠٦١) نهجاً معادياً . فصالح النورمنديين في امالفيس سنة ١٠٥٩ واعترف بسلطة زعيمهم غيسكار على ابولية وكلابرية والامارات اللومبارديـة شرط ان يعترف هذا بدوره بسيادة الحبر الروماني على هذه المقاطعات جميعها (٢) . فأثار عمله هـذا حنق الروم وأضرم غيظهم . فتعاون قسطنطين العاشر الفسيلفس مع الامبراطورة الوصية الغربيـة فدفعا كاذلوس اسقف بارمة للمطالبة بالسدة الرومانيـة . وخشي البابا الجديد الكسندروس الثاني (١٠٦١ ــ ١٠٧٣) هذا التعاون بين البلاطين الشرقي والغربي فانتهز فرصـة وصول الفسيلفس ميخائيل السابع الى العرش (١٠٧١ ــ ١٠٧٨) فأرسل وفداً الى القسطنطينية في السنة ١٠٧٢ برئاسة بطرس اسقف اناغني للتهنئة والتبريك ولمعالجة التباعد بين الكنيستين (٣) . وكان الرأي الغريغوري في سلطة اسقف رومة قد بدأ يفعم الجو في رومـة فلم ير البطريرك المسكوني يوحنا الثامن (اكسيفيلينوس) مجالا للتفاهم على هـذا الاساس . ورأى ميخائيل بسلوس كبير البلاط رأي البطريرك فـا طل الاثنان وسوّفا وأجلا البحث في موضوع الاتحاد الى امد غير معين (٤) .

البابا غريغوريوس السابع : (١٠٧٣ ــ ١٠٨٥) وتوفي طغرل بك زعيم الاتراك السلاجقة في السنة ١٠٦٢ فخلفه السلطان ألب ارسلان واستولى على آني الارمنية في السنة ١٠٦٤ وذبح ونهب . ثم قام الى الرها فصدّه عنها دوق انطاكية في السنة ١٠٦٥ . وفي ربيـع السنة ١٠٦٧ هاجم ألب ارسلان الروم من الشرق والجنوب في آن واحد فدخل جيشه البونط وقيليقية ووصلت طلائعه الى قيصرية قبدوقية فخربتها . واستولى رومانوس الرابع على عرش الروم (١٠٦٨ ــ ١٠٧١) وقـاد الى الميدان كل رجل استطاع ان يجنده في اوروبة وآسية . وانتصر على

1) *Leo of Ostia, Chron. Monast. Casinensis, M. G. H. S., VIII, 702 - 703.*
2) *Gay, J., op. cit., 516 - 519 ; Chalandon, F., op. cit., I, 170 - 172.*
3) *Bruno of Segni, Vita S. Petri Ananiensis, Acta Sanctorum Bollandiana, Aug. 3, 230.*
4) *Salaville, « Jean Xiphilin » Dict. Theol. Cath., XV, Col. 3618 - 3620.*

السلاجقة في سورية الشمالية عند منبج (١٠٦٩) وحرر غلاطية . ثم عاد السلاجقة الى الهجوم فقام رومانوس الى الجبهة . ولدى وصوله الى منزيكرت (ملاذكرد) على الفرات الاعلى وجد نفسه وجهاً لوجه امام جيوش من السلاجقة . فكانت موقعة ملاذكرد الشهيرة في آب السنة ١٠٧١ وجرح رومانوس وسقط عن حصانه ووقع اسيراً .

وتولى ميخائيل السابع عرش القسطنطينية (١٠٧١ ـ ١٠٧٨) وترامى اليه ان النورمنديين يعدون العدة للتوسع في البلقان فكتب الى غريغوريوس السابع بابا رومة يطلب المعونة في ردع هؤلاء واعداً بالسعي لاعادة العلاقات بين الكنيستين الى ما كانت عليه قبل الانشقاق . وارسل وفداً الى رومة للمفاوضة على هـذا الاساس . فوافق البابا واقنع غيسكار زعيم النورمنديين بوجوب التعاون مع الروم وذهب الى ابعد من هذا فأزوج هيلانة بنت غيسكار من قسطنطين ابن ميخائيل وولي عهده . وأعلن انه مستعد للقيام بنفسه الى القسطنطينية على رأس خمسين الفاً لصد الاتراك السلاجقة وجمع مجمع يحل جميع المشاكل الدينية . فخشي الروم حل هذه القضايا في جو عسكري وماطلوا وسوفوا طوال السنة ١٠٧٤ ونشبت مشاكل في ايطالية شغلت غريغوريوس أهمها مطامع غيسكار النورمندي نفسه (١) .

وفي السنة ١٠٧٦ شهر غريغوريوس رأيـه في البابوية والكنيسة بقرار رسمي عرف بالديكتاتوس *Dictatus Papae* . واستقل بهذا الرأي وانفرد به دون اخوانه البطاركة الاربعة ودون عرضه على مجمع مسكوني فباعد بـين الكنائس وانحرف عنها فزاد الشقاق اتساعاً . وتألف الديكتاتوس من سبعـة وعشرين بنداً .

١) ان الكنيسة الرومانية وحدها مقامة من الله .
٢) ان الحبر الروماني وحده يستحق لقب المسكوني .
٣) وهو وحده يستطيع عزل الاساقفة وحلهم .

1) *Anna Comnena, Alexiad, I, 10, 12 ; Reg. Greg., II, 31, 37 ; Fliche, A., Grégoire VII, Fliche et Martin, VIII, 74 - 75 ; Runciman, S., op. cit., 58 - 59.*

٤) يتقدم نائبه سائر الاساقفة في المجمع ولو كان دونهم رتبة . وهو وحده يصدر احكام العزل .
٥) يستطيع البابا عزل الغائبين
٦) ولا تجوز السكنى تحت سقف واحد مع من يحرمه البابا
٧) وهو وحده يسن شرائع جديدة مراعياً في ذلك الظروف . وهو وحـده يضم الرعايا الجدد ويحول جماعة من الرهبان الى رهبنـة ويقسم الابرشيات الغنية ويضم الابرشيات الفقيرة .
٨) وهو وحده يلبس شارات الملك
٩) وهو الرجل الوحيد الذي يقبل الامراء رجله
١٠) وهو الوحيد الذي يجب ذكر اسمه في جميع الكنائس
١١) واسمه فريد في العالم
١٢) وهو وحده يعزل الاباطرة
١٣) ويجوز له عند الضرورة ان ينقل اسقفاً من كرسي الى آخر
١٤) ويجوز له عندما يشاء ان يشرطن أي اكليريكي من أية كنيسة
١٥) ومن يشرطنه البابا يحق له ان يدير شؤون كنيسة اخرى ولكن لا يجوز له ان يسام من اسقف آخر الى رتبة أعلى .
١٦) ولا يصبح مجمعاً من المجامع عاماً بدون أمره
١٧) ليس هناك اي نص قانوني خارج سلطته
١٨) حكمه لا يرفض . وهو وحده يقدر ان يرفض احكام الجميع .
١٩) لا يجوز لاحد ان يحاكمه
٢٠) لا يجوز لاحد ان ينكر حكم الكرسي الرسولي
٢١) يجب رفع كل الاختلافات الهامة في كل كنيسة اليه
٢٢) ان الكنيسة الرومانية لم تغلط ابداً . وهي بموجب شهادة الاسفار المقدسـة لن تغلط البتة .
٢٣) ان الحبر الروماني متى كانت شرطونيته قانونيـة يصبح قديساً باستحقاقات القديس بطرس كما قال القديس اينوذيوس اسقف بافيـة وآباء آخرون وكما جاء في قرارات البابا سيماخوس السعيد ذكره .
٢٤) يستطيع الرعايا ان يشكوا ساداتهم باذنه وأمره
٢٥) يستطيع قطع الاساقفة والصفح عنهم بدون دعوة مجمع

٢٦) من لا يوافق الكنيسة الرومانية لا يكون ابن الكنيسة الجامعة

٢٧) يستطيع البابا ان يحرر رعايا الاشرار من يمين الولاء لهم (١) .

وبينما كان السلاجقة يزدادون قوة وتقدماً في اراضي الروم كان كل قائد من قادة الروم العسكريين ينادي بنفسه فسيلفساً . وكان أهم هؤلاء القادة الطامعين نيقيفوروس بوتانياتس . وقبل هذا في صفوفه عدداً كبيراً من الاتراك السلاجقة . وكان ميخائيل السابع خوّاراً متردداً بعيداً عن الجيش لا يرغب في الحرب والقتال فتدخل الشعب في العاصمة لوضع حد لهذه الفوضى . واهتم رجال الدين للامر نفسه فنادى اميليانوس بطريرك انطاكية الذي كان آنئذ في العاصمة بنيقيفوروس فسيلفساً (٢) . ونزل ميخائيل السابع عن العرش ولبس ثوب الرهبنة وتوفي . وأكره نيقيفوروس الكنة النورمندية هيلانة على الاقامة في دير (١٠٧٨) . فغضب لميخائيل السابع ولهيلانة كل من غيسكار النورمندي والبابا غريغوريوس السابع . وجعل غيسكار من احد اليونانيين الموجودين في رومة آنئذ ميخائيل سابعاً . ووافق غريغوريوس السابع على هذا الدجل والاحتيال وسوّغ لغيسكار الدفاع عن حقوق الفسيلفس الدجّال وحرم نيقيفوروس الثالث . وشغلت الروم مشاغل داخلية هامة فلم يعبأوا بهذا الحرم . ثم استقرت امورهم وتولى الاريكة اليكسيوس كومنينوس (١٠٨١) فتسرع البابا وعاد فرشق اليكسيوس نفسه بحرم ثقيل وشاطر النورمنديين المسؤولية في هجوم على البلقان بدأ في السنة ١٠٨١ (٣) . فغضب اليكسيوس لكرامته وكرامة الكنيسة وكان تقياً غيوراً فأمر باقفال كنائس اللاتين مستثنياً كنائس حلفائه البنادقة وتعاون مع امبراطور الغرب هنريكوس الرابع عدو غريغوريوس ولكنه لم يؤيد مرشح هنريكوس للكرسي الباباوي اقليمس الثالث . واستمرت المشادة بين القسطنطينية ورومة حتى وفاة غريغوريوس السابع في السنة ١٠٨٥ . وتولى السدة الرومانية فيكتوريوس الثالث (١٠٨٦ — ١٠٨٧) فلم يخفّض

1) *Peitz, W., Das Original register Gregors VII, 265 ff. ; Blaul, O., Studien zum Register Gregors VII, 5. Sonderuntersuchung, Der Dictatus Papae, II, 55 a, 29 ff ; Hofmann, K., Der Dictatus Papae, Paderborn, 1933.*

2) *Bréhier, L., Byzance, 275 - 287.*

3) *Chalandon, F., Règne d'Alexis Comnène, 62 - 65 ; Runciman, S., op. cit., 60, n. 1.*

من غُلواء غريغوريوس ولم ينته عما كان فيه .

اوربانوس واليكسيوس : وفي السنة ١٠٨٨ رقي كرسي رومة الرسولي اوربانوس الثاني (١٠٨٨ — ١٠٩٩) . وكان سديد الرأي حسن التدبير تقياً محباً غيوراً فلوى العنان وردّ الجماح وواصل وأحسن الصلة . وكان اليكسيوس مهذباً مثقفاً متضلعاً من الفلسفة واللاهوت شديد التمسك « بالعبادة الحسنة الارثوذكسية » ولكنه كان دمث الاخلاق سلساً يؤثر السياسة على العنف . وكان قد نجح في صد النورمنديين عن مطامعهم في البلقان وأنزل في الثوار الماناويين والبقشناغ الهزيمة تلو الهزيمة . وكان البطريرك المسكوني نيقولاووس الثالث النحوي (١٠٨٤ — ١١١١) عالماً كبيراً وراهباً باراً وديعاً تقياً . فأوفد اوربانوس لدى وصوله الى السدة الرومانية الكردينال الشماس روجه والاب نيقولاووس الى القسطنطينية حاملين رسالة الى الفسيلفس ملؤها المحبة والرجاء بأن يصار الى فتح ما اغلق من كنائس اللاتين والسماح لهؤلاء بالتقديس على الفطير . فرضي الفسيلفس وأصدر خريسوبولوناً دعا فيه اوربانوس الى القسطنطينية للاشتراك في مجمع يبحث قضية الفطير ويحلها . ووافق البابا وأجاب بالقبول وبدأ يعد العدة للقيام الى القسطنطينية لحل المشاكل الراهنة .

واشتدت معارضة اقليمس الثالث وتفاقم شرها فاضطر اوربانوس ان يبقى في ايطالية ليرقب تطور الحوادث عن كثب . ولكنه أرسل وفداً ثانياً الى القسطنطينية في السنة ١٠٨٩ ليمثله في المجمع المقترح . ولدى وصول هذا الوفد أعلن رئيسه رفع الحرم عن اليكسيوس فقابل الفسيلفس هذه البادرة الطيبة بالطلب الى البطريرك نيقولاووس الثالث ومجمعه الدائم ان يذكروا اسم اوربانوس في ذبتيخة كنيسة الحكمة الالهية . فأمسك البطريرك مشيراً الى بعض الاختلافات القانونية القائمة بين الكنيستين . ولكن اليكسيوس أوجب الرضوخ ولاسيا بعد ان تبين له ان محفوظات البطريركية كانت خالية من أي قرار رسمي يفصل الكنيستين الشقيقتين . فوافق البطريرك ومجمعه على اقتراح الفسيلفس وطلبوا الى اوربانوس ان يحضر بنفسه جلسات المجمع المنتظر او ان يرسل من ينوب عنه لهذه الغاية وان يبين اعترافه بالايمان حسب العادة .

وكتب نيقولاووس الثالث الى اوربانوس الثاني كتاباً نفى فيه ان يكون قد منع اللاتين في القسطنطينية عن ممارسة طقوسهم بحرية وأكد ان هـذا الخبر مجرد أفتراء . ثم أشار بلطف ولباقة الى تأخر اوربانوس عن اعلامـه بانتخابه وعن ارسال الاعتراف بالايمان . وخالف فوطيوس في انه دعا اوربانوس اخاً لا اباً كما فعل فوطيوس . وأكد المساواة بين البطاركة وأوجب العمل بمقررات مجمع ترولي المسكوني (١) .

وكان اوربانوس سهل الاخلاق سلس الطباع ظريفاً كيّساً لبقاً فتعاضى عن بعض ما جاء في كتاب نيقولاووس ولا سيا اعتباره أخاً لا أباً . ولم يرسل اعترافاً بالايمان كي لا يثير قضية الفيليوكوي . ولم يذكر اسمه في ذيبتيخة الحكمة الالهية . ولكن المياه عادت الى مجاريها الى ما كانت عليه قبل السنة ١٠٥٤ وحل الوفاق والوئام محل التراشق والتخاصم (٢) .

* * *

1) *Holtzmann, W., Unionsverhandlungen Zwischen Kaiser Alexios I und Papst Urban II im Jahve 1089, Byz. Zeit., 1928, 38 - 67 ; Grumel, V., Jerusalem entre Rome et Byzance, Echos d'Orient, 1939, 104 - 117.*

2) *Runciman, S., op. cit., 62 ; Jugie, M., op. cit. 241 - 243.*

الفصل الحادي والأربعون

الحروب الصليبيّة

١٠٩٨ ـ ١٢٠٤

الخطر التركي : وانطلق الاتراك السلاجقة من فدافد اسية الوسطى . ثم قـدر لزعيمهم طغرل بك (الامير الصقر) ان يفرض نفسه في السنة ١٠٥٥ على الخليفة العباسي القائم بأمر الله وان يبطن الخلافـة العباسية بالسلطة السلجوقية ثم ان يستبدل الامبراطورية العربية بامبراطورية تركية ثم ان يأخذ على عاتقه الصمود في وجـه الروم والحرب ضدهم . وكان العرب قد كفوا عن هذه الحرب منذ زمن بعيد . ولقيت طبيعـة الاتراك المحاربة مجالا فسيحاً للفتح . فسقطت أرمينية في يد الاتراك في السنة ١٠٦٤ واكتسح ألب أرسلان (الاسد المظفر) الموقف في موقعـة ملاذكرد في السنة ١٠٧١ واسر الفسيلفس رومانوس وشتت جيشه . وكان هذا الانحدار من أسوأ الكوارث لان البلقان كانت قد أصبحت صقلبية واليونان كانت قـد خلت من السكان وافتقرت ولأن آسية الصغرى وحدها كانت معقل الروح الهلينية فمنها كان الفسيلفس يجمع جيوشه وفيها كان يجد اكبر قواده وأنشط ضباطـه . واحتل الاتراك ما بين السنة ١٠٧٨ والسنة ١٠٨١ مدناً داخلية كأيقونية وثغوراً متطرفة كازمير وسبحوا خيولهم في مرمرا وارتقبوا الفرص للعبور الى تراقيـة واوروبة . وأسوأ ما كان في الامر ان هذا الفتح الجديد لم يقتصر على السياسة والسلطة بل تعداهما الى استملاك الأرض فحل القروي التركي محل القروي اليوناني فأضاعت الهلينية قواعدها ومكانتها (١).

وتوفي ألب ارسلان بطعنة خنجر في السنة ١٠٧٢ وخلفـه ابنه ملكشاه واستمر ازدهار الدولة الفتيـة بفضل الخوجه حسن نظام الملك . ثم خرّ نظام

١) رصيد التاريخ لرينه غروسه ج ٢ ص ١٠٦ ـ ١٠٩

الملك صريعاً في السنة ١٠٩١ على يد الحشاشين ولحق به ملكشاه فاضمحلت عظمة الدولة السلجوقية وتفككت اواصرها ولكن سيل السلاجقة ظلّ يتدفق على آسية الصغرى وظل خطرهم يحدق بدولة الروم ويهددها بالانهيار (١) .

مجمع بياتشنزا . (١٠٩٥) وكان اقليمس الثالث لا يزال يطالب بالسدة الرومانية وكان الامبراطور هنريكوس الرابـع لا يزال يدعمه فرأى البابا اوربانوس الثاني ان يجمع مجمعاً للنظر في هذا الشقاق فدعا الاساقفة الى الاجتماع في بياتشنزا *Piacenza* في اذار السنة ١٠٩٥ لمعالجة الانشقاق *contra schismaticos*

وكان اوربانوس لا يزال يولي الكنيسة الجامعة اهتمامه فيرعاها بعناية. وكانت اتصالاته بالقسطنطينية قد لطفت الجو وقرّبت القلوب. وكان اليكسيوس الفسيلفس يوالي اتصالاته بهذا الحبر الصالح وينقل اليه مخاوفه من تفاقم الشر في آسية الصغرى وتزايد عدد الاتراك فيها وانتشارهم في سهولها ووديانها .

وبعد وفــاة ملكشاه تنازع اولاده محمود وبركياروق ومحمد وسنجر السلطة فعمت الفوضى العراق وسورية وفلسطين. وانطلق رعاع التركمان وامثالهم يقتلون وينهبون . وكانوا يدخلون الكنائس في اثناء الصلوات ويضجون . وقد يجلسون على الموائد المقدسة ويهينون الكهنة ويرتكبون كل ما اقتضاه طبعهم! وقد يخربون بعض الكنائس وقد يحولون بعضها الى مساجد (٢) . وشاهد الحجاج الغربيون هذه الأعمال وخبروها بأنفسهم واضطروا في بعض الأحيان ان يقاتلوا للوصول الى القبر المقدس (٣) . وكان ملكشاه قـد أمر أخاه تتش ان يطرد الفاطميين من اوروشليم وسائر فلسطين ففعل . فثار أهلها على السلاجقة فكانت مذبحة قبة الصخرة (١٠٧٦) . فعاد الفاطميون الى النزاع . فأصبحت اوروشليم هدفاً لنزاع مستمر بين الاتراك السلاجقة وبين الفاطميين . واقطع تتش اوروشليم ليمينه أرتق ابن اكساب . فلـما توفي أرتق (١٠٩١) تنازع السلطة ابناه سقمان

1) *Zettersteen, K. V., « Suleiman ben Qutulmush » Enc. of Islam.*
2) *Michel le Syrien, Chron., III, 182 ; William of Tyre, Hist. Rer. I, 8 ; Grousset, R., Hist. des Croisades, I, 2 ; Cahen, C., Syrie du Nord 199.*
3) *Alphandery, P. La Chrétienté et l'Idée de Croisade, 27 ; Joranson, E., The Great German Pilgrimage of 1064 - 1065 ; Vita Lietberti, Achery, Spicilegium, IX, 706 - 712.*

وغازي فحلّ ضيق شديد بالنصارى . فاضطر البطريرك سمعان الأوروشليمي ان يفرّ الى قبرص مـع كبار رجال الاكليروس (١) . وعاد الحجاج الى بلدانهم وشكوا . وأصغى رهبان كلوني الى هذه الشكاوي فرفعوها بدورهم الى المقامات العالية الى رومة نفسها .

ووافق اجتماع الاساقفة في بياتشنزا وصول لجنـة عسكرية بزنطية الى ايطالية لتشويق المسيحيين وحضهم على الدخول في خدمـة الفسيلفس للذود عن الكنيسة والصمود في وجه الاتراك السلاجقة . وعلم اوربانوس بقدومهم فدعاهم الى بياتشنزا ليخطبوا في الآباء المجتمعين ويبينوا لهم الخطر الذي يهدد الكنيسة في الشرق . ووصلت اللجنـة الى بياتشنزا وارتقى اعضاؤها منبر المجمع فنقلوا الى الاساقفة ما كان يعانيه النصارى من ضيق واضطهاد وما كان يحدق بالنصرانية من خطر . فأعارهم الاساقفة آذاناً صاغيـة ووعوا كلامهم فخشعت أبصارهم وخفقت قلوبهم خشية ورقة (٢) .

وكان القديس اوغوسطينوس قـد أجاز الجهاد في سبيل الله (٣) فتبعه البابا لاوون الرابع (٨٤٧ـ٨٥٥) فأكد الثواب لمن يسقط مدافعاً عن الكنيسة (٤) وجاء يوحنا الثامن (٨٧٢ ـ ٨٨٢) فاعتبر المجاهدين شهداء (٥) . وأباح البابا نيقولاووس الاول (٨٥٨ـ٨٦٧) حمل السلاح في وجه الكفرة لكل من اخطأ ووقع تحت الحرم (٦) . ولم يعبأ الآباء الغربيون باجتهاد باسيليوس الكبير وامتناعه عن مناولة المحاربين ثلاث سنوات متتالية (٧) فحضوا المؤمنين على حمل السلاح في وجه المسلمين . ومنـح البابا الكسندروس الثاني الغفران (١٠٦١ ـ ١٠٧٣) لجميع المجاهدين في اسبانية (٨) . وشجّع غريغوريوس السابع في السنة ١٠٨٠ حملة غوي

1) *Grousset, R., Hist. des Crois. I, Introd., 47 ; Runciman, S., Hist. of Crousades, I, 78.*
2) *Bernold of Constance, a. 1095, 161 ; Hefelé - Leclercq, Hist. des Conciles, V, 394 - 395 ; Munro, D. C., Did Aléxius Ask for Aid at Piacenza; Amer. Hist. Rev., XXVII, 731 - 733.*
3) *De Civitate Dei, P. L., Vol. 41, Col. 35.*
4) *Mansi, Concilia, Vol. XIV, p. 888.*
5) *Epist., P. L., Vol. 126, Col. 696, 717, 816.*
6) *Epist., Mon. Germ. Hist., VI, 658.*
7) *Epist., P. G., Vol. 32, Col. 681.*
8) *Fliche, A., Europe Occidentale, 551 - 552.*

جوفروا على اسبانية . وحذا حذوه اوربانوس الثاني فحض حجاج القبر المقدس على استبدال الحج بالعمل المثمر لتحرير اسبانية من المسلمين واعادة بنائها (١) .

وهكذا فانه عندما دعا الوفد البيزنطي الآباء الى التعاون في سبيل الدفاع عن الكنيسة الجامعة في الشرق كانت فكرة الحرب المقدسة قد ظهرت الى حيز الوجود في الغرب وكانت الكنيسة الغربية قد باركتها ونشطتها. فوقع نداء الشرق في نفس اوربانوس الكبيرة موقعاً جليلا . وأطرق يفكر فرت مواقف اسلافه امام عينيه مرور البرق فصمم ان يقدم للمسيحية في الشرق اكثر بكثير مما طلب وفد اليكسيوس الفسيلفس (٢) .

مجمع كليرمون : (١٠٩٥) كان من المقرر عقد مجمع في كليرمون *Clermont* الفرنسية للنظر في شؤون كنيسة فرنسة وغير ذلك من الامور الروحية . فقام اوربانوس الثاني الى فرنسة بلاده الام في اخر صيف السنة ١٠٩٥ . فاستقبله مواطنوه بمنتهى الحفاوة والاجلال . وزار جنوب فرنسة منظماً مصلحاً موبخاً ومادحاً وأصغى الى ما قاله رهبان كلوني عن شؤون الحج والحجاج . ولعله اتصل بريمون كونت تولوز ثم قام الى كليرمون فوصلها في تشرين الثاني وعقد فيها مجمعاً بين الثامن عشر والثامن والعشرين من هذا الشهر نفسه . فحرم الملك فيليب لعلة الزنى وقطع اسقف كامبري لعلة السيمونية واعاد النظر في حدود ابرشية ليون . ثم خصص جلسة السابع والعشرين لبيان هام وأباح الحضور للجمهور . فأقبل المؤمنون زرافات زرافات واقيم للبابا منصة خارج الكاتدرائية . وكان اربانوس جليلا وقوراً وخطيباً مفوهاً . فذكر الاتراك السلاجقة وما ارتكبوه من الفظائع في الشرق . وأظهر قدسية اوروشليم وأوجب المحافظة عليها وتأمين وصول الحجاج اليها . وحض الأغنياء والفقراء على الجهاد في سبيل الله وأكد الغفران للشهداء المجاهدين (٣) . فلاق كلامه آذاناً صاغية وقلوباً

1) *Riant, P., Inventaire Critique des Lettres Historiques des Croisades, 68 - 69.*
2) *Chalandon, F., Hist. de la Première Croisade, 20 - 37 ; Runciman, S., Hist. of the Crasades I, 88 - 92 ; Hagenmeyer, H., Der Brief des Kaisers Alexios an dem Grafen Robert, Byz. Zeit., VI, 1 - 32.*
3) *Falcher of Chartres, I, 130 - 138 ; Robert the Monk, I, 727 - 729 ; Munro, D. C., Speech of Urban II at Clermont, Amer. Hist. Rev., XI, 231 ff.*

دامية فهتف الناس *Deus le volt* ومعناه هذا ما يريده الله . وأعلن اوربانوس حماية الكنيسة لعائلات المجاهدين واملاكهم وأوجب حمل شارة الصليب بقماش احمر على كتف المجاهد او صدره. وجعل القسطنطينية ملتقى المجاهدين وحدد موعد الانطلاق من الغرب فجعله يوم عيد انتقال العذراء الخامس عشر من آب سنة ١٠٩٦ (١) .

وكان الاسقف أديمار *Adhemar* راعي أبرشية لوبوي *Lepug* أول الصليبيين . فانه ما كاد اوربانوس ينتهي من ندائه في كليرمون حتى تقدم الاسقف منه فجثى أمامه ونذر نفسه لخدمة المقدسة . وتبعه في ذلك مئات المؤمنين . ثم تلا الجميع صلاة الاعتراف (٢) .

وأراد اوربانوس العظيم ان يجعل الحملة كنسية فعين اديمار قائداً أعلى وزعيماً أوحد وخوله البت في جميع الاختلافات التي قد تنشأ بين الصليبيين . وكان أديمار شريفاً من أشراف فرنسة يجيد الخطابة ويحسن السياسة هادئاً لطيفاً واسع الافق بعيد النظر (٣). وكان قد حج قبل عشر سنوات فأضاف الى مؤهلاته العامة خبرة في امور الشرق ومعرفة لسكانه . وأعلن اوربانوس في كليرمون ايضاً موقفه من كنائس الشرق فأوجب اعادة جميع أوقافها اليها واحترام جميع حقوقها (٤) . ويرى بعض رجال الاختصاص ان البابا اعتبر منذ اللحظة الاولى جميع ما قد يتم من فتوحات في الأراضي المقدسة فتحاً باباوياً (٥) .

جيوش خمسة : وجاب بطرس الناسك الفرنسي البلاد وخطب في الناس وحضهم على الحرب المقدسة . وكان حاد الذكاء قوي الارادة طلق اللسان ضئيل الجسم طويل اللحية براق العينين . وكان يرتدي الصوف الخشن ويركب حماراً حقيراً كاشف الرأس حافي القدمين . فقوبل بحماس شديد والتف حوله الوف من المحاربين (٦) . وجاء موسم السنة ١٠٩٦ جيداً . فتفاءل الناس خيراً

1) *Chalandon, F., op. cit., 44 - 46 ; Runciman, S., op. cit., I, 106 - 109 ; Grousset, R., op. cit., I, 2 - 5.*
2) *Robert the Monk, I, 15 - 16.*
3) *Chevalier, U., Cartulaire de Saint - Chaffre, 13 - 14, 139, 161 - 163.*
4) *Hefelé - Leclercq, op. cit., V, 339 ; Chalandon, F., op. cit., 44 - 46.*
5) *Grousset, R., op. cit., I, 4.*
6) *Hagenmayer, H., Peter der Eremite, 127 - 151 ; Chalandon, F., op. cit. 57 - 59.*

واعتبروه رضاً ربانياً . وتساقطت النيازك بكثرة فاعتبرها اسقف ليزيو *Lisieux* اشارة سماوية تنبىء بزحف الجماهير على الاراضي المقدسة (١) .

وكان كبار الملوك آنئذ على خلاف مع البابا فلم يشترك أحد منهم في الحملة الصليبية الاولى . وشاء فيليب ملك فرنسة الا يُحرم من شرف الانتماء الى هذا العمل المقدس فأوعز الى اخيه امير فرمندوا *Hugues de Vermandois* ان يحمل شارة الصليب ففعل . وتألف جيش من أهل اللورين وريناني‍ة وشمال فرنسة بقيادة غودفروا ده بويون *Godefroy de Bouillon* واخويه اوستاش الثالث كونت بولونية *Eustace de Bologne* وبودوان (بردويل) *Baudouin* . وتزعم روبير امير الفلمنك *Robert de Flandre* وروبير دوق نورمندية واسطفانوس كونت بلوا جيشاً آخر . وقاد ريمون الرابع كونت تولوز وسان جيل *Toulouse et Saint - Gilles* جيشاً رابعاً والتف حول بوهيموند ابن غيسكار النورمندي فرسان نورمنديون وايطاليون . وعاون بوهيموند ابن عمته تنكريد (٢) .

موقف الروم : وقضت المحبة الجامعة التي كانت تتقد في فؤاد اوربانوس بجمع الشمل في القسطنطينية والانطلاق منها لتحرير الكنائس الشرقية وتأمين الحج والمحافظة على حرمة القبر المقدس وسائر الآثار والشعائر النصرانية .

وفي تموز السنة ١٠٩٦ وصلت الى البلقان طلائع بطرس الناسك ناهبة مقتلة مخربة . ثم تكاثرت الجموع فتقدموا نحو القسطنطينية. فرحب بهم الفسيلفس اليكسيوس وأكرمهم . واستقبل بطرس الناسك وأوضح له وجوب الانضباط واحترام حقوق السكان . وكانت جموع بطرس قد أقامت خارج أسوار المدينة فعاثوا في الضواحي فساداً وخرقوا حرمة الكنائس . فرأى اليكسيوس ان يجابههم بجيرانه الاتراك عبر البوسفور لعلهم يفقهون . وما ان حطت رحالهم في آسية حتى هاجموا الأتراك فبدد هؤلاء شملهم. فارعووا وكفوا عن القبيح ورضوا ان يعودوا الى ضواحي القسطنطينية عُزلا .

1) *Orderic Vitalis, III, 461 - 462.*
2) *Runciman, S., op. cit., I, 142 - 171.*

وقذف البحر الى شاطىء ابيروس في صيف هذه السنة نفسها اخا ملك فرنسة هوغ ده فرمندوا. فوقع في أيدي الروم ونقل الى القسطنطينية. فأحاطه اليكسيوس بشيء كثير من الاكرام والاحترام ورأى فيه خير وسيط بينه وبين زعماء الصليبيين. وزاد في اكرامه فتعلق الامير الافرنسي بالفسيلفس وبايعه على الطاعة والولاء .

ثم جاء في كانون الاول غودفروا ده بويون . وكان اليكسيوس قد سمع بشجاعته وثرائه فأكرمه. ولكن غودفروا امتنع عن مبايعة الفسيلفس . فتوترت العلاقات بين الاثنين . ثم قلت المؤونة لدى جموع غودفروا خارج اسوار العاصمة فلجأوا الى العنف وأرادوا اقتحام أحد مداخل القسطنطينية . فصدّهم الروم بالقوة وتغلبوا عليهم فأخلدوا الى السكينة . ودعا اليكسيوس الزعيم الصليبي الممتنع الى مأدبة اقيمت في القصر على شرفه . فبايع غودفروا الفسيلفس على الطاعة والولاء ومضى في نيسان السنة ١٠٩٧ بجموعه الى آسية .

وأطل بوهيموند النورمندي الايطالي في ربيع السنة ١٠٩٧ فأعلن فور وصوله استعداده لمبايعة الفسيلفس وأكد رغبته في التعاون مع الروم الى أقصى الحدود . وكان بوهيموند قد حارب اليكسيوس في البانية وفي اليونان فاعتور علاقاته مع الروم في بادىء الامر شيء من الحذر والبرودة . ولكن شخصيته الجذابة ومواهبه الكبيرة ونجاحه في التظاهر بالصدق والاخلاص عاونت على ازالة هذا الحذر وذلك الفتور . وزال الشك وتفاهم الكبيران . فاغتبط بوهيموند وطلب ان يدخل في خدمة الفسيلفس ويتولى قيادة جيوشه . فأجابه اليكسيوس ان كل آت قريب وانه بانتظار ذلك سيقطعه اراضي فسيحة في منطقة انطاكية (١) .

وجاء روبير ده فلاندر فدخل في طاعة الفسيلفس. اما ريمون دو سانجيل فانه وصل مستاء مكدراً غير مستعد للدخول في طاعة الروم . فاقنعه بوهيموند ففعل وأصبح من أخلص اصدقاء اليكسيوس وأشدهم وفاء له . وأعجب اليكسيوس بحكمة هذا القومس واتزانه وصدقه واستقامته . اما تنكريد الصقلي

1) *Anne Comnène, Alexiade, II, 224 - 226, 234.*

فانه لم يرضَ ان يمر بالقسطنطينية او ان يقسم يمين الولاء لسيدها . وأعلن ان هذا القسم لا يفرض عليه الا نحو سيده بوهيموند (١) .

وتمكن اليكسيوس بصبره ودهائه ولطفه وكرمه من التوصل الى تفاهم تام مع زعماء الصليبيين . ويرى بعض رجال الاختصاص ان الطرفين وقعا معاهدة في منتصف ايار سنة ١٠٩٧ قضت بأن يرفع الفسيلفس علم الصليب وان يضع تحت تصرف الزعماء الصليبيين فرقة محاربة وان يحمي طريقهم في اثناء مرورهم مقابل دخول هؤلاء في طاعته واعادة جميع الاراضي البيزنطية اليه التي وقعت بين نيقية وانطاكية (٢) .

وقام الصليبيون من القسطنطينية وحاصروا نيقية . فسقطت في يدهم فأعادوها الى اليكسيوس الفسيلفس . ثم اتجهوا جنوباً مذللين الصعاب في قلب دولة السلاجقة متعاونين في ذلك مع فرقة بيزنطية بقيادة تتيكيوس *Tatikios* وجهز اليكسيوس حملة برية بحرية بقيادة يوحنا دوقاس فاستولى على أفسس وساردس وأزمير واضالية . وقام الفسيلفس بنفسه فأخضع جميع بيثينية . وغلب قلج ارسلان وتقوض ملكه واستعاد اليكسيوس قلب آسية الصغرى وشواطئها الغربية (٣) . ونفذ كل من الطرفين ما نص عليه الاتفاق وساد الحب والوئام . وقام اليكسيوس على رأس جيش قوي ليلتحق بالصليبيين. ولكن بودوان استأثر بالرها وجهاتها ولم يعدها الى الفسيلفس .

انطاكية : وبينما كان بودوان يوطد فتحه في الرها وما جاورها كانت الحملة الرئيسة تتجه نحو انطاكية أمنع مدن سورية الشمالية وأعرقها شرفاً بالنصرانية . وكان سليمان ابن قطلمش قد استولى عليها خلسة في اوائل السنة ١٠٨٥ . فلما انتحر في السنة ١٠٨٦ استولى عليها ملكشاه واقطعها احد امرائه ياغي سيان . وتهافت المسلمون الى سكناها ولكنهم ظلوا اقلية ضئيلة بالنسبة الى اليونان والارمن والعرب المسيحيين (٤) . ولما شاعت اخبار الصليبيين وتواردت

1) *Diehl, C., Europe Orientale, 19 - 21.*
2) *Hagenmeyer, H., Epist. et Chart. ad Hist. Primi Belli Sacri, XII, 154 ; Chalandon, F., Alexis Comnène, 188.*
3) *Anne Comnène, Alexiade, III, 3 - 27.*
4) *Honigman, E., al - Ladhiqiyya, Enc. of Islam.*

انباء انتصاراتهم في آسية الصغرى تحصن ياغي سيان واذخر كثيراً من المؤونة والسلاح ودخل المدينة كثيرون من القرى المجاورة .

وانطلق الصليبيون من مرعش في السادس عشر من تشرين الاول سنة ١٠٩٧ فاستولوا على عزاز ومعراتا وأرتاح . وفي العشرين من الشهر نفسه وصلوا الى جسر الحديد فوجدوه محصناً مشحوناً بالرجال فاستولوا على برجيه عنوة بقيادة الاسقف اديمار نفسه وغنموا « خيلا وجمالا وبغالا وحميراً محملة حنطة » . وكانت قد ارسلت من حلب لتموين ياغي سيان في انطاكية وفي الحادي والعشرين من تشرين الاول دنا الصليبيون من انطاكية ونصبوا خيامهم أمام الاسوار . وتشاور الامراء والقادة فأوجبوا المحاصرة نظراً لمناعة الاسوار وتعدد الابراج ونقص العتاد . فتفرق القواد بجيوشهم حول الاسوار ولاسيما المداخل وأخذوا بالاهبة للقتال . اما ياغي فانه لم يبد حركة ولم يظهر من رجاله ولا مقاتل فوق الاسوار . وخشي ان يخونه النصارى وكانوا قد عاونوا الصليبيين في معرتا وأرتاح وغيرهما « فأخرج المسلمين من اهل انطاكية ليس معهم غيرهم وأمرهم بحفر الخندق . ثم أخرج من الغد النصارى ليس معهم مسلم فعملوا في الخندق الى العصر . فلما أرادوا دخول البلد منعهم وقال لهم انطاكية لكم تهبوها لي حتى انظر ما يكون منا ومن الفرنج . فقالوا له من يحفظ ابناءنا ونساءنا . فقال انا اخلفكم فيهم . فأمسكوا وأقاموا في عسكر الفرنج » (٢) وجاء في بعض المراجع الغربية ان الارمن والسوريين تظاهروا بالفرار من وجه ياغي وأبقوا نساءهم واولادهم في المدينة ثم واصلوا ياغي بأخبار المحاصرين (٣) . وكان ياغي قد أمر بالبطريرك الانطاكي يوحنا السابع فسجنه سجناً وكان قد حول كتدرائيته الى اسطبل لخيله . فلما بدأ الحصار أمر ياغي بوضع البطريرك الجليل في قفص من حديد وبعرضه على المحاصرين من الأسوار (٤) . وحل الشتاء وقلت المؤونة واشتد الحال جداً ففترت همة بعض

1) *William of Tyre, I, 161 ; Albert d'Aix, IV, 358, I, 363.*
٢) الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ١٨٦ سنة ٤٩١ ه.
3) *Hist. Anonyme, 69 ; Grousset, R., Hist. des Crois., I, 73 - 74.*
4) *Aboul Fida, Annales, 3 ; Kamal al Din, Chron., 578 - 579 ; Runciman S., op. cit., I, 214 - 215, 222.*

الصليبيــين وادبروا ومن غريب الامور ان بطرس الناسك نفسه ولّى مدبراً . فأدركه تنكريد الصقلي فعاد فأقسم بدوام مرافقة الذين قادهم للحرب (١). ونهض بوهيموند وروبير على رأس عشرين الف مقاتل للتفتيش عن القوت الضروري في قرى وادي العاصي . فاتجها جنوباً . ولدى وصولها الى حماه التقيـا بتقاق وطغتكين وشمس ابن ياغي آتين لنجدة انطاكية . فكانت موقعة عند قرية البارة أسفرت عن هزيمة المدد الاسلامي (٢). وعلم ياغي بخروج بوهيموند وروبير ورجالها فانقض على ريمون عند الجسر ولكنه عاد منكسراً مذعوراً (٣) .

وغنم بوهيموند وروبير برؤوس اعدائهما ولكنهما عادا فارغي اليدين دون الزاد المطلوب . واشتد الجوع في صفوف الصليبيين وفتك بهم . وقدم رهبان الامانوس والنصارى في القرى المجاورة جميع ما لديهم ولكنه لم يكف . فكتب اديمار الاسقف الى بطريرك اوروشليم ، وكان لا يزال في قبرص ، فأمده بالقوت والخمر ولكن الجزيرة لم تتمكن من اشباع الوف المحاربين . وتعاون الاسقف اللاتيني اديمار ممثل البابا في الشرق والبطريرك الاوروشليمي سمعان تعاوناً وثيقاً فحررا رسالتين الى الغرب يحضان فيهما المؤمنين على القيام بالواجب . وتكلم سمعان في احداهما بصفته زعيم اساقفة الشرق اليونانيين واللاتينيين وهدد كل من يتوانى عن تنفيذ النذر الصليبي بالحرم (٤) .

وبينما كان أديمـار يؤلف القلوب ويجمع الكلمة باسم سيده الكبير اوربانوس كان بوهيموند يبث نمائمــه ويزرع الاحقاد بين الروم واللاتين . ففي شباط السنة ١٠٩٨ اتصل بتتيكيوس ممثـل اليكسيوس في معسكر الصليبيين ونمّ على رفاقــه في السلاح وادعى انهم يضمرون السؤ لتتيكيوس لانهم يعتقدون ان اليكسيوس يشجع الاتراك على محاربتهم . ونصح بوهيموند الى تتيكيوس ان ينجو بحياته . فقبل تتيكيوس النصيحة ونزل الى مرفأ السويدية وأبحر الى قبرص .

1) *William of ; Tyre, I, 188.*
2) *Gesta Francorum, V, 70 - 72 ; Kamal al - Din, 580.*
3) *Raymond d'Aguilers, V, 243 - 244.*
4) *Hagenmeyer, H., op. cit. 141 - 142, 146 - 149 ; Runciman, S., op. cit. I, 222 - 223.*

وما ان تواري تتيكيوس عن الانظار حتى دبّت عقارب بوهيموند مرة ثانيـة فقال رجالـــه وعماله ان تتيكيوس فرّ خائناً . وكان بوهيموند يطمع في امارة انطاكية فرأى من المصلحة ان يتجنّى على اليكسيوس ويتقول على ممثله ليفجر في يمـين الطاعة والولاء ويتحرر من العقد الذي قضى باعادة انطاكية الى سيدها الشرعي اليكسيوس (١) . ثم عاد فلجأ الى المراوغة والمداورة فادعى امام رفاقـه في السلاح ان ابتعاده عن ممتلكاته في ايطالية سيفلتها من يده وان مصلحته تقضي بالعودة الى ايطالية . فاذا كان لا بد من بقائه في صفوف المحاربين المجاهدين فعلى هؤلاء ان يعوضوه انطاكية . فتشاغل اقرانه عن سماعه ولكن الجنود مالوا اليــه بالسمع ورأوا في ذلك رأيه (٢) .

واستجار ياغي بجاره رضوان صاحب حلب من الصليبيين واعترف بسلطته فأغاثه رضوان وجاءه على رأس قوة كبيرة يعاونه فيها صاحب ديار بكر وامير حماه . وقطع الفرسان الصليبيون العاصي وكمنوا للخصم عنـد جسر الحديد . وفي التاسع من شباط سنة ١٠٩٨ ناوش الصليبيون المسلمين عنـد الجسر ثم استدرجوهم الى ميدان ضيق بين العاصي وبحيرة انطاكية فانقضوا عليهم وشتتوا شملهم . وكان ياغي قد خرج الى القتال في الوقت نفسه وكاد ينتصر . فلما أبصر الفرسان عائدين منتصرين تراجع فدخل المدينة مدبراً (٣) .

وفي الرابع من اذار وصل اسطول انكليزي حامـلا حجاجاً ايطاليين وعتاداً رومياً من القسطنطينية . فانشأ الصليبيون ابراجاً عنـد مداخل انطاكية وضيقوا الحصار . وكان اليكسيوس قد أوصى الزعماء الصليبيين بوجوب التفاهم مع الفاطميين اعداء الاتراك . فلما بدأت أسهم الصليبيين ترتفع بعث المستعلي بالله العلوي وفداً من مصر يعرض الصلح والمسالمة وانه يرجع اليهم الكنائس ويحامي عنهم ويفتح ابواب اوروشليم للزوار على ان يدخلوها بلا سلاح والا يقيم الواحد

1) *Anne Comnène, Alexiade, XI, 4 ; Gesta Francorum, VI, 16 ; Runciman, S. op. cit., I, 224.*
2) *Raymond d'Aguilers 254 - 256.*
3) *Gesta Francorum, VI, 17.*

فيها اكثر من شهر . فرحب الصليبيون بالوفد العلوي وقدموا الهدايا ولكنهم لم يبتوا في شيء (١) .

وطال أمــد الحصار . وترامى للصليبيين ان كربوغا صاحب الموصل جيّش جيوشاً ونهض بها لاغاثة ياغي سيان . فاندفع بوهيموند يعجل الاستيلاء على انطاكية تعجيلا . ففاوض فيروز الزرّاد أحد امراء الأبراج في انطاكيــة وبذل له مالا واقطاعاً . وكان فيروز ارمنياً فأسلم وتقرب من ياغي فأصبح اميراً على ثلاثة من الأبراج الكبيرة . وكان على جانب عظيم من التقلب وحب الرفعة والمال . فعقد مع بوهيموند شروط التسليم بالخيانة . ثم تواترت الاخبــار بقدوم صاحب الموصل بالوف من الرجال لنجدة المدينة . فخاف الصليبيون فخطب بوهيموند بوجوب الخيانة لامتلاك المدينة . فأذعن الرفاق فاجتمع بوهيموند بفيروز واتفقا على وقت وظرف . وفي اليوم الثاني جمع الافرنج خيامهم واغراضهم وانسحبوا عن ساحتهم وأعلنوا السير نحو اوروشليم . وما زالوا سائرين نحو اوروشليم حتى تواروا عن العيون . ثم انعطفوا راجعين في الليل . وقبيل الفجر أنفذ قوة صغيرة الى برج الاختين الذي كان يحرسه فيروز . وصعدوا على السلالم الى هذا البرج وانطلقوا منه الى غيره . وقتلوا الحراس وهيجوا النصارى وكسروا الابواب وامتلكوا المدينة في الثالث من حزيران سنة ١٠٩٨ وفتكوا بالاهلين فتكاً ذريعاً . وفر ياغي سيان فقتله الارمن وجاءوا برأسه الى انطاكية . اما القلعة فانها بقيت بيد شمس الدولة ابن ياغي (٢) .

وفي السابع من حزيران وصل كربوغا صاحب الموصل بجنود كثيرة من الترك والعرب . فاضطرب الافرنج وأخذ الضيق منهم كل مأخــذ . ولم يعد عندهم زاد كاف ولم يكن لهم يد لاستجلاب المدد لان القرى المجاورة كانت قد أمست مدمرة او مهجورة . واتصل شمس الدولة بكربوغا ورجاه الاحتفاظ بقيادة القلعة الى ان يتم النصر فأبى كربوغا وأرسل احمد بن مروان فاحتلهــا باسمه . وفي العاشر من حزيران طوق كربوغا انطاكيــة وشدد الحصار . وتضايق

1) *Raymond d'Aguiles, 247; Gesta Francorum, VI, 17, VII, 19; Hagenmeyer, H., op. cit., 151, 160.*
2) *Gesta Francorum, VIII, 20 ; William of Tyre, V, 18 - 23.*

الصليبيون ونفذ قوتهم وخارت قواهم وضعفت وفرّ بعضهم طلباً للنجــاة وفي العاشر من هذا الشهر نفسه ايضاً دخل فلاح افرنسي اسمه بطرس برتلماوس الى خيمة بوهيموند وطلب مقابلة الاسقف اديمار ممثل البابا وزعيم الحملة الاكبر . وأذن له بذلك فقــال ان القديس اندراوس ظهر له ثلاث مرات وبين له المكان الذي دفنت فيه الحربة التي طعن بها السيد وقت الصلب . فلم يكترث الاسقف لسببين اولها ان بطرس هذا لم يكن من ذوي السيرة الحسنة والثاني ان الاسقف نفسه كان قد شاهد الحربة في القصر المقدس في القسطنطينية في اثناء وجوده فيهــا . وبعد هذا بقليل دخل قس اسمه اسطفانوس على الامراء القــادة وقال ان السيد والعذراء ظهرا له في أثناء الليل في كنيسة السيدة . وان السيد له المجــد أمره ان يقول للاسقف أديمــار ان جموع المحاربين المجاهدين وقعوا في الخطيئة وأنهم ان تابوا أرسل لهم في ظرف خمسة ايام المعونة الكافية لحمايتهم . فاتعظ اديمار وطلب الى الامراء ان يقسموا بأنهم لن يتخلوا عن انطاكية الا باجمــاع الرأي ففعلوا . وفي الرابع عشر من حزيران شاهد الصليبيون نيزكا يتساقط على معسكر الاتراك . فهبوا في الغد يفتشون عن الحربة في كنيسة القديس بطرس ومعهم الفلاح بطرس برتلماوس . « وحفروا عليها في جميــع الاماكن فوجدوها كما ذكر الفلاح . فقــال لهم ابشروا بالظفر . فقويت عزيمتهم وخرجوا في اليوم التالي من باب المدينــة متفرقين من خمسة وستة . فقال المسلمون لكربوغا ينبغي ان تقف على الباب فتقتل كل من خرج . فقال لا تفعلوا لكن أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم . فلما تكاملوا ضربوا مصافاً عظيماً فولى المسلمون منهزمين » (١) وغنم الصليبيون غنائم لا تحصى وجمعوا مالا غزيراً وعادوا الى انطاكية بثروة عظيمة . وكان ذلك في الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من حزيران سنة ١٠٩٨ .

وشاهد احمد ابن مروان هــذا النصر من أبراج القلعة فأرسل من يعلن استعداده للتسليم . ودخل رسوله خيمة ريموند . فأرسل هذا الامير من يرفــع أعلامه على القلعة . فلما علم أحمد ان الاعلام ليست أعلام بوهيموند امتنع عن رفعها

١) تاريخ مختصر الدول لابن العبري ص ٣٤١ – ٣٤٢

ولم يفتح الأبواب قبل وصول بوهيموند نفسه ودخل بوهيموند القلعة واستولى عليها واذن بخروج الحامية سالمة فدخل بعض زعمائها في النصرانية وعلى رأسهم احمد ابن مروان (١) . وتوفي الاسقف أديمار ودفن في كنيسة القديس بطرس فخلا الجو لبوهيموند فحنث في يمين الطاعة والولاء للفسيلفس ولم يبر في ما وعد فنشأت مشادة بينه وبين الروم كان لها أسوأ الأثر في علاقة كنيسة انطاكية بكنيسة رومة (٢) .

القبر المقدس: وفي أواخر تشرين الثاني سنة ١٠٩٨ قام الصليبيون من انطاكية وما جاورها وساروا الى كفرطاب فراسلهم منقذ صاحب شيزر فصالحهم عليها وسهل عبورهم بين شيزر وحماه ووصولهم الى مصياف. وسالمهم صاحب مصياف فتقدموا الى رفنية وانحدروا منها الى البقيعة . وفي الثامن والعشرين من كانون الثاني سنة ١٠٩٩ هجموا على حصن الاكراد واستولوا عليه . فراسلهم صاحب حماه . ورجاهم صاحب طرابلس جلال الملك ابوالحسن ابن عمار ان يرسلوا وفداً للمفاوضة واكد استعداده لرفع علم ريمون التولوزي . ففعلوا وعاد أعضاء الوفد المفاوض وأشادوا بثروة ابي الحسن ووفرة الغلال في أمارته وأشاروا بالحرب طمعاً. فقام الجمع الى عرقة في السادس عشر من شباط وضربوا الحصار عليها . وقام بعضهم الى طرطوس ففر صاحبها فدخلوها بدون قتال . وراسلهم صاحب المرقب وبانياس ودخل في طاعتهم .

وطال أمد حصار عرقة وألح جمهور المحاربين على رفع الحصار والتقدم نحو اوروشليم . وتلقى ريموند رسالة من اليكسيوس الفسيلفس يفيد فيها انه سيلحق بهم في الصيف على رأس جيش قوي وان المصلحة تقضي بانتظاره قبل الهجوم على فلسطين . ولكن معظم الامراء وأغلبية المحاربين آثروا التقدم وعدم الانتظار . وصالحهم ابوالحسن ابن عمار على مبلغ كبير من المال وقدم لهم

1) *Gesta Francorum, IX, 29 ; Raymond d'Aguilers, XII, 259 - 261 ; Fulcher de Chartres, XXII - XXIII ; Runciman, S., op. cit., I, 236 - 249.*

2) *Albert d'Aix, V, 2 ; Runciman, S., op. cit., I, 249 - 250.*

الدواب لحمل الاثقال والعلف للجيش كله ووعد بتقبل النصرانية لدى انتصارهم على الفاطميين . ثم سهل خروجهم من طرابلس وبعث أمامهم من أوصلهم الى نهر الكلب الحد الفاصل بين امارته وبين دولة الفاطميين . وواصلوا السير فبلغوا بيروت في العشرين من ايار . وكان يأمر فيها احد الامراء التنوخيين فطلب الى زعماء الصليبيين ان يكفوا عن أذى المدينة وأهلها ولا يعبثوا بغلات بساتينها. فرضوا بذلك شرط ان يقدم للجنود حاجتهم من القوت والذخيرة ففعل . ثم سار الافرنج الى صيدا . فنازلهم صاحبها فقاتلوا وخرّبوا وتابعوا السير الى صور ومنها الى عكة فبلغوها في الرابع والعشرين من ايار . وما فتئوا يتقدمون في ساحل البحر حتى ارسوف . ثم تحولوا نحو الرملة فوجدوها خاوية خالية فأخذوا يتسلقوا التلال حتى البيت المقدس في اليوم السابع من حزيران .

وكانت اوروشليم قد أصبحت بيد الفاطميين منذ امد وجيز . وكان يتهلم فيها الفضل ابن بدر الجمالي . وكانت حاميتها عربية سودانية . فحاصرها الافرنج نيفاً واربعين يوماً ونصبوا عليها برجين . ثم اقتحموها من الجانب الشمالي واستباحوها اسبوعاً كاملا . واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود فاعتصموا به . فبذل لهم الافرنج الامان فسلموه اليهم وخرجوا الى عسقلان آمنين . وقتل الافرنج بالمسجد الاقصى عدداً كبيراً منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وزهادهم . ووافق دخول الصليبيين اوروشليم في منتصف تموز من السنة ١٠٩٩ (١) .

الصليبيون وكنيسة انطاكية : وأحب اوربانوس المسيح فأحب الكنيسة . وأرادها واحدة لان المسيح واحد . ولان لاخيه بيسوع بطريرك القسطنطينية نيقولاووس الثالث وخطب وده . ثم هاله تقدم الاتراك السلاجقة في الشرق وراءه ضعف الروم فخف لنجدة النصرانية وأعلن الجهاد المقدس وحض المؤمنين على القتال وأوجب بقرار مجمعي احترام حقوق الكنائس الشرقية واعادة

١) الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ١٨٦ – ١٨٩ ؛ *Gesta Francorum, X, 34 - 37 ; Raymond d'Aguilers, XIV - XX ; William of Tyre, VII, 19 ; Fulcher de Chartres, XXV, 13 - 17 ; Runciman, S., op. cit., I, 265 - 288 ; Grousset, R., op. cit., I, 116 - 163.*

أوقافها اليهـــا (١) . وانتقى اسقفاً صالحاً تقياً واسع الصدر لين العريكة بعيد النظر أديمار ليمثله في الحملة ويسهر على تنفيذ الخطة المرسومة .

و كان البطريرك الانطاكي يوحنا السابع تقياً صالحاً جليلا وقوراً. و كان قد أبصر النور في جزيرة او كسية وقدم النذر في القسطنطينية . فلما رقي العرش الانطاكي خف للعمل المثمر فسعى لاصلاح الرهبان والرهبانيات . وراسل توما الكفرطابي اسقف الموارنـــة على كفرطاب و كورة حلب وجادله في المشيئة الواحدة محاولا صرفـــه عن القول بها (٢) . ومن آثاره رسالة في الحياة الرهبانية احتج بها على تدخل السلطات في شؤون الرهبان وتلزيم الأديار للعلمانيين (٣) . وله ايضاً رسالة في التقديس على الفطير اتخـــذ فيها موقف المدافع عن التقليد الأرثوذكسي (٤) .

ولدى استيلاء الصليبيين على انطاكية أسرع زعماؤهم الى الافراج عن هذا الاب الجليل واعادته الى سابق حريته و كرامته. ثم أمروا بتنظيف كاتدرائية انطاكية و كنيسة السيدة فيها مما لحق بها من الأقذار في عهد الاتراك السلاجقة . ثم ترأس يوحنا السابع حفلة التطهير والتكريس وعاونه في الخدمة عدد من الكهنة والاساقفة اللاتينيين . وأعجب الصليبيون بهذا الرجل البار فأشاروا اليه في كتاباتهم بالعبارة *Virum Christianissimum* (٥) . ومعناه المسيحي المسيحي واعتبر أديمار ممثل البابا في الشرق البطريرك الاوروشليمي سمعـــان بطريركاً رسولياً . وحينما سمح الظرف برفع تقرير عن سير الأعمال في الشرق وضع أديمار هذا التقرير باسم سمعان بطريرك اوروشليم وباسمه (٦) . ثم قضت الظروف بطلب النجـــدة من

1) *Hefelé - Leclercq, op. cit. V, 339 ; Chalandon, op. cit., 44 - 46 ; Runciman S., op. cit., I, 109.*
٢) المقالات العشر لتوما الكفرطابي : لباب البراهين للمطران يوسف دريان ص ٢٥٢
3) *P. G., Vol. 132, Col. 1128 ff. ; Brehier, L., Institutions, 556 - 557 ; Delahaye, H., Byz. Monast., Byzantium, 156.*
4) *Orientalia Christiana, II, 244 - 263 ; Grumel, V., Patriarches Grecs d'Antioche, Echos d'Orient, 1933, 286 - 298.*
5) *Albert d'Aix, IV, 3. ; Rec. Hist. Crois. IV, 433 ; Musset, H., Hist. du Christianisme, I, 442 - 443.*
6) *Hagenmeyer, H., Die Kreuzzugsbriefe, 141 - 142.*

الغرب فكتب أديمار باسم سمعان الاوروشليمي أيضاً . وظهر سمعان في هـــذه الرسالة بطريركاً رسولياً وتكلم باسم جميع الاساقفة في الشرق لاتينيين ويونانيين. وهدد بالحرم كل من حنث بالنذر الصليبي (١) .

وتوفي أديمار الصديـــق في اليوم الاول من آب سنة ١٠٩٨ فخسرت الكنيسة الجامعـــة بوفاته أباً باراً صالحاً محباً حكيماً . ولم توفق الكنيسة اللاتينية الى خلف مصاف مسالم يتابع العمل الصالح الذي سعى اليه اوربانوس وأديمار .

وفي الحادي عشر من ايلول من السنة نفسهـــا حرر الامراء الصليبيون المجتمعون في انطاكية رسالة الى البابا اوربانوس الثاني . وذكروا خبر وفـــاة أديمار ورجوا الاب الاقدس ان يجيء الى انطاكية ليرعى أبرشية بطرس الاولى. والغريب في هذه الرسالة ان الامراء تناسوا وجود يوحنا السابع بطريرك انطاكية الشرعي ولم يذكروه لمناسبة هـــذا الطلب . ولكنهم أشاروا الى الصعوبات التي لاقوها على يد النصارى الهراطقة يونانيين وارمن وسوريين ويعاقبة . واليونانيون الهراطقة في هـــذه الرسالة هم جماعات من اليونانيين البولسيين الذين كانوا لا يزالون يمارسون نصرانيتهم على طريقتهم الخصوصية في جوار انطاكية (٢) .

وفي الشهر التالي أي في تشرين الاول سنة ١٠٩٨ انطلق ريمونـــد امير تولوز من ريحا على رأس رجاله في طلب المؤونة والعلف . فاستولى على البارة عنوة وقتل وسبى . ورأى ان يجعلها مدينة مسيحية فحض المسيحيين على سكناها وحول مسجدها الى كنيسة وأقام عليها اسقفاً بطرس النربوني . و كان لا بـــد من سيامة بطرس سيامة مسيحية فطلب ريمونـــد الى البطريرك الانطاكي يوحنا السابع ان يرئس حفلة السيامة ففعل هـــذا البطريرك الارثوذكسي اليوناني وسام اسقفاً لاتينياً ليخدم على الطريقة اللاتينية (٣) .

و كان بوهيموند منهوماً بالسلطة مسهباً بطبيعته فاشتد حرصه على امارة

1) *Hagenmeyer, H., op. cit., 146 - 149.*
2) *Anonymi Gesta Francorum, X, 30 ; Raymond d'Aguilers, XIII, Hagenmeyer, H., op. cit., 164.*
3) *Raymond d'Aguilers, XIV. ; Gesta Francorum, X, 31 Runciman, S., op. cit., I, 257 - 258.*

انطاكية واستمات واستهلك اليها . فلجأ الى بطرس برثلماوس فزعم هــذا ان اندراوس ظهر له وقال ان أديمار قضى وقتاً في الجحيم وانه لم يفلت لولا صلوات زملائه وصلاة بوهيموند من اجلـه . وزعم بطرس ايضاً ان اندراوس امره ان يقول الى ريموند بأن انطاكية لبوهيموند ما دام تقياً صالحاً وانه لا بد من مقاطعة الروم والكنائس الارثوذكسية المحلية وانتخاب بطريرك لاتيني على كنيسة انطاكية (١) .

ثم كاشف بوهيموند الروم بالعداوة فحاول في حزيران السنة ١٠٩٩ ان يخرجهم من اللاذقية . وتوفي اوربانوس الثاني في التاسع والعشرين من تموز التالي فتمادى بوهيموند في ضلالـه وبسط عنانه في الجهل فهجم في السنة ١١٠٠ على مرعش وكانت هذه قـد اعيدت الى الروم بموجب شروط المعاهدة بينهم وبين الصليبيين . واستولى تنكريد نسيب بوهيموند على طرسوس وادنه . ووقـع بوهيموند اسيراً في يد الاتراك في تموز السنة ١١٠٠ فتجنّى على البطريرك الانطاكي يوحنا السابع ورماه بالتواطؤ مع الاتراك واكرهه على الخروج من انطاكية . ثم جعل من برناردوس والنسية اسقف ارتاح بطريركاً لاتينياً على انطاكية . ولا صحة في القول بأن يوحنا السابع استقال فشغر كرسيه فنصب برناردوس (٢) . ولا في القول بأن استعفاء يوحنا تم في اثناء الاسر الذي وقع فيه بوهيموند (٣) . فيوحنا السابع لم يستقل قبل وصوله الى القسطنطينية . واستقالته هذه ارتبطت منذ لحظتها الاولى بانتخاب خلف ارثوذكسي له يوحنا الثامن وذلك بالطريقة القانونية المرعية الاجراء آنئذ (٤) .

الصليبيون وكنيسة اوروشليم : وكان سمعان الثاني بطريرك المدينـة المقدسة الشرعي قد فرّ منهـا لان الاتراك السلاجقة كانوا قد جحدوا الذمام لأهل العهد من النصارى وغدروا وختروا وانتهكوا حرمة الكنائس . وكان

1) *Raymond d'Aguilers, XIII.*
2) *William of Tyre, VI, 23.*
3) *Orderic Vitalis, IV, 141.*
4) *Leib, B., Deux Inédits Byzantins, 59 - 69 ; Benechewitch, Cat. Cod. Manus. Graec., 279 ; Grumel, V., Patriarches d'Antioche, Echos d'Orient, 1933, 286 - 298.*

هذا البطريرك العالم الصالح وقـد رحب بالصليبيين وقدم لهم الزاد والمؤونة في أبان محنتهم أمام اسوار انطاكية . وكان ايضاً قـد اشترك مع أديمار الصالح في كل ما يؤول للخير . فكان له مع الصليبيين اخوة واسباب ترعى . ولكنه توفي قبيل استيلاء الصليبيين على اوروشليم (١٠٩٩) . ولا عبرة لما جاء في تاريـخ ميخائيل السرياني من ان سمعان شهد الاستيلاء على اوروشليم وانه اشترك بنفسه في أعمال القتل . فشهادته هـذه ينقصها الشيء الكثير من العدالة والضبط (١) . وكانت المدينة قد خلت من الاساقفة لفرار هؤلاء مـع بطريركهم الى قبرص فأقـام بعض الامراء الصليبيين والكهنة اللاتينيون أرنولفوس روهيز بطريركاً على اوروشليم . وكان ارنولفوس واعظاً وأديباً ولكنه لم يكن زاهـداً تقياً ولم يحظ بأصغر درجات الكهنوت فاعترض ريمون امير تولوز وعـدد من الكهنة الافرنسيين الجنوبيين على ارتقائه السدة البطريركية وامتنعوا عن التعاون معه (٢) .

وماشى البطريرك الجديـد بوهيموند في السياسة الكنسية فأبعد الكهنة الارثوذكسيين والارمن واليعاقبة والاقباط عن كنيسة القبر المقدس وعين عشرين كاهناً لاتينياً لخدمة في هـذه الكنيسة . ثم قبض على الكهنة الارثوذكسيين مطالباً بعود الصليب وأمر بتعذيبهم فقبلوا مكرهين وقدموا الاثر المقدس له (٣) . فأثار هـذا البطريرك اللاتيني باستبداده واستفزازه غضب الشعب الأرثوذكسي وكهنته . وشاع خبر تعصبه وتصلفه واضطربت به الالسنة فوصل الى القسطنطينية وزاد في النفور والتباعد (٤) .

المملكة اللاتينية والامارات الصليبية : وفي ربيع السنة ١١٠٠ تجددت الاعمال الحربيـة فاستولى الصليبيون على ساحل فلسطين من عسقلان حتى عكة . وقضت الضرورة العسكرية بتأمين الاتصال بين الصليبيين في فلسطين وبـين اخوانهم في انطاكية والرها . وكان ريموند امير تولوز طامعاً في امارة له فانطلق

1) *Michel le Syrien, III, 329 ; Musset, H., Hist. du Christ., I, 440, n. 3.*
2) *Raymond d'Aguilers, XX - XXI ; William of Tyre, IX, 1.*
3) *Raymond d'Aguilers, loc. cit. ; Fulcher de Chartres, I, 30 ; William of Tyre, loc. cit.*
4) *Runciman, S., op. cit., I, 294 - 295.*

من اللاذقية في مطلع السنة ١١٠٢ واحتل طرطوس . ثم تقدم منها نحو طرابلس على راس ثلاثمئة فارس وكان فخر الملك محمد ابن عمار قد طلب معونة الامير ياخز خليفة جناح الدولة على حمص ومعونة تقاق او دقاق ابن تتش امير دمشق فأعاناه . واجتمع هؤلاء في السهل عند مدخل طرابلس . فجرت معركة حامية تغلب فيها ريموند. فوقع الصلح على مال حمله اهل طرابلس اليه. وفي السنة ١١٠٣ عاد ريموند الى القتال وقد وصله مدد من البحر فحاصر طرابلس براً وبحراً فلم يجد فيها مطمعاً فعاد عنها الى جبيل وتسلمها بالامان . واستولى ريموند على جبلة وتقدم في السنة ١١٠٥ نحو طرابلس واقام على حصارها وبنى حصناً يطل عليها (حصن صنجيل) وبنى تحته ربضاً فخرج ابن عمار واحرق الربض . ووقف ريموند على بعض سقوفه فانخسف به فرض ومات وحمل الى المدينة المقدسة ودفن فيها. وانتخب الضباط غيليوم يوردانوس قائداً وتابعوا الحصار. وقلت الاقوات في طرابلس فتوجه فخر الملك الى بغداد مستنفراً واجتمع بالسلطان محمد وبالخليفة المستظهر فلم يحصل منها على غرض . فعاد الى دمشق واقام عند طغتكين واقطعه الزبداني . واما اهل طرابلس فانهم دخلوا في طاعة خليفة مصر راجين الفرج . وفي السنة ١١٠٨ أطل برتران ابن ريموند غير الشرعي على رأس اربعة الاف فارس قادماً من جنوب فرنسة . فامتنع يوردانوس عن التنازل له عن القيادة ولا سيا وانه كان قد انتصر منذ برهة على جموع دمشق وحمص عند عرقه وان عرقة كانت قد سقطت بيده . فاجتمع كبار الصليبيين من انطاكية واوروشليم وغيرهما في قلعة صنجيل الصليبية التي تطل على طرابلس للتوفيق بين الاميرين المتنافرين . وترأس الاجتماع بودوان الاول ملك اوروشليم وذلك في صيف السنة ١١٠٩ . فاتفق الطرفان على ان يتولى يوردانوس طرطوس وعرقة مقسماً الولاء لامير انطاكية وان يستحوذ برتران على طرابلس وجبيل مقسماً الولاء والطاعة لبودوان الاول ملك اوروشليم وعلى ان يرث احدهما الآخر عند وفاته . ونزلوا جميعاً على طرابلس والصقوا أبراجهم بسورها . وتأخر المدد من مصر فاقتحمها الافرنج عنوة ودخلوا اليها في الثاني عشر من تموز سنة ١١٠٩ . وأصبح برتران قومس طرابلس متسلماً سلطته بالاقطاع من ملك اوروشليم . واحتل الجنويون حياً من

احياء طرابلس وقلعة الكونستابل على بعد خمسة عشر كيلومتراً الى الجنوب وثلثي مدينة جبيل . ثم تنازل هؤلاء عن حقهم في جبيل الى الاميرال هوغ امبرياكو *Hugue Embriaco* فجعل من جبيل اقطاعاً وراثياً له ولذريته من بعده . وأصيب يوردانوس بسهم طائش وتوفي فأصبح برتران ابن ريمون قومس امارة امتدت من طرطوس الى نهر الكلب ومن البحر حتى مداخل حمص وشملت رفنية والبقيعة وما جاورهما (١) .

وكانت بيروت وصيدا وصور قد تعاونت مع جيوش دمشق وحمص لصد بودوان الاول عن الوصول الى اوروشليم . فرابطت في منتصف تشرين الاول من السنة ١١٠١ عند نهر الكلب مستعينة بضيق الطريق ووعورة المسلك . فتظاهر بودوان بالتراجع واتجه نحو جونية . فلحق به العدو وما زال حتى وصل بودوان ورجاله الى مضايق المعاملتين . فصمد بودوان بدوره مستعيناً بطبيعة الأرض ثم انقض على الدمشقيين والحمصيين وأتباعهم من سكان بيروت وصيدا وصور . فتراجعوا مذعورين ثم تشتتوا . فتابع بودوان سيره الى اوروشليم ليستوي على عرشها خلفاً لغودفروا (٢) .

ولمس بودوان لمس اليد ضرورة الاستيلاء على بيروت وصيدا وصور لتأمين المواصلات بين الشمال والجنوب فعاد الى بيروت في ربيع السنة ١١١٠ مستعيناً ببرتران وبأربعين مركباً جنوياً وبيزياً . واشتد القتال فقتل مقدم الاسطول الفاطمي وخلق كثير من المسلمين . وهجم الصليبيون على البلد فملكوه بالسيف قهراً (٣) . واقطع بودوان بيروت لأحد أشراف دولته فولك ده غين *Foulques de Guines* وخلفه عليها سادة من ذريته حتى السنة ١١٨٧ .

1) *Albert d'Aix, VIII, - XI ; Fulcher de Chartres, II, 11, 17, 41 ; Caffaro, Liberatio, 69 - 73 ; Sibt. ibn al - Jauzi (R. H. C.) 525 - 536 ; Ibn al Qalanisi, 60, 83 - 90 ; Sobernheim, Art. Ibn Ammar, Enc. of Islam ; Runciman, S., op. cit., II, 56 - 70 ; Grousset, R., op. cit., I, 333 - 364 ; Richard, J., Comté de Tripoli, 12 - 14.*
2) *Fulcher de Chartres, II, 1 ; Albert d'Aix, VII, 32 - 35 ; Runciman, S., op. cit., I, 323 - 324.*
3) *Grousset, R., op. cit., I, 253 - 255.*

ونهض بودوان من بيروت الى عكة فوافق مروره فيها وصول اسطول نروجي بقيادة سيغورد Sigord اخي ملك نروج . وكان سيغورد اول متوج يزور المملكة اللاتينية فاستقبله بودوان بحفاوة فائقة وواكبه حتى المدينة المقدسة . فارتاح سيغورد وقال ان رجاله راغبون في الاشتراك في الجهاد لمناسبة وجودهم في الاراضي المقدسة . فشكر بودوان لضيفه الملكي هذه البادرة الطيبة وقال ان الظروف العسكرية تقضي باحتلال صيدا . وفي اوائل تشرين الاول من السنة ١١١٠ ظهر الاسطول النروجي أمام صيدا وأحاط جيش بودوان بها من البر . واشتد القتال وأقبلت عمارة فاطمية مصرية من صور فكادت تقضي على المراكب النروجية لولا وصول نجدة بندقية بحرية بقيادة الدوج نفسه اورديلافو فاليري *Ordelafo Faliere* . ودبر الصيداويون خطة لاغتيال بودوان بواسطة شاب مسلم كان قد دخل في النصرانية والتحق بخدمة الملك الصليبي. فعلم نصارى صيدا بذلك فأطلقوا سهماً حاملا الخبر الى مقر القيادة الصليبية . فأمر بودوان بهذا الشاب فقتل عند اسوار المدينة . وفي الرابع من كانون الاول سنة ١١١٠ سلمت صيدا فرحل عنها أعيانها الى دمشق . فجعلت بارونية واقطعت الى البارون اوستاش غارنيه *Eustace Garnier* . ووهب بودوان البنادقة كنيسة واراضي في عكة (١).

وحاول بودوان في السنة ١١١١ ان يستولي على صور ولكنه لم يفلح لضعفه في البحر. فعاد عنها وانشغل بمشاغل اخرى . فظلت صور في يد المسلمين فترة من الزمن . وحاول أعيانها التوفيق بين الولاء للفاطميين للاستعانة باسطولهم وبين الولاء لامراء دمشق للاستعانة بجيشهم عند الحاجة . فقبلوا اميراً دمشقياً اسمه مسعود حكم باسم طغتكين وداوموا على الدعاء في الخطبة للخليفة الفاطمي . وفي السنة ١١٢٢ وصل اسطول فاطمي الى مياه صور فاستقبل فيها أحسن استقبال. فدعا قائد الاسطول الامير حاكم البلد لزيارة الاسطول . ففعل فقبض عليه ونقل الى القاهرة ثم اطلق سراحه . فاعترف طغتكين الدمشقي بالحكم الفاطمي في صور .

1) *Fulcher de Chartres, II, 44 ; Albert d'Aix, XI, 26, 30 - 34 ; William of Tyre, XI, 14 ; Ibn al Qalanisi, 106 - 108 ; Riant, Scandinaves en Terre Sainte, Ch. IV.*

وفي منتصف شباط سنة ١١٢٤ وصل الصليبيون براً وبحراً الى صور وضربوا الحصار عليها باسم الملك الاوروشليمي بودوان الثاني وبقيادة البطريرك غورموندو *Gormand* . فقطعوا مياه رأس العين عنها وتناولوها بالمجانيق . فرد الصوريون المجانيق بمثلها ورموا المحاصرين بالنار الاغريقية . ولكنهم كانوا قليلين فلم يجرأوا على الهجوم . واستغاثوا بالقاهرة ودمشق فلم يلب الخليفة الآمر النداء لعدم توفر المراكب . وانفذ طغتكين جيشاً كبيراً الى بانياس وبات ينتظر قدوم المراكب الفاطمية . ثم أطل الصليبيون من معسكر صور فعاد الى دمشق بدون قتال . وطال الحصار وقل الزاد والماء فصالح طغتكين وسلم صور على شروط أهمها ان يسمح لأهلها بمغادرتها وان يؤمن الباقون فيها على حياتهم . وفي السابع من تموز سنة ١١٢٤ فتحت صور أبوابها للصليبيين فاستولوا عليها باسم بودوان الثاني (١) .

واقتصر الحكم الصليبي في الغالب على السواحل والجبال الغربية حتى مقلب المياه . وظل الداخل كحلب وحماة وحمص وبعلبك ودمشق بيد الامراء المسلمين السلاجقة . ونشأ في البلاد ثلاث امارات صليبية ومملكة : امارة الرها وأمارة انطاكية وامارة طرابلس والمملكة اللاتينية . وكان نظام الحكم فيها اقطاعياً على الطريقة الاوروبية . وجاء الملك الاوروشليمي صاحب التاج المقدس على قمة هذا النظام في المملكة اللاتينية وفي الامارات الثلاث . فكان عليه ان ينجد الامير المقطع اذا اعتدي عليه او هدد بثورة داخلية وان يكون وصياً على الامير اذا كان قاصراً وان يكون الحكم بين الامراء . وكان على الامراء ان يقسموا يمين الطاعة والولاء ويهبوا لمعونة الملك بعدد معين من المحاربين . واقطع كل امير من الامراء غيره اراضي في امارته بالشروط نفسها . وشمل هذا الاقطاع الاساقفة والرهبان ايضاً. فكان على هؤلاء ان يقسموا يمين الطاعة والولاء للامير الكبير وان يلبوا نداءه في الملمات فينجدوه بعدد معين من رجال الحرب او مبلغ محدد من المال او الاثنين معاً .

1) *Fulcher de Chartres, III, 1 - 34 ; William of Tyre, XIII, 13 - 14 ; Qalanisi, 170 - 172 ; Mathew of Edessa, 244, p. 314 ; Runciman, S., op. cit., II, 168 - 171.*

الرهبان الفرسان : وكان بعض الاغنياء الاتقياء من سكان أمالفي قد رقوا للحجاج الفقراء فانشأوا في السنة ١٠٧٠ نزلا لهؤلاء في اوروشليم ووقفوه على اسم القديس يوحنا الرحوم البطريرك الاسكندري . ورثى لهؤلاء الفقراء آخرون من ابنـــاء أمالفي فوقفوا حياتهم لخدمتهم رهباناً لا يستكبرون . وخضع هؤلاء الرهبان ورئيسهم للسلطات البنذكتية في الارض المقدسة . فلـــا خشي الاتراك السلاجقة قدوم الصليبيين في السنة ١٠٩٨ طردوا هؤلاء الرهبان من الدير والنزل ومن المدينة المقدسة ايضاً . وكان ما كان من أمر الحملة الصليبية الاولى . فلـــا سقطت اوروشليم في يد الصليبيين أشفق الامراء على الحجاج والرهبان الأملفيين وحبسوا عليهم الاملاك . وعظم شأن هؤلاء الرهبان وكثر عددهم فاستقلوا عن البنذكتيين واعترف البابا بهم رهبنة مستقلة باسم الرهبان المضيفين *Hospitaliers* . فسماهم المؤرخون المسلمون « الاسبتالية » او « الاسبتارية » . وفي السنة ١١١٨ تولى رئاسة هـــذه الرهبنة راهب افرنسي واسع الصدر بعيد النظر اسمه ريمون ده بوي *Raymond du Puy* . فلم يكتف بايواء الحجاج ومواكبتهم والعناية بهم بل تطلع الى ما كان اهم من ذلك الى حماية الحجاج والمحافظة على سلامة وصولهم فبدل شفاعة يوحنا الرحوم بشفاعـــة يوحنا الحبيب واوجب التدريب على القتال واستعمال السلاح ورسم صليب ابيض على الجبب .

وفي السنة ١١١٨ ايضاً تقـــدم الفارس هوغ ده بان *Hagues de Payns* ورفاقه السبع من بطريرك اوروشليم اللاتيني ناذرين العفة والطاعة واضعين انفسهم تحت تصرف البطريرك لحماية الحجاج من اللصوص وقطاع الطرق. فوافق البطريرك وأنزلهم الملك جناحاً من اجنحة قصره في هيكل سليمان (المسجد الاقصى) فعرفوا بالرهبان الهيكليين *Templiers* وهم « الداوية » في مصنفات العرب المعاصرين . ونظر مجمع تروا *Troyes* في نظامهم في السنة ١١٢٨ فأقره باسم «جنود المسيح» وانتظم جنود المسيح طبقات ثلاثاً : طبقة الفرسان من الاشراف وطبقة الرقباء من أبناء التجار واصحاب المهن الحرة وطبقة الكهنة من خدام الكنائس. وارتدى الفرسان الاشراف الأبيض وعليه صليب احمر ولبس الرقباء الأسود وعليه صليب احمر . وقضى واجبهم الأول بأن تبقى طريق الحجاج حرة آمنة من الساحل حتى المدينة

المقدسة . ثم اندفعوا في سبيل الصليب فاشتركوا في معظم الحروب .

وأيد بودوان الاول وغيره من خلفائه هؤلاء الرهبان الفرسان لأنهم وجدوا فيهم اداة عسكرية فعالة مستعدة دائماً للنضال في سبيل الجهاد . فحبسوا عليهم الأملاك لتأمين الدخل ثم اقطعوهم الأراضي ووكلوا اليهم حماية الأبراج والقلاع عند الحدود . ففي السنة ١١٣٧ تولى الاسبتاليون حماية قلعة بيت جبرين وتولى الهيكليون الدفاع عن غزة . وفي السنة ١١٤٢ أقطع امير طرابلس ريمون الثاني الاسبتاليين حصن الأكراد وكل ما وقع بين هذا الحصن وبين رفنية وبعرين واقطع الهيكليين طرطوس وصافيتا وعرقة . وحذا امراء انطاكية حذو امراء طرابلس وملوك فلسطين. فتولى الهيكليون الدفاع عن حدود الامارة الشمالية الشرقية واحتل الاسبتاليون حدودها الجنوبية (١) .

الهيرارخية اللاتينية : وهدف الصليبيون الى القـــبر المقدس فغدت اوروشليم أهم مدن الشرق عندهم وأصبح بطريركها مقدماً على بطريرك انطاكية وذكر الصليبيون فضل اوربانوس الثاني واندفاعه وتنشيطه وتشجيعه فحفظوا حق الكنيسة واعتبروها صاحبة السلطة في الأراضي المقدسة . فلما توفي اديمار في انطاكية عين اوربانوس دمبرتوس *Daimbert* رئيس أساقفة بيزا خلفاً لاديمار وممثلا لسلطة رومة في الاراضي المقدسة (٢) . ووصل دمبرتوس الى اوروشليم في الحادي والعشرين من كانون الاول سنة ١٠٩٩ فاعتبر ارنول اورنولفوس قائمقاماً بطريركياً *Locum Tenens* وفاوض الزعماء في وصوله الى العرش البطريركي واغدودقت الهدايا الثمينة فخلع ارنول خلعاً وانتخب دمبرتوس بطريركاً على اوروشليم . وخضع غودفروا « وكيل القبر المقدس » وبوهيموند امير انطاكية للبطريرك وأقسما يمين الطاعة والولاء له . فأصبح البطريرك الاوروشليمي سيد انطاكية واوروشليم وحقق في الأراضي حلم غريغوريوس السابع . اما بودوان

1) *Cahen, C., Syrie du Nord, 511 ff. ; Richard, J., Royaume de Jérusalem, 104 - 112 ; Comté de Tripoli, 62 - 70 ; Delaville Le Roulx, Hospitaliers en Terre Sainte ; Melville, M., La Vie des Templiers ; La Monte, J. L., Feudal Monarchy, 217 - 225 ; William of Tyre, XII, 7, XVIII, 4 ; Michel le Syrien, III, 201 - 203.*

2) *Annales Pisani, (Tronci), I, 178 ff.*

امير الرها فانه امتنع عن الخضوع لأنه لم يثق بشخص البطريرك الجديد (١) .

وجلس بين السنة ١٠٩٩ والسنة ١١٩٩ أحد عشر بطريركاً لاتينياً على السدة الاوروشليمية . واليك أسماءهم وتواريخهم :

Arnoul Malecorne	1099	Etienne de Chartres	1128 - 1130
Daimbert	1099 - 1101	Guillaume de Messines	1130 - 1146
Ebremard	1101 - 1108	Foucher d'Angoulême	1146 - 1157
Gibelin de Sabran	1108 - 1112	Amaury de Nesles	1158 - 1180
Arnoul Malecorne	1112 - 1118	Heraclius	1180 - 1190
Gormond de Picquigny	1118 - 1128		

ويجمع الثقات على انصراف معظم هؤلاء البطاركة الى حب المجد الفارغ واهتمامهم بجمع المال وانفاقه في سبيل أهوائهم وأغراضهم الشخصيــة وعلى ان السيمونيــة لعبت دوراً هاماً في سياسة كنيسة اوروشليم طوال قرن كامــل من الزمن (٢) .

وجلس على السدة البطريركية بين السنة ١١٠٠ والسنة ١٢٠٨ اربعة بطاركة وهم : برناردوس (١١٠١ـ١١٣٥) ورؤول (١١٣٥ـ١١٤٢) وايماري Aymeri (١١٤٢ ـ ١١٩٦) وبطرس (١١٩٦ ـ ١٢٠٨) ولم يكن هؤلاء اسعد حظاً من زملائهم في اوروشليم . فاشتهر برناردوس بتدخله في السياسة والحرب في عهدي تنكريد وروجه (٣) . وتميز رؤول برجاله الاشداء واستئثاره بالسلطة البطريركية واستخفافه بأوامر رومة وبخلعه وموته مسموماً (٤) . وفضل ايماري في نظر غليلموس الصوري انه انقذ انطاكية في السنة ١١٤٩ من السقوط في يد نور الدين وفي نظر غيره انه عظم شأن اليعاقبة والارمن نكاية بالروم الارثوذكسيين (٥) .

1) Grousset, R., op. cit., I, 194 - 196 ; Runciman, S., op. cit., I, 299 - 307; Albert d'Aix, VII, 7 ; William of Tyre, IX, 15.
2) Grousset, R., op. cit., II, 745 ; Richard, J., Royaume de Jérusalem 93 - 95 ; Musset, H., Hist. du Christ., I, 441.
3) Grousset, R., op. cit., I, 385 ; Cohen, C., op. cit., 288, 299, 308, 310, 318.
4) Grousset, R., op. cit., III, 35, 46.
5) Cahen, C., op. cit., 566, 567.

وقضت ظروف المملكة اللاتينية بأن تنحصر سلطة بطريرك اوروشليم ضمن حدود هذه المملكة وان يعاد النظر في تقسيم الأبرشيات . فنشأت تدريجيــاً أبرشيات خمس كبرى يرأس كل منهــا رئيس اساقفة . وهي أبرشيات صور وقيصرية وبيسان وبصرى وعمان . وخضع لرئيس أساقفة صور كل من اسقف بيروت واسقف صيدا واسقف بانياس واسقف عكه . وخضع لرئيس أساقفة قيصرية اسقف سبسطية ولرئيس أساقفة بيسان اسقفا طبرية وجبل الطور .

وشملت بطريركية انطاكية ست عشرة أبرشية . وهي أبرشيات مصيصة والبارة وأباميــة ومنبج والرها وبانياس وجبلة وطرابلس واللاذقية وحارم او (ارتاح) ومرعش وقيسون وقوروش ورفنية وطرطوس وجبيل (١) . ولم ترضَ هذه البطريركية عن سلخ أبرشيات صور وسائر فينيقيــة الساحلية وضمها الى بطريركية اوروشليم وطالبت باعادتها الى كنيستها الام . فنشأت مشادة عنيفــة بــين البطريركيتين دامت أعواماً طوالا . فقالت بطريركية اوروشليم بوجوب الملاءمة بين الحدود السياسية والحدود الكنسية مستندة في ذلك الى التعليمات الصادرة عن اوربانوس الثاني. واستمسكت بطريركية انطاكية بقرارات المجامع المسكونية ووجوب ابقاء القديم على قدمه . واتخذت هذه المشادة شكلا فعلياً لاول مرة في السنة ١١١٠ عند سقوط بيروت في يد بودوان ملك اوروشليم. فاستسمح هذا الملك البابا باسكال الثاني في ضم بيروت الى كنيسة اوروشليم فوافق باسكال . فاحتج برناردوس بطريرك انطاكية فاعتذر باسكال وقال قولا مبهماً . فطلب برناردوس الى مجمع بنفنتوم (١١١٢) ان ينظر في هــذا الامر فارتأى المجمع ان يكون الحد الفاصل بين طرطوس وطرابلس. فلم يرضَ باسكال الثاني. ولدى دخول صور في حوزة ملك اوروشليم سنة ١١٢٨ قام رئيس اساقفتها اللاتيني الى رومة لتسلم درع التثبيت من البابا اونوريوس الثاني. فأمر هذا البابا بضم طرابلس وطرطوس وجبيل الى بطريركية اوروشليم . فلم يذعن برناردوس بطريرك انطاكية وظل محتفظاً بطرطوس وطرابلس وجبيل . وفي السنة ١١٣٨ طلب البابا انوشنتوش الثاني الى

1) Cahen, C., op. cit., 319 - 323.

بطريرك انطاكية رؤول ان يلحق طرطوس وطرابلس وجبيل بابرشية صور . فأجاب رؤول انه فاعل حالما تعود صور نفسها الى كنيستها الام انطاكية. وظلت المشادة قائمة ونظر فيها كل من انوشنتوش الثالث وانوريوس الثالث وغريغوريوس التاسع ولكن دون جدوى . وظل الحد الفاصل بين البطريركيتين الحد السياسي بين المملكة اللاتينية وقومسية طرابلس (١) .

الهيراوخية اليونانية الارثوذكسية : ولم يعترف الاحبار الارثوذكسيون بالبطريركيتين اللاتينيتين واعتبروا الاقدام على تنظيمها عملا مخالفاً لنصوص المجامع المسكونية اذ لا يجوز ان يكون للابرشية الواحدة أكثر من رئيس واحد . ورأوا في تدعيم السلطات لهذا العمل الشاذ اغتصاباً لا مبرر له .

واجتمع الأحبار الاوروشليميون بعد وفاة سمعان الثاني وانتخبوا اغابيوس الاول خلفاً له. ثم انتقلوا من قبرص الى القسطنطينية وثابروا على الاحتفاظ بالسلطة الروحية في اوروشليم وسائر فلسطين فانتخبوا سابا بعد اغابيوس ثم افخيريوس الاول فكاريوس الثالث فيعقوب الثاني فارسانيوس الثاني فيوحنا السابع فنيقيفوروس الثاني فاثناسيوس الثاني (٢) . ولا مجال للظن في صحة هذه الرواية فذبتيخة دير القديسة كاترينة في طور سينا المؤرخة في السنة ١١٦٦ تذكر اسمي يوحنا ونيقيفوروس بطريركي اوروشليم (٣) واعمال المجمع القسطنطيني في السنة ١١٥٧ تثبت اشتراك يوحنا بطريرك اوروشليم في جلساته كما تبين اعمال مجمع السنة ١١٦٦ ان نيقيفوروس مثل كنيسة اوروشليم . وصنف يوحنا رسالة في السنة ١١٦٠ بحثت في الطقوس اللاتينية (٤) . وعند خروج اللاتينيين من اوروشليم في السنة ١١٨٧ كان هنالك بطريرك ارثوذكسي مستعد لتسلم السلطات الروحية هو اثناسيوس الثاني (٥) .

1) *Rohricht, R., Gesch. des Konigreichs Jerusalem, 98 - 99, 184 ; Cahen, C., op. cit., 314 - 317 ; Richard, J., op. cit. 97 - 98.*
2) *Dositheus, Istoria Ierosolumois Patriar., II, 1243 ; Le Quien, Oriens Christianus, III, 498 - 503.*
3) *Brightman, F. E., Liturgies Eastern and Western, I, 500 - 502.*
4) *Chalandon, F., Les Comnènes, 642, 648, 651, 653; Krumbacher, K., Gesch. der Byzant. Litt., 91.*
5) *Runciman, S., East. Sch., 90.*

ولجأ يوحنا السابع البطريرك الانطاكي الى القسطنطينية كما سبق وأشرنا. ثم استقال فأوعز الفسيلفس الى الأساقفة الانطاكيين الذين فروا مع بطريركهم ان ينتخبوا خلفاً له فأجمعوا على تسليم عكاز الرعاية الى يوحنا الثامن (١١٠٦ – ١١٣٧) فلوقا (١١٣٧ـ١١٥٥). ولا بد ان يكونوا قد حذوا حذو زملائهم الاوروشليميين فتابعوا انتخاب البطاركة في الغربة . فقد جاء في لائحة قسطنديوس القسطنطيني ان يوحنا التاسع تسلم عكاز الرعاية في القسطنطينية في السنة ١١٥٥ وان افتيميوس خلفه في الكرسي الرسولي في السنة ١١٥٩ وان مكاريوس الثاني تولى السدة الانطاكية في السنة ١١٦٤ فتبعه في الرئاسة اثناسيوس الثاني سنة ١١٦٦ فثيودوسيوس الثالث سنة ١١٨٠ فالياس الثالث سنة ١١٨٢ فخريستوفوروس الثاني سنة ١١٨٤ فثيودوروس الرابع (بلسامون) سنة ١١٨٥ فيواكيم سنة ١١٩٩ فدوروثيوس في السنة ١٢١٩ فسمعان الثاني سنة ١٢٤٥ فافيتميوس الثاني سنة ١٢٦٠ . وفي عهده أخرج المماليك الصليبيين من انطاكية (١) .

والواقع الذي لا مفر من الاعتراف به هو ان الروايات في هذا الموضوع متضاربة متخالفة وان احداً من العلماء الباحثين لم يعالج هذه الروايات معالجة علمية فنية . ولكن الثابت الراهن هو ان الاكليروس الارثوذكسي لم يعترف بسلطة اللاتين على كنيسة انطاكية وانه أقام بطاركة ارثوذكسيين يونانيين في الفترة التي تولى الصليبيون فيها انطاكية وتوابعها . ولكن هذه الروايات تتدامج وتتآلف حول رئاسة اثناسيوس الثاني وثيودوروس الرابع وسمعان الثاني وتتفق الى حد بعيد في تعيين ظروفها .

اثناسيوس الثاني : (١١٦٥ – ١١٧٠) وظلت انطاكية وجهة آمال الروم وحديث أحلامهم وظلوا يرقبون تطور الظروف ويترصدون سوانح الفرص للظفر بها . وتوفي بوهيموند الاول في ايطالية في السنة ١١١١ . وقتل تنكريد الصقلي في الميدان في السنة ١١١٢ . وخرّ بوهيموند الثاني صريعاً في قيليقية سنة ١١٣٠ وتولى الوصاية على ابنته قسطندية روجه السالبرني . فارتأى الفسيلفس يوحنا الثاني ان

1) *Constantius, Patriarch of Const., Patriarchs of Antioch, (Neale, J. M., Patriarchate of Antioch), 174 - 177.*

يُزوج ابنه عمانوئيل من قسطندية . ووافقت والدتها . ولكن فولك دانجو ملك اوروشليم أزوج قسطندية من ريمون قومس بواتييه. فغضب يوحنا الثاني القسيلفس لكرامته وانتهز فرصة الحرب القائمــة بين عماد الدين زنكي والافرنج فظهر امام اسوار انطاكية فسقطت في يــده في آب السنة ١١٣٧ فأقسم ريمون اميرها ولاء الطاعة للفسيلفس . ثم اضطر الفسيلفس ان يحاصر انطاكية في السنــة ١١٤٢ . وأصيب بسهم مسموم في اثناء الصيد في قيليقية فولى ابنــه عمانوئيل وقام الى القسطنطينية وتوفي فيها سنة ١١٤٣ . واتسعت آفاق عمانوئيل (١١٤٢ ــ ١١٨٠) وطمع في ايطالية وصقلية وفي امارات الشرق اللاتينية. وتعدى ريمون امير انطاكية واغار على قيليقية فانفذ عمانوئيل حملة واكره ريمون على الذهاب الى القسطنطينية في السنة ١١٤٥ ليطلب العفو. وقتل ريمون في حرب ضد المسلمين في السنة ١١٤٩ فشمل عمانوئيل ارملته قسطندية بعطفه وحمايته . وعلى الرغم من عدم انصياعها لــه في أمر زواجها من رينو دي شاتيون فأنه ظل يعتبر نفسه سيد انطاكية وتوابعها وفي السنة ١١٥٢ ثار طوروس ابن لاوون الارمني على عمانوئيل واعتصم بتلال قيليقية فاستعان عمانوئيل برينو ووعده بمكافأة مالية جزيلة. فجرد رينو حملة على طوروس ثم قلب ظهر المجن وانضم الى طوروس وتعاون معــه في اغارة كبيرة على قبرص سنة ١١٥٦ . فاستشاط الفسيلفس غيظاً وقام بنفسه الى قيليقية . فأم رينو مصيصة مقر عمانوئيل أعزل عاري القدمين حاسر الرأس ممسكاً بسيفــه من طرف نصلته وارتمي عنــد قدمي الفسيلفس . وما فتىء حتى أمره عمانوئيل بالنهوض فاعترف بسيادة الفسيلفس ورضي بتسليم قلعــة انطاكية وباقامة بطريرك ارثوذكسي في المدينة (١) . وفي السنة ١١٦٢ بلغ بوهيموند الثالث اشده فانتهت وصاية رينو . وفي السنة ١١٦٤ وقع بوهيموند الثالث اسيراً في يــد نور الدين ثم اطلق سراحه لقاء مبلغ كبير من المال . وكان عمانوئيل قد تزوج من مريم اخت بوهيموند فقام هذا الى القسطنطينية يرجو صهره الفسيلفس امداده بالمــال اللازم . فصدّقه الفسيلفس السعي ولبّى مبتغاه . فعاد بوهيموند الى انطاكية يرافقــه بطريرك ارثوذكسي يوناني هو اثناسيوس الثاني (٢) .

1) *Dolger, F., Regesten, 1430 - 1431·*
2) *William of Tyre, XIX, 11 ; Michel le Syrien, III, 326 ; Chalandon, F., Les Comnènes, II, 531 ; Grousset, R., op. cit., II, 470 - 474.*

واعتبر بوهيموند البطريرك اليوناني الارثوذكسي مساوياً لبطريرك اللاتين بالحقوق والكرامة . فامتعض ايماري بطريرك اللاتين واحتج ثم لعن المدينة وخرج منها وأقام في برج القصير (قلعة الضو) بين كنوزه وامواله . وكانت السلطات الارثوذكسية العليا لا تزال تسعى لردّ اليعاقبــة والارمن عن القول بالطبيعة الواحدة والعودة بهم الى حضن الكنيسة الجامعة. فلما اطلت السنة ١١٦٦ وانتخب اليعاقبة ميخائيل السرياني بطريركاً عليهم انتهز اثناسيوس الثــاني فرصة قدوم البطريرك الجديد الى انطاكية وبحث معه امر توحيــد الكلمة وجمع الصفوف . ودخل اللاهوتي اليوناني ثوريانوس الارثوذكسي في جدل لاهوتي مع ميخائيل . واطلع البطريرك اثناسيوس الفسيلفس على ما جرى فاستدعى عاهل الروم البطريرك السرياني الى القسطنطينية للنظر في صلب الموضوع . ولكن ايماري بطريرك اللاتين كان قد اظهر استعداده للتعاون مع السريان دون قيد او شرط فامتنع ميخائيل عن الذهاب الى القسطنطينية ولم تسفر محاولات اثناسيوس عن اية نتيجة ايجابية. وظل ايماري ممتنعاً في برج القصير وواظب كهنته على مقاطعة الروم الارثوذكس وعلى التودد الى اليعاقبة والارمن . وعاد الطرفان السرياني والارثوذكسي الى البحث في السنة ١١٧٨ واجتمعا في روم قلعة. وترأس الوفد السرياني الاسقف باروهبون وتزعم الوفد الارثوذكسي كل من الفيلسوف ثيوريانوس وزميله خريستوفوروس ولكن دون جدوى . وانتفخ باروهبون واستكبر من جراء هذه المحادثات فخرج على رئيسه البطريرك ميخائيل وشطر الكنيسة السريانيــة شطرين ببطريركين متخاصمين متراشقين (١) .

وفي التاسع والعشرين من حزيران سنــة ١١٧٠ زُلزلت الارض واشتد المصاب فتهدمت الدور والمباني في حلب وحماه وحمص واللاذقية وطرابلس وجبيل وغيرها . ولم تنجُ انطاكية من هــذه الكارثة فأرجفت الكاتدرائية وتناثرت حجارتها فأصابت اثناسيوس الثاني وحاشيته في اثنــاء قيامهم بالخدمة الالهية . فادعى ايماري وجماعته ان الغضب حلّ على المدينة لخروج ايماري منها ودخول

1) *Michel le Syrien, III, 301 - 304, 332, 334 - 336.*

اثناسيوس اليهـــا . فأمر بوهيموند باخراج البطريرك الارثوذكسي من المدينة فاخرج وهو في حضرة الوفاة (١) .

بلسامون ثيوذوروس : (١١٨٥ ـ ١١٩٩) وأشهر بطاركة كنيسة مدينة الله في هذه الحقبة بلسامون القانوني الكبير . وهو ثيودوروس الرابـــع بموجب اللوائح الكنسية . أبصر النور في القسطنطينية ونذر نفسه صغيراً . والحق بكنيسة الحكمة الالهية والبطريركية المسكونية فكان مثال الورع والتقوى والنشاط والغيرة . وتدرج في المراتب فشغل وظيفـــة نوموفيلاكس فخرتوفيلاكس فبروتوسنكلوس وانتخب بطريركاً على انطاكية في السنة ١١٨٥ . ولكنــــه لم يوفق الى الاقامة فيها فبقي في القسطنطينية حتى أدركته الوفاة في السنة ١١٩٩ . وليس هنالك أي دليل يؤيد اودوان في قوله ان بلسامون انتقل الى رحـــمة ربه في السنة ١٢١٥ (٢) .

وأحبت اسرة كومنينوس الكنيسة فنفذت كلمة الأحبـــار واتسعت صلاحياتهم القضائية . فعكف بلسامون خارتوفيلاكس كنيسة القسطنطينية على درس القوانين المدنية والكنسية فهاله تكاثرها وتناقضها . فاتخذ أساساً لتدقيقـــة مجموعة عرفت بالسينتاغمه *Syntagma* ونسبت الى فوطيوس العظيم ثم جمع كل ما عثر عليه من القوانين المدنية والكنسية منذ عهـــد باسيليقة لاوون السادس (٨٨٦ــ٩١٢) فنسقها وفرق بين مهملاتها وما كان لا يزال ساري المفعول منها. ثم محص هذه تمحيصاً محاولا التوفيق بين قوانين الكنسية وقوانين الدولة . فأخرج كتاباً أسماه الدليل الى القانون *Exegesis Canonum* لا يزال حتى يومنا هذا منهلا عذباً يرده أحبارنا المتبحرون (٣) .

ولبلسامون مصنفات اخرى أهمها تأملاته (٤) واجوبته عن المسائل الاربع

1) *Ibid., 339 ; William of Tyre, XX, 18.*
2) *Oudin, C., Comment. Script. Ecc., II, 1606.*
3) *Beveridge W. Preface to Synodikon P. G., Vol. 137, Col. 19-27 ; Mortreuil, Hist. Droit Byz., III, 432 - 445 ; Heimbach, Griech - Rom. Recht, (Encyc. Ersch et Gruber), Vol. 86, 463 - 467 ; Lingenthal, Z., Grieh. Nomocanones, 16 - 17.*
4) *P. G., Vol. 119, Col. 1161 - 1224.*

والستين التي طرحهـــا مرقس بطريرك الاسكندرية (١) ومؤانساته الاحـــدى عشرة (٢) .

جمهور المؤمنين : واعتبرت السلطات الصليبية الروحيـــة والمدنية جمهور المؤمنين الارثوذكسيين ابناء كنيسة واحدة جامعة ففرضوا عليهم العشر وأوجبوا خضوعهم لاساقفة لاتينيين واحتلوا الكاتدرائيات والاديار والمباني الكنسية . ومن خضع رتع ومن امتنع امتقع . وسمحوا بعد هـــذا بممارسة الطقوس البيزنطية في الكنائس العاديـــة كما أبقوا على بعض الرهبان في بعض الاديار . وظل فسيلفس الروم يطالب امراء انطاكية الصليبيين بالطاعـــة والولاء واشتد الاحتكاك بين الطبقات الارثوذكسية اليونانية العاليـــة في انطاكية واللاذقية وبين الاسر الصليبية الماثلة فتيقظ الصليبيون وتحذروا فنشأ عن هذا كله نفور في قلوب الارثوذكسيين الانطاكيين زاد الشقاق الذي كان قد بدأ سنة ١٠٥٤ اتساعاً وعمقاً (٣) .

اللاتين والأرمن : وحاولت السلطات الروحية اللاتينية في بادىء الامر فرض سلطتها على الاكليروس الارمني فامتعضوا ونفروا وايدهم في ذلك شعبهم وتعاونوا مع المسلمين (٤) . ثم استتب الامر للصليبيين في الميدان السياسي ورأى هؤلاء ان لا بد من الاستعانة بالارمن للصمود في وجه الروم والمسلمين فخفت غلواء الرؤساء اللاتينيين وواصلوا الاكليروس الارمني واحسنوا صلتهم فاطلقوا يدهم في الروحيات والاحوال الشخصية وتركوا لهم كنائسهم واديارهم . فحفظ الارمن العهد وبروا في القول (٥) . ثم تمكنت الألفـــة فاصطحب الطرفان على الغلات. وجاءت السنة ١١٣٩ فأم انطاكية الكردينال ألبريكوس فعقد مجمعاً محلياً للنظر في قضية رؤول بطريرك انطاكية ودعا بطريرك الارمن غريغوريوس الثالث واخاه نرسيس لحضور المجمع ففعلا . وفي السنة ١١٤٠ قام الكردينال والبطريرك الى اوروشليم فاحتفلا بعيد الفصح فيها واشتركا في اعمال مجمعها اللاتيني . ويرى

1) *P. G., Vol. 138, Col. 952 - 1012.*
2) *Ann. Assoc. Etudes Grecques 1884, 8 - 19.*
3) *Runciman, S., Eastern Schism, 97 ; Cahen, C., op. cit. 331 - 332.*
4) *Grousset, R., op. cit., I, 412, 490, 561 ; Cahen, C., op. cit. 335, 336.*
5) *Grousset, R., op. cit., I, 587 - 594 ; Cahen, C., op. cit., 336.*

علماء اللاتين ان ممثل الكنيسة الارمنية اعترف بالطبيعتين في هذا المجمع ولكن علماء الارمن يصرون على انه قال قولا غامضاً خلاصته ان الكنيستين لم تختلفا في الامور الجوهرية (١) .

وجاء بعد غريغوريوس الثالث نرسيس الرابع ١١٦٦ ـ ١١٧٣ المعروف بالشرنورهالي فحاول التوفيق بين مواقف الكنائس اللاتينية واليونانية والارمنية . ولبى دعوة الفسيلفس عمانوئيل كومنينوس فجالس اللاهوتي الفيلسوف ثيوريانوس وبحث معه الاختلاف الناشيء عن مقررات المجمع الخلقيدوني . وجاء غريغوريوس الرابع ١١٧٣ ـ ١١٩٣ فدعا الى مجمع في روم قلعة اشترك في اعماله ثلاثة وثلاثون حبراً من مختلف الطوائف فقال الارمن فيه بالطبيعتين . ولكن اصرار الارثوذكسيين اليونانيين على تطبيق الطقوس اليونانية اضطر الارمن الى الاتجاه نحو رومة . فاتصل غريغوريوس الرابع البطريرك الارمني بلوقيوس الثالث بابا رومة فارسل له هذا درعاً وخاتماً وعكازاً (٢) . وجاءت السنة ١١٨٨ فحض اقليمس الثالث بابا رومة الارمن على التعاون مع الصليبيين (٣) . واعترض غريغوريوس الخامس على هذا التفاهم (١١٩٣ ـ ١١٩٤) ولكن تدخل الامير الارمني لاوون الثاني ادى الى انعقاد مجمع في طرسوس سنة ١١٩٦ برئاسة غريغوريوس السادس اجمع رؤساء الارمن فيه على القول بالطبيعتين والتعاون مع رومة . وفي السنة ١١٩٩ تقبل لاوون الثاني تاج الملك من يد كونراد الموفد الرسولي الروماني (٤) .

اللاتين واليعاقبة : ولم يرض اليعاقبة عن هذا التآلف والتعاون بين السلطات اللاتينية المدنية والدينية وبين الارمن فاضطربوا ومالوا اكثر من مرة الى الاتراك السلاجقة . وبلغ امراء الرها ذلك فحقدوا . وفي السنة ١١٤٨ تنمر جوسلان الثاني امير الرها فكاشفهم بالعداوة ونهب دير مار برصوم ووزع آنيته المقدسة على

1) *Runciman, S., Crusades, II, 323 ; Ormanian, M., Church of Armenia, 48, Musset, H., Hist. du Chistianisme, I, 454.*
2) *Jaffé - Wattenbach, 15, 340.*
3) *Ibid., 16. 461, 463.*
4) *Inter Innocentii III, Epist. P. L., Vol. 214, Col. 775 - 780 ; Journebise, F., Armenie, Dict. Hist. Geog. Ecc., IV, Col. 311 - 316.*

الارمن . وشتت رهبانه وأحل محلهم جنوداً من الارمن . (١) وجرى مثل هذا في امارة انطاكية . فقد جاء لمخائيل السرياني ان جماعته مالوا نحو الاتراك بعد موقعة ابامية في تموز السنة ١١٤٩ (٢) . وتمرد باسيليوس بارصابوني رئيس اساقفة الرها على رئيسه البطريرك اثناسيوس السادس فتدخل برناردوس بطريرك انطاكية اللاتيني في النزاع فغضب اليعاقبة لكرامتهم ونقلوا مركز بطريركتهم الى آمد خارج حدود اللاتين (٣) ثم تطورت الظروف السياسية فسعى الامراء الصليبيون الى استرضاء اليعاقبة وشجعت رومة الملاينة شرط الاعتراف بسلطتها . وجاءت السنة ١١٥٦ فاشترك الامراء والاشراف اللاتينيون في تدشين كنيسة مار برصوم وعاد الى انطاكية في السنة ١١٦٦ اثناسيوس الثاني بطريركها السرياني الشرعي وغضب بطريرك اللاتين فوقف اليعاقبة الى جانب اللاتين وزار بطريركهم ميخائيل بطريرك اللاتين موآسياً ثم امتنع عن تلبية دعوة الفسيلفس عمانوئيل لتوحيد الصفوف كما سبق واشرنا . وفي السنة ١١٨٠ غمط ابن وهبون احسان بطريركه ميخائيل واستسلم الى أربعة أساقفة مشاقين فساموه بطريركاً باسم يوحنا فاستعان ميخائيل بالسلطات اللاتينية المدنية لتأييده ففعلوا . ومن هنا اطراؤه بتسامح اللاتين .

اللاتين والموارنة : ورحَّب الموارنة بالصليبيين لدى وصولهم الى ابرشيات انطاكية ترحيب الأرمن واليعاقبة والروم ايضاً ورأوا في قدومهم وسيلة فعالة للخلاص من مظالم السلاجقة وغيرهم . وكانوا في تلك الآونة أربعين ألفاً منتشرين في تلال طرابلس والبترون وجبيل والجبة . فلما « خيم الافرنج فوق مدينة طرابلس هبط اليهم جماعة من المؤمنين السريان الذين يسكنون جبل لبنان فوق جبيل والبترون وطرابلس مما يلي الشرق لأجل تهنئتهم وعرض خدماتهم عليهم . فرحبوا بهم وتلقوهم بعواطف الحب الأخوي واتخذوا منهم هداة ليرشدوهم الى آمن الطرق وأيسرها في تلك الجبال الهائلة » (٤) . ولم ينفرد

1) *Cahen, C., op. cit., 342.*
2) *Michel le Syrien III, 383 - 391 ; Groussel, R., op. cit., II, 473 - 474, n. 3.*
3) *Michel le Syrien, III, 222.*
4) *William of Tyre, XXI, 12.*

الموارنة في هذا الترحيب الأخوي الاولي . فالروم والأرمن واليعاقبة سبقوا الموارنة الى هذا الترحيب وقدموا الخدمات في حينها وتحملوا الاضطهاد لأجل الصليبيين. وقد سبقت الاشارة الى موقف البطريرك سمعان الاوروشليمي من الصليبيين وارساله الزاد والمؤونة من قبرص والى سجن البطريرك يوحنا في انطاكية وحجزه في قفص من حديد وعرضه على أبراجها لأنه كان بطريركاً في الكنيسة الجامعة . وقد ذكرنا تعاون الأرمن واليعاقبة مع الصليبيين في فتوحاتهم الاولى في قيليقية وشمال سورية .

واختلفت ظروف الموارنة عن ظروف سائر الطوائف غير اللاتينية . فانهم لم يتمتعوا بحماية الفسيلفس تمتع الارثوذكسيين ليقرفوا بالخيانة . ولم يسكنوا كبريات المدن ليحتك أساقفتهم بأساقفة اللاتين وزعمائهم ويناوصوا الجرة ويسالموها . ولم يكونوا طائفة كبيرة غنية تناظر غيرها من الطوائف . وهكذا فانه لم يقارب القرن الثاني عشر نهايته حتى توثقت العرى بين الموارنة والصليبيين فاجتمعوا على النعماء والبأساء فنضج الود « فرجعوا الى رشدهم بالهام الهي وهبوا من خمولهم فجاؤوا الى ايماري وهو الثالث من بطاركة اللاتين . وبعد ان رفضوا الضلالة التي استمروا عليها بكل خطر مدة طويلة رجعوا الى وحدة الكنيسة الكاثوليكية قابلين الايمان الارثوذكسي مستعدين ان يتمسكوا بتقاليد الكنيسة الرومانية وان يحفظوها بكل احترام » . هذا ما رواه غليلموس الصوري تحت أخبار السنة ١١٨٢ (١) وتاريخ غليلموس هذا هو من أفضل المراجع اللاتينية لتاريخ الصليبيين بين السنة ١٠٩٥ والسنة ١١٨٤ . ولد مؤلفه في الشرق قبل السنة ١١٣٠ فتكلم العربية واليونانية بالاضافة الى اللاتينية . ثم رحل الى فرنسة في طلب العلم وعاد الى فلسطين حوالي السنة ١١٦٠ . وفي السنة ١١٧٤ تولى ادارة المحفوظات الملكية في اوروشليم وتدبير سياسة المملكة الخارجية (٢) . ثم أصبح في السنة ١١٧٥ رئيس أساقفة صور . وفي السنة ١١٨٣ رشح نفسه لبطريركية اوروشليم فلم يفلح فاعتزل الرئاسة الروحية وأقام في رومة فتوفي فيها في السنة

1) *William of Tyre, XXII, 8.*
2) *Richard, J., Royaume de Jérusalem, 76.*

١١٨٧ . وبدأ غليلموس تدوين تاريخه في السنة ١١٦٩ فاعتمد غيره من المؤرخين لتاريخ الحملة الاولى . واستقى أخبار السنوات ١١٢٧ حتى عودته الى الشرق من المحفوظات الملكية اللاتينية في اوروشليم . اما ما تبقى من الحوادث اي ما جرى بين السنة ١١٦٠ والسنة ١١٨٤ وبينها رجوع الموارنة عن القول بالمشيئة الواحدة واتحادهم مع كنيسة الغرب فانها من مرويات عصره عن حوادث جرت في الساحل نفسه الذي أقام فيه (١) .

وتتوفر لهذه الرواية في شخص راويها غليلموس الصوري معظم شروط العدالة والضبط . فقد كان الراوي رئيس أساقفة صور عند وقوع ما يروى ودون في وقت قريب من زمن وقوع الحادث الذي يروي وكان من أدرى الناس في موضوع روايته . وقد اشتهر باتزانه وعدم التطرف في الحكم والقول .

وروايته هذه ليست فريدة في بابها . فبولّة البابا انوشنتيوس الثالث التي صدرت في السنة ١٢١٥ ووجهت الى بطريرك الموارنة وأساقفتهم وجمهور أكليروسهم تذكر الموارنة بوجوب التيقظ « وتدارك الخطأ » والقول « بدون تردد » بانبثاق الروح القدس من الآب والابن وبالاكتفاء بتسمية الثالوث مرة واحدة في المعمودية وبحصر سر التثبيت بالاساقفة . وبالامتناع عن ادخال أية مادة اخرى غير الزيت والطيب في اعداد الميرون وبوجوب الاعتراف بالخطايا والتناول ووجوب القول «بمشيئتين في المسيح مشيئة الهية ومشيئة بشرية» والامتناع عن استعمال الاواني الزجاجية والخشبية والبرونزية في الذبيحة والاستعاضة عنها بالاواني الفضية او الذهبية واستعمال الاجراس لاعلان المواقيت ودعوة الشعب الى الكنيسة (٢) . وفي هذا القول الرسمي الصادر عن اسقف رومة ما يكفي لتأييد غليلموس الصوري في روايته التي نبحث . ولا يجوز الانقاص من أهمية هذا النص واعتباره مجرد محاولة لليتنة الطقوس والقوانين المارونية (٣) . فانوشنتيوس أوجب التيقظ والقول بدون تردد بالانبثاق من الآب والابن وبالمشيئتين ويلاحظ

1) *Runciman, S., Crusades, II, 476 - 477; Cahen, C., op. cit., 17; Prutz, H., Wilhelm von Tyrus; Lundgreen, Wilhelm von Tyrus.*
2) *Quia divinae Sapientiae, Anaissi, T., Bullarium Maronitarum, 2 - 3.*
3) *Dib, P., Eglise Maronite, 198.*

هنا ان هذا البابا لم يوجب القول بالطبيعتين في هذه البولة لأن الموارنة كانوا قد قالوا بالطبيعتين منذ بداية عهدهم ولكنه اهتم بأمر المشيئتين .

ويرى علماء الموارنة ان غليلموس اسقف صور نقل رأيه في عقيدة الموارنة عن سعيد بن البطريق البطريرك الاسكندري وان هذا لم يكن على بيّنة من امره وان ما ورد في بولة انوشنتيوس الثالث عن امر المشيئتين والمشيئة الواحدة جاء مقتضباً جداً . فلو كان هذا البابا يعلم ان الموارنة كانوا في الواقع ممن لا يزال يقول بالمشيئة الواحدة لجاء كلامه في هذا الموضوع اشد واقوى وا كثر تفصيلا . ويرون ايضاً ان الظرف الذي ظهرت فيه هذه البولة كان ظرف المجمع اللاتراني الرابع ظرف اصلاح وتثبيت لا ظرف نبذ تعاليم معينة . ولو كان هنالك نبذ للقول بالمشيئة الواحدة لظهر اثره في اعمال هذا المجمع . ويضيفون ان ما تم في طرابلس في السنة ١١٨٢ انما كان تأييد الموارنة لبابا شرعي ضد مناظر دخيل . والاشارة هنا الى النزاع بين البابا الكسندروس الثالث والبابا فيكتوريوس الرابع الذي انتهى في السنة ١١٨٠ . فيكون الاجتماع في طرابلس الذي يشير اليه غليلموس الصوري من نوع ما جرى في السنة ١١٣١ . ومما يقوله علماء الموارنة في هذا الصدد ان الموارنة ناصروا الصليبيين اللاتنيين منذ وصولهم الى لبنان ومازجوهم في عز صولتهم وانتصاراتهم فهل ظلوا مخالفين حتى اذا غلب الصليبيون على امرهم وضايقهم خصمهم صلاح الدين الايوبي باتوا اشد استعداداً الى الاتحاد بكنيسة الغرب (١) .

والواقع الذي لا مفر من الاعتراف به هو ان مراجعنا الاولية قليلة وان انوشنتيوس لا يقول بصراحة في البولة التي اصدرها ان الموارنة كانوا يقولون حتى يومه بالمشيئة الواحدة. والواقع ايضاً ان المراجع المارونية متأخرة لا يجوز الاخذ بها لاثبات ما جرى في طرابلس في السنة ١١٨٢ او قبلها. فأقدم رواتهم ابن القلاعي وهو من اعيان القرن الخامس عشر . ولا يجوز كذلك اعتماد البولات البابوية كما

1) *Dib, Mgr. Pierre, L'Eglise Maronite, 86 - 113.*

لباب البراهين للمطران يوسف دريان ٣١٤ ـ ٣٣٥ والموازنة للمطران عمائيل ضومط ١١ ـ ١٢ .

اثبتها الأب العنيسي لانه تلاعب في نصوصها (١) . ولعل المستقبل يظهر من المراجع ما يعين المؤرخ على البت في هذا الموضوع الدقيق .

دير البلمند : وليس لنا ان نبحث في آثار الصليبيين الفنية الكنسية في هذا التاريخ العام ولا ان نصف جميع الكنائس الصليبية التي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا في بعض ابرشيات انطاكية لان وصفها يتطلب استعداداً فنياً خصوصياً لسنا من اهله . وجل ما نريده هو ان نذكر اهم الكنائس الصليبية القائمة وان نخص دير البلمند بكلمة مفصلة نظراً للمكانة التي يحتلها في قلب كل ارثوذكسي انطاكي .

وأهم الكنائس الصليبية التي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا في ابرشيات انطاكية كاتدرائية طرطوس وكاتدرائية جبيل وكاتدرائية بيروت. وبدأ الصليبيون بانشاء كاتدرائيتهم في طرطوس بعد السنة ١١٢٣ فأقاموها فوق مزار السيدة والدة الاله الذي فاخرت به طرطوس منذ اوائل النصرانية وادعت انه اول كنيسة انشئت باسم السيدة. وانشأوا في جبيل في السنة ١١١٥ كنيسة باسم يوحنا المعمداني. ولا يزال نصفها الشرقي الشمالي قائماً حتى يومنا . اما نصفها الغربي فانه انهدم فاعيد بناؤه في العصور الحديثة . وبابها الشمالي حديث العهد اما الجنوبي فانه من آثار القرن الثاني عشر . وقبة المعمودية صليبية ايضاً وتعود في الارجح الى حوالي السنة ١٢٠٠ . وأمر بودوان ملك اوروشليم ببناء كنيسة كبيرة في بيروت على طراز الكنائس اللاتينية . فبدأ انشاؤها في السنة ١١١٣ وانتهى في السنة ١١٥٠ . وشيدت على اسم القديس يوحنا المعمداني على شكل مصلب ذي ثلاثة اسواق . « ولما قدر الله بنزع بيروت من يد الافرنج استقرت كنيستهم جامعاً . وكانت تعرف عندهم بكنيسة مار يوحنا . وكان بها صور فطلاها المسلمون بالطين . وبقي الطين الى ايام الجد فبيّضه وازال آثار تلك الصور. وكان المسلمون يجتمعون لصلاة الجمعة فلم يكملوا في بعض الاوقات اربعين شخصاً » (٢) . والاشارة في

1) *Anaissi, T., Bullarium Maronitarum, (1911); Korolevskij, C., A propos d'un Bullaire Maronite, Echos d'Orient, 1912, 462 - 473; De Clercq. C., Conciles des Orientaux Catholiques, (1949), I, 3, n. 2.*
Karolevskij, C.. A Propos d'un Bullaire Maronite, Echos d'Orient, 1912, 462 - 473.
De Clercq, Ch., Hist. des Conciles, XI, 3, (Paris, 1949).

٢) تاريخ بيروت لصالح ابن يحيي ص ٥٨ . والجد المشار اليه هو جد صالح في اواخر القرن الرابع عشر .

هذا كله الى الجامع العمري الكبير . وقد بقي عند بابه الشرقي بقرب المدخل كوة مكتوب فيها باليونانية : « ان صوت الرب على المياه » (١) .

وفي الثلاثين من ايار من السنة ١١٥٧ تولى رهبان القديس برناردوس المعرفون بالكيستركيين بناء دير على التلة المشرفة على البحر بين انفة والقلمون . وجعلوه على اسم البتول الطاهرة سيدة بلمونت *Abbatia Belimontis* (٢). وهو لفظ لاتيني منحوت من كلمتين معناها الجبل الجميل . وتم البناء فيما يظهر في السنة نفسها التي استولى فيها الصليبيون على قيصرية فيليبوس (بانياس) اي في السنة ١١٦٩ (٣) . وخص اساقفة رومه هذا الدير بعنايتهم فأصدروا باسمه عدداً من البولات الرسمية منها بولة غريغوريوس التاسع في السنة ١٢٣٨ وبولة انوشنتيوس الرابع في السنة ١٢٥٠ وبولة اوربانوس الرابع في السنة ١٢٦٢ . ويظهر من هذه البولات ان دير البلمند كان أكبر أديار الافرنج في أمارة طرابلس وانه في منتصف القرن الثالث عشر كان خاضعاً لأسقفية بيروت . ومن رؤسائه الأولين بطرس الالماني . وهنالك اشارات الى الاخ اسطفانوس والى الأخ سمعان الطرابلسي . وخرج الرهبان اللاتين منه في السنة ١٢٨٩ ولعلهم ذبحوا ذبحاً (٤) .

ويرى الاثري الكبير الاختصاصي في الفن الصليبي كميل انلار ان بناء الدير الصليبي قام في الأرجح على آثار بيزنطيـــة أقدم منه ويستدل على ذلك بدليلين اولهما تخطيط كنيسته ووجود تاج عمود بيزنطي في البناء والثاني خروج رهبان برناردوس عن المألوف عندهم وتشييد بنائهم هذا على ارتفاع مئتي متر عن سطح البحر . وكنيسة سيدة البلمند تتجه نحو الشرق الشمالي وتتضمن حنية كبيرة وسوقاً واحداً ومذبحاً واحداً . والاكتفاء بمذبح واحد خروج على تقاليد هؤلاء الرهبان الرجال (٥) .

١) مزمور ٢٨ : ٢ تاريخ بيروت للاب لويس شيخو ص ٥١ — ٥٢ .
2) *Jonghelinus, Gaspard, Notitiae Abbatiarum, Cologne, 1644; Janauschek, Originum Cisterciensium, Vienne, 1877.*
3) *Rohricht, R., Syria Sacra, 35; Guthe, R., Zeit der Deut. Pal. Vereins, 1897, 35, 356; Rohricht, R., Gesch. des Konigreichs Jerusalem, 320, 590, 1001 - 1002.*
4) *Enlart, C., Abbaye Cistersienne de Belmont, Paris, 1923, 1 - 2.*
5) *Ibid. 3 - 4, 6 - 7.*

ويلاحظ ان اعتماد العلامة أنلار رواية الأب ملاتيوس وقوله ان الدير اعيد انشاؤه منذ اربعمئة سنة جاء ضعيفاً . فقد رأى صديقنا المرحوم جرجي ينى في دير البلمند كراساً قديماً بخطوط كثيرة تدل على افتتاح الدير مجدداً في السنة ٧١١١ لآدم وهي تعادل السنة ١٦٠٣ بعد الميلاد (١) . ومن هنا في الارجح قول مكاتب المنـــار ان الدير بقي خراباً حتى السنة ١٦٠٣ وان يواكيم ابن الخوري جرجس متروبوليت طرابلس جدد بناءه (٢) . ويلاحظ ايضاً ان لا قيمة لقول البطريرك الدويهي ان اللفظ بلمنـــد مشتق من اسم الامير بوهيموند صاحب طرابلس الذي انشأ هذا البناء منتزهاً له في السنة ١٢٨٧ . فبوهيموند هذا قضى السنوات الاخيرة من عهده منحصراً في طرابلس لا يستطيع الخروج منها لما كان يلاقيه من مضايقة على يد قلاوون . وبوهيموند توفي منكمشاً في طرابلس في التاسع عشر من تشرين الاول سنة ١٢٨٧ (٣) .

ويلاحظ هنـــا ان بعض ما يرى من نقوش وتيجان ايونيـــة و كورنثية ومعظم الرخام المفروشة به ارض كنيسة القديس جرجس وقفه المشايخ آل زخريا حامات في حوالي السنة ١٨٤٠ ونقلوه بحراً الى البلمند من آثار كنيسة قديمـــة كانت لا تزال باقية في قرية حنوش بالقرب من حامات وعند ساحل البحر . ولعل هـــذه الآثار هي من بقايا مدينة كوشار البيزنطية . ولا يزال اسم كوشار يطلق على مضيق صغير يؤدي الى قرية حنوش .

* * *

١) تاريخ سورية لجرجي ينى ص ٣٩١
٢) تسريح الابصار للاب هنري لامنس ج ١ ص ١٥٥ — ١٥٦
٣) المرجع نفسه ص ١٥٥

الفصل الثاني والاربعون

رومة والقسطنطينية
في أثناء الحروب الصليبية

رومة تجهل الوضع الراهن : واخطأت رومة في فهم الوضع الراهن في القسطنطينية فوهمت ان الحلّ والربط في امور الكنيسة منوطان بارادة الفسيلفس. وأراد كل من الكسيوس وابنـه يوحنا وحفيده عمانوئيل التعاون مع رومة لرغبة اكيدة في توطيد السلام بين المسيحيين ولحاجة ديبلوماسية ماسة . ولكنهم اخفقوا لاسباب اهمها ان الرأي العام في القسطنطينية كان قـد نفر عن رومة وان الاكليروس الارثوذكسي كان قد أصبح اقوى من البلاط في تكييف هذا الرأي العام . ورأى هـذا الاكليروس ان كنيسة العاصمة كانت اولى الكنائس علماً وعظمةً ومجداً فصعب عليه ان يحني رأسه لمن كان اقل علماً وأخف وزناً (١) .

خوف الروم وحذرهم : وأطلّ الصليبيون بغلاظتهم وعورة اخلاقهم وقلة انضباطهم واستباحتهم فعـانى الروم في مجيئهم بَرْحاً بارحاً وتحملوا منهم رهقاً شديداً . واعتـبر ثيوفيلاكتوس المتروبوليت العالم الفاضل الصالح موجة الصليبيين التي مرت في ابرشيات بلغارية اغارةً بربريـة جديدة . وهال سكان القسطنطينية النهب والسلب والتخريب الذي صدر عن ضيوفهم الغربيين وازداد عدد التجار الايطاليين في عاصمة الشرق واشتد نشاطهم واتسعت اعمالهم فتوجّس زملاؤهم الروم منهم خوفاً فنبض نابضهم وغلى جوفهم . امـا ثيوفيلاكتوس وغيره من طبقته وجمهور المؤمنين الاتقياء فانهم تغاضوا واغتفروا حباً بالمسيح وتعاوناً في سبيل هدف صالح مقدس ولكنهم لاموا زعمـاء الصليبيين وانكروا عليهم استهتارهم وقلة مبالاتهم . ثم جاء رئيس اساقفة بيزا لنجدة الصليبيين، ولم يكن بعيداً عن البابا، فغزا المسيحيين في كورفو وليفقاس وزنتة (٢) . وتبين

1) *Runciman, S., East. Schism, 102 - 103; Diehl, C., Byzantium, 217.*
2) *Anne, Alexiade, XI, 10.*

ايضاً ان رهبان الصليبيين وكهنتهم واساقفتهم كانوا يحملون السلاح ويخوضون المعارك ويسفكون الدماء . فرأى المؤمنون الارثوذكسيون في هـذا كله تخديشاً لوجه المسيح وامراً لا يحُطّ عاره ونسوا قداسة اوربانوس الثاني ومحبته المسيحية ولم يذكروا سوى تعاون غريغوريوس السابع مع اعدائهم النورمنديين واصغاء باسكال الثاني لاقاويل بوهيموند ووشاياته . وتعاونت رومة مع امراء انطاكية وملوك اوروشليم واقامت هيرارخية لاتينية في البطريركيتين الشرقيتين واوجبت خضوع الكهنة الارثوذكسيين فيها لاساقفة لاتينيين فزادت الطين بلة وجعلت من بطاركة اوروشليم وانطاكية الشرعيين المقيمين في القسطنطينية اداة دعايـة دائمة ضد رومة واساقفتها واكليروسها .

داء الضرائر : ونظر التجار الايطاليون الى زملائهم الروم بعين مريضة وطرف سقيم لان هؤلاء كانوا قد بلغوا من التقدم الفني وجمع الثروة رتبة تقاصرت عنها الاقران وشأوا تقطعت دونـه اعناق الايطاليين . فزرع التجار الايطاليون الاحقاد ودرجوا بالنميمة فأصبحوا من سماسرة الشقاق وتجـار الفساد وزراع العداوات .

وطمع بوهيموند وتنكريد وغيرهـما من رجالات الصليبيين واضطرم صدرهم حسداً وانتشر بينهم داء الأثرة فنصبوا للروم الحبائل ووقفوا لهم بالمرصاد والحاسد مغتاظ على من لا ذنب له .

واستصغر الصليبي العادي الرومي واستهان به فرآه مخنثاً ضعيفاً حقيراً (١). وتأخر اليكسيوس عن مساندة الصليبيين لاسباب قاهرة اهمها الخطر التركي فأصبح هو ومن حوله مخادعاً مراوغاً . ونشأ كره لاليكسيوس وخلفائـه دام في الغرب قروناً طوالا . وعلى الرغم مما قام بـه علماء اوروبة من بحث وتدقيق واجلاء وتوضيح فان هـذا الكره وما يتبعه من حقد لا يزالان يحزان في صدور بعض المؤرخين الغربيين حتى يومنا هذا (٢) .

اليكسيوس وباسكال : (١٠٩٩ ـ ١١١٨) ورغب اليكسيوس رغبة

1) *Guibert de Nogent, Hist. Hieros., Rec. Hist. Grois., IX, 154.*
2) *Grousset, R..*

أكيدة في اجلاء الأتراك عن آسية الصغرى فسعى سعياً حثيثاً للسلم والمسالمة في ساحل الادرياتيك . ولم يكتفِ بمواصلة أساقفة رومة بل حاول اجتذاب بعض الشخصيات الكبيرة في الأوساط الاكليريكية الايطالية كاوديريسيوس *Oderisius* رئيس دير جبل كسينو . فانه كتب الى هذا الرجل البار واكد رغبته في مساندة الصليبيين ولكنه اوضح ان مثل هذه المساندة لا تكون دائماً ممكنة (١). وقدر رهبان كسينو اليكسيوس قدره فاعتبروه صديقاً مخلصاً وحامياً اميناً وتابعوا تبادل الرأي والمحبة معه بعدَ وفاة اوديريسيوس (٢) . ثم طمع بوهيمند بانطاكية وحنث في يمين الولاء والطاعة لاليكسيوس ولم يبر فيها وقام الى ايطالية ودب عقاربه بين باسكال وبين الفسيلفس وطاف اوروبة يزرع الاحقاد ويضرب ويحرش فامتنع الكسينيون عن مواصلة الفسيلفس ولكن اليكسيوس ظل يألف الكنيسة اللاتينية ويمازجها ويؤانسها . فانه انشأ في هذه الفترة عينها مأوى كيفيتوت *Civetot* واستودعه رهبان كلوني (٣) .

وتوفي بوهيمند وغيره من زعماء النورمنديين في جنوب ايطالية وتولت الحكم فيها ارامل ثلاث بريئات غير مقلقات أدلة في نابولي وقسطنسة في ترنتو وأدليدة في بالرمو . وفي السنة ١١١١ هجم هنريكوس الخامس على رومة وسجن اسقفها باسكال الثاني واكرهه على تتويجه امبراطوراً وعلى الاعتراف بتدخل الامبراطور في امور الكنيسة . فحرر اليكسيوس كتاباً الى جيرازدوس رئيس رهبان كسينو اظهر فيه اسفه الشديد لما حل بالبابا (٤) . ثم كتب الى السلطات في مدينة رومه يشكر لهم ثباتهم في تأييد البابا ويومىء الى استعداده لقبول التاج الغربي . فأرسل الرومان وفداً الى القسطنطينية فوعد اليكسيوس بالقيام بنفسه الى رومة في صيف السنة ١١١٢ . ثم ألم به مرض أقعده عن الذهاب الى رومة فأرسل من ناب عنه في هذه المهمة (٥) .

1) *Hagenmeyer, H., Kreuzzusbriefe, 140 - 141, 152 - 153.*
2) *Peter Diaconus, Chronica Monasterii Casinensis, Mon. Germ. Hist., VII, 770, 792.*
3) *Anne, Alexiade, X, 6.*
4) *Riant, P., Inventaire Critique, 138 - 140.*
5) *Peter Diaconus, op. cit 185; Chalandon, F., Règne d'Alexis, 261.*

وفي اواخر السنة ١١١٢ كتب باسكال الى اليكسيوس يوجب تسوية الناحية الكنسية من علاقاتها اولا . ويشير الى امتناع بطريرك القسطنطينية عن تقبل رسله ورسائله فيطلب اعتراف « أخيه » هذا بتقدم رومة واحترامه لها قبل الشروع في الدعوة الى مجمع مسكوني ينظر في حل المشاكل المعلقة (١) . ويلاحظ هنا ان باسكال طالب بالعودة الى ظروف القرنين السادس والسابع حينما كان الفسيلفس يفرض على بطريرك عاصمته الحلول فرضاً وانه جهل التطور الذي كان قد تم في علاقات السلطتين الزمنية والروحية في عاصمة الشرق وتبلور الرأي العام فيها و كره الاوساط الاكليريكية والمثقفة لرومة وسياستها . والواقع ان اليكسيوس رد على الوفد البابوي الذي حمل رسالة باسكال هذه رداً مبهماً غامضاً (٢) .

بطرس غروسولانوس : (١١١٤) وفي اواخر السنة ١١١٣ او أوائل السنة ١١١٤ وفد على القسطنطينية بطرس غروسولانوس *Grosolano* رئيس اساقفة ميلان . فأحب اليكسيوس ان يقرب وجهتي النظر في أمر الانبثاق واستعمال الفطير فدعا الى طاولة مستديرة غروسولانوس وبعض كبار رجال اللاهوت في العاصمة . فقدم غروسولانوس وجهة نظر رومة (٣) فأثار بذلك عاصفة من الرد شديدة سجل فيها افستراتيوس متروبوليت نيقية ونقيطاس قونية والرهبان يوحنا فورنس ويوحنا زونراس والشاعر ثيودوروس برودروموس والفيلسوف ثيودوروس ازمير أدلتهم على صحة موقف الكنيسة اليونانية (٤) . وأظهر غروسولانوس وضوحاً في التفكير والتعبير فيما تعلق بأمر الانبثاق ولكن حجج زملائه اليونانيين كانت أدق وأكثر اتزاناً . واستشهد هؤلاء بأقوال الآباء في استعمال الخمير ولكنهم لم ينجحوا في اقناع زميلهم اللاتيني . وانفرط العقد دون الوصول الى نتيجة مفيدة (٥) .

افتيميوس زيغابينوس : وأدرك أليكسيوس انه ابتسر حاجته قبل

1) *Paschal II, Epist., P. L., Vol. 163, Col. 388 - 390.*
2) *Chalandon. Alexis I, 262.*
3) *P. G., Vol. 127, Col. 911 - 920.*
4) *Demetracopoulos, A., Biblioth. Ecc., 1, 36 - 198, Graecia Orthodoxa, 11 - 12; Krumbacher, K., Gesch. der Byz. Litt., 85 - 87.*
5) *Runciman, S., East. Schism, 108 - 110.*

أوانها فأوعز الى لاهوتيه افتيميوس زيغابينوس *Zigabenos* ان يتحاشى في كتابه البانوبليـة *Panoplia Dogmatica* (١) البحث في الانبثاق وان يقصر خطاه في جولته في الفطير والخمير ويذكر ذلك في اثناء الكلام عن سوء تصرف الارمن . ويرى بعض رجال الاختصاص انما جاء في البانوبلية عن الانبثاق هو لفوطيوس وقد دس دساً على مصنف زيغابينوس (٢) .

حنة كومنينوس : ولا تمثل حنة كومنينوس الكنيسة الارثوذكسية في تهجمها على احبار رومة كما انها تعتنف الامور اعتنافاً عندما تقول ان المجمع الخلقيدوني رفع اسقف القسطنطينية الى اعلى الدرجات وأخضع له جميع اسقفيات المسكونة (٣) .

بطرس المحترم : وتوفي اليكسيوس وباسكال في السنة ١١١٨ . وتبنى القسيلفس يوحنا الثاني سياسة والده اليكسيوس . فلاطف الغرب ولاينه وأظهر استعداداً حقيقياً للتعاون مع حبر رومة وامبراطور الغرب وحاول ربط اسرته بالاسرات المالكة في الغرب بالتزاوج . وتودد في اوائل عهده الى احبار رومة وتمنى التفاهم بين الكنيستين ولكنه لم يطلق لنفسه العنان في ذلك ولم يربط اكليروسه بشيء .

وبادل بعض كبار الاكليروس في الغرب اخوانهم في الشرق هذا اللطف وهذه الملاينة ولم يتعرفوا فيما يظهر الى شيء من الانشقاق عنيف عميق . فبطرس المحترم رئيس رهبان كلوني كتب في السنة ١١٢٠ كتاباً الى القسيلفس يوحنا الثاني راجياً متابعة العطاء لدير كيفيتوت . وحرر في الوقت نفسه الى بطريرك القسطنطينية مؤكداً رغبته في زيارة القسطنطينية «المدينة التي أسسها المسيح وقسطنطين» ليزور كنائسها ويتبرك بذخائرها . ثم يضيف فيقول :

« وعندئذ ارى وجهك فاحترم في شخصك جميع احبار مدينتك المباركين ونتعاقد برضاك تعاقداً لا ينفك ونقسم يمين المحبة المتبادلة . وارجو عندئذ وجهاً

1) *P. G., Vol. 130.*
2) *Runciman, S., East. Schism, 110, n. I.*
3) *Anne, Alexiade, I, 12.*

لوجه ما اطلبه الان عن بعد ان تذكرونا نحن قطيع كلوني بالمحبة في صلواتكم وصلوات شعبكم فنبادلكم المحبة والصلاة » (١) .

أنسلموس ونيقيطاس : (١١٣٦) ووفد على القسطنطينية في السنة ١١٣٦ أنسلموس اسقف هافلبرج ليفاوض يوحنا الثاني باسم لوثار الثالث امبراطور الغرب في امر التعاون ضد روجه الثاني الصقلي . فاستقبل هذا الاسقف الغربي استقبالا حاراً وأجيب سؤله السياسي ثم أفسح له المجال للبحث في الخلاف بين الكنيستين مع نيقيطاس متروبوليت نيقوميذية وبحضور القسيلفس . وتمّ الجدال في جو هادىء لطيف . وقام بعمل الترجمة موسى برغامو الايطالي فنقل الكلام بدقة ووعي واخلاص . فسُر أنسلموس . ثم رفع تقريراً بما جرى الى البابا اوجينيوس الثالث ضمنه دفاعه عن موقف رومة وأبان فيه وجهة نظر القسطنطينية (٢) .

وبحث الاسقفان أمر الانبثاق واستعمال الفطير . فأظهر نيقطاس استعداد القسطنطينية للقول بالانبثاق من الآب « بالابن » لا « والابن » وأكد في الوقت نفسه وجوب اعتبار ذلك تفسيراً للدستور لا اضافة عليه . وأظهر نيقيطاس تناقضاً في موقف بابوات رومة من الفطير فاستعان بمقاطع من كلام البابوين ميلخيادس وسيريكيوس مستدلا بذلك على استعمال الخمير في رومة في القرن الرابع (٣) . وخلص الى القول : « نحن لا ننكر تقدم كنيسة رومة بين البطريركيات الاخوات الخمس ونعترف بوجوب اعطائها مقعد الشرف في المجمع المسكوني ، ولكنها فصلت نفسها عنا بأعمالها . فانها أعطت نفسها بدافع الكبرياء ملكاً لا يتفق ووظيفتها . وكيف يمكننا ان نقبل منها أوامر صادرة عنها بدون استشارتنا وبدون علمنا . واذا كان الحبر الروماني يريد ان يرشقنا بأوامره من عرشه المجيد العالي ويريد ان يقضي بيننا ويحكمنا تحكماً واستبداداً فأي اخوية تصبح كنيستنا واي ابوية تتصرف بشؤوننا . واذا كان هذا هو حالنا فاننا نصبح

1) *Pirre le Vénérable, P. L., Vol. 189, Col. 260 - 262.*
2) *Anselm, Dialogi, Achery, Spicilegium sive Collectio veterum aliquot Scriptorum, I, 161 ff.*
3) *« fermentum »; Liber Pontificales, (Duchesne), I, 74 - 75.*

عبيد الكنيسة لا أبناءها وتصبح كنيسة رومة سيدة قاسيـــة متجبرة متصلفة على جماعة من الارقاء لا اماً تقية لاولاد لها » (١) .

وأجاب انسلموس بأنه يحق لرومة ان تكون المرجع القضائي الاعلى لان احكامها كانت دائماً صحيحة ولانها لم تقع مرة واحدة في الهرطقة . ثم أردف مبيناً حقها في التقدم والسلطة لانها وريثـــة بطرس الرسول . ولكن نيقيطاس اكد ان الروح القدس حلّ على جميع الرسل وانه كان لهم جميعاً ان يربطوا وان يحلوا على السواء ولم ير في الاختلافات الناشئة مــا لا يمكن حله في مجمع مسكوني . ولكنه رفض ان يتلقى اوامر من رومـــة « لان الحبر الروماني لم يكن اميراً على كهنة او كاهناً اعظم وانما كان اسقف الابرشية المتقدمة » (٢) .

وذهب الخرتوفيلاكس نيقيطاس مارونية الى ابعد من هذا فلم ير ما يمنع القول بالانبثاق من الآب والابن ولكنه أنكر على رومـــة حريتها في التصرف واضافة عبارة الفيليوكوي الى الدستور . ولم يرض عن مطالبها الادارية (٣) . ونيقيطاس هذا أصبح فيما بعد متروبوليت تسالونيكية .

الفسيلفس عمانوئيل : (١١٤٣ ـ ١١٨٠) ورأى عمانوئيل الاول رأي والده وجده فسعى للتفاهم مع رومة في الحقل السياسي وأحب الغربيين وفروسيتهم وعلى الرغم من تفاقم البغض بـين الروم والشعوب اللاتينية من جراء تصرفات الصليبيين فانـــه ظل يواصل الغرب ويفاوضه . وشجع تبادل الرأي في موضوع الخلاف بين الكنيستين اليونانية واللاتينية .

أنسلموس وباسيليوس: وفي السنة ١١٥٤ وفد الاسقف أنسلموس مرة ثانية على القسطنطينية . وعرّج على تسالونيكية في طريقه الى الغرب فباحث متروبوليتها باسيليوس في أمر الانبثاق والفطير . فتبين مرة اخرى ان سبب التباعد الاساسي كان اصرار رومة على السلطة المطلقة والطاعة العمياء (٤) . وفي السنة التالية كتب

1) *Anselm, Dialogi, op. cit., I, 196.*
2) *Ibid., I, 197.*
3) *Nicetas Chartophylax, Dialogi de Spiritu Soncto, P. G., Vol. 139, Col. 224 ff.*
4) *Schmidt, Das Basilius aus Achrida, Erzbischofs von Thessalonich.*

البابا ادريانوس الرابع الى باسيليوس نفسه يوصيه برسله الذاهبين الى القسطنطينية في مهمة سياسية . وقدّم لهذه التوصية بعبارات ملؤها الادعاء بالسلطة كما عرفها غريغوريوس السابع والتنديد بضلال افترضته رومـــة افتراضاً (١) . فأجاب باسيليوس مؤكداً وجوب الصاق تهمـــة الضلال باليونانيين عند التثبت من اقدامهم على « تحوير دستور الايمان واستعمال الفطير » ! ثم أضاف ان الاختلاف بين الكنيستين صغير جداً وان تلافيه ممكن بصدق الطوية وجميـــل النية وبتعاون الاساقفة غربيين وشرقيين . فانجلى الاشكال الذي كان قد رافق التفاوض مدة طويلة وتبين ان سبب الخلاف انما كان مطالبة رومـــة بالسلطة والطاعة والحاح القسطنطينية على المساواة والمشاورة (٢) وان العودة الى الاتحاد استوجبت تعديلا هاماً في موقف كل من الكنيستين .

عمانوئيل والكسندروس : وظل البابا الكسندروس الثالث بحاجة الى من يرفع عنه كابوس امبراطور الغرب ومن يدفع عنـــه شر الخطر النورمندي وظـــل الفسيلفس عمانوئيل يحلم بالسلطـــة على ايطالية والقضاء على فكرة الامبراطورية الغربية فجمعت بينهـــا أواصر المصلحة فتواصلا وتجاملا وتبادلا رسائل المودة (٣) وفي السنة ١١٦٦ كتب عمانوئيل الى البابا الكسندروس الثالث يعرض اتحاد الكنيستين مقابل اتحـــاد الامبراطوريتين . وفي السنة ١١٦٩ كتب ثانية يقترح المناداة به امبراطوراً على الغرب لدى دخول جيوشه الى رومـــة والمنـــاداة بالكسندروس الثالث نفسه بطريركاً على القسطنطينية وذلك لمناسبة وفاة البطريرك لوقا وشغور الكرسي القسطنطيني . فأجاب الكسندروس بأن وصوله الى عرش القسطنطينية ليس ضرورياً وانه يكتفي بالاعتراف بتقدمـــه وبوجوب الترافع أمامه وبذكر اسمه في ذيبتيخة القسطنطينية (٤) . وكان بمقدور عمانوئيل ان يحقق اثنين من هذه المطالب: تقدم رومة وذكر حبرها في ذيبتيخة القسطنطينية

1) *Mansi, Sacrorum Conciliorum Collectio, XXI, 795.*
2) *Ibid. 799 - 802.*
3) *Watterich, Pontificum Romanorum Vitae, II, 404, 410,*
4) *Liber Pontificalis (Duchesne), II, 419 - 420 ; Cinnamus, John, Epitome Historiarume. (Meineke), 262 ; Allatius, L., Ecclesiae Occidentalis atque Orientalis Perpetua Consensione, II, 664 - 665.*

ولكن أمر الترافع أمام البابا كان قد أصبح مستحيلا .

ولم يتمكن عمانوئيل من تأجيل الانتخاب البطريركي الى أمد غير محدد فتبوأ السدة القسطنطينية ميخائيل الثالث (١١٦٩ ـ ١١٧٧) « مقدام الفلاسفة » . واطلع هذا البطريرك على رسالة الكسندروس الثالث فأعد رداً شديداً على محتوياتها وحصر البحث في حجة رومة التاريخية أي تقدم بطرس على غيره من الرسل ووجوب تقدم خلفائه على خلفاء غيره . فأشار الى علاقة بطرس بكنيسة انطاكية واسبقية هذه الكنيسة التاريخية . وذكر تقدم كنيسة اوروشليم على اخواتها في انهـا تشرفت بعناية السيد بها وانها شهدت عجائبه وتلقت تعاليمه . واكد ان تقدم كنيسة رومة على سائر الكنائس نتج عن وجودها في اهم مدن الامبراطورية الرومانية . واضاف ان القسطنطينية اصبحت مركز العالم المسيحي بأسره وانها تفوق رومة في الاهمية . وخلص الى القول ان ظروف الحاضر تقضي بأن تكون القسطنطينية مركز ادارة الكنيسة الجامعة لا رومة . ومما جاء في رده هذا قوله . « ليكن المسلم لا اللاتيني مدبر اموري المادية . فالاول لا يكرهني على الدخول في دينه واما الثاني فانه يبعدني عن الله » . (١) اما القول : « اني اؤثر عمة السلطان على قبعة الكردينال » فانــه متأخر يعزى الى الغراندوق لوقا نوتاراس .

اغبرار الجو وانفصام العرى : وتوفي عمانوئيل في السنة ١١٨٠ ففقــد اللاتين بوفاته مناصراً حكيما وفقد الصليبيون بوفاته مسانداً كريماً بذل بسخاء في سبيل زعمائهم مراراً وتكراراً . وكان عمانوئيل ، قد اعجب بفروسية الافرنج فقبلهم في جيشه واسند اليهم عدداً كبيراً من المناصب العالية فأثار بذلك حسد زملائهم الروم . وعطف على التجار الايطاليين فكثر عددهم في العاصمة واستولوا على مرافقها فأثارت كبرياءهم غضب التجار الروم (٢) .

ولم يكن لعمانوئيل من امرأته الالمانية الاولى سوى بنت واحدة سماها حنة وازوجهـا في السنة ١١٧٨ من الامــير الايطالي رينــه مونتي فــرات

1) *Michael Anchialos, Dalog. (Loparev, Unionism of Emperor Manuel Comnenus, Vizantiiskii Vremennik, 1917, 344 - 347 : Runciman, S., East. Schism, 121 - 122.*
2) *Heyd, W., Hist. du Commerce du Levant, 198 - 222.*

Rainier de Monteferrat . وكان له ابن من زوجته الثانية مريم الانطاكيــة اللاتينية اسمه اليكسيوس . وكان هذا لايزال قاصراً في الثانية عشرة من عمره . فلما توفي عمانوئيل نفذت مريم الانطاكية وصية زوجها فتردت بثوب الرهبنــة وتولت الوصاية على ابنها القاصر . وطلبت الى اليكسيوس ابن اخي زوجها المتوفي ان يساعدها في الحكم . ولم يرض جمهور من الاشراف ورجال القصر عن سياسة اليكسيوس المساعــد لعطفه على اللاتين وتعاونه معهم . واتهمــوا الفسيلسة الجميلة بأشياء واشياء منها عطفها على بني جنسها اللاتين . فتآمروا جميعاً واندلعت ثورة في ايار السنة ١١٨١ وتدخل البطريرك ثيودوسيوس وصالح الحزبين . وكان لعمانوئيل ابن عم اسمه اندرونيكوس . وكان قد تآمر على سلامة ابن اعمه الفسيلفس فاضطر ان يفرّ من وجهه . واذ رأى اندرونيكوس الامور على ما كانت عليه في القسطنطينية أعلن العصيان فالتف حوله جيش من المحاربين القدماء وقام بهم الى العاصمة . فطلب طرد مريم انطاكية وعشيقها وبقاء الملك في يد ابنها اليكسيوس الصغير . فساعده الشعب على ذلــك . فأيد الافرنج الساكنون في العاصمة مريم فأعلنها اندرونيكوس حرباً دينية قوميــة باسم الروم والارثوذكسية . فكانت مجزرة في العاصمة سقط في اثنائها معظم الافرنج من سكانها (١) .

وجاش صدر اللاتين بالغل وباتوا يخاتلون . وقطع البابا علاقاته مــع القسطنطينية ودفــع ملك المجر بجيوشه الى ضفة الدانوب وشجع فريدريكوس بارباروسة اعداد حملــة تقتص من الروم في عقر دارهم . وقام غليلموس الثاني الصقلي على رأس جيش الى البلقان وحاصر ثسالونيكية (١١٨٥) فدخلها وقتــل ونهب وأحرق . ودخل رجاله الكنائس بسيوفهم يشوشون ويطأون حيث لا يجوز ويكسرون ويسلبون . وفي اواسط ايلول زحفوا الى القسطنطينيــة . وكان اندرونيكوس في جزائر الامراء يتنعم ويتلذذ . فقام اسحق انجيلوس وضم الشعب اليه واستولى على القصر المقدس وهب يسعى في قتال النورمنديين فضربهم ضربة قاضية عند ديمترترة *Dimitritza* فأخلوا وتراجعوا ووقعوا الصلح (٢) .

1) *Nicetas Choniates, Historia, 291 - 355 : William of Tyre, Historia, XXII, 10 - 11 ; Ostrogorsky, G., The Byz. State, 350 - 356.*
2) *Dolger, F., Reg., 1567, 2569.*

اسحق وصلاح الدين : وعاد اسحق الى مواصلة الغرب فحالف البنادقة وعوض على الجنويين والبيزيين (١) وخطب ودّ رومة وفاتحها الكلام في الائتلاف وجمع الشمل (٢) . ولكن تطور الموقف في الشرق وعودة الاتراك السلاجقة الى التوسع والنهب والسلب اضطراه اضطراراً الى التحالف مع صلاح الدين عدو الصليبيين الالد . ولما سقطت اوروشليم في يد صلاح الدين سنة ١١٨٧ عاد اليها بطريرك ارثوذكسي هو اثناسيوس الثاني . فعرض اللاتين لاسحق بالنكير وقبّحوا فعله واعتبروه خائناً لا يرعى ميثاقاً .

موقف البطريرك الانطاكي : (١١٨٥ ــ ١١٩٩) وتسنم السدة البطريركية الانطاكية في هذه الفترة بلسمون الشهير (ثيودوروس الرابع) . واضطر هذا الحبر ان يبقى في القسطنطينية لان السلطات اللاتينية الروحية والزمنية كانت قد اغتصبت عرش انطاكية اغتصاباً . وكان بلسمون عالماً فاضلا وقانونياً كبيراً فساءه هذا الاغتصاب وأغضبته مطالب رومة . وصنف في النوموقانون كما سبق وأشرنا واجتهد في علاقة السلطات الزمنية بالروحية فقال بوجوب تعاونها لخير الشعب والدولة ولكنه ميز القسيلفس فاعتبره مسؤولا عن الدنيا والدين وجعله فوق الشرائع والقوانين لا يخضع الا للعقيدة المقدسة كما أقرتها المجامع المسكونية السبعة. والقسيلفس في نظر بلسمون أعلى من البابا ولا يجوز له اكراه الكنيسة اليونانية على الخضوع الى كنيسة رومة لانه بعمله هذا يسخر بقرارات المجامع السبعة ويهينها . وهذه المجامع أقامت سلطة بطريركية مخمسة وأقرت دستوراً للايمان عبثت به رومة فأضافت اليه (٣) .

وكتب مرقس بطريرك الاسكندرية الى بلسمون يستشيره ما اذا كان يجوز له ولكهنته ان ينالوا اللاتين . فأجابه بلسمون « بأن الكنيسة الغربية فصلت نفسها عن البطريركيات الأربع فأصبحت غريبة عن الارثوذكسية وسقط اسم رئيسها من الذيبتيخات . وهكذا فانه لا يجوز ان يناول اللاتيني الا

1) *Heyd, W., op. cit., 225 - 230.*
2) *Dolger, F., Regesten, 1615.*
3) *Theodore Balsamon, Canonem XVI Concilii Carthaginiensis, P. G., Vol. 138, Col. 93.*

بعد امتناعه عما يفصله عنا واعترافه بالخضوع لقوانين الكنيسة متحداً مع الأرثوذكسيين » . ولم يطلب بلسمون اعادة معمودية اللاتين ولم يعتبرهم هراطقة كاليعاقبة والنساطرة ولكنه حكم عليهم بالانشقاق (١) .

واشتهر بلسمون بعلمه وفضله فشاع رأيه وقال قوله عدد كبير من معاصريه فاعتبر الروم اللاتين منشقين منفصلين عنهم . ولكنهم لم يجمعوا على ذلك فان عدداً من رجال ذلك العصر خالفوا بلسمون في اجتهاده واعلنوا مخالفتهم . وأشهر هؤلاء ذيمتريو خوماتيانوس *Chomateanos* . فقد عارض هذا الباحث البطريرك الانطاكي ولم يرض عن مقاطعة اللاتين قبل النظر في امرهم في مجمع مسكوني (٢) .

ويروى عن بلسمون انه سمح باستعمال السريانية في جميع كنائس انطاكية ليسهل بذلك عودة اليعاقبة الى حضن الكنيسة الام . وكان قد كثر رجوعهم في القرنين الحادي عشر والثاني عشر وأكثرهم يجهل العربية واليونانية . وفعل البطريرك ذلك عملا بوصية الرسول القاضية بجعل الصلاة بلغة يفهمها الشعب . واستمر دخول اليعاقبة في الارثوذكسية فيما بعد . ومن هنا هذه المخطوطات الكنسية الارثوذكسية بالسريانية وحدها او بالسريانية واليونانية او بالسريانية واليونانية والعربية . وقد رأينا واحدة من النوع الثالث في طرابلس تعود الى السنة ٧١٨٨ اي ١٦٨٠ .

وقد يفيد من يدعي ان اللغة السريانية كانت لغة كنيسة انطاكية الغالبة بدليل وجود مثل هذه المخطوطات ان يعلم ان الكتب الكنسية باللغة الكرجية كثيرة نسبياً في دير المصلبة ودير القديس سابا بفلسطين. فهل هذا يعني بأن الكرجية كانت اللغة الغالبة في كنيسة اوروشليم . وهل وجود المخطوطات السريانية في دير القديسة كاترينة في سينا يعني ان اللغة السريانية كانت لغة هذا الدير .

الصليبيون وكنيسة قبرص : وكان اسحق دوقاس كومنينوس قد استأثر

1) *Ibid. Vol. 138, Col 968.*
2) *P. G., Vol. 119, Col. 956 - 960.*

بالسلطة في جزيرة قبرص ثم أعلن نفسه فسيلفساً مستقلا وحالف الصقليين والارمن وصلاح الدين . وكانت الانواء قد هبت شديدة فقذفت بمراكب ريكاردوس قلب الاسد الى جزيرة كريت فجزيرة رودوس . وجنحت سفينتان عند سواحل قبرص فيهما خطيبة ريكاردوس واخته (١١٩١) . ولم يحسن اسحق السياسة فأسرع ريكاردوس غاضباً الى قبرص وخرج اليها بعساكره وحبس فسيلفسها واقترن بخطيبته فيها وصادر نصف املاك الجزيرة واقطعه الى رجال حملته (١) . واشترى غي ده لوزينيان جزيرة قبرص من ريكاردوس قبل رحيله لبلاده وانشأ ملكاً له فيها وادخل قوانين وعادات اقطاعية ظلت قائمة في الجزيرة حتى ملكها الاتراك العثمانيون .

وأدى احتلال قبرص الى اخضاع اكليروسها اساقفة وكهنة الى السلطات اللاتينية الروحية . وتقاسى هؤلاء وتصلفوا ولجأوا الى العنف احياناً والى اعدام الكهنة الارثوذكسيين احياناً اخرى ! (٢) وشاعت اخبار القساوة والعنف والقتل في جميع الاوساط الارثوذكسيين فأوغرت الصدور واستوقدت الغيظ وزادت الانشقاق اتساعاً .

اليكسيوس الثالث وانوشنتيوس الثالث: واعتبر اللاتين الروم منشقين ايضاً . وامتنعوا عن اعتبار القسطنطينية مدينة مقدسة كما فعلوا في بدء الحروب الصليبية . وسنسمعهم يتغنون بعد الاستيلاء على القسطنطينية (١٢٠٤) بالمقطع :

Constantinopolitana
Civita diu profana
القسطنطينية
المدينة الشريرة (٣)

وعلى الرغم من هـذا ظل البابا والفسيلفس متواصلين تربطها مصلحة

1) *Runciman, S.,Crusades, II, 43 - 47, Sources, 46, n. I.*
2) *Hill, G., Hist. of Cyprus, II. 45 - 47, III, 1041 - 1104; Sathas, Mesaionike Bibliotheke, II, 20 - 39.*
3) *Sequentia Andegavensis, Riant, P., Exuviae Sacrae Constantinopolitanae, II, 45.*

الصمود في وجه العدو الالماني الامبراطوري المشترك. فاليكسيوس الثالث الذي رقي العرش احتجاجاً على سياسة العطف على اللاتين فاوض البابا كيليستينوس الثالث وتوصل الى تفاهم متبادل معه (١). وتوفي هنريكوس السادس الامبراطور الالماني في السنة ١١٩٧ فخلفه أخوه فيليبوس السوابي فتشوف الى المطامع نفسها التي كان يطمح اليها أخوه. وكان قد تزوج من بنت اسحق انجلوس الفسيلفس المخلوع فأضاف الى مطامع اسرته التقليدية حق الدفاع عن حق مسلوب . فلما تبوأ انوشنتيوس الثالث السدة الرومانيـة في السنة ١١٩٨ كتب اليكسيوس الفسيلفس اليه مهنئاً مقترحاً عقـد تحالف سياسي (٢) . فرحب البابا باقتراح الفسيلفس ولكنه استصعب التحالف مع امير لا تعترف كنيسته بسلطة رومـة . ثم أشار الوفـد الروماني على الفسيلفس بارجاع ابنة الكنيسة الى حضن الكنيسة الام وبالتعاون في حرب صليبية جديدة (٣) فأكد اليكسيوس استعداده للتعاون في حملة صليبية جديدة ولكنه أسف لاعمـال اللاتين في قبرص . ثم أضاف « ان اتحاد الكنائس يسهل عندما ترضخ المشيئة البشرية لمشيئة الله أي عندما يلتئم مجمع مسكوني ليعمل بالهام الروح القدس » (٤) .

البطريرك يوحنا العاشر : (١١٩٩ــ١٢٠٦) وأعد البطريرك القسطنطيني يوحنا العاشر *Kamateros* رسالة وجهها الى البابا انوشنتيوس الثالث . ومما جاء في هذه الرسالة ان الكنيسة الام هي كنيسة اوروشليم لا كنيسة رومة وانه اذا كان احد قد جروء على تمزيق قميص السيد المخلص فانما هو رومة نفسها . فهي التي غيرت دستور الايمان بعد ان وقعته وقالت به زمناً طويلاً (٥) .

ورد انوشنتيوس على هذا الخطاب رداً لطيفاً فأبان ان كنيسة رومة هي ام الكنائس احتراماً لا عمراً وأكد للفسيلفس استعداده للاشتراك في مجمع مسكوني بعد اعتراف كنيسة القسطنطينية بسلطة رومـة (٦) . فأبعد بقوله هذا كل امكانية للاتحاد .

1) *Norden, W., Das Papsttum und Byzanz, 130 - 133, Dolger, F., Reg. 1635.*
2) *Dolger, F. Reg. 1643.*
3) *Innocent III. Epist., P. L., Vol. 214, Col. 327.*
4) *Innocent III. Epist., P. L., Vol. 214, Col. 765 - 768.*
5) *Innocent III. Epist., P. L., Vol. 214, Col. 768 - 769.*
6) *Ibid.*

الحملة الصليبية الرابعة : (١٢٠٣ ـ ١٢٠٤) واطلع انوشنتيوس الثالث على شروط معاهـدة الرملة (١١٩٢) فأسف كل الاسف وهب يستنهض الهمم لتأليف حملة صليبية رابعة . وكان انوشنتيوس عالماً ذكياً حازماً قوياً ورأى ان من الواجب على كل نصراني ان يخف لنصرة الصليب فبث رسله في جميع أنحاء اوروبة لترويج دعوتـه . ولكن أحداً من كبار الملوك لم يلب النداء . ففيليب الثاني ملك فرنسة كان لا يزال تحت الحرم لهجره زوجته الثانية وتزوجه من ثالثة . وكان يوحنا الثاني ملك انكلترة لا يزال في خصام شديد مع أشراف بلاده وأعيانها . وكانت قد نشأت مشادة عنيفة في المانيا لتسنم العرش الامبراطوري بين فيليبوس السوابي واوثون الرابع . بيد ان هذا كله لم يمنع الفرسان الغربيين عن تقبل الدعوة .

وألمع من حمل الصليب لهذه المناسبة شيخ البندقيـة هنريكوس دوندولو *Dandolo* الأعمى . وكان قد عرف القسطنطينية حق المعرفة وفقد بصره فيهـا عندما حول بعض الروم نور الشمس الى عينيه بمرآة مقعرة . فغضب وحقدت وأضمر السوء . وكان سياسياً محنكاً ومفاوضاً حاذقاً . فلبى نداء البابا ليقضي على دولة الروم ويستأثر بتجارتها (١) . وكان بين اللامعين بونيفاتيوس مونتي فرات الذي تسلم قيـادة الحملة في حزيران السنة ١٢٠١ . وطمع بونيفاتيوس في عرش القسطنطينية لانتسابـه الى الاسرة المالكية بالمصاهرة ولشدة اعجابه بنفسه . وهو الذي تظاهر بالدعوة لتحويل الحملة على القسطنطينية يوم كان الرجال الصليبيون لا يزالون في كورفو (٢) . وممن رشح نفسه لعرش القسطنطينية قبل قيام الحملة الرابعة فيليبوس السوابي فانه أظهر رغبته في تحقيق حلم اسرته منذ السنة ١٢٠٢ (٣) .

وقد اختلف رجال الاختصاص في اسباب تحول الصليبيين عن الاراضي المقدسة الى القسطنطينية . فقام في السنة ١٨٦١ ماسلاتري الافرنسي يتهم البندقيـة بالوصول الى تفاهم سري سابق مع سلطان مصر لتحويل هذه الحملة عن اراضيه

1) *Diehl, C., Venise, 47 - 48; Frolow, A., Déviation de la IVe Croisade, 12 - 15, 15, n. 2.*
2) *Robert de Clari, XXXIII; Frolow, A., op. cit., 9 - 11.*
3) *Riant, P., Philippe de Souabe et Boniface de Monteferrat, Rev. Quest. Hist., 1875, 42 f.; Bréhier, L., l'Eglise et l'Orient au Moyen Age, 152 ff.*

وممتلكاته (١) . وأيد قوله كارل هوبف الالماني فحدد تاريخ هذه المعاهدة السرية وجعله في الثالث عشر من ايار سنة ١٢٠٢ (٢) . وفي السنة ١٨٧٥ قام الكونت دي ريان الافرنسي يلقي المسؤولية في هـذا التحول على عاتق فيليبوس السوابي فيجعل التحول مظهراً من مظاهر النزاع بـين الامبراطور الغربي والبابا (٣) . والواقع ان كلا من هؤلاء كان له مطعمه وان انوشنتيوس الثالث ارادها حرباً صليبية حقيقية ولكن ظروفاً نشأت في آخر ساعة شجعت الطامع على الجهر بمطمعه فالحملة تجمعت في البندقية في شهري تموز وآب من السنة ١٢٠٢ . والصليبيون عجزوا عن دفع نفقات السفر . فانتهز دندولو الفرصة واقترح تدويخ زارة عبـر الادرياتيك لحساب دويلته . فقام الصليبيون الى زارة . وعبثاً حاول اهلها اظهار شعائر النصرانية على الاسوار (٤) . والواقع ايضاً انه في اثناء السنة ١٢٠٢ افلت اليكسيوس انجلوس ابن اسحق الثاني من السجن الذي كان قد اودع فيـه وجاء صقلية ثم رومة يستعطف السلطات الزمنية والروحية على قضيته . ثم اتجـه شطر المانية يستعين بشقيقته ايرينة زوجة فيليب السوابي فأوفد فيليب وفـداً الى زارة يوصي البنادقة والصليبيين باليكسيوس . فتفتحت امام دندول وبونيفاتيوس آفاق جديدة وهب كل منهما يقنع الصليبيين بالقبول . ووعد اليكسيوس بدفع مبلغ كبير من المال مقابل معونته وأظهر استعداده لادخال كنيسة الروم في طاعـة البابا واشتراكه اشتراكاً فعلياً في الحرب المقدسة (٥) .

واقلع الصليبيون الى القسطنطينية اولا فظهر اسطولهم امام اسوارها في ٢٤ حزيران سنة ١٢٠٣ . وقطعوا السلاسل الحديدية التي تحمي مدخل القرن الذهبي فدخلت مراكب البنادقة واحرقت مراكب الروم . ثم اقتحم الفرسان الصليبيون اسوار العاصمة فاستولوا على المدينـة في تموز من السنة نفسها . وفر اليكسيوس

1) *Mas - Latrie, L., Hist. de l'Ile de Chypre, I, 162 - 163.*
2) *Hopf, K., Geschichte Griechenlands, I, 188.*
3) *Riant, P., Philippe de Souabe et Boniface de Monteferrat, Rev. Quest. Hist., 1875, 321 - 374.*
4) *Luchaire, A., Innocent III : La Question d'Orient, 103 - 105.*
5) *Nicetas Chon., Hist., 712 ; Luchaire, A., op. cit, III ; Ostrogorsky, G., Byz. State, 368 - 370.*

الثالث بخزينة الدولة وجواهرها . وأطلق سراح اسحق الثاني وأعلن ابنه اليكسيوس الرابع شريكاً له في الحكم . وطالب الصليبيون بتنفيذ المعاهدة أي بدفع المال المتفق عليه وباعداد قوة تقوم معهم الى الاراضي المقدسة . فاستمهلهم اليكسيوس ورجاهم ان يقيموا خارج أسوار العاصمة . وامتعض الروم من اللاتين الفاتحين وأتهموا اسحق وابنه بالخيانة . وهبّ صهر اليكسيوس الثالث ، وهو اليكسيوس دوقاس، الى السلاح فكانت ثورة أدت الى وفاة اسحق وخنق ابنه اليكسيوس الرابع . ونودي باليكسيوس دوقاس فسيلفساً فعرف باسم اليكسيوس الخامس .

وفي آذار السنة ١٢٠٤ وقع الصليبيون والبنادقة اتفاقاً فيما بينهم لاقتسام الامبراطورية الشرقية بعد احتلال العاصمة . وقضت شروط هذا الاتفاق بأن تقام في العاصمة حكومة لاتينية وان تقسم الغنائم فيما بين الطرفين وان تتولى لجنة مؤلفة من ستة بنادقة وستة صليبيين امر انتخاب امبراطور « يحكم لمجد الله ومجد الكنيسة ومجد الامبراطورية » . واتفق الطرفان على ان يحكم هذا الامبراطور ربع العاصمة وربع الدولة التابعة لها وعلى تقسيم ما بقي من العاصمة واراضي الدولة مناصفة بين البنادقة وبين الصليبيين (١) .

ثم حاصر الصليبيون القسطنطينية وفر اليكسيوس الخامس فتدفقوا اليها في الثالث عشر من نيسان سنة ١٢٠٤ مقتلين فاتكين ناهبين . واشترك في القتل والنهب الرهبان والأساقفة ! ورموا الايقونات رمياً مهيناً ونثروا عظام القديسين المجاهدين . ودلقوا جسد الرب ودمه على الأرض وأخذوا الآنية المقدسة ليشربوا منها خمرهم . وفي كنيسة الحكمة الالهية كسروا المائدة المقدسة وحطموا الايقونوستاس والمنبر ليأخذوا الفضة التي كانت تغطيها . وأدخلوا بغالهم الى حد أقداس الهيكل . وأجلسوا امرأة فاحشة على الكثيدرة . واعتبر الأب مرتينوس رئيس دير باريس Pairis نفسه مترفعاً لأنه لم ينهب سوى الكنائس ! وأحرقوا عدداً كبيراً من المخطوطات اليونانية والكتب المقدسة (٢) ! وخاضوا في

1) *Tafel und Thomas, Urkunden Zur Altern Handels und Staatsgeschichte, I,* 446 - 452.
2) *Nicetas Choniates, Historia, (Bonn)* 757 - 763 ; *Innocent III, Epist. P. L., Vol.* 215, *Col.* 699 - 702 ; *Frolow, A., op. cit.,* 53 *ff.*

الباطل وتتابعوا في الضلال فارفضّ صبر الاكليروس اليوناني فكتب هؤلاء الى انوشنتيوس نفسه يصفون ما حلّ بالكنائس ويرجون ردّ الجماح والقبض على المنكر (١) .

انوشنتيوس وكنيسة القسطنطينية : والتأمت لجنة الانتخاب فأقامت بلدوين قومس فلاندر امبراطوراً على القسطنطينية. وتسلم اكليروس البندقية كنيسة الحكمة الالهية واقاموا توما موروسيني بطريركاً على القسطنطينية وتوابعها . وفرّ البطريرك الشرعي يوحنا العاشر الى مدينة ذيذيموتيخوس واقام فيها . ثم استعفى وتوفي في السنة ١٢٠٦ .

ولم يرض انوشنتيوس عن حصار زارة وعن اقتحام القسطنطينية لان الحملة أعدت للعمل في الاراضي المقدسة (٢) . ولم يرض ايضاً عن انتخاب توما موروسيني بدون موافقته (٣). ولكنه سُرّ بوصول بلدوين الى عرش القسطنطينية وبدخول الامبراطورية الشرقية وكنيستها في حوزة رومة واعتبر ذلك اعجوبة بهية *Magnifica Miracula* (٤) . ثم تواردت اخبار الفظائع وتفاصيلها فكتب يشجب ويستنكر (٥) . ولكن الروم اكليروساً وشعباً لم ينسوا ابتهاجه واعجوبته البهية واتهموه بالتصنع والمداهنة واعتبروه مسؤولا عن كل ما جرى (٦) .

وعلم انوشنتيوس ان ليتنة شعب بكامله غير ممكنة فأوصى بملاطفة الاساقفة اليونانيين وبعدم التسرع في سيامة اساقفة لاتينيين . ولكنه أوجب على الاساقفة اليونانيين ان يقسموا بما يلي :

« اقسم بالطاعة والولاء لبطرس الرسول وللكنيسة الرومانية المقدسة وللكرسي الرسولي ولسيدي انوشنتيوس وخلفائه الكاثوليكيين . وادافع قدر المستطاع عن ممتلكات بابا رومة وشرفه وحرمته . والبي الدعوة الى المجامع عندما يطلب ذلك مني . وأزور البلاط البابوي *ad limina* اما بشخصي واما بمن ينوب عني . واستقبل باحترام القاصد البابوي واعاونه في كل شيء » (٧) .

1) *Cotelerius, Ecclesiae Graecae Monumenta, III,* 510 - 514.
2) *Frolow, A., op. cit.,* 43 - 54.
3) *Innocent III, Epist., P. L., Vol.* 215, *Col.* 512 - 517.
4) *Ibid. Col.* 445 - 455.
5) *Ibid., Col.* 699 - 702.
6) *Novogorod Chronicle, (Nasonov) Acad. of Sc., U. S. S. R.,* 245 - 246.
7) *Innocent III, Epist., P. L., Vol.* 215, *Col.* 1352.

وكتب انوشنتيوس الى بطريركه الجديد موروسيني يوصيه بالاعتراف بالسيامات الأرثوذكسية القديمة ولكنه يوجب سيامة المستجدين بالطريقة اللاتينية ويؤكد وجوب ذكر اسمه واسم البطريرك اللاتيني في جميع الذيبتيخات (١) .

وتجاهل انوشنتيوس اموراً أهمها ان الصليبيين لم يتمكنوا من احتلال جميع الامبراطورية الشرقيـــة وانه قام على انقاضها دويلات ثلاث مستقلة كل الاستقلال وانه كان بامكان الاساقفة اليونانيين ان يلجأوا الى هذه الدويلات ولا سيا دولة نيقية وان معظم الامراء الصليبيين كانوا بعيدين عن المسيح رعناء لا يرون الا قضاء حاجاتهم المادية .

والواقع ان عدداً كبيراً من الاساقفـــة الارثوذكسيين تركوا ابرشياتهم والتحقوا بالسلطات اليونانيـــة المستقلة . وفي السادس من شباطسنـــة ١٢٠٦ اجتمع في نيقية كبار رجال الدين وأعيان الأمة ودعوا يوحنا العاشر البطريرك المسكوني للاجتماع معهم . فلما ارسل هـــذا استعفاءه انتخب الأساقفـــة المجتمعون ميخائيل الرابع (بافتوريانوس) بطريركاً مسكونياً ونصّبوه في العشرين من آذار . ثم أقاموا بعد وفاته (١٢١٢) ثيودوروس الثاني (ايرينيكوس) ثم مكسيموس الثـــاني في السنة ١٢١٥ ثم عمانوئيل الاول (١٢١٥) فجرمانوس الثاني (١٢٢٢) .

وكان من بقي من رجال الاكليروس في داخل الدويلة اللاتينية الجديدة قد رأى ان تبقي رومـــة على تقاليدهم وطقوسهم مقابل الاعتراف بسلطتها . فحرروا في السنة ١٢٠٦ رسالة الى انوشنتيوس أظهروا فيهـــا استعدادهم للاعتراف به بابا وثالث عشر الرسل ولكنهم رجوه ان يكون لهم بطريرك من أبناء جنسهم يتكلم لغتهم ويعرف تقاليدهم وطبائعهم . فامتنـــع انوشنتيوس فاضطروا ان يؤيدوا المتطرفين منهم وان ينزحوا الى نيقية وغيرها وان يشتركوا في انتخاب بافتوريانوس (٢) ولم ينعم انوشنتيوس بموهلة المحبة ولم يفسح المجال

1) *Ibid.*, *Col.* 1353.
2) *Gardner, A.*, *Lascaridas of Nicaea*, 97 - 98.

لعمل الروح القدس فكتب الى القسيلفس الجديد موبخاً مكدراً فأضاع بقلة محبته فرصة سانحة لتوحيد الصفوف (١) .

سمعان الثاني البطوبرك الانطاكي : (١٢٠٦ — ١٢٤٠) وتوفي ولي العهدفي انطاكية ريموند ابن بوهيموند الثالث في السنة ١١٩٧ . فاختلفت كلمة الانطاكيين في ولايـة العهد وتعارضت اهواؤهم واضطرب حبلهم . فابن ريموند من زوجته الارمنية كان لا يزال طفلا . وكان بوهيموند الثالث الامير الحاكم قد ناهز الستين . فخشي الا يطول أجلـــه وان يتولى الارمن الوصاية على الوريث الطفل . فأرسل كنته اليس الارمنية وابنها الطفل الى ارمينية وراح يدرس قضية الخلافة . وكان لبوهيموند الثالث امير انطاكية ابن آخر اسمه بوهيموند ايضاً . وكان اميراً على طرابلس . فلما علم بوفاة اخيه ولي العهد في انطاكية طمع في انطاكية ورغب في حكمها . وكان كثير المراغب واسع المطامع متضلعاً في القانون يجيد الدفـــاع عن نفسه والافتاء بما يشاء . وكان قد طمع في اوقاف كنيسة طرابلس ودخل في نزاع حول ذلك مع اسقفها بطرس. وكان بطرس هذا قد اصبح بطريركاً على انطاكية *Pierre d'Angoulême* (١١٩٦ — ١٢٠٨) . فلما شعر بما قـــد يؤول اليه عرش الامارة الانطاكية ثار ثائره وهب يعاكس بوهيموند امـــير طرابلس . وكان انوشنتيوس الثالث يتطلع الى ليتنة الشرق بكامله . وكان قسم من الارمن قـــد خضع لرومة كما سبق واشرنا فشمل البابا انوشنتيوس الامير الطفل وامه اليس الارمنية بعطفه ودافع عن حقوقهما في الحكم. فاستحكم الشقاق بين انوشنتيوس البابا وبطرس البطريرك وبين بوهيموند الطرابلسي وأمسوا لا تجمعهم جامعة . وكره اللاتين الانطاكيون الارمن ومالوا الى الروم في انطاكية ليستعينوا بهم .

وفي نيسان السنة ١٢٠١ توفي بوهيموند الثالث امير انطاكية فجاء ابنـــه بوهيموند الرابع واستولى على زمام الامور وصادق الظاهر ملك حلب ليستعين به على لاوون الارمني خصمه الجديد . وتدخل البابا انوشنتيوس الثالث في النزاع

1) *Heisenberg, A.*, *Neue Quellen Zur Gescg. des Lateinischen Kaisertums. un der Kirchenunion* ; *Norden, W.*, *op. cit.*, 215 - 233 ; *Innocent III*, *Epist.*, *P. L.*, *Vol.* 215, *Col.* 1272.

الانطاكي وارسل الرسل للنظر في هذا النزاع وحله. فقبل الارمن وامتنع بوهيموند مدعياً ان لا علاقة للكنيسة بنزاع اقطاعي صرف . وفي السنة ١٢٠٣ طلب لاوون الارمني الى البابا ان يتولى شؤون الكنيسة الارمنية مباشرة .

وكان من حسن حظ بوهيموند الرابع ان تعارضت اهواء البطريرك بطرس في السنة ١٢٠٥ بآراء القاصد الرسولي وذلك حول سيامة ارشيدياكون انطاكية . فاستغل بوهيموند هذا النزاع وخلع بطرس خلعاً في السنة ١٢٠٦ ودعا سمعان الثاني البطريرك الارثوذكسي لادارة شؤون الكنيسة . فرأب انوشنتيوس بين البطريرك والقاصد وأوجب مقاومة سمعان البطريرك الانطاكي وصديقه بوهيموند . فحرم بطرس البطريرك اللاتيني بوهيموند ومن شد ازره فغصت كنائس الروم باللاتين . فلجأ بطرس الى الدس والمؤآمرة ودبت عقاربه بين القوم . ثم لجأ الى العنف فأدخل بعض الفرسان الموالين له وحاول قلب الحكم . فأمر بوهيموند به فحوكم وسجن وتوفي في السنة ١٢٠٨ (١) .

وراع انوشنتيوس عودة الروم الى كرسي الرسولين فأوعز الى بطريرك اوروشليم اللاتيني ان يحرم بوهيموند ففعل في السنة ١٢٠٨ . وفي أوائل السنة ١٢٠٩ عين البابا بطرس اسقف ايغري بطريركاً على انطاكية . وأعلم بوهيموند بذلك وأوجب الاعتراف بالبطريرك الجديد بطرس الثاني وهدد بالحرم . فأبى بوهيموند الخضوع لبطريرك اللاتين وحرض الاكليروس اليوناني عليه . ثم رأى انوشنتيوس ان تعرض قضية الخلافة في انطاكية على محكمته العليا في رومة . فأجاب بوهيموند ان حق النظر في هذه القضية يعود الى البلاط البيزنطي (٢) . وظل سمعان الثاني البطريرك الشرعي يدير دفة الامور الكنسية في انطاكية حتى السنة ١٢١٣ . وأطلق انوشنتيوس لنفسه عنان هواه فكتب الى الملك الظاهر في حلب يرجو الحماية لبطريرك اللاتين في انطاكية (٣) !

1) *Korolewski, Antioche, Dict. Hist. Ecc. Cahen, C., op. Cit., 600 - 615; Runciman, S., Crusades, III, 99 - 101, 135 - 138; Grousset, R., Croisades, III, 255 - 259; Luchaire, A., Innocent III, 39 f. ; Rey, E. G., Hist. des Princes d'Antioche, 389.*
2) *Luchaire, A., op. cit., 40 - 41.*
3) *Rey, E. G., Dignitaires de la Principauté d'Antioche, 139, Grousset, R., op. cit., III, 259.*

وتبدلت الاوضاع السياسية وأصبح بطريرك اوروشليم البرتوس صديق الهيكليين اصدقاء بوهيموند فاعترف بوهيموند بالبطريرك اللاتيني الانطاكي الجديد. فابتعد مناظره الارمني لاوون عن رومة ففاوض فسيلفس نيقية ورحب بسمعان الثاني ودعاه للاقامة في ربوعه في قيليقية واعاد الى الكنيسة الانطاكية الاراضي التي كانت قد سلخت عنها ووضعت تحت تصرف اللاتين (١) .

الهيوارخية الانطاكية : ولا يجوز البت في تسلسل السلطة البطريركية الانطاكية في هذه الحقبة فالمراجع لا تزال متضاربة في نصوصها ولم يقم احد بعد لجمعها والنظر فيها بالطريقة العلمية الحديثة . فقسطنديوس القسطنطيني الذي اعتمد محفوظات البطريركية المسكونية يذكر يواكيم بعد ثيودوروس الرابع (بلسمون) ويجعل مدة رئاسته تمتد من السنة ١١٩٩ حتى السنة ١٢١٩ . ثم يذكر ذوروثايوس (١٢١٩ ـ ١٢٤٥) فسمعان الثاني (١٢٤٥ ـ ١٢٦٠) فافتيميوس الثاني (١٢٦٠ ـ ١٢٦٨) فثيودوسيوس الرابع (١٢٦٩ ـ ١٢٧٦) فارسانيوس (١٢٨٥) (٢) . واعتمد لوكيان الغربي نيقيفوروس كاليستوس فذكر داود بعد سمعان (الثالث) فافتيميوس فثيودوسيوس الخامس فارسانيوس .

مجمع نمفية (١٢٣٤) وانطلق من الاسر في قونية في السنة ١٢٣٢ خمسة رهبان فرنسيسكانيين . فجاءوا نيقية وفاتحوا البطريرك المسكوني جرمانوس الثاني في اتحاد الكنيستين . فسر البطريرك بهم واطلع الفسيلفس يوحنا الثالث باطاجي *Vatatzes* على ما اقترحوه فوافق الفسيلفس فكتب جرمانوس الى البابا غريغوريوس التاسع فجاء نيقية في السنة ١٢٣٤ وفد بابوي لهذه الغاية مؤلف من راهبين فرنسيسكانيين وراهبين دومينيكانيين . وكان بين المفاوضين الارثوذكسيين بالاضافة الى جرمانوس نيقيفوروس البلميذي . ولعل افتيميوس الانطاكي اشترك ايضاً في اعمال هذا المجمع . وأظهرت رومة استعدادها للاعتراف بجرمانوس . واقترح الفسيلفس التسامح في امر الفطير شرط التمسك بنص دستور الايمان

1) *Cahen, C., op. cit., 615 - 619; Runciman, S., Crusades, III, 137 - 138.*
2) *Neal, J. M., Hist. of church of Antioch, (Patriarchs of Antioch by Constantius), 176 - 177.*

وحذف العبارة «والابن» عند الكلام عن الانبثاق. وارتأى نيقيفوروس البلميذي ان « يفسر » الدستور بالقول بالانبثاق من الآب بالابن . فرفض الوفد الروماني كل هذا واصروا على الخضوع لرومة . فبدا من الطرفين مـا دعا الى التحذر . واكفهر الجو فانسحب الرهبان الغربيون غاضبين ساخطين فنعتهم الاساقفة الشرقيون بالهرطقة فردوا بمثل ما نعتوا به (١) . فكتب عندئذ جرمانوس مصنفه الشهير في انبثاق الروح القدس (٢) .

البطريرك الانطاكي داود : (١٢٤٠ — ١٢٤٧) وتفيد المراجع الغربية انه لدى وفاة سمعان الثاني رقي السدة الرسولية الانطاكية داود وان داود هذا قبل اقتراح الموفد الروماني لورنزو اورطة بأن يستقل الروم بادارة شؤونهم الكنسية وان يتمتعوا بامتيازات اللاتين شرط اعترافهم بسلطة رومة . وتضيف هذه المصادر ان هذا الترتيب الجديد لاقي نجاحاً كبيراً في انطاكية . وان بطريرك الروم اصبح هو البطريرك النافذ المطاع وان زميله اللاتيني آثر الاقامة في اوروبة تاركاً وراءه في انطاكية نائباً بطريركياً (٣) .

مشروع انوشنتيوس الرابع : (١٢٥٣) ورغب انوشنتيوس الرابع (١٢٤٢ — ١٢٥٤) في فصم التحالف بين الروم والالمان واحب ان يتم اتحاد الكنيستين على يده ولمس ضعف اللاتين في القسطنطينية واحتضار دولتهم فيها فعدل موقف سلفائه ونهج نهجاً جديداً . وفاوض الروم على اساس الاعتراف برئاسته والقبول بكل ما يقره مـا دام لا يخالف بذلك قرارات المجامع المسكونية ورفع القضايا التي تتعلق بكبار رجال الاكليروس اليه والغاء امبراطورية اللاتين وعودة بطريرك الروم الى القسطنطينية وتلاوة قانون الايمان في الشرق بدون اضافة « والابن » اليه . وكاد التفاهم يتم بين الطرفين وأم رومة وفد يوناني

1) *Hefelé - Leclercq, Hist. des Conciles, V, 1569 - 1572.*
2) *P. G., Vol. 140, Col. 621 - 757; Krumbacher, K., Gesch. der Byz. Lit., 174; Lagopates, S., Germanos, (Tripolis, Greece, 1913); Golubovich, G., Disputatio Latinorum et Graecornm, Archivum Franciscanum Historicum, 1919, 418 - 424; Nicephorus Blemmydes, Curriculum Vitae et Carmina, (Heisenberg), 40 - 42, 63 - 71.*
3) *Reg. Honorii Papae III, 5567, 5570 ; Cahen, C., op. cit., 684 - 685 ; Grousset, R., Croisades, III, 512 ff. ; Runciman, S., Crusades III, 231 - 232.*

مفاوض مطلق الصلاحية ولكن البابا والفسيلفس توفيا في السنة ١٢٥٤ (١) .

نيقية تفاوض رومة : وفي السنة ١٢٥٦ ارسل ثيودوروس الثاني لاسكاريس نبيلين من نبلاء الروم الى رومة ليعلما حبرها الكسندروس الرابع باستعداد سيدهما للمفاوضة في سبيل اتحاد الكنيستين . فأوفد الكسندروس اسقفاً اسمه قسطنطين الى نيقية لهذه الغاية وخوله حق الدعوة الى مجمع مسكوني واتخاذ الاجراءات التي يراها مناسبة . ويرى رجال الاختصاص ان الطرفين اتفقا على ان تتم المفاوضات على الاسس نفسها التي كان قد اقترحها يوحنا باطاجي في مجمع نيمفة سنة ١٢٣٤ (٢) . ثم قام ثيودوروس على رأس جيش نيقاوي الى بلغارية واحرز فيها انتصارات هامة فلمس ضعف اللاتين وقرب اجلهم . وعلم في اثناء ذلك بوصول الاسقف قسطنطين الى مقدونية فامتنع عن مقابلته وأمر بخروجه من اراضي الروم (٣) .

وتوفي ثيودوروس الثاني في السنة ١٢٥٨ واغتصب العرش ميخائيل الثامن (باليولوغوس) . وكتب هذا الى البابا في اثناء محنته في السنة ١٢٥٩ في موضوع الاتحاد . ولكن الكسندروس الرابع لم يستغل ظرف ميخائيل في الوقت المناسب . وتغيرت الظروف باستيلاء الروم على القسطنطينية (٤) .

مجمع ليون : (١٢٧٤) وسالم ميخائيل الثامن المغول في آسية ليتسنى له فرض سلطته على ممتلكات الروم في البلقان . وبذل جهده لتدارك حملة صليبية جديدة على القسطنطينية فتودد لحبر رومة وسعى لارضائه بتوحيد الكنيستين .

ووصل اوربانوس الرابع الى السدة البابوية في السنة ١٢٦١ وسعى لتنظيم حملة جديدة على القسطنطينية . ففاوضه ميخائيل في أمر الاتحاد فعدل اوربانوس عن مشروع الحملة . وكاد الاتفاق يتم لولا وفاة البابا (١٢٦٤) . وخلف

1) *Norden, W., Das Papsttum und Byzanz, 756 - 759, Append. XII; Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 544 ; Ostrogorsky, G., Byz. State, 392.*
2) *Schilmann, F., Zur Byzantinischen Politik Alexanders IV, Romische Quartalschrift, 1908, 108 - 131, II, 14 - 15.*
3) *Georges Acropolita, Annales, Ch. 67, (Heisenberg), 139 - 140.*
4) *Norden, W., op. cit., 382 - 383 ; Janin, R., Les Sanctuaires de Byzance sous la Domination Latine, Etudes Byzantines, 1945, 134 - 184*

اوربانوس الرابع اقليمس الرابع فغدا أشد اندفاعاً من سلفيه في اعادة الامبراطورية اللاتينية في الشرق . وصارح اقليمس ميخائيل مهدداً بأنه لا يضمن له شيئاً قبل خضوعه هو وكنيسته لسلطة رومة (١) . وشجع هذا البابا كارلوس انجو ملك صقلية على العمل الحربي في الشرق وتنازل بلدوين الثاني عن حقوقه في عرش القسطنطينية اللاتيني الى كارلوس امـام البابا في فيتيربو Viterbo . فخشي ميخائيل الثامن سوء العاقبة ففاوض في عقد الاتحاد . وازداد اقليمس تصلفاً ولم يرض بشروط سلفه ولكنه توفي في خريف السنة ١٢٦٨ . وانقسم الكرادلة على بعضهم فغدت السدة البابوية شاغرة سنتين وتسعة اشهر . فلجأ ميخائيل الى لويس التاسع ملك فرنسة راجياً وضع حد لمطامع اخيه كارلوس انجو في ممتلكات الروم (٢) . وتوفي لويس التاسع في السنة ١٢٧٠ وعاد اخوه كارلوس من تونس الى صقلية وعادت مطامعه في الشرق .

واتفق الكرادلة فأجلسوا على الكرسي الرومـاني غريغوريوس العاشر (١٢٧١ ــ ١٢٧٦) . وكان غريغوريوس آنئذ في فلسطين فراعه الخطر السياسي الدولي الذي هدد الامارات اللاتينية بالانهيار . ففاوض التتر في محاربة المسلمين وحض الامير ادوارد الانكليزي على تنظيم حملة صليبية جديدة . ومر بالقسطنطينية لدى عودته الى اوروبة فلاطف ميخائيل الثامن واظهر استعداده للعمل الجدي في سبيل اتحاد الكنيستين . ولم يرض عن مطامع كارلوس انجو (٣) وأرسل بعثة الى القسطنطينية لتؤكد حماية البابا في حال وقوع الاتحاد (٤) .

وعمل ميخائيل للاتحاد بكل قواه . ودعا الاساقفة والأشراف والوجهاء الى اجتماع عام . وأبان الخطر الذي أحدق بالدولة وضرورة الاستعانة بالغرب . ولكن هذه الدعاية قوبلت بمقاومة شديدة ومكابرة لا تقبل النقص (٥) ولا سيما من البطريرك والاساقفة وبعض أعضاء الاسرة المالكة . وجـل ما توصل اليه

1) Dolger, F.. Reg. 1943, 1947.
2) Ibid., 1968, 1971.
3) Norden, W., Papsttum, 470 - 474.
4) Reg. Pont. Rom., 68.
5) Bréhier, L., Byzance, 398.

ميخائيل انـه استمال أحد علماء اللاهوت يوحنا فقس Veccos وعدداً قليلا من الأساقفة .

ودعا غريغوريوس العاشر الى مجمع في ليون في ايار السنة ١٢٧٤ لمساعدة فلسطين واتحاد الكنائس واصلاح الكنيسة . فلبى الدعوة خمسمئة اسقف وسبعون رئيس دير وحوالي الف اكليريكي آخرين . وترأس الجلسات غريغوريوس نفسه . وتألف الوفـد الرومي الشرقي من البطريرك جرمانوس المستقيـل واللوغوثيتوس المؤرخ جاورجيوس اكروبوليتة وثيوفانس متروبوليت نيقية . وكان على الفيلسوف توما الاكويني ان يتولى الدفاع بنفسه عن موقف الكنيسة اللاتينية ولكنه توفي وهو في طريقـه الى ليون فحل محله الكردينال بونافنتورة Bonaventura . ووصل وفـد الروم في الرابع والعشرين من حزيران فاستقبل استقبالا حافلا. وتم تبادل قبلة السلام مع البابا والكرادلة. وتليت رسالة الفسيلفس ورسالة ولي عهده اندرونيكوس وبيان اكليريكي مذيـل بامضاءات اكليريكية كثيرة . وقال الوفد بالانبثاق من الآب والابن ووافق على استعمال الفطير وخضع لسلطة رومـة العليا . وأكد الفسيلفس استعداده للاشتراك في حملة صليبيـة جديدة (١) .

واستقال يوسف الاول البطريرك المسكوني احتجاجاً على ما جرى فتولى الرئاسة بعده يوحنا فقس . وقرعت افلوجية أخاها ميخائيل الثامن وضج الامراء والتأم مجمـع أرثوذكسي في تسالية لتوبيخ الفسيلفس ولقطع فقس (٢) ولكن ميخائيل واظب على الاتحـاد حتى وفاته . فانكر الآباء الارثوذكسيون عليه فعله وفلّوا رأيه وفنّدوا قوله (٣) .

1) Vernet,. F., Le IIe Concile Oecuménique de Lyon, Dict. Théol. Chrét., IX., Col. 1384 - 1368; Grumel. V., Concile de Lyon et la Réunion de l'Eglise Grecque, Ibid., Col. 1391 - 1410; Norden, W., Papsttum, 520 -615; Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 656 - 659.
2) Grumel. V., En Orient après le Concile de Lyon, Echos d'Orient, 1925, 321 - 322; Rouillard, G., Politique de Michel VIII, Etudes Byzantine, 1944, 73 - 84.
3) Nikolsky, V., The Union of Lyons, Pravoslavnoe Obozrenie, 1867, 5 - 23, 116 - 144, 352 - 378, 1867, 11 - 33.

رومة تنفصم العرى : (١٢٨١) ووفد على القسطنطينية بين السنة ١٢٧٤ والسنة ١٢٨٠ خمسة وفود رومانية لتثبيت الاتحاد (١) . وفي السنة ١٢٨٠ توفي البابا نقولاووس الثالث فأوصل كارلوس انجو الى السدة البابوية رجلاً يثق في اخلاصه ومحافظتـه على مصالحه الشخصية هو الكردينال سمعان دي بري الذي أصبح يدعى مرتينوس الرابع (١٢٨١ ـ ١٢٨٥) . وما كاد هذا الحبر يستوي على عرش الرسول حتى افترى على ميخائيل فأتهمه بالغش والخداع ثم وضعه تحت الحرم (٢) . وقام بعدئذ يدبر خلفاً جديداً لاخضاع الروم وايصال صديقه كارلوس الى مطمعه !

وتوفي ميخائيل الثامن في السنة ١٢٨٢ وتبوأ العرش بعده ابنه اندرونيكوس (١٢٨٢ ـ ١٣٢٨) فقامت عمته افلوجية تحرضه على فسخ الاتفاق والاتحاد . وحذا حذوها مستشاره الجديد ثيودوروس موزالن . وكان هذا قد ذاق آلام الفلاق في عهد ميخائيل لاعتراضه على الاتحاد . وزال خطر كارلوس انجو فلبى اندرونيكوس رغبات معظم الاكليروس والشعب وأمر بدفن والده خارج العاصمة دون ان يصلى عن نفسه في الأديار وأبعد البطريرك فقس وأعاد البطريرك يوسف (٣) .

* * *

1) *Grumel, V., Les Ambassades Pontificales à Byzance, Echos d'Orient, 1924, 446 - 447.*
2) *Brehier, L., Byzance, 401.*
3) *Pachymeres, Hist., I, 1 - 2 ; Nicephorus Gregoras, Hist., VI, 1 - 2.*

الفصل الثالث والاربعون

هولاغو والكنيسة

الامبراطورية المغولية : وغمرت سلطة المغول آسية . وسيطر الخان الاعظم على آسية العليا والوسطى ونصف الصين وفارس . وانتشرت النصرانية بلونها النسطوري في آسية العليا . ووطدت الاسر النبيلة النسطورية علاقاتها مع جنكيزخان واولاده . ورغب الامراء المغول في النصرانيات فتزوجوا منهن وبالغوا في احترامهن واكرامهن . وكثر عدد النساطرة في حاشية الخان وجيشه .

الارمن والمغول : وقضى المغول في السنة ١٢٤٣ على جيش سلجوقي قضاء كاملا . فتوقع الارمن توسعاً موغولياً في العراق وآسية الصغرى . فخطر ببال هاتون ملك الارمن ان يقصد الخان ويستجديه في سبيل الارمن والنصرانية. فارسل في السنة ١٢٤٧ اخاه سمباد الى قرقوروم يقدم الخضوع وينتجع ويستمطر فرحب المغول به وأجابوا سؤله وادخلوا الارمن في حمايتهم (١) .

اللاتين والمغول : ولمع في سماء الاسلام نور الدين وصلاح الدين وتقلص ظل اللاتين . وتقاعست اوروبة وقل اندفاعها فأوفد انوشنتيوس الرابع بابا رومة بلان كاربان *Plan Carpin* الى الخان الاعظم غويوك في السنة ١٢٤٥ ليدعوه الى الدخول في النصرانية (٢) .

وفي السنة ١٢٥١ وصل الى عرش المغول مونغكة *Mongka* حفيد جنكيزخان. واستتب الامر له فولى اخاه كوبيلاي الشرق الاقصى واخاه هولاغو فارس وما تبعها . وكانت امهم نصرانية نسطورية . فأوفد لويس التاسع راهباً فرنسيسكانياً اسمه غليلموس روبروك *Guillaume Rubrouck* الى قرقوروم

1) *Sempad, Letter to Henry of Cyprus, (William of Nangis), Runciman, S., Crusades, III, 295.*
2) *Pelliot, Chrétiens d'Asie Centrale et d'Extrême Orient, 628.*

ليفاوض في تحالف وتعاون بين فرنسة والمغول . ووصل روبروك الى عاصمة المغول في ربيع السنة ١٢٥٤ فوجد فيها الرومي والعباسي والسلجوقي والهندي وغيرهم يفاوضون مثله . ومثل هو امام الخان الاعظم ونقل رجاء سيده فأجابه الخان مونغكة: «لا اله الا اله السموات ولا سيد على الارض الا ابنه جنكيزخان. وباسم مونغكة ممثله على الارض قل لملك فرنسة ان اخضع ! (١) » .

هاتون يفوز بالمعونة : وعلم هاتون ملك الارمن بارتقاء مونغكة عرش المغول . فقام بنفسه الى قرقوروم في السنة ١٢٥٤ «وخضع وتوسل» فسر مونغكة به وجعله مستشاره في امور غرب آسية والنصرانية . وضمن سلامة حدوده وأمر برفع الضرائب عن الكنائس والاديار . واعتزم « تحطيم خلافة بغداد » على حد قوله وعقد نيته على تحرير اوروشليم . وأعلم أخاه هولاغو بما وطن النفس عليه وأمره ان يتجهز لذلك بالجهاز الكافي . وعاد هاتون مغتبطاً مسروراً وقصد هولاغو مؤتمراً ممتثلا فعني هولاغو بأمره واهتم بشأنه (٢) .

ووصل هاتون الى مقره في ارمينية الصغرى (قيليقية) في تموز السنة ١٢٥٥ فأخذ يهيء للتحالف اسبابه . وكانت رابطة الزواج قد جمعت بين الاسرة الارمنية المالكة في قيليقية وبين اسرة انطاكية وطرابلس اللاتينية . وكانت العائلة المالكة في اوروشليم فرنجية ارمنية ايضاً . وكان نظام الفرسان الفرنسي قد دخل البلاط الارمني . وكانت اللغة الفرنسية قد اصبحت لغة قومية ثانية عند سادة الارمن . وكانت الكنيسة الارمنية في قيليقية قد اعترفت برئاسة رومة كما سبق واشرنا .

سقوط بغداد : (١٢٥٨) وقضى هولاغو في أثناء السنة ١٢٥٦ ــ ١٢٥٧ على الحشاشين في فارس واذربيجان وأمر بهم في كل مكان فذبحوا ذبحاً . ونظر عطا الملك في مكتبتهم في ألموت فأبقى على مصاحفها ومصنفاتها التاريخية والعلمية وأحرق الباقي (٣) .

1) *Grousset, R., L'Empire des Steppes, 248.*
2) *Kirakos of Gantzag, Hist. (Brosset), 279 ff.; Barhebraeus, 418 - 419; Bretschneider, E., Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources, I, 164 - 172.*
3) *Browne, Literary Hist. of Persia, II, 458 - 460.*

وفي الثامن عشر من كانون الثاني سنة ١٢٥٨ وصلت طلائع المغول الى بغداد . فأحاطوا بها من كل جانب ثم قصفوها بالمجانق فتهدمت أسوارها . وفي العاشر من شباط تسربوا اليها فقتلوا ثمانين الفاً من سكانها واستولوا على كنوزها. وعفوا عن النصارى ثم أشركوهم في النصر فاستولى جاثليقهم على قصر الدوادار ورممت كنائسهم (١) ويؤكد الراهب ورطان الارمني المعاصر ان الفضل في هذا كله يعود الى الاميرة دوقوز خاتون النصرانية فانها لم تكتفِ بعطفها الوراثي على النصرانية بل أحبت ان تزيد الدين المسيحي مجداً على مجد (٢) .

حلب والجزيرة: وكان الكامل محمد صاحب ميافارقين قد أبى ان يدخل في طاعة المغول فصلب الكاهن اليعقوبي الذي حمل اليه أوامر هولاغو . فزحف المغول على امارته وحاصروا ميافارقين ثم أخذوها عنوة في أوائل السنة ١٢٦٠ واكرهوا الكامل على أكل لحم جسمه بيده (٣) وانضم الكرج المسيحيون والارمن الى صفوف هولاغو في سبيل رفع راية الصليب وتحرير الكنيسة. واستشهد منهم في حصار ميافارقين سواته الخاتشاني الامير الارمني فرأى في ذلك الراهب ورطان اهراق الدم لاجل السيد المخلص (٤) .

وكانت السيادة في سورية قد آلت الى الملك الناصر يوسف ابن العزيز ابن الظاهر ابن صلاح الدين . وكان الملك الناصر قد اوفد ابنه العزيز الى معسكر هولاغو ليؤكد خضوعه بعد سقوط بغداد . ولكن هولاغو واجه العزيز باللوم الشديد لأن والده لم يمثل بنفسه ليعفر رأسه أمامه . فاضطر الملك الناصر ان يتودد الى مماليك مصر ويرجو معونتهم .

وتقدم هولاغو يعاونه كل من القادة كتبوغا النسطوري النصراني وبيجو وصنقر وكانت دوقوز خاتون المسيحية ترافق زوجها هولاغو وتشترك في الرأي. فاحتل هولاغو نصيبين وحران والرها. ثم استولى على سروج ومنبج وزحف على

1) *Hayton, Hist. des Croisades, Doc. Arm., II, 169 - 170 ; Grousset, R., Croisades, III, 575 - 574.*
2) *Vartan, (Dulaurier), Journ. Asiatique 1860, 300 - 301.*
3) *Kirakos, 177 - 179 ; Rashid - al - Din, (Quatremère), 330 - 331.*
4) *Vartan, Journ. Asiat., 1860, 294.*

حلب. وكان الناصر قد آثر الصمود في دمشق فشاءت حامية حلب ان تقابل المغول في السهول الشرقية قبل وصولهم الى المدينة ففتكوا بها فتكاً ذريعاً. ووصل المغول الى عزاز فخرج ابن العبري اسقف حلب اليعقوبي الى لقائهم ليقدم احترامه الى هولاغو. وأرسل هولاغو الى تورانشاه نائب السلطنة في حلب يطلب التسليم. فأجابه النائب ليس لكم عندنا الا السيف. فقصف هولاغو المدينة بالمجانيق وبذل السيف في مسلميها. واشترك في قتال حلب كل من هاتون الارمني وبوهيموند السادس امير انطاكية. وابى اهل حارم التسليم فأمر هولاغو بهم فقتلوا عن بكرة ابيهم.

افتيميوس البطريرك الانطاكي : (١٢٦٠ – ١٢٦٨) واحترم المغول سلطة بوهيموند السادس في امارة انطاكية فلم يخترقوا حدودها. ولكنهم طلبوا الى بوهيموند ان يسمح لافتيميوس البطريرك الانطاكي ان يقيم في انطاكية ويمارس سلطته فيها بين ابناء كنيسته الارثوذكسية. فدخلها واقام فيها حتى السنة ١٢٦٥ (١). ولعل السبب في ذلك انه تودد اليهم ورحب بقدومهم وسهّل زواج مارية ابنة ميخائيل الثامن من اباغا ابن هولاغو (٢). والواقع ان المغول كانوا ارحب صدراً من غيرهم في السياسة الدينية فاحترموا جميع الاديان (٣).

دمشق : وخاف اهل حماة وحمص فاستسلموا الى المغول في حلب وفرّ الملك الناصر وبعض انسبائه من دمشق واتجهوا شطر فلسطين فحدود مصر فأوفد اعيان دمشق من قدّم خضوعهم الى هولاغو في حلب. ورضي الخان عنهم وأنفذ كت بوغا وهاتون وبوهيموند على رأس جيش الى دمشق للتثبت من خضوعها. وعين عليها حاكماً مغولياً وقاضياً. ووصل المغول اليها في اول آذار سنة ١٢٦٠ فاستسلمت المدينة وامتنعت حاميتها. فقصف كت بوغا القلعة والابراج بالمجانق فسقطت في السادس من نيسان. فأمر كت بوغا بدك القلعة فهدمت تهديماً.

1) *Rev. Or. Lat. 1894, II, 213.*
2) *Barhebraeus, in Assemani, Bibl. Orient. III, 110 ; Rey, Dignitaires d'Antioche, R. O. L., 1900 - 1901, 148 - 149.*
3) *Chabot, Mar Jaballaha, Rev. Or. Lat., 1894, I, 125.*

وسيَّر كت بوغا قشلق خان على رأس قوة الى فلسطين فامتنعت حامية نابلس فغلبت على أمرها ثم استسلمت فذبحت بحد السيف كلها. وسار قشلق خان من نابلس الى غزة فلم يلق معارضاً. وكان الملك الناصر قد خشي غدر المماليك به فقام من حدود مصر الى ما وراء الاردن. وكان كت بوغا قد قام الى عجلون ليخضعها. فلما وصل الناصر الى البلقاء خانه حرسه الكردي وسلموه الى طلائع جيش كت بوغا. فأرسله هذا الى سيده هولاغو. فاكرمه هولاغو ووعده خيراً بعد الاستيلاء على مصر. ثم استسلمت حاميات بعلبك وبانياس والصبيبة.

وشاع بين النصارى في دمشق ان كت بوغا نصراني مثلهم وان عدداً كبيراً من ضباطه وجنوده نصارى ايضاً فهرعوا الى الشوارع تتقدمهم الصلبان وساروا متظاهرين موجبين احترام الصليب حيثما وصلوا. وقرعوا الاجراس وشربوا الخمر وأقاموا الصلاة المسيحية في بعض المساجد وحولوا مسجداً واحداً الى كنيسة. وشكى المسلمون أمرهم الى كت بوغا فلم يصغ ولم ينصف (١). « وشمخ النصارى بسبب دولة التاتار وتردد ايلسبان وغيره من كبارهم الى كنائسهم. وذهب بعضهم الى الملك هولاغو وجاء من عنده بفرمان لهم اعتناء بهم وتوصية في حقهم ودخلوا به البلد من باب توما وصلبانهم مرتفعة وهم ينادون حولها بارتفاع دينهم واتضاع دين الاسلام ويرشون الخمر على الناس وبأبواب المساجد فركب المسلمين من ذلك هم عظيم » (٢).

ما لم يكن بالحسبان : ومات مونغكة الخان الاعظم في الحادي عشر من اب سنة ١٢٥٩ فتخالف الامراء المغول وتشاقوا فاضطر هولاغو ان يعود الى فارس (١٢٦٠) وان يبقى عند حدودها الشرقية مستعداً متهيئاً للتدخل في النزاع عند الحاجة. ووكل الحكم في سورية والدفاع عنها الى قائده كت بوغا وأبقى تحت تصرفه قوة من الجند لم تتجاوز العشرين او الثلاثين الفاً.

عين جالوت : (١٢٦٠) وأرسل هولاغو قبل قيامه الى فارس رسولا الى قطز سلطان مصر يدعوه الى الطاعة. فأبى قطز وأمر بالرسول فقتل. ثم

1) *Gestes des Chyprois, II, 751, Grousset, R., Croisades, III, 589 - 590.*
٢) الذيل على الروضتين لابي شامة ص ٢٢٨ .

تجهز وتحزم . وفي السادس والعشرين من تموز دخل قائــد بيبرس فلسطين على رأس قوة كبيرة من المماليك والخوارزميين . وانضم الى هؤلاء من بقي من قوات الايوبيين في كرك الشوبك . وأيد الامراء اللاتينيون في فلسطين قطز وقائــده بيبرس .

وبلغ كتبوغا قدوم المصريين وهو في بعلبك . فجمــع من كان في سورية من جنود المغول وانضم اليه فريق من امراء اللاتين والارمن ولكنه اضطر ان يقوم الى دمشق اولا ليؤمن النصارى فيها . فالمسلمون من أبناء دمشق كانوا قــد خربوا الكنائس فيها وأحرقوا مساكن النصارى . « فلما هرب التاتار من دمشق أصبح الناس الى دور النصارى ينهبونها ويخربون ما استطاعوا منها . وفي الغد كانت الكسرة وأخرب المسلمون من كنيسة اليعاقبة وأحرقوا كنيسة مريم حتى بقيت كوماً والحيطان حولها تعمل النار في أخشابها . وقتل منهم جماعــة واختفى الباقون . وجرى عليهم أمر عظيم فاشتفى بعض الاشتفاء صــدور المسلمين » (١) .

وتقدم المصريون في ساحل فلسطين فبلغوا عكة في أواخر آب واستراحوا في ضواحيها . ودخــل بعضهم اليها زائراً متفرجاً . وكان بين هؤلاء بيبرس نفسه . ثم علم المصريون ان كتبوغا عبر الاردن عند بيسان . فقاموا من عكة الى عين جالوت في جنوب بيسان ووصلوا اليها في الثاني من ايلول . وفي اليوم التالي هجم كتبوغا على مقر المصريين ولم يدر بكثرتهم فتراجعوا ثم أحاطوا بــه فحطموا جيشه تحطيماً وأسروه وجاؤوا به الى قطز فتوعد وتهدد . فأمر به قطز فضرب عنقــه .

* * *

١) المرجع نفسه ص ٢٢٨ — ٢٢٩

الفصل الرابع والاربعون

عهد المماليك

المماليك : وأدى توسع المغول واتجاههم نحو الغرب الى فرار عــدد من القبائل التركية من وجههم . والتجأ بعض هؤلاء الى آسية الصغرى واستقروا فيها ودخل البعض الآخر الشرق العربي . وأهم هؤلاء الخوارزميون . ولما جلس الملك الصالح ايوب سابع الملوك الايوبيين على عرش السلطنة في مصر رأى ان يختار لنفسه جنوداً خاصة يثق بهم فابتاع من هؤلاء المتشردين ومن غيرهم عدداً كبيراً جعلهم جيشه الخصوصي . وبنى لهــم ثكنة في جزيرة الروضــة في مياه النيل فعرفوا بالمماليك البحرية نسبة الى « بحر النيل » وكانوا يسمون الحلقة ايضاً لأنهم أحاطوا بسلطانهم وحموه من كل اعتداء . ورتب الصالح لبعض هؤلاء دروساً في الادارة والحرب فتحققت آماله وظهر من بينهم رجــال فاقوا ساداتهم . وفي السنة ١٢٥٠ قام ايبك أحد هؤلاء وقضى على سيده الايوبي واتخذ لنفسه لقب الملك المعز ايبك وأسس دولة المماليك البحرية (١٢٥٠ — ١٣٨١) .

المماليك البحريون

شجر الدر ارملة الصالح ايوب	١٢٥٠	الناصر محمد	١٣٠٩ — ١٣٤٠
المعز ايبك	١٢٥٠ — ١٢٥٧	المنصور ابو بكر	١٣٤٠ — ١٣٤١
المنصور علي	١٢٥٧ — ١٢٥٩	الاشرف كجك	١٣٤١ — ١٣٤٢
الظاهر قطز	١٢٥٩ — ١٢٦٠	الناصر احمد	١٣٤٢
الظاهر بيبرس	١٢٦٠ — ١٢٧٧	الصالح اسماعيل	١٣٤٢ — ١٣٤٥
السعيد بركة خان	١٢٧٧ — ١٢٧٩	الكامل شعبان	١٣٤٥ — ١٣٤٦
العادل سلامش	١٢٧٩	المظفر حاجي	١٣٤٦ — ١٣٤٧
المنصور قلاوون	١٢٧٩ — ١٢٩٠	الناصر حسن	١٣٤٧ — ١٣٥١
الاشرف خليل	١٢٩٠ — ١٢٩٣	الصالح صلاح الدين	١٣٥١ — ١٣٥٦
الناصر محمد	١٢٩٣ — ١٢٩٤	الناصر حسن	١٣٥٦ — ١٣٦١
العادل كتبغا	١٢٩٤ — ١٢٩٦	المنصور محمد	١٣٦١ — ١٣٦٣
المنصور لاجين	١٢٩٦ — ١٢٩٨	الاشرف شعبان	١٣٦٣ — ١٣٧٦
الناصر محمد	١٢٩٨ — ١٣٠٨	المنصور علي	١٣٧٦ — ١٣٨١
المظفر بيبرس	١٣٠٨ — ١٣٠٩	الصالح حاجي	١٣٨١

الملك الظاهر بيبرس : (١٢٦٠ ــ ١٢٧٧) وانقسم الصليبيون بعضهم على بعض . وتحارب البنادقة مع اهل جنوا (١٢٥٧) . وقضى آل باليولوغوس على الامبراطورية الصليبية في القسطنطينية (١٢٦١) .

وعاد الظاهر قطز بعد عين جالوت الى مصر . وفيما هو في طريقه اليها اتفق بيبرس البندقداري مع فريق من المماليك على اغتياله . وقامت ارنب بين يديه فساق عليها فتبعه المماليك المتآمرون . فلما بعدوا تقدم منه مملوك اسمه انص وشفع في شخص فأجابه قطز فأهوى لتقبيل يده فحمل بيبرس على قطز وضربه بالسيف . ثم أعلن نفسه سلطاناً باسم الملك الظاهر بيبرس . ودخل القاهرة (١٢٦٠) فخضع له الأمراء والشعب .

وكان بيبرس طويل القامة مفتول العضل اسمر اللون ازرق العينين قوي الادارة شديد الجرأة عالي الهمة . وكان تركي الاصل ينتمي الى قبيلة القبجاق *Kiptchak* . وقد عرض للبيع في سوق حماة فهالت خشونته اميرها فلم يرغب فيه . فابتاعه الامير بندقدار لسلطان مصر . فعرف بيبرس بالبندقداري (١) .

ولم ترض دمشق عن عمل بيبرس واعترفت بسنجر الحلبي اميراً عليها . فقام بيبرس في السنة ١٢٦١ الى دمشق وقضى على سنجر واعوانه فاستتب له الملك في جميع الاراضي السورية خارج الامارات اللاتينية . وفي السنة ١٢٦٢ شهد جماعة من البدو ان شخصاً اسود اللون اسمه احمد هو ابن الظاهر بالله محمد بن الامام الناصر العباسي عم المستعصم اخر الخلفاء العباسيين في بغداد . فعقد بيبرس مجلساً حضره العلماء واثبت فيه القاضي نسب احمد هذا فبايعه الملك وسائر الامراء بالخلافة وسمي المستنصر بالله . فأضحت القاهرة مقر الخلافة العباسية واكسب بيبرس حكمه صبغة شرعية .

بيبرس والروم : وحالف بيبرس بركة خان امير مغول القبجاق ضد هولاغو صاحب فارس وتودد الى ميخائيل الثامن فسيلفس الروم وقاهر اللاتين في القسطنطينية ورجاه ان يبقي مضيقين مفتوحين له وللقباجقة بني جنسه لتتم الصلة

1) *Sobernheim, Article «Baibars», Encyc. of Islam.*

بين مصر وجنوب روسية عن طريق البحر . وكان خان القباجقة في روسية قد سبق له ان تدخل في شؤون البلقان . فوافق ميخائيل على اقتراح بيبرس وأزوج خان القباجقة من بنت له غير شرعية . وفتح المضايق للمماليك مقابل اقامة بطريرك ارثوذكسي في الاسكندرية (١٢٦٢) . ثم حالف الفسيلفس السلطان المصري للصمود في وجه كارلوس آنجو (١) .

بيبرس والصليبيون : وتهيأ الجو لمحاربة الصليبيين . فقام بيبرس في السنة ١٢٦٣ على رأس جيش قوي وهاجم الناصرة . فاستولى عليها وخرّب كنيستها « وشاهد خرابها وقد سُوي بها الى الارض » . واغار على عكة فغنم في ضواحيها وركب عنها (٢) .

وفي السنة ١٢٦٤ دعا هولاغو جميع امرائه الى اجتماع عام عقده في معسكره بالقرب من تبريز . واشترك في هذا الاجتماع كل من داود ملك الكرج وهاتون ملك ارمينية وبوهيموند امير انطاكية . فأشاد هولاغو بالصداقة المغولية البيزنطية ولام هاتون وبوهيموند على موقفهما من افتيميوس البطريرك الانطاكي . واغلظ وشدد لانهما اكرها هذا البطريرك على الخروج من انطاكية (٣) .

ومات هولاغو في الثامن من شباط سنة ١٢٦٥ وتوفيت زوجته المسيحية في صيف السنة نفسها . فجال بيبرس جولة ثانية واستولى على قيصرية فلسطين في السابع والعشرين من شباط سنة ١٢٦٥ فدك ابراجها وخرب حصونها وأبنيتها . وفي السادس والعشرين من نيسان سقطت ارسوف في يده . ودخل حيفا منتصراً فبطش فيها بطشاً (٤) .

وأنفذ بيبرس في صيف السنة ١٢٦٦ جيشين كاملين احدهما الى عكة وصفد والثاني الى قيليقية وارمينية الصغرى . ولم يقو على عكة فحاصر صفد ودس بين صفوف المحاربين الوطنيين وبوق ان عفوه يشمل الجميع عند الاستسلام .

1) *Dolger, F., Reg., 1902 - 1904, 1919, 1933, 1952, 1964. 1975, 1987, 2018, 2028, 2052.*

٢) المختصر لابي الفدا ج ٣ ص ٢١٧ ــ ٢١٨ .

3) *Rashid al-Din (Quatrmère), 417 - 423; Vartan, 205 - 206; Barhebraeus. 444 - 445.*

4) *Gestes de Chyprois, 171; Estoire d'Eracle, II, 460.*

فاستسلم المحاربون ولكن بيبرس حنث بوعده . وترامى اليه ان سكان قارة بين دمشق وحمص يسرقون المسلمين ويبيعونهم بالخفية من الافرنج فأمر ببعض كبارهم ورهبانهم واخذ صغارهم مماليك وحول كنيستهم الى جامع . ونزع اليه وفد من نصارى عكة يرجون السماح بدفن من سقط منهم خارج اسوارهم فأجابهم : « اذا كنتم تطلبون جثث شهداء فانكم ستجدونهم بين ظهرانيكم » . ثم اندفع الى ساحل البحر وخرّب وقتل وسبى (١) . وقاد الجيش الثاني قلاوون الشهير . وارتكز بادىء ذي بدء الى حمص . وشن منها هجوماً خاطفاً على القليعات وحلبا وعرقة فاستولى عليها وعاد الى حمص . ثم انتقل الى حماه حيث انضم اليها ملكها المنصور . وقاما منها الى حلب فقيليقية . وكان هاتون قد توقع هذا الهجوم فأسرع الى تبريز يطلب معونة ابن هولاغو . وصمد ابنا هاتون لاوون وطوروس في مضايق الامانوس . فتحاشى قلاوون هذه المضايق وانحدر الى قيليقية بطريق سروندكار . وسقط طوروس في ميدان القتال ووقع لاوون في يد قلاوون اسيراً .

سقوط انطاكية: (١٢٦٨) وبعد ان شل بيبرس نشاط ارمينية الصغرى أنفذ جيشاً الى انطاكية وذلك في خريف السنة ١٢٦٦ . ولكن الانطاكيين رشوا القادة فعاد الجيش عن انطاكية بدون قتال . فثار ثائر بيبرس وأنزل العقاب بالمسؤولين فأمر باعدامهم (٢) .

وعاد بيبرس الى عكة في ايار السنة ١٢٦٧ ولجأ الى الخدعة فأمر جنوده برفع الأعلام الصليبية التي أخذت من الهيكليين والاسبتارية فتمكنوا من ملاصقة الأسوار ولكنهم اضطروا الى التراجع واكتفوا بتخريب الضواحي (٣) . وفي أوائل السنة ١٢٦٨ عاد بيبرس الى القتال فاستولى على يافة وخرب أبنيتها ونقل رخام قلعتها وأخشابها الى مصر لبناء جامعه فيها (٤) . ثم حاصر قلعة الشقيف وقصفها بالمجانيق فاستسلمت في منتصف

1) *Gestes de Chyprois, 180 - 181; Estoire d'Eracle, II, 484 - 485.*
2) *Ibn Abd-al-Rahim, Ms., Paris, 1702, 435; Cahen, C., op. cit., 716, n. 13.*
3) *Gestes des Chyprois, 181 - 183,*
4) *Gestes des Chyprois, 190; Magrisi, Sultans, I, 50 - 51.*

نيسان . فسمح للنساء والاطفال بالنزوح الى صور واسترق الرجال (١) . ووصل الى طرابلس في اول ايار فقاتل صاحبها بوهيموند السادس وعاث في ضواحيها مخرباً . ثم انتقل منها الى وادي العاصي .

واستغل بيبرس بقاء بوهيموند في طرابلس فأنفذ جيشه الى انطاكية . وكانت حاميتها بضعة الاف مقاتل فلم تقوَ على حماية جميع أبراجها وأسوارها . وحاول محافظها سمعان مانسل *Simon Mansel* الاغارة على جيش بيبرس فأسر . وكان بيبرس قد احتل السويدية ومضائق بيلان فعزل خصمه عن البحر وعن ارمينية الصغرى . وفي الثامن عشر من ايار ثغر المماليك السور بالقرب من القلعة وتدفقوا منه الى داخل المدينة . وأمر بيبرس بحراسة الأبواب وبالقتل والنهب فلم يسلم سوى بضعة الاف التجأوا الى القلعة . ولدى استسلام هؤلاء جرى بيعهم بأبخس الأثمان نظراً لكثرتهم فبلغ ثمن الصبي اثني عشر درهماً وثمن البنت خمسة فقط . وكومت الحلي الفضية والذهبية أكواماً ووزعت الدراهم على الفاتحين بالكيل لكثرتها (٢) .

ودمرت انطاكية تدميراً والتهمت النيران بعض أحيائها . وخربت كنيسة القديس بولس وكنيسة القديسين قوزمة ودميانوس . وكان العراق وتوابعه قد أصبح مغولياً فتحولت بضائع الشرق عن انطاكية الى اياس في قيليقية . فتضاءلت تجارة انطاكية وقل الاعتناء بها والاهتمام بأمرها وأمست قرية قائمة في وسط خراب كبير . فهجرها رؤساء الدين واتجهوا نحو دمشق مركز السلطة في البلاد .

ثيودوسيوس الرابع : (١٢٦٨ ـ ١٢٧٦) وتوفي افتيميوس الثاني البطريرك الانطاكي في السنة ١٢٦٨ فانتخب الاكليروس الانطاكي ثيودوسيوس الرابع بطريركاً على انطاكية . وفاوض الفسيلفس ميخائيل الرابع بيبرس سلطان

1) *Gestes des Chyprois, loc. cit.; Estoire d'Eracles, II, 456.*
2) *Gestes des Chyprois, 190 - 191; Estoire d'Eracles, II, 456 - 457; Bathebraeus, 448; Magrisi, Sultans, I, 52 - 53; Aini, Perles d'Histoire (Rec. Hist. Crois. Vol. II), 229 - 234.*

المماليك في أمر بطاركة الكرسي الانطاكي . فاعترف السلطان برئاستهم وسمح بانتقالهم من انطاكية الى دمشق (١) . ولم يشترك ثيودوسيوس الرابع في اعمال مجمع ليون ولم يعترف بقراراته (٢) .

ثيودوسيوس الخامس : (١٢٧٦ ــ ١٢٨٥) ثم تولى السدة الانطاكية ثيودوسيوس الخامس احد افراد اسرة فيلهاردوان اللاتينية الحاكمة في آخية . وكان قد تقبل الارثوذكسية وانتمى الى دير الاوذيغس الانطاكي في القسطنطينية ثم زاحم فقس في الوصول الى الكرسي البطريركي القسطنطيني . وكان قد تم الاتحاد بين الكنيستين اليونانية واللاتينية في ليون فأيده ثيودوسيوس وجاء الى كرسيه يبشر به . ولدى وصول اندرونيكوس الثاني الى عرش الفسالسة في السنة ١٢٨٢ وعودة الارثوذكسية الى البلاط الامبراطوري فرّ ثيودوسيوس والتجأ الى صيدا وكانت هذه لا تزال بيد اللاتين (٣) .

ارسانيوس الاول : (١٢٨٢ ــ ١٢٨٣) وأقام الاكليروس الانطاكي ارسانيوس متروبوليت طرابلس بطريركاً على انطاكية . فتمادى في التقرب من الارمن فأسقط اسمه من ذيبتيخة القسطنطينية وأعتبر خارجاً على الكنيسة الجامعة .

ديونيسيوس الاول : (١٢٨٣ ــ ١٣٠٨) واجتمع الاساقفة الانطاكيون لانتخاب بطريرك جديد فأيد بعضهم ديونيسيوس اسقف بومبيوبوليس القيليقي واعترف آخرون برئاسة كيرلس متروبوليت صور (٤) .

عودة المغول : (١٢٩٩ ــ ١٣٠٣) وحقد خلفاء هولاغو على المماليك والمسلمين وجاشت صدورهم بالغل بعد عين جالوت وحمص . فعاهد قازان ابن ارغون الكرج والارمن وعاقد الصليبيين في قبرص وعبر الفرات بجموع عظيمة ثلثهم من النصارى ووصل الى حلب فحماة . ونزل على وادي مجمع المروج . وسارت العساكر الاسلامية بقيادة الملك الناصر الى حمص ثم الى مجمع المروج والتقوا في عصر الثالث والعشرين من كانون الاول بجيش قازان فولت ميمنة

1) *Ecelesia Ierosolemon, Anon., 42.*
2) *Musset, H., op. cit., I, 549.*
3) *Pachymeres, De Andronico Paleologo, I, 19; Echos d'Orient, 1927, 137.*
4) *Le Quien, O. C., Col. 765.*

المسلمين ثم الميسرة وثبت القلب وأحتاطت به التتر وتأخر السلطان الى جهة حمص « فولت العساكر الاسلامية تبتدر الطريق وتمت بهم الهزيمة الى ديار مصر » . واستولى قازان على دمشق وساق في أثر المماليك الى غزة والقدس وبلاد الكرك . وعصت قلعة دمشق فأحرق المغول الدور والمدارس وغيرها من الأماكن الجليلة حولها (١) . ثم نشبت ثورة في فارس فعاد قازان لاخمادها وأبقى في سورية قوة صغيرة . وتخلّى قبجق والي دمشق عن قازان والمغول فسهل عودة المماليك الى البلاد . وفي السنة ١٣٠٣ أطل المغول بقيادة قطلو شاه نائب قازان والتقوا بالمماليك في مرج الصفر في العشرين من نيسان . واشتد القتال فهزم المغول وقُتل منهم خلق كثير (٢) .

الشيعة والدروز والنصارى : (١٢٨٣ ــ ١٣٠٥) وبات الصليبيون تعابى وظهرت عليهم دلائل الجهد فخشي سكان التلال اللبنانية بين بيروت وطرابلس من الدروز في المتن وأهل الشيعة في كسروان والنصارى والنصيرية في جرود طرابلس استئثار المماليك بالقوة والسلطة فهبوا لمعونة الصليبيين بشتى الوسائل فأبو الفداء يقول انهم كانوا « يقطعون الطرق ويخطفون المسلمين ويبيعونهم للكفار » (٣) . وجاء للبطريرك الدويهي عن حاشية في كتاب صلاة قديم تعود الى السنة ١٢٨٣ ان العساكر الاسلامية سارت في شهر ايار من هذه السنة في وادي حيرونا فحاصرت اهدن وملكتها بعد اربعين يوماً وخربت القلعة في وسطها والحصن الذي على رأس الجبل ثم افتتحت بقوفا وقبضت على أكابرها وأحرقتهم في بيوتهم وأعملت السيوف بأهل حصرون وكفرسارون . وزحفت في الثاني والعشرين من آب الى الحدث فهرب اهلها الى العاصي وهي مغارة منيعة فقتلت العساكر من ادركته منهم وخربت الحدث تخريباً (٤) .

وروى الاهدني تحت تاريخ السنة ١٢٨٧ ان الكسروانيين (الشيعة)

١) المختصر لابي الفدا ج ٤ ص ٤٢ ــ ٤٣
٢) المرجع نفسه ج ٤ ص ٤٨ ــ ٤٩
٣) كتاب المختصر ج ٤ ص ٥٢
٤) تاريخ سوريا للمطران يوسف الدبس ج ٣ ص ٣٦٤ ــ ٣٦٥ .

والجرديين (الدروز) نزلوا من الجبال لنجدة الافرنج في اثنـــاء حصار طرابلس فقتلوا من عسكر السلطان خلقاً كثيراً . فأمر نائب دمشق بجمع العساكر لاستئصال هؤلاء . وكتب الى امراء غرب بـــيروت ان يتوجهوا بعساكرهم الى كسروان والجرد « وان من نهب امرأة كانت له جارية او صبياً كان له مملوكاً ومن احضر منهم رأساً فله دينار » . وفي السنة ١٢٩٢ قصد الامير بيدرا قائـــد السلطنة في مصر جبال كسروان . وبعد ان وصل اليها « انثنى عزمه وانكسر حزمه فتمكن الكسروانيون في بعض العسكر في الاوعار ومضايق الجبال فنالوا منهم » فاضطر الامير بيدرا ان يطيب القلوب ويخلع الخلع . فاشتط الكسروانيون في الطلب فأجابهم الى ما التمسوه وافرج عن جماعة منهم كانوا قد اعتقلوا في دمشق لذنوب وجرائم صدرت منهم (١) .

وفي السنة ١٣٠٢ نزل الافرنج عند نهر الدامور فقتل الامـــير فخرالدين التنوخي وأسر اخوه شمس الدين فافتداه ناصرالدين الحسين بثلاثـة الاف دينار . فرفعت الشكاوي الى نائب دمشق الافرم من الجرديين واهل كسروان . فحشد النواب الجيوش لمقاتلة الجرديين والكسروانيين. فنزل ثلاثون مقدماً من كسروان بثلاثين الفاً وكمنوا عند نهر الفيدار ونهر المدفون فهزموا الجيش السلطاني واهلكوا اكثره وغنموا امتعة واسلحة واستولوا على اربعة الاف رأس من الخيل . وغزا الجرديون التنوخيين فاحرقوا عين صوفر وغيرها من بلاد الغرب (٢) .

ونقـــل صالح ابن يحي عن الحريري والصلاح الكتبي ان اهل كسروان كـــثروا وطغوا واشتدت شوكتهم وتطاولوا الى اذى العسكر واغضى السلطان عنهم فزاد طغيانهم واظهروا الخروج من الطاعة . ففاوضهم نائب دمشق جمال الدين الافرم في الرجوع الى الطاعة فأبوا . فافتى العلماء بنهب بلادهم . فجرد النواب خمسين الفاً. فجمع الدروز رجال الجرد وكانوا عشرة امراء بعشرة الاف مقاتل. والتقت الجموع عند عين صوفر فجرى قتال شديد ودارت الدائرة على الدروز . فهرب الامراء والتجأوا الى كهف نابيه ودافعوا عن انفسهم. فبذل لهم الامان فلم

١) تاريخ بيروت لصالح ابن يحيى ص ٢٩ ــ ٣١ .
٢) للاهوتي كما نقله الدبس : ج ٣ ص ٣٦٨ ــ ٣٦٩ .

يخرجوا . فأمر نائب دمشق بســد الكهف ! وصعد اسندمر نائب طرابلس الى كسروان فقطع وخرب وقتل وتفرق الباقون من الشيعة في البلاد (١) .

الغيوريون والمعتدلون: وكان قد قام في الكنيسة منذ عهد ثيودوروس الاستوديتي في القرن التاسع من قـــاوم تدخل الفسيلفس والحكومة في شؤون الكنيسة بل من قال بوجوب تقيد الفسيلفس بالانظمة الاكليريكية . وكانت غيرة هؤلاء على الكنيسة قد اشتدت الى درجة أدت بهم الى اللجوء الى العنف في سبيل الدفاع عن حرية الكنيسة واستقلالها . ولم يتطلب هؤلاء الغيورون *Zelotai* من الاكليروس علماً وافراً او ذكاء مفرطاً ولكنهم أوجبـــوا عليهم سيرة طاهرة وتقشفاً صارماً . فنالوا اعجاب الرهبان وتأييدهم في غالب الأحيان . وكان من الطبيعي جداً ان يقول غيرهم من أبنـــاء الكنيسة بالتعاون بين الدولة والكنيسة . وهؤلاء هم المعتدلون *Politikoi* وأصر هؤلاء على وجوب تضلـــع الاكليروس العالي من العلوم الدينية والزمنيـــة ليحسنوا الدفاع عن الكنيسة جمعاء ويحفظوا حريتها (٢) .

ووقف الغيورون الى جانب البطريرك ارسانيوس في نزاعه مع الفسيلفس ميخائيل الثامن فعرفوا بالارسانيوسيين . وقضت ظروف ميخائيـــل السياسية باتحاد الكنيستين كما مر بنا فضجّ الغيورون وأعلنوا سخطهم ومقاومتهم . وجاء اندرونيكوس الثاني الفسيلفس فألغى الاتحاد. وسيطر الغيوريون على الاكليروس وهيمنوا على البطريركية المسكونية .

الصامتون : وشاع في القرن الرابع عشر في بعض الأديار انعزال عن عالم المادة وانعكاف على التأمل واتصال بالخالق عن طريق الصلاة عُرف بالزهد الصامت *Hesychia* . وأشهر من قال بالصمت التام والتأمل الكامل غريغوريوس بالاماس *Palamas* متروبوليت ثسالونيكية . وكان قد اشتهر بتقشفه عندما قدّم النذر في آثوس . وكاد ينسحب من ثسالونيكية لينفذ ما قال به عندما فوجيء

١) بيروت لصالح ابن يحيى ص ٣١ ــ ٣٤ .
2) *Nicephorus Gregoras, Historia, VI, 1, 7; Pachymeres, De Andronico, IV, 12; Lebedev. A., Historical. Essays; 296 - 297.*

بشغب احدثـه الراهب برلام في جبل آثوس (١) . وبرلام هذا راهب يوناني ايطالي أمّ تسالونيكية واقـام فيها . فاستمع لاقوال بالاماس رئيس اساقفتها وجادله فيها وملأ المدينة ضجيجاً (١٣٣٣ ــ ١٣٣٩) . ثم قام الى افينيون ليفاوض بنديكتوس الثاني عشر باسم اندرونيكوس الثالث الفسيلفس في امر حملـة صليبية ضد الاتراك . ولدى عودته من افينيون اطلع على رسالـة النور الالهي التي كان بالاماس قد اعدها في غيابه فكتب في دحضها (٢) . ثم قام الى القسطنطينية يشكو بالاماس الى البطريرك المسكوني يوحنا كاليكاس *Calecas* . واثار ضجة في العاصمة فاضطر البطريرك ان يدعو بالاماس الى المثول امام المجمع . وترأس اندرونيكوس الثالث المجمع القسطنطيني في العاشر من حزيران سنة ١٣٤١ . ومـا ان افتتحت الجلسة حتى أعلن الفسيلفس ان أمر البت في العقيدة منوط بالاساقفة وحدهم وانه ليس على برلام الا ان يعتذر للرهبان عما صدر عنه (٣) . فعاد برلام الى الغرب فاذكى نار الشقاق فاستمرت طويلا (٤) .

وظلت المشادة قائمة حول موقف بالاماس من النور الالهي فدعا البطريرك يوحنا الرابع عشر (كاليكاس) الى مجمع جديد في السنة ١٣٤٥ فقضى بالحكم على بالاماس وحبسه (٥) . ولـمـا استولى يوحنا السادس على عرش القسطنطينية (١٣٤٧ــ١٣٥٥) أنزل البطريرك يوحنا الرابع عشر عن عرشه لتآمره وأحل محله ايسيدوروس مرشح الصامتين . فدعا البطريرك الجديد الى مجمع ثالث في السابع والعشرين من ايار سنة ١٣٥١ فخرج بالاماس ظافراً وانتصر الصامتون (٦) .

اغناطيوس الثاني : (١٣٤٢ ــ ١٣٥٣) وتولى السدة الانطاكية بعـد ديونيسيوس البطريرك مرقس . وطالت رئاسته اربعاً وثلاثين سنة (١٣٠٨ــ١٣٤٢)

1) Jugie, M., Palamas, Dict. Théol. Chrét., XI, Col. 1735 - 1818.
2) Krumbacher, K., Gesch. Byz. Litt., 103 - 105.
3) Tafrali, O., Thessalonique au XIV, Siècle, 188 - 191 ; Uspensky, Th., Byz. Civ., 336 ; Miklosich et Muller, Acta, I, 201 - 202.
4) Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 665 - 670 ; Brehier, L., Byzance, 433 - 434.
5) Tafrali, O., op. cit., 194 ; Guilland, R., Essai sur Nicéphore Gregoras (1926), 28 - 29.
6) P. G., Vol. 151, Col. 718 - 719 ; Vasiliev, A. A., Byz Emp. 669 - 670 ; Gelzer, A., Abriss der Byz. Kaisergesch., 1059 - 1060.

وجاء بعـده اغناطيوس الثاني . ولم يرض عن بالاماس وقوله في النور الالهي فاشترك في اعمـال مجمع القسطنطينية في السنة ١٣٤٤ ووافق على شجب بالاماس وسجنه وأصدر طوموساً بطريركياً ضده . لكن باخوميوس متروبوليت دمشق خاصمه فاضطر ان يلجأ الى قبرص فترة من الزمن وتوفي فيهـا سنة ١٣٦٦ . وأوفد في السنة ١٣٥١ ارسانيوس متربوليت صور ليمثله في مجمع القسطنطينية فكان ارسانيوس من المعارضين لبلاماس واحتج على تدخل الفسيلفس في شؤون الكنيسة وأحدث ضجة في المجمع (١) .

باخوميوس الاول : وأيـد باخوميوس الصامتين فانتصر بانتصار بالاماس وتولى الرئاسة مدة نجهلها . ولعله ظل جالساً حتى السنة ١٣٦٨ او ١٣٧٠ كما جاء في مصنف لوكيان (٢) . وفي السنة ١٣٧٠ أيد بعض المطارنة الانطاكيين ارسانيوس متربوليت صور في موقفه من بلاماس وانتخبوه بطريركاً على انطاكية وأجلسوه على السدة ولكنه خلع بعد فترة قصيرة واذا ما قدمنا باخوميوس الاول على ميخائيل الثاني وخالفنا بذلك ترتيب البطريرك قسطنديوس سهل علينا التوفيق بين ترتيبه وبين ترتيب لوكيان وتقاربت تواريخ الرئاسة .

ميخائيل الثاني : (١٣٧٠ ــ ١٣٨٦) ويرى البطريرك قسطنديوس ان ميخائيل الثاني تولى الرئاسة ست عشرة سنة وان باخوميوس عاد الى الكرسي بعـد وفاة ميخائيل في السنة ١٣٨٦ وبقي فيه حتى السنة ١٣٩٣ . ثم يذكر قسطنديوس البطريرك نيلوس ويحدد سنوات رئاسته فيجعلهـا تبتدي في السنة ١٣٩٣ وتنتهي حوالي السنة ١٤٠٠ . وجـاء للبطريرك ميخائيل الثالث ان باخوميوس تولى الرئاسة ثلاث مرات (١٣٥٩ و١٣٧٥ و١٣٧٨) وان نيلوس او نيقون ابتدأ في السنة ١٣٨٧ وانتهى في السنة ١٣٩٥ (٣) .

1) Meyendorff, J., Introduction à l'Etude de Grégoire Palamas, (1959), 145 - 146.
2) Le Quien, O. C., Col. 767.
3) Patrologie Orientale, XXII, 29 f.

المماليك البرجيون

الظاهر برقوق	١٣٨٢ – ١٣٩٢	الاشرف اينال	١٤٥٣ – ١٤٦٠
الناصر فرج	١٣٩٢ – ١٤٠٥	المؤيد احمد	١٤٦٠
المنصور عبد العزيز	١٤٠٥ – ١٤٠٦	الظاهر خشقدم	١٤٦١ – ١٤٦٧
الناصر فرج	١٤٠٦ – ١٤١٢	الظاهر يلباي	١٤٦٧
العادل المستعين	١٤١٢	الظاهر تمربغا	١٤٦٨
المؤيد شيخ المحمودي	١٤١٢ – ١٤٢١	الاشرف قايتباي	١٤٦٨ – ١٤٩٦
المظفر احمد	١٤٢١	الناصر محمد	١٤٩٦ – ١٤٩٨
الظاهر ططر	١٤٢١	الظاهر قانصوه	١٤٩٨ – ١٥٠٠
الصالح محمد	١٤٢١ – ١٤٢٢	الاشرف جنبلاط	١٥٠٠
الاشرف برسباي	١٤٢٢ – ١٤٣٨	العادل طومان	١٥٠١
العزيز يوسف	١٤٣٨	الاشرف قانصوه	١٥٠١ – ١٥١٦
الظاهر جقمق	١٤٣٨ – ١٤٥٣	الاشرف طومان باي	١٥١٦
المنصور عثمان	١٤٥٣		

تيمورلنك : (١٤٠٠ – ١٤٠١) وأعلن تيمورلنك نفسه خاناً في السنة ١٣٧٠ وأخضع لسلطته خراسان واصفهان واجتاح بلاد فارس والعراقين والجزيرة . وقصد الهند سنة ١٣٩٧ وأنزل بها الوبال . واتجه في السنة ١٤٠٠ نحو سورية . فأمر الملك الناصر فرج النواب والحكام ان يتوجهوا الى حلب ويجتهدوا في دفع تيمورلنك. واستولى تيمورلنك على عين تاب وأرسل مرسوماً الى النواب في حلب ان يطيعوا أوامره ويخطبوا باسمه . فقتل سودون نائب الشام هذا الرسول. واستولى تيمورلنك على حلب وقطع عنق سودون وقتل جماً غفيراً ونهب وأحرق. ثم بلغ المعرة « فجفل أهل دمشق وتشتتوا » وقصد بعضهم قلعة ارصون وقلعة الشقيف . ورحب أهل حماة بتيمور ثم وثبوا على نائبه فرجع اليها وقتل ونهب وأحرق . ولما بلغ الى حمص استجلب خاطره عمر ابن الرواس فعف عن أهلها . ونزل على بعلبك فأرسل فيهم جوارح النهب والاستئصال .

وبلغت عساكر الملك الناصر الى دمشق وبلغ تيمور اليها ففر الملك الناصر والتجأ الى لبنان واختبأ في قلعة نيحا . فأحاط تيمور بدمشق وقتل أعيانها وسبى نساءها . وأحرق الجامع الأموي وكان فيه جم غفير من النساء والاطفال . وأخرب المساجد والمدارس ودك القلعة . وأسر كثيرين من أصحاب الحرف والصناعات وأبعدهم الى سمرقند (١) .

١) عجائب المقدور في اخبار تيمور لشهاب الدين الانصاري المعروف بابن عرب شاه

الجراد والبدو : ولم يخرج تيمور من دمشق حتى جاءها الجراد . فغطى وجه السماء وارتعى الأخضر وباض في أرضها وفقس . فاشتد الغلاء وخفتُ الناس من الجوع وانكسر طرفهم . وشره البدو الى المكاسب الدنيئة وأقبلوا ناشرين الاذن ومادين الاعناق فانزلوا بالناس « ما لا يستحله عباد النار والاوثان » (١) . وجاء الوباء ثالثة الاثافي وثقلت وطأته حتى بقي الموتى بدون دفن .

ميخائيل الثالث : (١٣٩٥ – ١٤١٢) وفي السادس من شباط سنة ١٣٩٥ تسلّم ميخائيل الثالث عكاز الرعاية . وأرسل رسالة الجلوس الى زملائه فاذا به يوافق بالاماس والصامتين . وجاء تيمورلنك في السنة ١٤٠٠ فاضطر ميخائيل ان يغادر دمشق الى قبرص . ونهبت « بدلاته وعدته الكنسية وماله » ودوّن في قبرص صفحات قليلة في تاريخ بطاركة انطاكية في النصف الثاني من القرن الرابع عشر وقد حفظها للتاريخ بولس ابن الزعيم (٢) .

وروى قسطنديوس القسطنطيني ان باخوميوس الثاني خلف ميخائيل الثالث وان مدة رئاسته كانت سنة واحدة وان يواكيم الثاني جاء بعده فرعى المؤمنين خمسة عشرة سنة اي حتى السنة ١٤٢٦ . ويذكر البطريرك القسطنطيني مرقس الثالث بعد يواكيم فيجعل مدة رئاسته عشر سنوات (١٤٢٦–١٤٣٦) (٣).

دوروثيوس الثاني : (١٤٣٦ – ١٤٥١) وهو اسقف ذينه (صيدنايا) رقي العرش الانطاكي في السنة ١٤٣٦ وجاهد في سبيل الأرثوذكسية فراقب مجمع فراري بممثليه مرقس متروبوليت افسس واسيدوروس متروبوليت كييف. واشترك في أعمال مجمع اوروشليم في السنة ١٤٤٤ ومجمع القسطنطينية في السنة ١٤٥٠ ؟ . وسنذكر ذلك بالتفصيل عند الكلام عن مجمع فراري .

وخلف دوروثيوس الثاني بموجب رواية قسطنديوس القسطنطيني ميخائيل الرابع (١٤٥٤ – ١٤٦٢) فمرقس الرابع (١٤٦٢ – ١٤٧٦) فيواكيم الثالث

١) تاريخ بيروت لصالح ابن يحيى ص ٢٠١ وابن اياس ج ١ ص ٣٣٥
2) *Radu, B., Patrologie Orientale, XXII, 29 - 30.*
3) *Constantius, Patriarchs of Antioch, Neale, op. cit., 178.*

(١٤٧٦ ـ ١٤٩٣) فغريغوريوس الثالث (١٤٩٣ ـ ١٥١١) .

ميخائيل الرابع : (١٤٥١ ـ ١٤٩٧) ولا نعلم المراجع التي أخذ عنها البطريرك قسطنديوس. ولكنه جاء لمكاريوس ابن الزعيم وبولس ابن الزعيم انه لدى وفاة دوروثيوس اجتمع أعيان دمشق ونادوا بمرقس اسقف صيدنايا بطريركاً وان يواكيم متروبوليت بصرى وكيرلس متروبوليت بيروت ومرقس متروبوليت الحصن ويوحنا متروبوليت افخيته وافرايم متروبوليت حماة وميخائيل اسقف الزبداني ويواكيم اسقف يبرود ومكاريوس اسقف قارة وارسانيوس اسقف عكة أشتركوا في تنصيبه وان بطريركيته دامت ستاً واربعين سنة وانه توفي في السنة ٧٠٠٦ للخليقة (١٤٩٧) وان دوروثيوس الصابوني خلفه وان رئاسة هـذا دامت ستاً وعشرين سنة (١) .

الشماس موسى الجبيلي : ويغفل بعض الآباء الغربيين في الشرق البحث والتنقيب ويهملون مراقبته فيتغنون بخدمات الشماس موسى الجبيلي ويقولون « انه عمل على اتحاد الكنائس فصادفت أقواله قبولا لدى مرقس البطريرك الاسكندري والبطاركة الانطاكيين ميخائيل الرابع ومرقس الرابـع ويواكيم الثالث وان مرقس الرابع أعاد اسم البابا الى الذيبتيخة الانطاكية وان يواكيم الثالث ذهب الى القدس وعمل مع مرقس الاسكندري على اقناع زميلها البطريرك الاوروشليمي بالرجوع الى الاتحاد سنة ١٤٥٧ وان هؤلاء البطاركة الثلاثة فوضوا موسى الجبيلي ايصال وثائق اتحادهم الى الحبر الاعظم وان موسى وقع صك الاتحاد بالنيابـة عنهم في ٢١ نيسان سنة ١٤٦٠ وان بيوس الثاني امر بتدوين ذلك في كتاب احمر الجلدة لا يزال محفوظاً في المكتبة الفاتيكانية » . ويضيفون أن هذا الاتحاد استمر حتى السنة ١٥١٦ سنة الفتح العثماني وان العلاقات مع الغرب أصبحت ممتنعة عملياً فأخذ نفوذ القسطنطينية يتزايد والاتحاد يتناقص (٢) .

1) *Vat. Arab. 689, Fol. 127 ; Pat. Or., XXII, 33 ; Nasrallah, J., Chronologie des Patriarches d'Antioche, Proche - Orient., 1957, 26.*

٢) الكنيسة الملكية للاب يوسف الشماس المخلصي (١٩٤٩) ج ٢ ص ١٣٦ ـ ١٣٧ ومختصر طائفة الروم الملكيين لمجهول (بيروت ١٨٨٤) ص ١٧ .

ويعنى علماء الكنيسة اللاتينية بتاريخ الكنيسة ويصدرون بين السنة ١٩٤٧ والسنة ١٩٥٦ سبعة عشر مجلداً باشراف فليش ومارتان . ويتولى روجه اوبيناس *Aobénas* الاستاذ في كلية الحقوق في ايكس بروفانس كتابة الفصل عن بيوس الثاني فيهمل ذكر موسى الجبيلي وعمله العظيم ويكتفي بالقول انه لمناسبة سقوط القسطنطينية واهتمام بيوس الثاني بصليبية جديدة امّ رومة من الشرق عـدد من السفراء الكاذبين الذين ادعوا انهم يمثلون بلدانهم فأضاعوا المصلحة العامـة بعجرفتهم وغموضهم (١) ولعله يرى موسى أحد هؤلاء .

وكان الاب موسه قـد طرق الموضوع نفسه في السنة ١٩٤٨ في كتابه تاريخ النصرانية فدون أخبار موسى الجبيلي ولكنه احتاط فأشار الى موقف العالم الالماني فون باستور من هذه الرواية (٢) . اما فون باستور فانه يرى ان بيوس الثاني نفسه شك في صدق موسى وفي صحة الوثائق التي قدمها فامتنع عن أية اشارة الى هذا الحادث الذي لو صح لكان جليلا (٣) .

المماليك والكنيسة : وعمل المماليك ببعض النصوص الشرعية القديمة وباجتهادات بعض الفقهـاء فضيقوا على النصارى واوجبوا الحد من نفوذهم . في السنة ١٢٧٧ «هدم شيخ الملك الظاهر كنيسة النصارى بالقدس وقتل قسيسها بيده وعملها زاوية وهدم كنيسة الروم بالارسكندرية وهي كرسي كنائسهم يعتقدون بها البتركة ويزعمون انرأس يحي ابن زكريا عليهما السلام فيها وجعلها مسجداً وسماها المدرسة الخضراء » (٤) . وفي السنة ١٣٦٤ « ورد الخبر بمنازلة الفرنج مدينة الاسكندرية فتتبعت النصارى وأحضر البطريق والنصارى والزموا بحمل اموالهم لفكاك اسرى المسلمين . وكتب بذلك الى البلاد الشامية » (٥) . وفي السنة ١٤٤٢ « ختم على كنائس النصارى الملكيين في مصر لانـه وجد داخلها اعمدة كدان من الحجارة المنحوتة واكتاف جدد وحصل على جميع اهل الطوائف من اهل الذمة من الاهانة

1) *Aubenas, R., Pie II, Fliche et Martin, XV, 61.*
2) *Musset, H., Hist. du Christ., II, 26, 55.*
3) *Pastor, L., Gesch. der Papste, III, 234 - 236.*

٤) نهاية الارب للنويري باريس رقم ١٥٧٨ ج ٢٩ ص ٩٨

٥) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي باريس رقم ١٧٢٧ ص ٤٦ ـ ٤٧

والتغريم ما لا مزيد عليه » (١) . وفي السنة ١٤٤٧ « امر السلطان بهـدم كنيسة النصارى الملكيين التي بقصر الشمع في مصر وامر ببيع انقاضها وان يعمر بثمنها المسجد القديم الذي كان بجانبها . وجعل كرسي البطريرك منبراً . واخذت جميع عددهـا من زجاج ونحاس وجعلت في الجامع » (٢) . وفي السنة ١٤٤٨ « توفي السيد احمد بن حسن بن علي الشافعي الشهير بالنعماني . وكان نقمة على اهل الذمة في ما يجددونه في كنائسهم . وقال لي صاحبنا الشيخ برهان الدين النعماني انه اسلم على يده ثمانون كافراً وانه لم يبق في قصر الشمع ولا في الجيزة ولا في المدينة كنيسة لليهود ولا للنصارى الا وقـد شملها من السيد اما هدم واما بعض هدم واما ازالة منبر او قونوة وهي الاخشاب التي تصنع فيها التماثيل او ازالـة حجاب وهي المقاصير التي تجعل على الهياكل » (٣) . وفي ايـام السلطان الملك الظاهر جقمق « جهز خاصكياً اسمـه اينال باي فحضر الى القدس الشريف بمرسوم من الملك الظاهر بالكشف على الديارات وبهدم مـا استجد بدير صهيون وغيره وانتزاع قبر داود عليه السلام من النصارى . فهدم البناء المستجد بصهيون واخرج قـبر داود من ايدي النصارى ونبشت عظام الرهبان المدفونين بالقبو الذي به قبر داود. واخرج المسجد من دير السريان وسلم للشيخ محمد المثمر وصار زاوية . وهدم البناء المستجد ببيت لحم وبالقمامة (القيامة) وقلع الدرابزين الخشب المستجد بالقمامة واخذ الى المسجد الاقصى بالتكبير والتهليل . وكشفت جميع الديارات وهدم مـا استجد بهـا . وكان ذلك في اواخر عمر السلطان فختم الله اعماله بالصالحات وازالة الديارات المنكرات » (٤) .

ايمان النصارى : والايمان جمـع اليمين أي القسم . وكانت تطلب من النصارى في اوقات الهدى والمصالحات ويحلّف بهـا بعض قواد البحر والرسل الواردين للموادعة والموافقة (٥) . ونقل القلقشندي في كتابه صبح الاعشى عن

١) انباء الغمر بانباء العمر لابن حجر العسقلاني باريس رقم ١٦٠٢ ص ٢٦١
٢) التبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوي ص ١٨٠ – ١٨٢
٣) التبر المسبوك ايضاً ص ٢٢٧ - ٢٢٨
٤) الانس الجليل لمجير الدين الحنبلي ص ٤٤٣ — ٤٤٤
٥) الروم الملكيون في الاسلام لحبيب الزيات ج ١ ص ٤٥

محمد ابن عمر المدائني ان اصل ترتيب ايمان النصارى كان في زمان الفضل ابن الربيع وزير الخليفة هارون الرشيد وحكى عن بعض كتاب العراق فقال :

« اراد الفضل ابن الربيع ان يستحلف عوناً كاتبه النصراني فلم يدر كيف يستحفله فقلت ولني استحلافه قال دونك فقلت له : احلف بالهك الذي لا تعبد غيره ولا تدين الا له . والا فخلعت النصرانية وبرئت من المعمودية . وطرحت على المذبح خرقة حيضة يهودية وقلت في المسيح ما يقوله المسلمون : « ان مثـل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » . والا فلعنك البطريرك الأكبر والمطارنة والشمامسة والقمامسة والديرانيون واصحـاب المجامع عند مجتمع الجنـائز وتقريب القربان وبما استغاثت به النصارى ليسوع . والا فعليك حرم الثلثمائة وثمانية عشر اسقفاً الذين خرجوا من نيقية حتى اقاموا عمود النصرانية . والا فشققت الناقوس وطبخت به لحم جمل وأكلته يوم الاثنين مدخل الصوم ورميت الشاهد بعشرين حجراً جاحداً بها وهدمت كنيسة لدّ وبنيت بهـا كنيسة اليهود وخرقت غفارة مريم وكهنونة داود . وانت حنيف مسلم . وهذه اليمين لازمة لك ولعقبك من بعدك » (١) .

تواقيع البطاركة : والتوقيع في عهـد المماليك هو البراءة . واقـدم البراءات براءة البطريرك داود الخوري الانطاكي . وقد سبقت الاشارة اليه والى تقربه من رومة وخضوعه لحبرها . واليك نصها كما حفظه القلقشندي :

الطـــرة

توقيع كريم بأن يستقر البطريرك المحتشم المبجل داود الخوري
المشكور بعقله لدى الملوك والسلاطين
وفقه الله تعالى بطريرك الملكية بالمملكة الشريفة الشامية المحروسة
حسبما اختاره اهل ملته المقيمون بالشام
المحروس ورغبوا فيه وكتبوا خطوطهم به وسالونا تقريره دون غيره
حسبما رسم به على ما شرح فيه

رسم بالامر لا زال يعز بالالتجاء الى حرمه من يأوي اليـه ويقصد عدله من اهل الملل ويعتمد

١) صبح الاعشى للقلقشندي ج ١٣ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ . راجع ايضاً رسالة الزيات المشار اليها ص ٤٦ — ٥٢ .

عليه ان يستقر فلان وفقه الله بطريرك الملكيــة بالمملكة الشامية المحروسة حسبا اختاره اهل ملته المقيمون بالشام المحروس ورغبوا فيه وكتبوا خطوطهم به وسألوا تقريره في ذلــك دون غيره . انه هو كبير ملته . والحاكم عليهم ما امتد في مدتــه . واليه مرجعهم في التحريم والتحليل . وفي الحكم بينهم بما انزل الله تعالى في التوراة ولم ينسخ في الانجيل . وشريعته مبنية على المسامحــة والاحتمال والصبر على الاذي وعدم الاكتراث به والاحتفال . فخذ نفسك بالاول بهذه الآداب . واعلم بانك في المدخل الى شريعتك طريق الى الباب . فتخلق من الاخلاق بكل جميل . ولا تستكثر من متــاع الدنيا فانه قليل . وقدم المصالحة بين المتحاكين اليك قبل الفصل البت فان الصلح كــما قيل سيد الاحكام . وهو قاعدة دينك المسيحي ولم تخالف فيه المحمدية الغراء دين الاسلام . ونظف صدور اخوانك من الغل ولا تقتنع بما ينظفه ماء المعمودية من الاجسام .

واليك الامر في البيع وانت رأس جماعتك والكل لك تبع . فاياك ان تتخذها لك تجارة مربحة او تقتطع بها مال نصراني يقربه . فانه ما يكون قد قربه الى المذبح وانما ذبحه . وكذلك الديارات والقلالي . يتعين عليه ان يتفقد فيها كل أمر في الايام والليالي . وليجتهد في اجراء امورها على مــا فيه دفع الشبهات . ويعلم انهم انما اعتزلوا فيها للتعبد فلا يدعها تتخذ منتزهات . فهم انمــا احدثوا هذه الرهبانية للتقلل في هذه الدنيا والتعفف عن الفروج . وحبسوا فيها انفسهم حتى ان اكثرهم اذا دخل اليها مــا يعود يبقى له خروج . فليحذرهم من عملها مصيدة للمال او خلوة له ولكن بالنساء حراماً ويكون انما تنزه عن الحلال . واياه ثم اياه ان يؤوي اليه من الغرباء القادمين عليه من يريب . او يكتم عن الانهاء الينا مشكل امر ورد عليــه من بعيد او قريب . ثم الحذر الحذر من اخفاء كتاب يرد اليه من احد من الملوك . ثم الحذر الحذر من الكتابة اليهم او المشي على هذا السلوك : وليتجنب البحر واياه من اقتحامه فانه يغرق او تلقي ما يلقيه اليه جناح غراب منه فانه بالبين ينعق .

والتقوى مامور بهــا اهل كل ملة وكل موافق ومخالف في القبلة . فليكن عمله بها . وفي الكتابة ما يغني عن التصريح . وفيها رضي الله تعالى وبها أمر المسيح (١) .

ونقل القلقشندي (٢) توقيعاً سلطانياً ثانياً وجهــه السلطان الى البطريرك الانطاكي ميخائيل اما الثاني او الثالث لأنه بين وفاة العمري ناسخ وصية البطاركة التي تضمنها التوقيــع السابق (١٣٤٨) وسنة فراغ القلقشندي من كتابة صبح الاعشى (١٤١٢) قام على الكرسي الانطاكي بطريركان تسمى كل منهــما باسم ميخائيل (٣) . وأهم ما يلفت النظر في هــذا التوقيع السلطاني خلوه من الاشارة الى الباب أي البابا . ولا غرو فداود انفرد بخضوعه لرومة ولم يرد اسمه في لوائح البطاركة الارثوذكسيين . وهذا هو نص التوقيع الثاني :

١) صبح الاعشى للقلقشندي ج ١٢ ص ٢٤٦ – ٢٤٧
٢) المؤلف نفسه ج ١٢ ص ٤٢٤ – ٤٢٦
٣) الروم الملكيون في الاسلام لحبيب الزيات ص ٥٨

اما بعد حمد الله الذي جعلنا نشمل كل طائفة بمزيد الاحسان ونفيض من دولتنا الشريفة على كل بلد اطمئناناً لكل بلد وايمــان . ونقر عليهم من اختاروه وتراعيهم بمزيد الفضل والامتنان . والشهادة بأن الله الذي لا اله الا هو الواحد الذي ليس في واحدانيته قولان . والفرد المــنزه عن الجوهر والاقنوم والوالد والولد والحلول والحدثان. شهادة اظهر اقرارها اللسان وعمت بها الجوارح والاركان . والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله المبعوث الى كافة الملل والانس والجان . الذي بشر بــه عيسى وآمن به موسى وأنزل عموم رسالته في التوراة والانجيل والزبور والفرقان . فصح النقل بنبوته وآدم في الماء والطين واوضح بذلك البرهان . وعلى آله وصحبه الذين ساروا باخلاص الوحدانية وشادوا اركان الملة المحمدية واعزوا الايمان وازالوا الطغيان . صلاة ينفح طيبها ويفصح خطيبها ويفرح بها الرحمن .

فان اولى من اقتناه بطريركاً على طائفة النصارى الملكية على ما يقتضيه دين النصرانية والمــلة العيسوية حاكماً في امورهم مفصحاً عما كن في صدورهم . من هو اهل لهذه البطريركية وعارف بالملة المسيحية . اختاره لها أهل طائفته لما يعلمون من خبرته ومعرفته وكفايته ودربته . وندب الى ولاية يستحقها على أبناء جنسه ورغب في سلوكها له مع اطابة نفسه . مع ما له من معرفة سرت أخبارها وظهرت بين النصارى آثارها . وكان البطريرك ميخائيل أدام الله بهجته هو من النصارى الملكية بالمعرفة مذكور وسيره بينهم مشهور . القائم فيها بالسيرة الحسنة والسالك في مذهبهم سيراً تشكره عليها الالسنة .

فلذلك رسم بالامر الشريف لا زال احسانه العميم لكل طائفة شاملة وبره الجسيم لسائر الملل بالفضل متواصلا ان يستقر بطركاً على النصارى الملكية بالشام وأعماله على عادة من تقدمه بذلك . وتقوية يده على أهل ملته من تقادم السنين بحكم رضاهم . ومنع من يعارضه في ذلك حملا على ما بيده من التوقيع الكريم المستمر حكمه الى آخر وقت .

فليباشر هذه البطريركية مباشرة محمودة العواقب مشكورة لما تجلت به من جميل المناقب . وليحكم بينهم بمقتضى مذهبه . وليسر فيهم سيراً جميلا ليحصل لهم غاية قصده ومأربه . ولينظر في أحوالهم بالرحمة . وليعمل بتعلقاتهم بصدق القصد والهمة . وليسلك الطرق الواضحــة الجلية ، وليتخلق بالاخلاق المرضية . وليفصل بينهم بحكم مذهبه في مواريثهم وانكحتهم . وليعتمد الزهد في أموالهم وامتعتهم . حتى يكون كل كبير منهم وصغير ممتثلا لامره واقفاً عندما يتقدم به اليه في سره وجهره . منتصبين لاقامة حرمته وتنفيــذ أمره وكلمته . وليحسن النظر في من عنــده من الرهبان وليرفق بذوي الحاجات والضعفاء من النساء والصبيان . والاساقفة والمطارنة والقسيسين زيادة للاحسان احساناً جارياً في المساء والصباح والغدو والرواح .

فليمتثلوا أمره بالطاعة والاذعان . وليجيبوا نهيه من غير خلاف ولا توان . ولا يمكن النصارى في الكنائس من دق الناقوس (١) . ورفع أصواتهم بالضجيج ولا سيما عنــد أوقات

١) « اذا ارادوا الصلاة ضربوا بالناقوس . وهو خشبة مستطيلة يضرب عليها بخشبة لطيفــة فيجتمعون » ــ صبح الاعشى للقلقشندي ج ١٣ ص ٢٨٤ .

الاذان لاقامـــة الناموس . وليتقدم الى جميع النصارى بأن كلا منهم يلزم زيه وما جاءت به الشروط العمرية عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لتكون احوالهم في جميع البلاد مرضية . وليخش عالم الخفيات . ويستعمل الأناة والصبر في جميع الحالات . والوصايا كثيرة وهو بها عارف . والله يلهمه الرشد والمعارف .

ومما تجدر الاشارة اليه هـــذه المناسبة التنبيه السلطاني بوجوب التقيد بشروط عهدة عمر ابن الخطاب واعتبارها واجبة شرعاً .

قضية الباب : والباب في « المصطلح الشريف » عند المماليك هو البابا . وقد ورد هذا اللفظ غير مرة في كتابات الديوان السلطاني وفي بعض التواريخ . ففي التوقيع السلطاني الذي وجه الى البطريرك داود الخوري العبارة : «واعلم بأنك في المدخل الى شريعتك طريق الى الباب» وقد جاء في مخطوط باريس رقم ٤٤٣٩، وهو من نوع كتابي التعريف للعمري وصبح الاعشى للقلقشندي ، كـــلام عن بطاركة النصارى ووصف لبعض تقاليدهم . وجاء ايضاً ان اول البطاركة هو الباب بتفخيم البائين وانه بترك الملكية وان الثاني بطرك الملكانية بكرسي انطاكية وان ولاية هذا من الابواب الشريفة وانه «بعد كتابة محضر من النصارى الملكانية باستحقاقه يكتب محضر ثاني ويجهزونه النصارى الى الباب برومية فيقف عليـــه ويجهز لهم استمرار الولاية الى انطاكية » .

وكان في أمل صديقنا المرحوم حبيب الزيات ان يكون أمر رومـــة في العصور الغابرة مطاعاً في جميع فروع الكنيسة الجامعة وان يكون لها القول الفصل في الامور الهامة . فما ان اطلع على هذه العبارات في القلقشندي وفي مخطوط باريز حتى ظن انه بلغ ما في نفسه . فصنف رسالة اسماها «الملكانيون يدينون بطاعة الباب» خلص فيها الى القول ان الملكيين الانطاكيين اصبحوا بعد قدوم الصليبيين فرعين مستقلين الاول منهما كان باقياً على حالته السابقة خارج الامارات الصليبية لـــه اساقفة ورؤساء متفردون وهم الذين اشار اليهم كاتب مخطوط باريس اي اولئك الذين « يجهز البابا لبطاركتهم استمرار الولاية » . والفرع الثاني في نظر الزيات كان داخل حدود الامارات الصليبية . وكانت تتجاذبه اطماع فئتين فئـــة الروم البيزنطيين حيناً كان يشتد نفوذهم في انطاكية وفئة الصليبيين الذين كانوا يترصدون

الفرص للتغلب على الكنائس والاديار . ثم يخلص صديقنـــا الزيات الى القول : « وكان يتفق احياناً ان يختار بطريرك انطاكية من بـــين صنائع القسطنطينية فيلبث في مكانه لتعذر السفر عليـــه الى انطاكية او لمانع آخر فيلبس لكل حالة لبوسها وينحاز بالطبع او بالضرورة الى اهواء بطاركـــة القسطنطينية ويجاريهم في سياستهم ونفورهم من اللاتين فيظن من لا معرفة له بالحقيقة ان الكرسي الانطاكي بأسره الذي يمثله بشخصه كان مشايعاً لشقاق كيرولاريوس في حين ان البطريرك انما كان يتكلم باسمه الخاص دون موافقة اساقفته وشعبه في ديار الاسلام . واذا صح قط ان احـــد احبار الكرسي المقيمين في الديار الرومية او انطاكية جاهر بشيء في ذلك فيكون قـــد نطق بلسانه وعبر عـــن جنانه . وهو بعيد عن كرسيه غريب عن شعبه المستقر في الديار الاسلامية . وشتان بين قوم من البيزنطيين كان الحقد السياسي او الجنسي المتأثل في صدورهم ولا سيا بـــعد انتزاع الصليبيين القسطنطينية يملي عليهم عبارات الخصام والخلاف لكرسي رومة وبين اقوام من العائشين في ذمة الاسلام تنزهوا عن هذه الاغراض وبرئوا من هـــذه الامراض وجاروا الصليبيين وانقادوا للاساقفة اللاتين منذ القرن الحادي عشر (١) .

وكلنا يقول بدستور واحـــد وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية . وكلنا ايضاً يصلي «من اجل ثبات كنائس الله المقدسة واتحاد الكل» . ولكن القضية قضية تاريخية علمية يجب ان تعالج معالجة علمية للتوصل الى الحقيقة وتشخيص الداء الذي منه نشكو منذ تسع مئة سنة لنوفق بعون الله الى وصف الدواء. ونحن لا ننكر خضوع البطريرك داود لرومة وقد ابنا ذلك في محله . ولكننا لا نرى في العبارة التي وردت في مخطوط باريس رقم ٤٤٣٩ التي تفيد ان النصارى كانوا يكتبون محضراً باستحقاق بطريركهم ويجهزونه الى الباب في رومة فيقف عليه ويجهز لهم استمرار الولاية الى انطاكية نقول لا نرى في هذا القول دليلا علمياً كافياً يخول الزيات استنتاجه الذي ورد اعلاه . فالزيات يعترف في رسالته هـــذه نفسها ان المخطوط الباريسي « غفل مـــن اسم المؤلف ومـــن تـــاريخ التأليف

١) الروم الملكيون في الاسلام ص ٧٣ و٧١ ــ و٧٢ .

والنسخ » (١) . وبالتالي فنحن امام روايـــة مجهول راويها . وقواعـــد المصطلح تقضي بالتثبت من هوية الراوي والتعرف الى شخصيته وسبر غوره ودرس المحيط الذي عاش فيه لضبط امياله ونزعاته ودرجة علمه وذكائه واتصاله بالحوادث التي يروي اخبارها . والروايات التاريخية هي صلتنا الوحيدة بحوادث الماضي . فان اخبرتنا الخبر على حقه توصلنا الى الحقيقة وان ارجفت اوقعتنـــا في مهاوي الضلال والتضليل . فمن قال ان نصارى انطاكية كانوا يجهزون المحاضر الى بابا رومة فيجهز لبطاركتهم استمرار الولاية ؟ واين عاش هذا الراوي ومتى . وماذا كانت مكانته ؟ وجواب الزيات عن هذه الأسئلة الاساسية هو لا ادري ! وردنا نحن ان رواية الراوي المجهول تبقى ضعيفة واهية ما دام راويها مجهولاً .

وقال الزيات رحمه الله في الصفحة ٦٩ من رسالته ان حب التحقيق دعاه الى السفر الى رومة للبحث في خزائن الفاتيكان عن احد هذه المحاضر التي كان الملكيون «يجهزونها ويلتمسون بها من البابا اقرار انتخاب بطاركتهم» فغم حين علم ان كل ما كان محفوظاً في حاضرة الكثلكة من هذه المحاضر ضاع وتلف لما دخل رومة شارل الثامن ملك فرنسة سنة ١٤٩٣ واطلق ايدي جنوده في السلب والنهب والحريق . واضاف الزيات ان كل ما هو في خزائن مجمع نشر الايمان من الكتابات والاخبار الملكية لا يتجاوز اليوم اوائل القرن السابع عشر . فيترتب علينا والحالة هذه ان نقول ان مخطوط باريس غفل من اسم المؤلف ومن تاريخ التأليف والنسخ وانه ليس هناك في رومة ما يثبت قول هذا المؤلف ان نصارى انطاكية كانوا يجهزون رومة بالمحاضر لتجهز بطاركتهم باستمرار الولاية . ولا يجوز لنا «افتراض» وجود هذه المحاضر في رومة قبـــل السنة ١٤٩٣ سنة السلب والنهب والحريق لانه ليس لدينا ما يخولنا هذا «الافتراض» . وبالتالي فقول الزيات «ان ما كان محفوظاً من هذه المحاضر ضاع وتلف » هو قول فطير صادر عن غير روية .

ولم يجد الزيات في براءة البطريرك ميخائيل التي نقلها القلقشندي العبارة « واعلم بأنك في المدخل الى شريعتك طريق الى الباب » تلك التي وردت في براءة

١) المؤلف نفسه ص ٦٦

البطريرك داود فصل وجهة أمره ونعت كاتب براءة البطريرك ميخائيل «بجعجعة الالفاظ دون غناء غلب عليها التكرار لغير طائل »ونحن نخشى ان يكون صديقنا قد تغاضى وتغابى . ونرى في اسقاط الاشارة الى « الباب » في براءة البطريرك ميخائيل واثباتها في براءة البطريرك داود مجالا للقـــول ان السلطان علم بخضوع الواحد الى البابا وامتناع الاخر ودليلا على تيقظ الديوان السلطاني لا على جعجعة كتابه .

وقد يكون كلام مؤلفنا المجهول صاحب مخطوط باريس وصفاً لتقاليد الجاليات اللاتينية في الامارات الصليبية . فاللاتين ملكيون في عرفه والارثوذكسيون المقيمون في هذه الامارات اكرهوا على الخضوع لاساقفة اللاتين . وهذه الجاليات كانت تجهز المحاضر باستحقاق بطاركتها فترسلها الى رومة والبابـــا كان يجهز بدوره استمرار الولاية لهؤلاء البطاركة (١) .

* * *

1) *Cahen, C., Formation de l'Eglise Latine d'Antioch, op. cit., 208 - 323.*

الفصل الخامس والاربعون

المجمع الفراري الفلورنسي

١٤٣٨ - ١٤٣٩

الاتراك العثمانيون : وفي الوقت نفسه الذي كانت تتناثر فيه امارات الصليبيين تناثر اوراق الخريف كانت قبيلة « كاي كان كلي » التركية الخراسانية قد تقبلت الاسلام ووطدت اقدامها عند حدود الروم في شمال آسية الصغرى الغربي وحذا حذوها الصروخان والقرمان وآيدين وغيرها . وتولى عثمان زعامة الكاي كان كلي فعرفت القبيلة باسمه . وفي السنة ١٣٠١ تمكنت هذه القبيلة بخيولها المصفحة من اختراق صفوف الروم امام نيقوميذية . وضغطت القبائل الأخرى على ساحل الارخبيل وعلى مدن الروم في الداخل . وواصل اورخان ابن عثمان الحرب على الروم فاستولى على نيقوميذية ونيقية . ثم جنح الى السلم فقضى نحو عشرين عاماً يثبت دعائم ملكه وينظم الجيش . وفي السنة ١٣٥٧ قطع الدردنيل واغار على الشاطىء الاوروبي فاحتل غاليبولي . واخضع مراد الاول (١٣٥٩ ــ ١٣٨٩) الروملي وبلغارية والصرب. وخلفه ابنه بايزيد الاول (١٣٨٩ ــ ١٤٠٢) فلم يقل عن ابيه مهارة واقداماً فاخضع الامارات التركية في آسية ووطد اركان دولته في اوروبة . وعم الهول والفزع معظم الاوروبيين . وقامت رومة تدعو الى مقابلة الاتراك . وخرج لذلك جيش عظيم بقيادة سيجيسموند ملك المجر ضم بين كتائبه كثيراً من فرسان فرنسة والمانية . وفاز الاوروبيون في بادىء الامر واستردوا من الترك كثيراً من المدن ثم شرعوا في حصار نيكوبوليس عند نهر الدانوب . فأسرع بايزيد للقائهم فهزمهم (١٣٩٦) . ثم أطل تيمورلنك فخرج بايزيد لصده وتقابل الجيشان في انقره (١٤٠٢) فكانت الهزيمة على العثمانيين واخذ بايزيد اسيراً ومات كمداً . وهلك تيمورلنك فاقتتل اولاد بايزيد من اجل العرش عشرين سنة . ثم انتهى الامر بتغلب محمد الاول (١٤١٣ــ١٤٢١) فصادق الروم ولم شعث الدولة

وكبح جماح الامارات واصلح ما افسدته الفتن. وخلفه مراد الثاني (١٤٢١ــ١٤٥١) فعمل على مواصلة الفتوح . وكان عمانوئيل الثاني فسيلفس الروم قد طلب الى السلطان الجديد ان يبقي ابنه رهينة في القسطنطينية فأبى. وفي السنة ١٤٢١ اعلن يوحنا الثامن فسيلفساً وشريكاً لوالده في الحكم فأطلق سراح مصطفى بن بايزيد المطالب بالعرش العثماني كما حرر جنيدا الوزير السابق الثائر » فاضطر مراد الثاني الى ان يحارب مصطفى . ثم قام بخمسين الف جندي الى القسطنطينية وضرب الحصار عليها . ثم اضطر الى ان يرفع هذا الحصار لمجابهة ثورة هامة اذ كاها عمانوئيل في بروسة ونيقية والقرمان .

يوحنا الثامن ومراد الثاني : وكانت دولة الروم قد تضاءلت فلم تعد تشمل سوى القسطنطينية وضواحيها حتى سلمبرية ثم بعض الاراضي الضيقة في ساحل البحر فجبل اثوس فتسالونيكية فبسترة وميزيمبرية وانخيالوس . وكانت الموارد قد نضبت وقل الخير وكاد ينقطع . وكانت النقود الذهبية قد اصبحت نادرة في ايام عمانوئيل الثاني (١٣٩١ ــ ١٤٢٥) فلما تسلم يوحنا الثامن دفة الحكم اكتفى بالفضي منها (١) .

واستغل مراد الثاني ضعف الروم فاستولى على مودونة في السنة ١٤٢٥ وخرج منها بألف اسير. وفي السنة ١٤٣٠ زحف على تسالونيكية وضرب الحصار عليها . وكان اندرونيكوس باليولوغوس قد باعها من البنادقة منذ السنة ١٤٢٣ لقاء خمسين الف زكينة . ولم تتمكن البندقية من اقامة حامية قوية فاستولى عليها السلطان بنفسه في ٢٩ ايار سنة ١٤٣٠ واباح نهبها وذبح من قاومه من اهلها وكانوا كثراً . وحول جميع كنائسها الى جوامع ما عدا كنيسة القديس ديمتريوس (٢) .

وعظم على يوحنا الثامن سقوط تسالونيكية في يد الاتراك وأفزعه تقدم مراد وانتصاره . فهرع يرمم حصون العاصمة . ولا تزال بعض النقوش الباقية

1) *Blanchet, A., Les Dernières Monnaies d'Or des Empereurs Byzantins, Rev. Numis., 1910, 78 ff.*
2) *Anagnostes, J., Extremo, 481 - 538.*

تنطق باهتمامه هذا . وهاله تخاصم الجنويين والبنادقة في هذا الظرف الحرج (١) ؛ وحزّ في صدره ان اخويه ثيودوروس وقسطنطين تنازعا الخلافة بعده واستعدا لحرب اهلية مرة وتسابقا لخطب ود مراد الثاني (٢) .

قرب الثرى وبعد النبط : وكان من الطبيعي جداً ان يعمد الروم الى نصارى الغرب للصمود في وجه المسلمين . ولكن التراب الندي كان قريباً والماء بعيداً . فرومة تطلب خضوع الاكليروس اليوناني ولم ترض عن هذا الخضوع بديلا والفسيلفس كان ينتظر المدد الحربي والمالي مقابل الخضوع . وكل وعد بما لم يملك . وكل اتعد بما لا امل في الوصول اليه (٣) . وجاء في بعض المراجع الاولية ان عمانوئيل الثاني اوصى قبيل وفاته الا ينظر الى الاتحاد الا كوسيلة لصد الاتراك وان يصار الى المطالبة بعقد مجمع مسكوني وان يماطل في ذلك بقصد كسب الوقت وانه لا يمكن التوفيق بين عجرفة اللاتين وعناد الروم (٤).

مجمع بازل : (١٤٣١ ـ ١٤٤٨) وطالب الغرب باصلاح الكنيسة اصلاحاً عاماً « يشمل الرأس والاعضاء » ويضم شتات الكنيسة ويدفع عنها خطر الاتراك. فدعا البابا مرتينوس الخامس الى مجمع في بازل يبحث هذه الامور جميعها ويحقق الاصلاح المنشود . وتوفي مرتينوس قبل افتتاح المجمع . وخلفه افجانيوس الرابع (١٤٣١ ـ ١٤٤٧) فتم افتتاح المجمع في تموز السنة ١٤٣١ . ولم يرض البابا عن البحث في اصلاح رأس الكنيسة فلم يحضر اجتماعات بازل . وفاوض الاباء المجتمعون يوحنا الثامن في كيفية التعاون بين النصارى للصمود المثمر في وجه الاتراك المسلمين . وتبادل الطرفان الوفود . فقام وفد ارثوذكسي الى بازل . وكان الايغومينس اسيدورس المع اعضاء هذا الوفد وهو الذي اصبح فيما بعد رئيس اساقفة كييف. فألقى خطاباً حماسياً اكد فيه ان اتمام الاتحاد المنشود يتحف العالم بأثر تذكاري يفوق صنم رودوس في سموه نحو العلى ويصل رأسه الى السماء فيضيء الشرق والغرب بلمعانه (٥) . ثم بات الوفد الارثوذكسي ينتظر

1) *Brehier, L., Byzance, 489.*
2) *Phrantzes, J., Chron., II, 12.*
3) *Ostrogorsky, G., Byzantine State, 499.*
4) *Phrantzes, J., Chron., II, 13.*
5) *Pierling, L. P., La Russie et le Saint Siège, I 11.*

البحث التفاهم والاتحاد . ولكن اساقفة الغرب تشاحنوا كثيراً في امر المكان الذي يلتئم فيه مجمع مسكوني ثم اتفقوا على ارجاء البحث في الاتحاد بين الكنيستين الى ان يكونوا قد حلوا مشكلة يوحنا هوس واتباعه . فغضب الارثوذكسيون لكرامتهم وظنوا ان اخوانهم الغربيين انما ساووا بقرارهم هذا بين المؤمنين الارثوذكسيين وبين هواطقة بوهيمية . وعلمت الاوساط الاكليريكية والشعبية في الشرق بما جرى فهبت عاصفة هوجاء من الاستياء في القسطنطينية (١) .

مجمع فراري : (١٤٣٨) وكان يوحنا الثامن قد ارسل وفداً في مطلع السنة ١٤٣١ ليفاوض مرتينوس الخامس في امر الاتحاد والمساعدة . وعلم هذا الوفد وهو لايزال في المورة في طريقه الى رومة بوفاة مرتينوس فعاد الى القسطنطينية (٢) . فأرسل يوحنا وفداً ثانياً يفاوض البابا الجديد افجانيوس الرابع . وكان الشقاق قد ذر قرنه بين الكرادلة وكان مجمع بازل قد بدأ يناوىء رومه فلم يرضَ افجانيوس عما رضي عنه سلفه وأصر على وجوب عقد مجمع الاتحاد في فراري لا في القسطنطينية. وعلم الآباء المجتمعون في بازل بما جرى بين افجانيوس والوفد البيزنطي ولم يرضوا عن انتقال المجمع من بازل الى فراري فارسلوا بدورهم وفداً الى القسطنطينية (اوائل سنة ١٤٣٣) يؤكد ان سلطة المجمع المسكوني اعلى من سلطة البابا وان امراء اوروبة يؤيدون الآباء في بازل وانه من مصلحة الروم ان يبطلوا الانشقاق (٣) . فأرسل يوحنا الثامن اخاه ديمتريوس والايغومينس اسيدورس ويوحنا ذيسيباتوس الى بازل للمفاوضة كما سبق واشرنا (٤) . وفي مطلع السنة ١٤٣٤ عاد الوفد المفاوض من رومة وجاء معه الكردينال غراتوني لمتابعة البحث . وقبل افجانيوس بعقد المجمع المسكوني في القسطنطينية ولكن الآباء المجتمعين في بازل اصروا على الاجتماع في افينيون فأصر افجانيوس بدوره على عقد المجمع في بلدة ايطالية. وتجددت البعثات الى القسطنطينية فأم عاصمة الروم الاب الدومينيكاني يوحنا الراغوزي على رأس وفد يمثل مجمع

1) *Ibid. I, 12, 15.*
2) *Vast. H., Le Cardinal Bessarion, 42 - 43 ; Phrantzes, J., Chron., II 3.*
3) *Chalkondyles, L., Hist., VI, (P. G., Vol. 159).*
4) *Vast, H., Cardinal Bessarion, 43.*

بازل في السنة ١٤٣٥ ـ ١٤٣٦ (١). وفي ايلول السنة ١٤٣٧ وصل الى القسطنطينية وفد بابوي جديد ينقل رأي افجانيوس في الموضوع (٢). وتبعه وفد مجمعي اخر فوصل في الثالث من تشرين الاول (٣). واضطر افجانيوس ان يأمر المجمع المنعقد في بازل بالانتقال الى فراري (٤). فأظهر الآباء المجتمعون في بازل العصيان بأغلبية الاصوات وقرروا خلعه وانتخبوا فيليكس الخامس محله (٥).

تشاور الروم : ودعا الفسيلفس يوحنا الثامن بطاركة الشرق للاشتراك في اعمال المجمع المسكوني الجديد وطلب الى امراء الروس وحكام رومانية وديسبوت الصرب وامبراطور طرابزون ان يعينوا من يمثلهم في هذا المجمع. وتشاور زعماء القسطنطينية في أمر المجمع المسكوني فشايع الفسيلفس على رغبته في الاتحاد عدد من كبار رجال السياسة. وكان ديمتريوس كيذونيس *Cydonés* قد نقل الى اليونانية شيئاً من ابحاث الآباء الغربيين في اللاهوت فتسنى للآباء الارثوذكسيين الاطلاع على آراء اخوانهم الغربيين اكثر من ذي قبل (٦). ونشأ في الاوساط الاكليركية الارثوذكسية استعداد للتفاهم مع الغرب والاتحاد. واشهر هؤلاء بساريون الطرابزوني متروبوليت نيقية واسيدورس ايغومنس دير القديس ديمتريوس في القسطنطينية ورئيس اساقفة كييف بعد السنة ١٤٣٦. ولمع في صفوف المدافعين عن العقيدة الارثوذكسية والتقليد الرسولي كل من مرقس (افجينيكوس) متروبوليت افسس وجورج سكولاريوس الذي اصبح فيما بعد البطريرك جناديوس (٧). وشاور يوحنا الثامن مراداً الثاني في أمر التفاوض مع الغرب فلم يرض (٨).

1) *Iorga, N., Notes et Extraits pour Servir à l'Hist. des Croisades au XVe Siècle, 17 (25).*
2) *Chalkondyles, L., Hist., VI ; Vast, H., op. cit., 45 - 46.*
3) *Ebersolt. J., Orient et Occident, II, 58.*
4) *Doctoris gentium, 18 Sept., 1437 ; Hefelé - Leclercq, Hist. Conc., VII, 942 - 943.*
5) *Hofmann, G., « Roderigo, Dekan von Braga », Orientalia Christiana Periodica, 1943, 171 ff.*
6) *Cydones, Correspondance, (Cammelli), XV. f. ; Jugie, M., Schisme Byzantin, 263.*
7) *Vast, H., op. cit., 41, 48 - 50.*
8) *Phrantzes, Chron., II, 13.*

الوفد الارثوذكسي : وترأس يوحنا الثامن الوفد الارثوذكسي بشخصه وضمّ اليه الامير الملكي عمانوئيل يغارس والبطريرك المسكوني يوسف الثاني وعدداً من المطارنة والوجهاء. ومثل بطريرك الاسكندرية انطونيوس متروبوليت هرقلية وغريغوريوس (ممَّاس) بروتوسنكلوس القسطنطينية. وناب عن بطريرك انطاكية كل من مرقس (افجانيكوس) متروبوليت افسس وايسيذوروس متروبوليت كييف. وناب عن بطريرك اوروشليم ديونيسيوس متروبوليت سردة وبعد وفاته بالطاعون دوسيثايوس متروبوليت مونبازية ومثل الكنيسة الروسية اسيدورس متروبوليت كييف.

وركب الوفد الارثوذكسي السفن البابوية في الرابع والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٤٣٧ فوصل الى البندقية في الثامن من شباط سنة ١٤٣٨ فاستقبل فيها استقبالا حافلا (١). وقام يوحنا الثامن منها الى فراري فوصلها في الرابع من آذار. ووصل البطريرك وحاشيته في التاسع من الشهر نفسه.

جلسات فراري : وافتتح المجمع في التاسع من نيسان فتغيب عن الحضور معظم أعضاء مجمع بازل ومعظم امراء اوروبة. ولم يشترك من هؤلاء سوى فيليب الطيب دوق بورغنديه. وكان يهتم لمسائل الشرق فأرسل وفداً يمثله في المجمع. فخاب أمل يوحنا الثامن وخاب سعيه لتنظيم حملة صليبية فور الانتهاء من أعمال المجمع (٢). ومنع شارل السابع أساقفة فرنسة عن الاشتراك في أعمال المجمع فزاد في الطين بلة (٣). وتقرر تأجيل العمل أربعة أشهر كاملة لانتظار الذين تأخروا عن الحضور.

وعين كل فريق لجنة من عشرة أعضاء تعد الأبحاث لعرضها على الهيئة العامة. فتألفت لجنة الروم من مرقس متروبوليت افسس وممثل الكرسي الانطاكي ومن بيساريون متروبوليت نيقية وثلاثة مطارنة آخرين وبلسامون الخرتوفيلاكس

1) *Vast, H., op. cit., 57 - 58.*
2) *Ibid. 63.*
3) *Lavisse, Hist., de France, IV, 2 265.*

وسيليفستروس (سيروبولوس) الاكليسيارخوس ورئيسين من رؤساء الأديرة وراهب . وأضاف يوحنا الثامن الى هؤلاء الامير عمانوئيل يغارس وتألفت لجنة اللاتين من الكردينال شيزاريني والكردينال البرغاتي واسقف والراهب الدومينيكي الاسباني توركو يمادا وستة آخرين .

وبحث الأعضاء أمر التصويت فطالب الروم باعتبار مجموع أصوات الروم موازياً لمجموع أصوات اللاتين في مسائل العقيدة فلم يقبل اللاتين بذلك . وكان للاتين مئتان وثمانيـة أصوات مقابل خمسة وعشرين للروم (١) . وحرر مرقس افسس رسالة الى البابا شديدة اللهجـة فأوقفها الفسيلفس نفسه (٢) . ولكن الفسيلفس لم يتمكن من منـع مرقس عن توجيه السؤال التالي في جلسة الثامن من تشرين الاول : « اتجوز الاضافـة الى دستور الايمان » ؟ فنهض بيساريون ورجا الحضور ان يبحثوا القضية نفسها بالشكل : « ايجوز القول بالانبثاق من الآب والابن » ثم خطب بوجوب الاتحاد. (٣) وعاد مرقس الى الموضوع نفسه في جلسة الرابع عشر من تشرين الأول ولكن بدون جدوى (٤) . فتثبط الاعضاء وتعوقوا . (٥) وكان الطاعون قد ظهر في احياء فراري منذ شهر تموز فانتشر وتلوثت المدينة بكاملها فأمر البابا بالانتقال الى فلورنسة . فقام الاعضاء الى عاصمة توسكانة في أول السنة ١٤٣٩ .

جلسات فلورنسة : وفي الرابع عشر من شباط سنة ١٤٣٩ تابع المجمع اعماله في جلسة افتتاحية في مقره الجديد في فلورنسة . واستمر النقاش في أمر الانبثاق في جلسات ثمان من الثاني من اذار حتى الرابع والعشرين وادى الى صراع عنيف بين مرقس افسس ويوحنا راغوزة . فتدخل الفسيلفس ومنع مرقس عن متابعة البحث (٦) . واتضح للفسيلفس والبابا انلا فائدة ترتجى من متابعة المناقشة العلنية فاتفقا على ايقافها وتعيين لجنة جديدة من العناصر الراغبة في الاتحاد لوضع

1) *Lambros, Paleologia I, 276 - 277 (Jean Eugenikos Logos Eucharistiraos).*
2) *Lambros, Paleologia, I, 265 - 270.*
3) *Vast, H., op. cit. 65 ; P. G. Vol. 161, Col. 532 f.*
4) *Vast, H., op. cit., 69 - 74.*
5) *Lambros, op. cit., I, 276.*
6) *Ibid., 79 - 85.*

صك بالاتحاد يوقعه الراغبون فيه من اعضاء المجمع افراداً . وفي الثلاثين من اذار أعلن هذا الاتفاق في قاعة المجمع فضج مرقس ورد بيساريون وايسيدورس فتدخل يوحنا الثامن وكم افواه المعارضين (١) وتولى بيساريون اعداد النص المطلوب فاستقصى نقاط الاتفاق في قضية الانبثاق من اقوال الآباء الشرقيين والغربين (٢) . ووقع الآباء اليونانيون هذا الصك في الرابع من حزيران ووافق البابا عليه في الثامن من الشهر نفسه . ورحل عن فلورنسة قبل التوقيع كل من الديسبوت ديمتريوس والفيلسوف بليثون والعالم سكولاريوس (جناديوس فيما بعد) كي لا يساء فهم موقفهم من هذا الصك (٣) . وكان البطريرك المسكوني يوسف الثاني قد عارض الاتحاد قبل خروجه من القسطنطينية فتوفي قبل اعـلانه وذلك في التاسع من حزيران (٤) . ويلاحظ هنا ان صحة الوثيقة التي تتضمن موافقة هذا البطريرك على ما جرى في فراري وفلورنسة لم تثبت بعد وان سبب وفاته لايزال مبهماً غامضاً . اما مرقس متروبوليت افسس وأحد ممثلي الكرسي الانطاكي فانه امتنع عن التوقيع واحتج على محتويات الصك .

وتم التفاهم بسهولة حول قضية المطهر واستعمال الفطير ومسألة الابيكليسيس وهي الابتهال الى الروح القدس الذي يتلى بعد كلام التقديس وذلك بين الثاني عشر من حزيران والخامس من تموز . واشتد النقاش بـين الثالث والعشرين والسادس والعشرين من حزيران حول سلطة البابا على البطاركة وصلاحيته في الدعوة الى المجامع المسكونية . وهدد الفسيلفس بالانسحاب . ثم وفق بيساريون الى صيغة أبانت سلطة البابا وحفظت «حقوق الكنيسة الشرقية وامتيازاتها» (٥) .

اعلان الاتحاد : واستخرج طلاب الاتحاد من مختلف الاقتراحات نصاً واحداً للاتحاد وافقوا عليه في جلسة السبت في الرابع من تموز سنة ١٤٣٩ . وأعلن

1) *Hofmann, G., Die Konzilsarbeit in Florenz, Or. Christ. Period., 1938, 157 - 188, 372 - 422.*
2) *P. G., Vol. 161, Col. 543 - 612 ; Vast, H., op. cit., 90 - 96.*
3) *Hefelé - Leclercq, Hist. des Conciles, VII, 1009.*
4) *Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 673.*
5) *P. G., Vol. 160, Col. 52 ff.*

هــذا النص رسمياً يوم الاثنين في السادس من تموز في قداس حبري اقامه البابا افجانيوس الرابع . فتلاه باللاتينية الكردينال سيزاريني يمين البابا وباليونانية بيساريون متروبوليت نيقية ثم تعانقا . واليك تعريب النص كما جاء في منشور البطريرك كيرلس التاسع لمناسبة الذكرى المئوية الخامسة لمجمع فلورنسة (١) .

افجانيوس الاسقف خادم خدام الله

« اكتب هذا للذكر المؤبد

« برضى ولدنا الاعز بيسوع المسيح يوحنا باليولوغوس امبراطور الروم ورضى ممثلي اخواننا البطاركة الشرقيين وبقية اخواننا الاساقفة الحاضرين هنا بالاصالة عن نفوسهم وبالنيابة عن الكنيسة الشرقية جمعاء لتفرح السموات وتبتهج الارض ! فقد انهدم الحائط الفاصل بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية واقيم السلام والاتفاق ثانية على حجر الزاوية يسوع المسيح الذي ضم الشعبين الى واحد جامعاً كلا الحائطين برباط السلام والمحبة الذي لا ينحل . وقد اضمحلت غيوم الحزن المديد وتبدد ظلام الخصومة المزمن وأضاء لنا كوكب الاتحاد البهي الشهي . فلتفرح الكنيسة امنا فان أبناءها الذين كانت تشاهدهم متخاصمين تراهم اليوم راجعين الى الوحدة والسلام . وتلك التي كانت تذرف دموعاً سخينة على انفصالهم لتشكر الآن بفرح لا يوصف الاله القدير على اتفاقهم العجيب . ليفرح به المؤمنون في العالم أجمع وليهنيء المسيحيون امهم الكنيسة الجامعة . فها ان آباء الغرب والشرق بعد مرور حقبة طويلة من الاختلاف والشقاق قد ركبوا أخطار البر والبحر وتغلبوا على المتاعب وبادروا بسرور الى هذا المجمع المسكوني المقدس راغبين في تجديد الاتحاد المقدس والمحبة القديمة . ولم تخب آمالهم لانهم بعد الابحاث الطويلة الشاقة بلغوا برأفة الروح القدس الى الاتحاد المقدس المرغوب فيه . فمن يستطيع ان يرفع للقدير الشكر الوفي على هذا الاحسان ومن لا يتعجب من كل قلبه من غنى مراحم الله . هل من قلب صخري لا تلينه مشاهدة رأفة الله هذه غير المتناهية . حقاً انها لأعمال الهية لا اختراعات الضعف البشري . اذن يجب علينا قبولها بالاحترام العظيم والاعتراف بها بالترانيم المقدسة . لك المديح لك الحمد لك الشكر يا يسوع المسيح يا ينبوع المراحم الذي اوليت عروسك الكنيسة الجامعة هذا الخير العظيم وأظهرت في جيلنا عجائب حنوك حتى يتحدث الجميع بمعجزاتك . فقد رأينا بعيوننا ما طالما تاق السلف اليه فلم يروه . فان اللاتين واليونان التأموا في هذا المجمع المسكوني المقدس وبحثوا بمنتهى الجهد والتدقيق قضية انبثاق الروح القدس موردين آيات الكتب الالهية ونصوصاً كثيرة لملافنة الغرب والشرق الآباء القديسين الذين منهم من يقول ان الروح القدس منبثق من الآب والابن ومنهم من يقول انه منبثق من الآب بالابن انما كلهم يرمون الى مقصد واحد بالفاظ مختلفة . وبالواقع أكد الروم انهم بقولهم ان الروح القدس ينبثق من الآب

(١) مجلة المسرة أيار ١٩٣٩ ص ٣٠٧ — ٣٠٨

لا ينفون انبثاقه من الابن . ولكن بما انهم كانوا يظنون ان اللاتين بقولهم من الروح القدس انه ينبثق من الآب والابن يسلمون بمبدأين ونفختين امتنعوا عن القول بان الروح القدس ينبثق من الآب والابن . على ان اللاتين أكدوا انهم بقولهم عن الروح القدس انه ينبثق من الآب والابن لا ينفون كون الآب ينبوع كل اللاهوت ومبدأ للابن والروح القدس ولا ينكرون ان الابن يأخذ من الآب بثق الروح القدس . ولا يجعلون مبدأين او نفختين بل يعتقدون بمبدأ واحد فقط وبنفخة واحدة باثقة للروح القدس كما اعتقدوا على الدوام . وبما ان مرجع هذه التعابير كلها الى معنى واحد فقد اتفقوا اخيراً وأقروا برضى شامل الاتحاد التالي المقدس المحبوب من الله :

« باسم الثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس وبتصديق هذا المجمع المسكوني المقدس المنعقد في فلورنسة نوجب على المسيحيين بأجمعهم ان يقبلوا حقيقة ايماننا هذه ويؤمنوا بها معترفين كلهم ان الروح القدس هو منذ الأزل من الآب والابن وانه يأخذ جوهره وكيانه الخاص من الآب والابن معاً منبثقاً انبثاقاً ازلياً من كليهما كمن مبدأ واحد ونفخة واحدة . ونصرح بأن الآباء القديسين الذين يقولون عن الروح القدس انه ينبثق من الآب والابن لا يقصدون سوى هذا المعنى أي ان الابن مثل الآب علة اقنوم الروح القدس كما يقول الروم او مبدأه كما يقول اللاتين كما ان الآب هو علة الابن ومبدأه . وبما ان الآب منذ ولادته لابنه الوحيد منحه كل ما يملك ما عدا الابوة هكذا أخذ الابن ازلياً من الآب ان يبثق الروح القدس . ونحدد ان زيادة لفظة والابن في قانون الايمان هي حسنة وشرعية وصوابية لأنها توضح حقيقة من حقائق الايمان وقد اقتضتها الضرورة .

« ونحدد ان جسد يسوع المسيح يقدس حقاً في خبز الحنطة سواء اكان فطيراً او خميراً وعلى الكهنة ان يستعملوا هذا او ذاك بحسب طقس كنيستهم غربية كانت او شرقية .

« ونحدد ان نفوس الذين تابوا توبة حقيقية وماتوا في حال محبة الله قبل ان يكفروا عما اجترموه او اهملوه بأفعال توبة لائقة تتطهر بعد الموت بعذابات المطهر وتتخلص منها باسعافات المؤمنين الاحياء كذبيحة القداس والصلوات والصدقات وغير هذه من افعال المحبة التي اعتاد المؤمنون ممارستها لاجل المؤمنين حسب اصول الكنيسة . وان نفوس الذين بعد قبولهم سر المعمودية لم يتدنسوا قط بادناس الخطيئة أو نفوس المؤمنين الذين بعد ارتكابهم الخطيئة قد تطهروا منها اذا كانوا في الجسد أو بعد الموت على النحو المتقدم اعلاه تدخل حالاً السماء لتشاهد بوضوح الاله الواحد المثلث الاقانيم كما هو . وانما تتفاوت درجة هذه المشاهدة بحسب اختلاف درجات الاستحقاق وان نفوس الذين يموتون في حال الخطيئة المميتة مفعولة كانت او اصلية فقط تهبط حالاً الى الجحيم لتتعذب بعذابات مختلفة متفاوتة .

« ونحدد ايضاً ان الكرسي الرسولي المقدس والحبر الروماني له اولية التقدم في المسكونة كلها وهو خليفة الطوباوي بطرس هامة الرسل ونائب المسيح الحقيقي ورأس الكنيسة كلها وابو المسيحيين بأجمعهم ومعلمهم . وقد اعطاه سيدنا يسوع المسيح بشخص الطوباوي بطرس ملء السلطان ليرعى ويدبر ويسوس الكنيسة الجامعة كما تتضمن ذلك أعمال المجامع المسكونية والقوانين المقدسة . ثم نجدد النظام الذي رسمته القوانين لبقية البطاركة المكرمين وهو ان الثاني بعد الحبر الروماني الاقدس

بطريرك القسطنطينية والثالث بطريرك الاسكندرية والرابع بطريرك انطاكية والخامس بطريرك اوروشليم . على ان تحفظ كل امتيازاتهم وحقوقهم » (١) .

ويلاحظ هنا ان صك الاتحاد لا يشير الى الابيكليسيس والسبب في ذلك ان الآباء اليونانيين الذين وافقوا على الاتحاد ادعوا ان القديس يوحنا الذهبي الفم يقول ان التقديس يتم بمجرد تلاوة كلمات السيد المسيح دون سواها . ويلاحظ ايضاً ان الآباء اليونانيين اصروا عند اعترافهم بسلطة البابا على أمرين هامين اولها ان المجامع المسكونية لا تصبح مسكونية الا بحضور بطريرك القسطنطينية وامبراطورها بالاضافة الى البابا وانه لا تجوز محاكمة بطريرك الا في داخل ابرشيته لمقابلة المدعي بالمدعى عليه (٢) .

ويلاحظ ايضاً ان يوحنا الثامن قصد فراري مستنجداً مستمطراً فوعدته رومة فاتعد فتدخل في المجمع تدخلا فعلياً . وألحّ وضغط ولم يسمح بالمخالفة ولا المعاندة فأحرج موقف العضو العادي واضطر الاقلية الباقية الى التطرف اما سلباً واما ايجاباً .

القسطنطينية والاتحاد : وأنهى المجمع أعماله في جلسة عمومية في السادس والعشرين من آب وغادر الوفد اليوناني البندقية في الحادي عشر من تشرين الاول (٣) ولم يصلوا الى القسطنطينية قبل اليوم الاول من شباط سنة ١٤٤٠ (٤). فصودموا فيها بمعارضة شديدة من الاكليروس والشعب ونعتوا بالفطيريين والخونة والهراطقة . وأيد الشعب في هذه المعارضة جمهور الوجهاء ورجال البلاط (٥) . وجل ما سمح به المعتدلون من هؤلاء ذكر اسم البابا في الذبتيخة ولم يوافقوا على اذاعة نص كتاب الاتحاد *Tomus Unionis* (٦) .

وتزعم مرقس متروبوليت افسس المعارضة وسانده فيها كل من أخيه

1) *Hofmann, G., Epistolae Pontificiae ad Concilium Florentinum Spectantes II, Nr. 176, pp. 68 - 79.*
2) *Mollat, G., Concile de Florence, Catholicisme, Encyc., (1956), IV, 1353.*
3) *Syropoulos, Hist., III, 9 - 12.*
4) *Phrantzes, Chron., II, 17.*
5) *Ibid., II, 13.*
6) *Léonard de Chio, P. G., Vol. 159, Col. 929.*

يوحنا افجانيكوس وجاورجيوس سكولاريوس فالتف حولهم الشعب وجمهور الاكليروس . وتراجع عن الاتحاد واحد وعشرون من تسعة وعشرين ممن وقعوا صك فلورنسة ! واشتد الجدل وضجت الأوساط بالاحتجاج وعدم الرضى فأمر الفسيلفس مرقس بالالتحاق بأبرشيته فامتثل ولكنه اتجه شطر جبل آثوس فأمر الفسيلفس بسجنه (١) . ونصح البابا بالجوء الى الجدل العلني وأرسل الى القسطنطينية قاصداً رسولياً وعدداً من رجال اللاهوت . فناظر مرقس اسقفين لاتينيين وماتنهما وتمادى فأدعى النصر كل من الطرفين (٢). وخطب سكولاريوس في حضرة الشيوخ وارتقى غيره المنابر فطعنوا في الاتحاد وأتهموا مؤيديه بالخيانة (٣) . وكان يوحنا الثامن قد أقام متروفانس أحد أعضاء الوفد المفاوض بطريركاً على القسطنطينية فكثر عثاره فاستعفى . فجاء الفسيلفس بأحد خصوم مرقس بغريغوريوس ماماس وأجلسه على السدة المسكونية (١٤٤٥) . فتهجم سكولاريوس عليه وأهانه علناً في كنيسة الحكمة الالهية (٤) . واسترسل يوحنا الثامن في تأييد الاتحاد فركب المعارضون متن غرورهم . واختلف الامراء في أمر الولاية بعد يوحنا فأيد بعضهم المعارضة تأييداً فاشتد الكره واضطرب الناس. وقلت ثقة الاكليروس بالحكومة ومال بعضهم الى الأتراك (٥) .

وتوفي يوحنا الثامن في السنة ١٤٤٨ ولم يرزق ولداً يخلفه في الحكم . فتدخل مراد الثاني السلطان العثماني في أمر الخلافة فتوّج قسطنطين باليولوغوس فسيلفساً باسم قسطنطين الحادي عشر في السادس من كانون الثاني سنة ١٤٤٩ . فعاهد مراداً على الولاء واستقبله الشعب بابتهاج عظيم ولم يتصل برومة ليثبت لها ان اتحاد الكنيستين كان لا يزال قائماً في نظره .

الاتحاد في روسية : وعاد اسيدورس الى روسية وأعلن صك الاتحاد في موسكو سنة ١٤٤١ فخلعه باسيليوس الثاني الغراندوق وأمر بحبسه ولقبه بالذئب

1) *Lambros, Paleologia, I, 27 - 30 ; Vast, H., op. cit., 118 - 119.*
2) *Syropoulos, Hist., XII, 11 ; Gepoire III, P. G., Vol. 160, Col. 693 ; Muralte Chron., 6951, 6953.*
3) *Lambros, Paleologia, II, 94.*
4) *Syropoulos, Hist., II, 11 ; Vast. H., op. cit., 121 - 122, 132 - 133.*
5) *Bréhier, L., Byzance, 498.*

بدلا من الراعي . ثم أوعز بانتقاء روسيّ يخلفه في رئاسة الأساقفة. واعتبر الروس يوحنا الثامن وبطريركه جاحدين . فافلتت كنيسة روسية من يد بطريركية القسطنطينية (١) . وفرّ اسيدورس من سجنه والتجأ الى رومة وبقي فيها . وكان بيساريون شريكه في الاتحاد قد عاد الى رومة ايضاً ليستقر فيها !

مجمع اوروشليم: (١٤٤٣) ونقل ارسانيوس متروبوليت قيصرية قبدوقية الى دوروثيوس الثاني البطريرك الانطاكي والى يواكيم البطريرك الاوروشليمي وفيلوثيوس البطريرك الاسكندري موقف الشعب والاكليروس والوجهاء في عاصمة الارثوذكسية من الاتحاد الذي تمّ في فلورنسة فاجتمعوا في اوروشليم في السنة ١٤٤٣ وبحثوا الموقف فشجبوا أعمال الوفد المفاوض في فلورنسة واعتبروا قراراتهم غير شرعية ووصموها بالدنس *miara* وخلعوا متروفانس البطريرك الاتحادي القسطنطيني وكل من رسم من رجال الاكليروس (٢) .

مجمع كنيسة الحكمة : (١٤٥٠) ويختلف العلماء في صحة قرارات نسبت الى مجمع عقد في كنيسة الحكمة الالهية في السنة ١٤٥٠ وضمّ أقطاب الكنائس الارثوذكسية البطاركة الثلاثة وغيرهم . فلاوون الاتيوس العالم الايطالي الذي نشر هذه القرارات في القرن السابع عشر اعتبرها كاذبة مزورة . ولكن بعض علماء اليونان أيد صحتها . ومنذ ذلك الحين والعلماء على اختلاف في أمرها . فالعلامة البحاثة لويس بريهية يقول بصحتها . وكان دراسيكه العلامة الالماني قد قال هذا القول نفسه في السنة ١٨٩٦ (٣) . وبابايانو اليوناني ولبديف الروسي وغيرهما ينكران الصحة (٤) . ويرى العلامة المعاصر فازيلايف الروسي انه ليس هنالك دليل كاف يؤيد رجوع قسطنطين الحادي عشر عن الاتحاد .

1) *Ostrogorsky, G., Byz. State, 501.*
2) *Allatins De Ecclesiae Occidentalis atque Orientalis Perpetua Consensione III, (4), 939 ; Constantius, Patriarchs of Antioch, op. cit., 178 - 179 ; Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 674 ; Jugie, M., Schisme Byzantin, 268.*
3) *Draseke, J., Zum Kircheneinigungsversuch des Jahres 1439, Byz. Zeit., 1896, 580 ; Brehier, L., Attempts at Reunion of the Greek and Latin Churches, Cam. Med. Hist., IV, 624 - 625.*
4) *Papaioannu, K., Aols of the Socalled Council of Sophia, Vizantiysky Vremennik, 1895, 394, 413 ; Lebedev, Essays on the Byz. East. Church, 294.*

وخلاصة ما يقال عن أعمال هذا المجمع ان بطاركة الاسكندرية وانطاكية واوروشليم دعوا الى مجمع في كنيسة الحكمة الالهية في السنة ١٤٥٠ فخلعوا غريغوريوس مماس بطريرك القسطنطينية « المليتن » وأقاموا اثناسيوس « الارثوذكسي » محله وشجبوا أعمال مجمع فلورنسة واعتبروا قراراته رجسة خبيثة مخالفة لقرارات المجامع المسكونية . ثم تقبلوا عودة التائبين من الأساقفة والكهنة والدموع ملء أعينهم .

ويفيد سكولاريوس الذي أصبح فيما بعد البطريرك المسكوني جناديوس ان خمسة مطارنة وعشرة اكليريكيين غيرهم رفعوا في تشرين الثاني سنة ١٤٥٢ بياناً الى الفسيلفس قسطنطين الحادي عشر رفضوا فيه الاعتراف بالاتحاد (١) .

المرسوم الصادر الى الارمن : وعمل البابا افجانيوس لمناسبة مجمع فلورنسة على الاتحاد مع جميع الطوائف المسيحية. وأرسل قسطنطين جاثليق الارمن في قيليقية وفداً الى فلورنسة لاعادة السلام والمحبة . فبحث المجمع أمر الارمن وأعلن البابا في الثاني والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٤٣٩ صك الاتحاد معهم . وجاء هذا الصك حاوياً أكمل عرض لتعليم كنيسة رومة بشأن الأسرار . وجاء فيه قول صريح بشأن الانبثاق والطبيعتين والمشيئتين . وفي الخامس عشر من كانون الأول منع البابا اعادة تعميد الأرمن .

الاقباط والاحباش : ووجه افجانيوس رسالة الى يوحنا بطريرك الأقباط والى نجاشي الحبشة يدعوهما الى الاتحاد . فأم فلورنسة في شهري آب وايلول سنة ١٤٤١ من فاوض مجمعها في الاتحاد . وفي الرابع من شباط سنة ١٤٤٢ أعلن البابا صكاً آخر ضمنه الاتحاد مع هؤلاء وفصل فيه موقف الكنيسة من سر الثالوث الاقدس وخلق العالم وأسفار العهدين وطبيعتي السيد المخلص وحقيقة سر الفداء وأهمية قرارات المجامع المسكونية . وتلي هذا الصك باللغتين اللاتينية والعربية .

المانويون البشناق : وفي السنة ١٤٤٣ وصل الى فلورنسة سفير توما

1) *Scholarios, G., Oeuvres Complètes, III, 188 - 163.*

ملك البشناق . فاستنكر تعاليم ماني والقول بمبدأين ازليين وصرح برغبة الملك في الانضمام الى الكنيسة .

السريان : ووصل الى رومة عبدالله مطران الرهـا . ففاوض المجمع الفلورنسي فيها . وأعلن البابا في الثلاثين من ايلول سنة ١٤٤٤ الاتحاد مع السريان وبين ما يجب الاعتقاد به ولا سيا فيا يتعلق بالطبيعتين والمشيئتين .

نساطرة قبرص وموارنتها : وكان لا يزال في قبرص نساطرة يقولون بأن السيدة العذراء ام يسوع لا والدة الاله وما ينطوي عليه هذا الكلام ويجاهرون بطبيعة واحدة لا طبيعتين . وكانوا خاضعين لاسقف اسمه تيموثاوس الطرسوسي وكان في الجزيرة ايضاً موارنة خاضعون لاسقف اسمه الياس . فأرسل افجانيوس بابا رومة اسقفاً يدعو هؤلاء الى الاتحاد . وبعد مفاوضات طويلة رضي الاسقفان بالاتحاد وأقاما لذلك حفلة خصوصية في كنيسة الحكمة الالهية القبرصية . وأرسلا مندوبين الى رومة للبحث في تفاصيل هذا الاتحاد . وفي السابع من آب سنة ١٤٤٥ أعلن البابا اتحاد هؤلاء موجباً القول بالطبيعتين والمشيئتين وغير ذلك مانعاً النساطرة من اضافة الزيت الى مادة سر الافخارستية (١) . واليك ما جاء في هذا الموضوع للمطران يوسف الدبس :

« لا ننكر ان البابا افجانيوس الرابع كتب في براءته المفتتحة تبارك الله ابو ربنا يسوع المسيح المؤرخة في سنة ١٤٤٥ عن كلامه في اندراوس رئيس اساقفة رودوس ان اندراوس هذا هدى الى الايمان القويم تيموثاوس مطران طرسوس الذي كان بقبرص وكان نسطورياً يعتقد ان في المسيح اقنومين وان العذراء لا تسمى والدة الله وانه رد الى الهدى الياس مطران الموارنة . الذي كان مع جماعته بقبرص ملوثاً بضلال مكاريوس ان في المسيح مشيئة واحدة وانه جمع هؤلاء في كنيسة القديسة صوفيا كنيسة كرسي تلك الجزيرة فاقروا بالايمان الكاثوليكي جهاراً . ثم انـه ارسل تيموثاوس المذكور والقس اسحق تلميذ الياس مطران الموارنة الى رومة فجحد تيموثاوس ضلال نسطور واسحق ضلال مكاريوس في كنيسة لاتران برومة . ولا ننكر ايضاً ان المطران الياس جحد تعليم مكاريوس واقر بالايمان الكاثوليكي في كنيسة القديسة صوفيا بقبرس وكذلك فعل تلميذه القس اسحق برومة .

« لكننا نقول ان اندراوس مطران رودوس عند بلوغه الى قبرص ومخاطبته تيموثاوس والياس الاسقفين ورؤيته انهما مستعدان للاقرار بالايمان الكاثوليكي انشأ لهما دستور الايمان الذي يلزم كلا

1) *Hofmann, G., Epist., Pont. de ultimis Actis Conc. Florent. 1440 - 1445, Roma, 1946.*

منهما ان يقرا به جهاراً وباحتفال . ولما كان يعلم ان تيموثاوس نسطوري ضمن الدستور الذي اعده له جحود بدعة نسطور ولعلمه من كتاب غوليلموس اسقف صور ان الموارنة كانوا يعتقدون بالمشيئة الواحدة ضمن الدستور الذي للمطران الياس الماروني جحود بدعة مكاريوس الذي كان مغوياً ببدعة المشيئة الواحدة فتلا كل منهما في الكنيسة الدستور الذي اعده له اسقف رودوس وكتب الى البابا اوجانيوس انه هداهما الى الايمان القويم . فاغتر البابا بما كتبه في براءته المذكورة . على ان اقرار المطران الياس لم يكن احداثاً لجحوده بل تقريراً او تجديداً له » (١) .

المجمع والادب الكنسي : وقضت ظروف الروم في الدور الاخير من تاريخهم بأن يلجأوا الى الغرب في طلب المعونة ضد الطامعين من الغرب والشرق . ورأوا ان لا مفر من استرضاء رومة واستعطافها لكثرة تدخل أحبارها في السياسة وانغماسهم فيها . فكانت محاولات لتوحيد الكنيستين فصلنا أخبارها في تضاعيف هـذا الفصل وغيره . وأثار موضوع الاتحاد قرائح رجال الكنيسة فصنفوا واختلفوا فيا بينهم .

وكان أكثر رجال الدين استعداداً لارضاء أحبار رومة يوحنا فقس او بكوس . بدأ ارثوذكسياً متمسكاً بقرارات المجامع المسكونية فاضطهده ميخائيل الثامن وحبسه . ثم قال بالاتحاد فرقي السدة البطريركيـة المسكونية وظل يدير شؤونها حتى ايام اندرونيكوس الثاني . وكان من أقدر أهل زمانه علماً وثقافة وحجة وفصاحة . وأشهر ما صنف كتابه الاتحاد والسلم بين الكنيستين . وقد حاول فيه ان يظهر وحدة العقيدة بين الكنيستين حتى ايام فوطيوس (٢) .

وحذا حذو فقس ديمتريوس قيذونس الذي عمر طويلا (١٣١٠–١٤١٠) فتعلم اللاتينية في ميلانو وقضى حياته بين تسالونيكية والقسطنطينية وكريت . وتضلع في الادب اللاتيني وتعلق بفلسفة توما الاكويني ونقله الى اليونانيـة . وقد دعاه العلامة غريغوار « ذيموستينس الاتحاد » (٣) .

١) تاريخ سورية للمطران يوسف الدبس ج ٤ ص ٥٩٩–٦٠٠ . اما فيا يتعلق بغوليليموس الصوري وقيمة شهادته فقد سبق لنا الكلام في ذلك في الفصل الحادي والاربعين فليراجع في محله .

2) *Zotos, Al. D., Ioannes Beccos, Munich, 1620 ; Grumel, V., Un Ouvrage Recent su Jean Bekkos, Echos d'Orient, 1925, 26 - 32 ; Bréhier, L., Beccos, Dict. Hist. Géog. Ecc.*

3) *Grégoire, H., L'Opinion Byzantine et la Bataille de Kossovo, Byzantion, 1931, 247 ; Cammelli, G., Démétrius Correspondance, Paris, 1930 ; Jugie, M., Démétrius Cydones et la Théol. Lat., Echos d'Orient, 1928, 385 - 402 ; Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 694 - 695.*

واشتهر في الدفـــاع عن الاتحاد الانسني بيساريون . ولد في طرابزون حوالي السنة ١٣٩٥ وأم القسطنطينية لمتابعة دروسه ثم أنهاها في ميسترة في المورة على يــد بليثون الفيلسوف . وأصبح رئيس أساقفة نيقية فرافق يوحنا الثامن الى مجمع فراري فلورنسة فقال بالاتحاد وأمسى منذ الخامس عشر من كانون الاول سنة ١٤٣٩ مـــع زميله أسيدورس رئيس أساقفة كيف كردينالا في الكنيسة اللاتينية . وأشهر ما كتب في الاتحاد دفاعه عن فقس ضد هجات بلاماس ورده على مرقس رئيس أساقفة افسس . وتوفي في رابينة في السنة ١٤٧٢ (١) .

وتولى السدة البطريركية المسكونية غريغوريوس القبرصي في السنة ١٤٨٩ فجادل فقس وصنف في « الايمـــان » وفي « الانبثاق » . وكان خطيباً مفوهاً وكاتباً كبيراً فألف في اللغـــة والأدب وخلف رسائل كثيرة هي من أكثر المراجع فائدة (٢) .

وأشد الأرثوذكسيين تمسكاً بالمجامع المسكونية وأقواهم شكيمة مرقس افجانيكوس رئيس أساقفة افسس وممثل الكرسي الانطاكي . حضر مجمع فراري فلورنسة فعارض وأبى ان يوقع قراراته . وعاد الى القسطنطينية ينادي بالمحافظة على العقيدة الرسولية وعلى تنظيم الكنيسة كما أقرتها المجامـــع المسكونية . وأشهر ما صنف سبعة وخمسين فصلا في نقد العقيدة اللاتينية وكتب عدداً من الرسائل في الرد على بيساريون وخلف بعض مراسلات له (٣) .

واشتهر في حقلي اللاهوت والفلسفة جاورجيوس سكولاريوس الذي أصبح فيما بعد البطريرك المسكوني جناديوس اول بطريرك مسكوني في عهـــد الاتراك العثمانيين . واشترك سكولاريوس في أعمال مجمع فراري فلورنسة ولكنه لم يوقع قراراته وعاد الى القسطنطينية يدافع عن التقليد الأرثوذكسي بخطبـــه

1) *Vast, H., Le Cardinal Bessarion, Paris, 1878 ; Mohler, L., Kardinal Bessarion als Theologe, Humanist und Staatsmann, Funde und Forschungen I. Darstellungen, Paderborn, 1923 ; Brehier, L., Bessarion, Dict. Hist. Geog. Ecc., 1935, Col. 1181 - 1199.*

2) *Lameere, W., Tradition Manuscrite de la Corresp. de Grégoire de Chypre Bruxelles - Rome, 1937 ; Cayré, F., Georges de Chypre, Dict. Théol. Cath., VI, Col. 1231 - 1235.*

3) *Petit, L., Marc Eugenicos, Dict. Theol. Cath., IX, 1968 - 1986 ; Grumel, V., Mavc d'Ephèse, Estudis Franciscanes, 1925, 425 - 448.*

ورسائله ومصنفاتـــه . وجادل بليثون الفيلسوف في موضوع ارسطو وافلاطون فأيد الاول تأييداً كبيراً وخلف مما خلف كتاباً أسماه « المراثي » ضمنه معلومات مفيدة لتاريـــخ الكنيسة الأرثوذكسية في أول عهـــد الاتراك العثمانيين في القسطنطينية (١) .

مجمع القسطنطينية : (١٤٨٤) ودالت دولـــة الروم واستولى الاتراك العثمانيون على جميع ابرشيات البطريركية المسكونية . وخشي الاتراك مطامع الدول الغربية واستفزازات رومة وتحريضها فأيدوا الانفصال بين الكنيستين الكبريين وعارضوا التفاهم والاتحاد . وظلت رومة متشبثة بموقفها من نقاط الاختلاف بينها وبين كنائس الشرق مطالبة بالخضوع لهـــا في العقيدة والادارة فاشتد النفور وزاد الشقاق .

وفي السنة ١٤٨٤ دعا سمعان الطرابزوني البطريرك المسكوني الى مجمع في القسطنطينية للبحث في موقف الكنائس الارثوذكسية من كنيسة رومة ومن أبنائها الذين يطلبون العودة الى حضن الكنائس الارثوذكسية . فلبى الدعوة كل من بطريرك الاسكندرية وبطريرك انطاكيـــة وبطريرك اوروشليم . واعتبر المجمع قرارات فراري فلورنسة ملغاة لا قيمة لها . ثم اتخذ قراراً بشأن عودة اللاتين الى حضن الكنيسة الارثوذكسية فأوجب على هؤلاء نبذ قرارات مجمع فلورنسة وتغليط كنيسة رومة في تقديم بطرس على سائر الرسل وفي تقدم خلفائه اساقفة رومـــة وفي امر العصمة . وأوجب المجمع ايضاً اعادة تثبيت هؤلاء بسر الميرون (٢) .

* * *

1) *Petit, L., Oeuvres Complètes de Gennade Scholarios, 8 Vols., Paris, 1928 - 1936 ; Jugie, M., Georges Scholarios, Studi Byzantini, 1939, 482 - 494.*

2) *Rhallis et Politis, Suntagma, V, 143 - 147 ; Petit, L., Entrée des Catholiques dans l'Eglise Orthodoxe, Echos d'Orient, 1896, 129 - 131.*

الفهارس

سلسلة البطاركة (٦٣٤-١٥١١)

الفهرست الهجائي

سلسلة البطاركة

٦٣٤ ـ ١٥١١

٦٣ : مقدونيوس ٦٢٨ ـ ٦٣١
٦٤ : اثناسيوس الجمال ٦٣١
٦٥ : مقدونيوس ٦٣٢ ـ ٦٤٠
٦٦ : جاورجيوس الاول ٦٤٠ ـ ٦٥٥
٦٧ : مكاريوس ٦٥٦ ـ ٦٨١
٦٨ : ثيوفانس الاول ٦٨١ ـ ٦٨٧
٦٩ : سباستيانون او اسطفانوس الثالث ٦٨٧ ـ ٦٩٠
٧٠ : جاورجيوس الثاني ٦٩٠ ـ ٦٩٥
٧١ : الكسندروس الثاني ٦٩٥ ـ ٧٠٢ ؟
٧٢ : اسطفانوس الرابع ٧٤٢ ـ ٧٤٨
٧٣ : ثيوفيلاكتوس (ابن قنبرة) ٧٤٨ ـ ؟
٧٤ : ثيوذوروس الاول ٧٦٧ ـ ٧٨٧
٧٥ : يوحنا الرابع ٧٩٨ ـ ٨١١
٧٦ : ايوب الاول ٨١١ ـ ٨٢٦
٧٧ : نقولاوس الاول ٨٢٦ ـ ٨٣٤
٧٨ : سمعان الاول ٨٣٤ ـ ٨٤٠
٧٩ : الياس الاول ٨٤٠ ـ ٨٥٢
٨٠ : ثيودوسيوس الاول ٨٥٢ ـ ٨٦٠
٨١ : نقولاوس الثاني ٨٦٠ ـ ٨٧١
٨٢ : اسطفانوس ؟ ٨٧١
٨٣ : نقولاوس الثاني ٨٧١ ـ ٨٧٩
٨٤ : ميخائيل الاول ٨٧٩ ـ ٨٩٠
٨٥ : زخريا ٨٩٠ ـ ؟
٨٦ : جاورجيوس الثالث ٩٠٢ ـ ٩١٧
٨٧ : أيوب الثاني ٩١٧ ـ ٩٣٩
٨٨ : افستراتيوس ٩٣٩ ـ ٩٦٠
٨٩ : خريستوفوروس الاول ٩٦٠ ـ ٩٦٦
٩٠ : ثيوذوروس الثاني ٩٦٦ ـ ٩٧٧
٩١ : اغابيوس الاول ٩٧٧ ـ ٩٩٥
٩٢ : يوحنا الخامس ٩٩٥ ـ ١٠٠٠
٩٣ : نقولاوس الثالث ١٠٠٠ ـ ١٠٠٣
٩٤ : الياس الثاني ١٠٠٣ ـ ١٠١٠
٩٥ : جاورجيوس الرابع (لاسكارس) ١٠١٠ ـ ١٠١٥
٩٦ : مكاريوس الاول الفاضل ١٠١٥ ـ ١٠٢٣
٩٧ : الفثيريوس التقي ١٠٢٣ ـ ١٠٢٨
٩٨ : ثيودوروس الثالث (جرجس) ١٠٣٤ ـ ١٠٤٢
٩٩ : باسيليوس الثاني ؟
١٠٠ : بطرس الثالث ؟ ـ ١٠٥٦
١٠١ : يوحنا السادس ١٠٥٧ ـ ١٠٦٢
١٠٢ : اميليانوس ١٠٦٢ ـ ١٠٧٥
١٠٣ : ثيوذوسيوس الثاني ١٠٧٥ ـ ١٠٨٤
١٠٤ : نيقيفوروس الاول ١٠٨٤ ـ ١٠٨٨
١٠٥ : يوحنا السابع ١٠٨٨ ـ ١١٠٦
١٠٦ : يوحنا الثامن ١١٠٦ ـ ١١٣٧
١٠٧ : لوقا الاول ١١٣٧ ـ ١١٥٥
١٠٨ : يوحنا التاسع ١١٥٥ ـ ١١٥٩
١٠٩ : افتيميوس الاول ١١٥٩ ـ ١١٦٤
١١٠ : مكاريوس الثاني ١١٦٤ ـ ١١٦٦
١١١ : اثناسيوس الاول او الثاني ١١٦٦ ـ ١١٨٠

١١٢ : ثيودوسيوس الثالث ١١٨٠ ـ ١١٨٢
١١٣ : الياس الثالث ١١٨٢ ـ ١١٨٤
١١٤ : خريستوفوروس الثاني ١١٨٤ ـ ١١٨٥
١١٥ : ثيوذوروس الرابع (بلسامون) ١١٨٥ ـ ١١٩٩
١١٦ : يواكيم الاول ١١٩٩ ـ ١٢١٩
١١٧ : دوروثيوس الاول ١٢١٩ ـ ١٢٤٥
١١٨ : سمعان الثاني ١٢٤٥ ـ ١٢٦٠
١١٩ : افتيميوس الثاني ١٢٦٠ ـ ١٢٦٩
١٢٠ : ثيوذوسيوس الرابع ١٢٦٩ ـ ١٢٧٦
١٢١ : ثيوذوسيوس الخامس ١٢٧٦ ـ ١٢٨٥
١٢٢ : ارسانيوس الاول ١٢٨٥ ـ ١٢٩٣
١٢٣ : ذيونيسيوس الاول ١٢٩٣ ـ ١٣٠٨
١٢٤ : مرقس الاول ١٣٠٨ ـ ١٣٤٢
١٢٥ : اغناطيوس الثاني ١٣٤٢ ـ ١٣٥٣
١٢٦ : ميخائيل الثاني ١٣٥٣ ـ ١٣٨٦
١٢٧ : باخوميوس الاول ١٣٨٦ ـ ١٣٩٣
١٢٨ : نيلوس الاول ١٣٩٣ ـ ١٤٠١
١٢٩ : ميخائيل الثالث ١٤٠١ ـ ١٤١٠
١٣٠ : باخوميوس الثاني ١٤١٠ ـ ١٤١١
١٣١ : يواكيم الثاني ١٤١١ ـ ١٤٢٦
١٣٢ : مرقس الثاني ١٤٢٦ ـ ١٤٣٦
١٣٣ : ذوروثيوس الثاني (ابن الصابوني) ١٤٣٦ ـ ١٤٥٤
١٣٤ : ميخائيل الرابع (ابن الماوردي) ١٤٥٤ ـ ١٤٦٢
١٣٥ : مرقس الثالث ١٤٦٢ ـ ١٤٧٦
١٣٦ : يواكيم الثالث ١٤٧٦ ـ ١٤٨٣
١٣٧ : غريغوريوس الثالث ١٤٨٣ ـ ١٤٩٧
١٣٨ : ذوروثيوس الثالث ١٤٩٧ ـ ١٥١١

* * *

الفهرست الهجائي

— أ —

— ن —

— هـ —

— و —

— ي —

المطبعة البولسيّة
شارع القدّيس بولس - جونيه
ص.ب: ١٢٥ - جونيه (لبنان)
هاتف: ٩١١٥٦١-٩٣٣٠٥٢-٩٣١٦٩٩

EDITION
1988

*

Editions de la LIBRAIRIE St. PAUL

* Beyrouth - Rue du Liban
B.P. 11 - 4459
Tél.: 444973 - 448806 - 449801

* Jounieh - Rue St. Paul
B.P. 125 (LIBAN)
Tél.: 911.561 - 933.052

**ASAD
RUSTUM
21**

THE CHURCH OF THE CITY OF GOD GREAT ANTIOCH

BY

Asad J. Rustum, M.A., PH. D.

Historian to the Apostolic Thronos of Antioch

« Εἰς μίαν, ἁγίαν, καθολικὴν καὶ ἀποστολικὴν Ἐκκλησίαν »

VOL. II

634 — 1453 A.D.

EDITIONS ST. PAUL
BEYROUTH & JOUNIEH
(LIBAN)